دانييل ديفو

يوميات عام الطاعون



ترجمة : ناصر مصطفى أبو الهيجاء

دانييل ديفو

يوميات عام الطاعون

ترجمة

ناصر مصطفى أبو الهيجاء

مراجعة

فايز الجولاني أحمد خريس

PR3404 .J6125 2021

Defoe, Daniel, 1660- 1731

يوميات عام الطاعون / تأليف دانييل ديفو ؛ ترجمة ناصر مصطفى أبو الهيجاء ؛ مراجعة فايز الجولاني، أحمد خريس. ـ ط. 1. ـ أبوظبي : دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2021.

ترجمة كتاب: A Journal of the Plague Year

تدمك: 978-9948-33-٠٣٢-٥

1- الطاعون- بريطانيا. 2- لندن- تاريخ- القرن السابع عشر. أ- أبو الهيجاء، ناصر مصطفى.

ب- جولاني، فايز. ج- خريس، أحمد. د- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:

A Journal of the Plague Year by Daniel Defoe, 1722





يوميات عام الطاعون

جرى ذلك في مطالع أيلول من عام 1664م، حين تناهى إليَّ، شأني كشأن غيري من الجيران، ما سَرى في الأحاديث المعتادة منْ أنَّ الطاعون عاد إلى هولندا مِن جديد؛ ذلك أنَّ وطأته كانت شديدة هناك في العام السالف، ولاسيَّما في «**أمستردام**» و«**روتردام**». وقد جاء، كما شاع لدى بعض الناس، من إيطاليا، أو أنه تسلَّل، مثلما ذهب آخرون، من بلاد الشام عبر بضائعهم التي جلبوها إلى أرض الوطن على مَتْنِ السفن التركية، أو أنَّ مصدره «**كانديا**»[1]، تبعاً لما حدَّث به فريق ثالث، أو قبرص مثلما رأت طائفة أخرى. ولا تحظى أيٌّ من تلك الروايات عن بؤرة المرض بأهمية تُذكر، وما يهم أنهم أجمعوا على أنَّ الطاعون نزل بهولندا كَرَّة أخرى.

ولم نتوفر في تلك الأيام على أشياء مثل الصحف الورقية التي تبثُّ الشائعات والتقارير، وتعمل على بَهْرَجتها، بما يخترعه الصحفيون، مثلما عشت لأشهد ذلك بنفسي.

أمَّا ما يتعلق بـ «**الماجَرَيات**[2]» التي تُلتقط من رسائل التجار وغيرها من رسائل المغتربين، ثم يجري تداولها على ألسنة الناس، فإنَّها لم تنتشر فوراً في أرجاء البلد، وهذه هي حال الأمر الآن. وعلى الرغم من أن الأخبار لم تَطُفْ في أرجاء البلاد، فإن الحكومة، فيما يبدو، امتلكت رواية صحيحة عن الطاعون، وعقدت غير اجتماع يبحث في طرائق الحَدِّ من تحوُّله إلى جائحة، غير أنَّ ذلك كلَّه ظلَّ مُستتراً. وهكذا، ما لبثت الشائعة أنْ خَبَتْ، وتجاهلها الناس كما لو كانت شأناً لا يَمَسُّنا، فضلاً عما جال في أنفسنا من أمل بأنَّها خبر زائف. وظلَّ الأمر على هذه الحال حتى نهايات تشرين الثاني أو الفاتح من كانون الأول من عام 1664، حين مات بالطاعون رجلان، قيل إنهما فرنسيان، في جادَّة «**لونغ آكر**»، أو بالأحرى جادَّة «**دروري-لين، لندن**». وقد سعت العائلة التي قطنت المكان إلى كتمان ذلك بشتى السُّبل. ولكنْ، لـمَّا تسرَّب شيء من ذلك عبر أحاديث الجيران، بلغ الأمر إلى وزراء الدولة فعمدوا إلى التحققُّ بأنفسهم من الأمر، موعزين إلى طبيبَيْن وجرَّاح بالتوجه إلى المنزل لفحصه واستجلاء الأمر. وإذ قاموا بذلك وعثروا على علامات دالَّة على وجود المرض في كلتا الجثتين، فإنَّهم أعلنوا عن آرائهم، ومؤداها أن كلا الشخصين مات بالطاعون، وسُلِّمت إفادتهم من ثَمَّ إلى موظف الشؤون الإدارية بالأبرشيَّة الذي سلَّمها، بدوره،

إلى مجلس المدينة قبل أن تُطبع في قائمة الوفيات الأسبوعية مثلما جرت العادة، هكذا:

الطاعون، 2. الأبرشيَّات المصابة، 1.

وقَدْ أبدى الناس اهتماماً بالغاً، وسرى القلق في أرجاء البلدة، ولاسيَّما حين شهد الأسبوع الأخير من كانون الأول لعام 1664م، وفاةَ رجل آخر في المنزل ذاته بأثر من الدَّاء عَيْنِه، ثمَّ سكنت الأنفس من جديد نحواً من ستة الأسابيع، عندما لم تظهر علامات العدوى على أيٍّ من المتوَفِّين، وقيل حينها إنَّ الداء قد اختفى. ولكنْ وقعت، في الثاني عشر من كانون الأول فيما أحسب وفاة في منزل آخر، في الأبرشيَّة ذاتها، وبالطريقة نفسها.

انصرفت أعين الناس إلى ذلك المكان الواقع في أطراف المدينة، وقد أظهرت القوائم الأسبوعية زيادة غير اعتيادية في معدل الوَفَيات في أبرشيَّة «**سانت جايلز**»، وبدأ الشك يُساور القائمين على الشأن العام أنَّ الطاعون حلَّ بين الناس في طرف المدينة، وأنَّ خلقاً كثيراً قضوا بسببه. ومع ذلك، حَرصوا أشدَّ الحرص، باذلين وسعهم، للحيلولة دون اطلاع الناس على تلك الأنباء. وقد استحوذ الخوف على عقول الناس، وتجنَّب معظمهم جادَّة «**دروري لين**»، أو غيرها من الطرق التي أُشيع بأن العدوى لحقتها، ما خلا قلَّةً من الناس دفعتهم الحاجة الملحة للذهاب إلى هناك. وتبدَّت الزيادة في قوائم الوفيات على النحو التالي: كان العدد الاعتيادي للوفيات أسبوعياً، في كلٍّ من أبرشيَّتيْ: «**سانت جايلز-إنْ-ذي-فيلدز**»، و«**سانت آندروز هلبورن**»، ما بين اثنتي عشرة (12) إلى سبع عشرة (17) أو تسع عشرة (19) وفاة؛ تَنقص عن ذلك أو تزيد قليلاً. لكنْ، حين حلَّ الطاعون بداية في أبرشيَّة «**سانت جايلز**»، لوحظ أنَّ معدل الوفيات الاعتيادي زاد زيادة كبيرة، وفيما يلي جدول يُجلِّي هذه الحقيقة:

التاريخ		أبرشيَّة	
من	إلى	سانت جايلز	سانت أندرو

27 كانون أول	3 كانون ثاني	16 وفاة	17 وفاة
3 كانون ثاني	10 كانون ثاني	12 وفاة	25 وفاة
10 كانون ثاني	17 كانون ثاني	18 وفاة	18 وفاة
17 كانون ثاني	24 كانون ثاني	23 وفاة	16 وفاة
24 كانون ثاني	31 كانون ثاني	24 وفاة	15 وفاة
31 كانون ثاني	7 شباط	21 وفاة	23 وفاة
7 شباط	14 شباط	24 وفاة	بما فيها الطاعون

الجدول الأول

وقد لوحظت زيادة شبيهة بقوائم الوفيات في أبرشيَّتيْ: «**سانت برايدز**»؛ المتصلة بإحدى الجهات بأبرشيَّة «**هلبورن**»، وأبرشيَّة «**سانت جيمس كليرْكِنْوِل**»، المتصلة من الجهة الأخرى بأبرشيَّة «**هلبورن**». وتراوح عدد الوفيات المعتاد في كلِّ واحدة من هاتين الأخيرتين من أربع وفيات إلى ستٍّ أو ثمانٍ، في حين ارتفع العدد في ذلك الوقت على النحو التالي:

التاريخ		الأبرشيَّة
من	إلى	سانت برايد سانت جيمس

20 كانون أول	27 كانون أول	لا وفيات	8 وفيات
27 كانون أول	3 كانون ثاني	6 وفيات	9 وفيات
3 كانون ثاني	10 كانون ثاني	11 وفاة	7 وفيات
10 كانون ثاني	17 كانون ثاني	12 وفاة	9 وفيات
17 كانون ثاني	24 كانون ثاني	9 وفيات	15 وفاة
24 كانون ثاني	31 كانون ثاني	8 وفيات	12 وفاة
31 كانون ثاني	7 شباط	13وفاة	5 وفيات
7 شباط	14 شباط	12وفاة	6 وفيات

الجدول الثاني

وفضلاً عن ذلك، فقد لاحظ الناس بقلق بالغ أنَّ قوائم الوفيات الأسبوعية، عامَّة، تعاظمت خلال تلك الأسابيع على الرغم من أن معدل الوفيات معتدل، عادةً، في مثل هذا الوقت من السنة.

وقد تراوح الرقم المعتاد للجنائز ضمن قوائم الوفيات في الأسبوع الواحد من مئتين وأربعين (240) وفاة، أو ما يقرب من ذلك، إلى ثلاثمئة (300) وفاة. وقد

عُدَّ الرقم الأخير عالياً بصورة ما، لكننا نجد بعد هذه الإحصائية الأخيرة أنَّ معدل الوفيات في قوائم الموتى يزداد باطِّراد على النحو التالي:

التاريخ		الوفيات	الزيادة
من	إلى		
20 كانون أول	27 كانون أول	291 وفاة	لا زيادة
27 كانون أول	3 كانون ثاني	349 وفاة	58 وفاة
3 كانون ثاني	10 كانون ثاني	394 وفاة	45 وفاة
10 كانون ثاني	17 كانون ثاني	415 وفاة	21 وفاة
17 كانون ثاني	24 كانون ثاني	474 وفاة	59 وفاة

الجدول الثالث

وقد كانت الإحصائية الأخيرة مثيرة للفزع حقاً، لكون حصيلتها من الوفيات تزيد بكثير عما شهده أيُّ أسبوع آخر، منذ جائحة الوباء الأولى عام 1656م.

ومهما يكن منْ أمر، فقد خمد الوباء من جديد، وأظهر الطقس برودة شديدة، وبقي الجليد الذي بدأ في كانون الأول حتى أواخر شباط تقريباً. وكانت شدَّته مصحوبةً بريحٍ صَرْصَر لكنَّها مُعتدلة. وانخفضتِ الوفيات مُجدَّداً، وتعافَتِ

البلدة، وأمسَى الخطر بالنسبة إلى الناس خبراً مضى وانقضى؛ لا تشذُّ عن ذلك إلا أبرشيَّة «**سانت جايلز**» التي بقي معدَّل الوفيات فيها عالياً. واستقرَّ العدد من أوائل نيسان، تحديداً، عند خمس وعشرين (25) وفاة أسبوعياً قبل أن يحلَّ الأسبوع الموافق للفترة بين يومي (18) و (25)، حينما دُفن في أبرشيَّة «**سانت جايلز**» ثلاثون (30) شخصاً، قضى اثنان منهم بالطاعون، وثمانية بالحُمَّى المبقَّعة التي تساوت لديهم بالطاعون. وعلى النحو ذاته، تزايدت أعداد مَن مات بالحمَّى القلاعيَّة في الأبرشيَّات جميعها، إذ بلغت اثنتي عشرة (12) وفاة، في الأسبوع المذكور أعلاه، بعد أنْ كانت ثماني وفيات في الأسبوع الذي سلفه؛ ما أثار الجزع فينا من جديد، وفَشَتْ مخاوف رهيبة بين الناس، ولاسيَّما أنَّ الطقس قد تغيَّر وغدا دافئاً، وبدت علائم الصيف في الأفق. ومع ذلك، لاحت بعض الآمال في الأسبوع التالي مرَّةً أخرى حين انخفض معدل الوفيات، بالغاً في مجمله ثلاثمئة وثماني وثمانين (388) وفاة، دون أنْ يتسبب الطاعون بأيٍّ منها، ولم تكن فيها سوى أربع وفيات بسبب الحُمَّى المبقَّعة.

غير أنَّ الوباء عاد مُجدَّداً في الأسبوع التالي، وانتشر في أبرشيَّتين (أو ثلاث)، وهما: أبرشيَّة «**آندروز هلبورن**»، وأبرشيَّة «**سانت كليمنتس داينز**». وما زاد الطين بِلَّة، أنَّ أحد الأشخاص هلك داخل أسوار أبرشيَّة «**سانت ماري-وول-تشيرتش**»، الأمر الذي يعني أنه مات في جادَّة «**بير بايندر-لاين**» قريباً من سوق المواشي واللحوم. وتأدَّى عن ذلك تسع وفيات بالطاعون، من إجمالي الوفيات، فضلاً عن ستَّة آخرين ماتوا بالحمى المبقَّعة.

ومهما يكن من أمر، فقد انتهى الاستقصاء الحكومي إلى أنَّ الرجل الفرنسي الذي تُوُفِّيَ في جادَّة «**بير بايندر-لاين**»، وكان يقطن في جادَّة «**لونغ آكر**» بجوار المنازل الموبوءة، رحل عن هذه الأخيرة دون أنْ يدري أنه مُصاب أصلاً.

جرى ذلك في أوائل آذار، لكنَّ الطقس كان مُعتدلاً ومُتقلِّباً وبارداً بدرجةٍ كافية، ومازال لدى الناس بعضُ الآمال. وكان ما بثَّ الشجاعةَ فيهم أنَّ المدينةَ في وضع صحِّي جيد؛ فقد بلغ عدد الوفيات أربعاً وخمسين (54) وفاة في جميع الأبرشيَّات البالغة سبعاً وتسعين (97) أبرشيَّة. وبدأنا نأمل في أنَّ الوباء قد لا يذهب أبعد من ذلك استناداً إلى أنَّ المرض لم يكن موجوداً، أساساً، إلا بين الذين يقطنون الطرف القصيَّ من المدينة. وقد تعزَّز هذا الأمل، لأنه لم يهلك بالطاعون في الأسبوع التالي، الواقع بين يومي (9) و (16) من آذار، سوى ثلاثة أشخاص، لم يكن أيٌّ منهم من المدينة أو المناطق الإدارية. ولم تشهد أبرشيَّة «**سانت أندروز**» سوى خمس عشرة (15) جنازة، وهو رقم منخفض جدَّاً. ومن الصحيح أنَّ أبرشيَّة «**سانت جايلز**» شهدت ثنتين وثلاثين (32) جنازة، لكنَّ أَنْفُسَ الناس هدأت، لأن هذه الوفيات لم تحدث بسبب الطاعون، ما خلا وفاةً

واحدة. فضلاً عن أنَّ القائمة الإجمالية كانت منخفضة، فقد بلغ تعداد الوفيات في الأسبوع الذي سبقها ثلاثمئة وسبعاً وأربعين (347) وفاة، وبلغ في الأسبوع المذكور آنفاً ثلاثمئة وثلاثاً وأربعين (343) وفاة. لكن آمالنا ظلَّت حيَّةً لبضعة أيام فقط. فما عاد من الممكن خداع الناس بعد أنْ فتَّشوا البيوت وألْفَوا الطاعون وقد انتشر، فعلاً، في كُلِّ مكان، وأنَّ عدداً من الناس ماتوا، يومياً، بسببه.
وهكذا، انحسرت آمالنا وبات من غير الممكن، بعد ذلك، التعمية على الحقائق، بل ما لبث أنْ شاع أنَّ العدوى قد سَرَتْ، وتجاوزت كلَّ أملٍ بالانحسار، وأنَّها انتشرت في غير جادَّة من جادَّات أبرشيَّة «**سانت جايلز**»، وأنَّ عائلاتٍ عديدةً تضطجع، جنباً إلى جنب، طريحة المرض. وبدأت الحقائق، استتباعاً، تُعلن عن نفسها في الأسبوع التالي مُتجلِّيةً في قائمة الوفيات. وفي واقع الأمر، لم يجر تسجيل سوى أربع عشرة (14) حالة قضت بالطاعون، لكنَّ ذلك كلَّه ضربٌ من الاحتيال والتدليس، فقد دُفن في «**أبرشيَّة جايْلز**» ما مُجمله أربعون (40) شخصاً مات معظمهم، يقيناً، بالطاعون. وعلى الرغم من أنَّ الحالات نُسبت إلى غيره من الأمراض، ومع أنَّ عدد الوفيات لم يتعدَّ ثنتين وثلاثين (32) حالة، وأنَّ مجمل الوفيات في أنحاء المدينة جميعها لم يتجاوز ثلاثمئة وخمساً وثمانين (385) حالة، فإنه كان هناك أربع عشرة (14) حالة أخرى قُيِّدت تحت خانة الحُمَّى المبقَّعة، وسُجِّلت أربع عشرة (14) حالة أخرى تحت خانة الطاعون؛ ما جعلنا نجزم أنَّ خمسين (50) ماتوا مَطعونين [3] في ذلك الأسبوع.

وكانت القائمة التالية، المؤرخَّة من (23) إلى (30) آيار، قد تضمَّنت سبع عشرة (17) وفاة بالطاعون. بيد أن عدد الوفيات بلغ في أبرشيَّة «**سانت جايلز**» ثلاثاً وخمسين (53) جنازة، وهو رقم مثير للفزع قُيِّدت منه تسع حالات فقط بوصفها وفيات تسبَّب بها الطاعون. غير أنَّ فحصاً أكثر صرامة كَلَّف به عمدةُ المدينةِ مجموعةً من قُضاة الصلح أظهرَ أنَّ ثمَّةَ عشرين (20) آخرين قضوا مطعونين في الأبرشيَّة ذاتها لكنَّها عُزِيَتْ إلى الحُمَّى المبقَّعة أو غيرها مِن الأسقام، فضلاً عمَّا عُمِّي عليها مِنْ أسباب أخرى.

لكنَّ هذه الحادثات بدتْ من صغائر الأمور بالنسبة إلى ما أعقبها مباشرة، فقد بدأ الصَّيْف حينها يشتدُّ، وأخذت العدوى تنتشر في أوَّل أسبوع من أسابيع حزيران، بصورة مُفزعة، وارتفعت أعداد الوفيات. وبدأ الحديث يتزايد حول الحمَّى، والحمى المبقَّعة، وأمراض الأسنان وما يرافقها من وفيات. ولم يَتوانَ كُلُّ مَن استطاع إخفاء ما ألمَّ به مِن مُراضات عن فِعل ذلك اتِّقاء النبذ الاجتماعي أو انصراف الناس عن مُخالطتهم، وللحؤول، كذلك، دونَ إغلاقِ السلطةِ الحاكمةِ مَنازِلَهم؛ ما خلق لديهم حالة من الفزع والهلع لمجرد التفكير به، ولو أنَّ هذا الأخير أخذ صفة تَوعُّدية لا إجرائيَّة.

وفي الأسبوع الثاني من شهر حزيران، دفنت أبرشيَّة «**سانت جايلز**»، التي مازالت مركز الوباء، مئةً وعشرين (120) جنازة. وعلى الرغم مِن أنَّ سجلات الوفيات توثِّق لِسِتٍّ وثمانين (86) حالة وفاة بالطاعون، فإنَّ الناس، جُملةً، يؤكِّدون تجاوز الرقم الحقيقي لمئة (100) وفاة، نظراً إلى أعداد جنائز الأبرشيَّة، كما أوردنا في الجدول الأخير.

وقد دُفنت في الأسبوع الثاني من حزيران مئة وعشرون (120) جثَّة في أبرشيَّة «**سانت جايلز**» التي مثَّلت، حتى تلك اللحظة، الحاضنة الأكبر للوباء. على الرغم منْ أنَّ القوائم لم تتحدَّث إلا عن ثمانٍ وستين (68) وفاة بالطاعون، في حين تحدَّث الجميع عن مئة (100) وفاة على أقل تقدير، وذلك عبر إحصائهم عددَ الجنازات المعتاد في تلك الأبرشيَّة، كما هو مُبيَّن آنفاً. وقد بقيت المدينة خُلواً من الإصابات طوال هذا الأسبوع، إذْ لم تسجَّل أيُّ وفاة، ما خلا ذلك الرجل الفرنسي الذي ذكرته من قبل، وذلك ضمن الأبرشيَّات السبع والتسعين (97) جميعها. أما حينئذ، فقد دفن أربعة ضمن حدود المدينة، واحد منهم في جادَّة «**وُدْ**» (Wood)، وواحد في جادَّة «**فِنْ تشرْتْش**» (Fenchurch)، واثنان في «**كروكْدْ-لين**». أما «**ساوْث وورك**»، فلم تشهد وفاة واحدة، إذ لم يمُت أحدٌ على هذا الجانب من النهر.

كنت أعيش خارج «**ألد غيت**»، في منتصف الطريق، تقريباً، بين كنيسة «**ألد غيت**» و«**وايتْ-تشابلْ-بارز**»، على الجهة الشماليَّة من الشارع. وفي حين لم يبلغ الوباء ذلك الجزء من المدينة، فإنَّ ناس منطقتنا ظلَّوا مطمئنين. غير أن الناس الذين استوطنوا الجانب الآخر من المدينة تملَّكهم الفزع والذعر، ما حدا بالأثرياء منهم، ولاسيَّما من طبقتي النبلاء والأشراف في الجزء الغربي من لندن، إلى الخروج أفواجاً رفقةَ عوائلهم وخدمهم، على نحو غريب. وقد شوهد ذلك، بصفة خاصَّة، في «**وايت تشابل**»، أيْ في جادَّة «**بروست**»، حيث كنت أقيم. وفي واقع الأمر، لم يكن ثمَّة ما يمكن أنْ تقع عليه العين سوى المركبات والعربات المزدحمة بالبضائع والنساء والخدم والأطفال، ... وما إلى ذلك.

وكانت عربات الأحصنة، ذوات العجلات الأربع التي يقودها الخيَّالة وتمتلئ بالناس المرموقين، تغذُّ المسير هروباً من المدينة، ثم برزت، إثر ذلك، العربات العادية الفارغة، ومزيد من الأحصنة والخدم. ومن الواضح أنها عادت، أو أُرسلت من الأرياف لجلب المزيد من الناس. يلحق بذلك عددٌ لا يُحْصى من الرجال المغادرين على ظهور الخيل، وكان بعض هؤلاء يُغادر مُنفرداً، وبعضهم مصحوباً بخدمه. وكانوا، عامَّة، مُحمَّلين بالأمتعة ومُتأهِّبين للسفر، كما يمكن للمرء أنْ يلحظ مِن مظهرهم. وقد مثَّل ذلك مشهداً مُريعاً وموحشاً للغاية. وإذ لم أستطع أنْ أشيح ببصري عنه، طوال النهار حتى هبوط الظلام؛ ذلك أنَّه لم

يكن هناك ما يمكن أنْ تتسمَّر العين عنده في تلك اللحظة عدا ذلك المشهد، فقد ملأني بالهواجس الرهيبة حيال البؤس القادم بخُطى حثيثة لِيَجْثُم على المدينة، فضلاً عن الحال التعسة التي ستحيق بمَن يتخلَّفون فيها.

وكانت هذه حال الناس في لهفتهم واستعجالهم للخروج، التي امتدَّت بضعةَ أسابيع، إلى درجة أنَّ من العسير الوصول إلى باب عمدة المدينة دون تجشُّم الكثير من الصعاب، فقد كان هناك تدافُع وتزاحُم على باب عمدة المدينة للحصول على تصاريح وشهادات صحيَّة بُغْيَةَ الارتحال خارج المدينة، فما كان من المسموح اجتياز البلدات التي يمرُّ بها المسافر مِن دون هذه التصاريح والشهادات، بل لم يكن مِن المتاح الإقامة في نُزُل مِن دون هذه الأخيرة. ولكنْ، لـمَّا كانت نسبة الوفيات بالطاعون معدومةً في المدينة طوال هذا الوقت، فإنَّ سيِّدي العمدة منح الشهادات الصحية بكلِّ يُسْرٍ لجميع مَنْ قطن في الأبرشيَّات، فضلاً عمَّن كان يعيش في الدوائر المحلية المحيطة لفترة من الوقت.

وامتدَّتْ حالةُ الهرج لعدَّة أسابيع، أي طوال شهري نيسان وحزيران، بعد إشاعة أنَّ الحكومة بصدد استصدار قرار بوضع حواجز على الطريق لمنع الناس من السفر، وأنَّ البلدات الواقعة عليها لن تسمح بعبور سكان لندن خشية أنْ يحمل هؤلاء العدوى إليهم؛ وذلك على الرغم مِن أنَّ هذه الشائعات كانت بلا أساس ولم توجد إلا في مخيِّلة الناس، ولاسيَّما أول الأمر.

وسأعمد إلى تدوين هذا الشأن على نحو تفصيليٍّ، فقد يَختبرُ هذه اللحظة مَنْ يأتون بعدي ممَّن قد تمسُّهم المحنةُ ذاتها، وممَّن يجدون أنفسهم، ربَّما، في الموقف ذاته فيما خصَّ خياراتهم. وعليه، فإنِّي أرغب أنْ تعرف هذه الرواية طريقها إليهم بما هي بوصلةٌ يهتدون بها، لا بوصفها تأريخاً لأفعالي، فلعلَّهم لا يرون فيما آلت إليه حالي أمراً ذا قيمةٍ فريدة.

وقد كنت بإزاء خيارَيْن أحلاهُما مُرٌّ: تمثَّل الأول في المضيِّ بتجارتي والعمل في حانوتي كالمعتاد، وقد كان أمراً بالغَ الأهميَّة، فهو يحوي كلَّ متاعي في هذا العالم. أما الأمر الآخر، فهو الحفاظ على حياتي في هذه النائبة المريعة التي أراها قادمةً، بجلاءٍ، لتجثم على المدينة بأكملها. ومهما بدت الكارثة كبيرة، فإنَّ مخاوفي، كما مخاوف غيري مِن أهل المدينة، كانت أكبر منها.

ويتبدَّى الأمر الأوَّلُ لحظةً مصيريّةً بالنسبة إليَّ، فقد تَمَثَّلَتْ تجارتي بِبَيْعِ السُّروج وما يلزم المسافر مِنْ رِكابٍ وقِرَبٍ وغيرها. ولما كانت مُعاملاتي التجارية لا تَعتمد، أساساً، على الحانوت أو تجارة التجزئة، وإنما على التجار

الذين يبعثون بسلعهم إلى المستعمرات الإنجليزية الموجودة في أمريكا، فإنَّ سِلَعي تقع غالباً في أيدي هذه الفئة. ومن الصحيح أنني كنت عَزَباً، لكنَّ أسرتي تكوَّنت من الخدم الذين احتفظت بهم في عملي، كما كان لديَّ منزل وحانوت ومُستودعات مليئة بالبضائع. وبوجيز العبارة، أنْ أترك ذلك كلَّه كيفما اتفق، دون مُشرف يقوم عليها أو شخص مُؤتمن، يعني أنْ أخاطر لا بخسارة تجارتي فحسب، وإنما سِلَعي ومتاعي وكل ما أملك في هذا العالم.

وكان لديَّ أخٌ أكبر يقطُن لندن في ذلك الوقت، ولم تمضِ على رجوعه من البرتغال سنين طويلة. وحين شاورته في الأمر، لم تتجاوز إجابته ثلاث كلمات، هي الكلمات ذاتها التي استعملت في موقف مختلفٍ تماماً: أيُّها السيِّد خلِّص نفسك [4].

وبكلمة واحدة، لقد رأى أنْ أنسحب إلى الريف، كما قرَّر هو أنْ يفعل بنفسه وعائلته. ولا بدَّ أنَّه، والحالة هذه، قد سمع حيث كان خارج البلاد أنَّ أفضل استعداد للطاعون هو الفرار منه. أما حُجَّتي المتعلقة بذهاب تجارتي وخسارة سلعي وما لي مِنْ ديون لدى الناس، فإنَّه أبطلَها تماماً، مُستَثْمراً الحجة نفسها التي دافعت بها عنْ بقائي، وهي أنَّني أستودعُ الله أمرَ سلامتي وصحَّتي، إذْ مَثَّل هذا أقوى تفنيدٍ لمزاعمي المتعلقة بخشيتي من فَقْد تجارتي وبضاعتي؛ ذلك أنَّه، كما قال لي: ألا ينبغي لك، منْطقياً، أنْ تثق بالله إزاء احتمال خسارة تجارتك أو المخاطرة بها، ثِقَتَكَ به إزاءَ لُزومك بُؤرة خطرٍ وشيكةٍ تتهدَّدُ حياتك؟!

ولا أستطيع الزعمَ أنَّي في عُسر مِنْ أمري فيما خصَّ اختياري للمكان الذي سأقصده خارج المدينة، فَلي مِن الأصدقاء والأقرباء الكثير في «**نورْثْ هامْبْتون شايرْ**»، وهي المقاطعة التي تمتدُّ أصولنا فيها. ليس هذا وحسب، فإنَّ لي أختاً وحيدة في «**لِيْنكِن شايرْ**» على استعدادٍ تامٍّ لاستقبالي بترحابٍ شديد.

أمَّا أخي، الذي أرسل زوجته وطفليه إلى «**بِدْفورْدْ شايرْ**» (Bedfordshire)، واعتزمَ اللحاق بهم، فإنَّه ألحَّ عليَّ بالذهاب إلى هناك إلحاحاً شديداً. ولقد قرَّرتُ لوهلة الامتثال لرغباته، لكنني لم أتوَفَّرْ على حصانٍ في ذلك الوقت. وعلى الرغم مِنْ أنَّ لندن لم يُغادرها جميع قاطنيها، فلَعَلِّي أُغامِرُ في القول إنَّ أحصنةَ لَندنَ جميعَها قد غادرت المدينة بشكلٍ أو آخر؛ ذلك أنَّها أقفرت مِنْ أيِّ حصانٍ تشتريه أو تَكتَريه لبضعة أسابيع. وإذْ اعتزمتُ الرحيلَ راجلاً على قدميَّ رفقةَ خادِمي، مثلما فعل عديدُ الناس، فقد قرَّرنا عبور الأرياف بلا توقُّفٍ في أيِّ فندق، وإنما نحمل خيمةً عسكرية ونهجع في الحقول، دونما خشية مِنْ أنْ يَمسَّنا بردٌ؛ إذْ كان الجو دافئاً.

وقد قُلت: «كما فعلَ عديدُ الناس»، لأنَّ كثيرين لجأوا إلى ذلك في آخر الأمر، ولاسيَّما مَنْ خَدَموا في الجيش، إبَّان الحرب التي لمْ تمضِ على صَمْتِ طُبولها سنوات طوال. ومِن المتعيِّن عليَّ القول، بمعرض الحديث عَنْ الأسباب الأخرى لانتشار الوباء، أنَّه لو لجأ المغادرون إلى الطريقة ذاتها، وتجهَّزوا بالخيم، لما انتقل الوباءُ إلى العديد مِن البلدات والمنازل الريفيَّة، كما جرى وتأدَّى عنهُ ضررٌ جَسيمٌ، بل هلاكٌ وَبيلٌ لعددٍ وافرٍ مِن الناس.

غير أنَّ خادِمي، الذي اعتزمتُ أَنْ أَصْطحِبه معي، خَدَعني. فحينَ خشيَ مِنْ تَفَشِّي الوباء، ولجهله بموعد مغادرتي، اتَّخذ تدابيرَ أخرى وتركني. ولذا، تأجَّل خروجي. ولقد أَلْفَيْتُ أنَّ التأهُّب للرحيل كان يَعْتَرِضُه، دائماً، حادثٌ أو آخر، فيُحْبِطُه ويتأجَّل لموعد جديد...!! وَيَنْسَلُّ إلى القصة، إذَّاك، عُنْصُرٌ رُبَّما بدا، مُجرَّداً ممَّا سأسوقه، استطراداً لا حاجة له، ألا وهو أنَّ هذه المعوقات مَصدرها السماء، لكنِّي أذكر هذه القصة أيضاً بما هي الطريقة المثلى لإسداء النُّصح لمنْ يخوض تجربة مماثلة، ولاسيَّما لمنْ كان له قلب أو ألقى السمع؛ أقصدُ أنْ يتلمَّس بحرصٍ تلكَ التدابير الإلهيَّة التي تحدث في ذلك الوقت، وأنْ يتبصَّرها على نَحوٍ عميقٍ بما هي تدابير مُتجانسة يأخُذُ بعضُها بِحُجُزِ بعض، وأنَّها تتَّصل جُمْلةً بالقضيَّة التي يُواجهها المرء. وعندها، فيما أعتقد، ربما أخذها بوصفها إشارات سماويَّة، بما يتعيَّنُ عليهِ القيام به في هذه الحالة؛ أعني: الاختيار بين الرحيل أو البقاء في منزله، حين ينزل بالمكان مَرَضٌ مُعْدٍ.

وبينما كنتُ أتأمَّل في هذا الأمر، قَفزتْ إلى ذهني، على نحو شديد، فكرةٌ مُؤدَّاها أنه لا يُصيبنا شيءٌ دون توجيه من الربِّ أو مشيئة منه. وعليه، لا بدَّ أنْ تكون هذه المعوقات مُنطويةً على ما هو غير عاديٍّ، ومِن المتعيِّن عليَّ أنْ أتبيَّن إنْ كانت تُوجِّهُني أو تُنذرُني بأنَّ إرادةَ السماء تقضي ألا أُغادر. ورقى إلى ذهني مباشرة، إثر ذلك، أنَّه إنْ كانت مشيئةُ الله تقضي ببقائي فإنَّ الله قادر فعلاً على أنْ يحفظني، وسط هذا الموت العميم والخطر الذي سَيَحيقُ بي. وإنْ أنا سعيتُ إلى حماية نفسي بالفرار مِنْ مكان سُكناي والتصرُّف عكس هذه الإشارات التي أعتقد أنَّها إلهيَّة، أكونُ حينَها كمَنْ يَطيرُ مُبتعداً عَن الله، وحينَها قد يُنزل بي حُكمه العادل في الوقت والمكان اللذيْن يراهما مُلائمين.

وقد قَلَبَتْ هذه الأفكارُ، مِنْ جديد، قراراتي رأساً على عقب. وحين توجَّهْتُ، مرَّة ثانية، بالحديث مع أخي ذكرتُ له أنِّي أميلُ إلى البقاء وتلقِّي قدري في البُقعة التي جعلني الله فيها، وأنَّ ذلك هو، كما بدا لي، واجبي الخاصُّ استناداً إلى ما قلته.

وعلى الرغم ممَّا كان عليه أخي مِن تَديُّنٍ وتقوى شديدين، فإنَّه سَخِرَ مِنْ كُلِّ ما طرَحْتُهُ حول اعتقادي أنَّه إشارةٌ سماويةً، وقصَّ علـيَّ غيرَ قِصَّةٍ مِنْ قَصَصِ مَنْ دعاهم بالطائشين مِنْ أمثالي. وأضاف أنَّه يتوجب عليَّ أنْ أخضعَ لذلك، بوصفه حُكم السَّماء. فلو أنَّ الوباءَ أو المرض أقعدني بأيِّ صورة كانت، وغدوت حينها عاجزاً عن الرحيل، إذاً لتوجَّب عليَّ، إذَّاك، أنْ أذعن لمشيئته. ولَـمَّا كان خالقي، فَلَهُ الحقُّ الذي لا ريب فيه في تصريف أمري. وحينها لا يكون من الصعب تحديدُ الإرادة الإلهية من عدمها. أمَّا أنْ أجعلَ عدم خروجي إشارة إلهية، استناداً إلى عدم مقدرتي على اكتراء حصان أو لأنَّ خادمي الذي سيصحبني ويقوم على رعايتي فَرَّ ولمْ يُعَقِّبْ، فهذا عينُ الحُمق، ذلك أنَّني أمتلك في ذلك الوقت صحَّتي وافرةً وأعضائي سليمةً، وهناك كثير مِن الخدم، ولعلِّي أرحلُ راجلاً، بِيُسْرٍ، ليومٍ أو يومين. ولـمَّا كنتُ أمتلك شهادة صحيَّة بأنَّني في وافر صحَّتي، فبمقدوري أنْ أكتري حصاناً أو أستأجر في طريقي واحداً مِن الأحصنةالمتوافرة في مكاتب البريد[5] بحسب ما أراه مناسباً.

ومضى شقيقي في حديثه يُخبرني عن العواقب المؤذية التي لازمت فكرة التسليم لدى الأتراك والمسلمين في آسيا وغيرها مِن الأمكنة التي سافر إليها أخي في تلك البلاد (ذلك أنَّ أخي الذي عمل تاجراً كان هناك منذ بضع سنين، مثلما ذكرتُ سالفاً، وعاد إلى البلاد من أسفاره التجاريَّة التي كان آخرها إلى لشبونة)؛ وكيف أنَّ تسليمَهم بتصوُّراتهم القدريَّة المزعومة، واعتقادَهم أنَّ أَجَلَ الإنسان مُقَدَّرٌ ومكتوب مُسْبَقاً لا يتأخَّرُ ولا يتقَدَّم، قد دفعهم إلى الذهاب، دونَ اكتراثٍ، إلى الأمكنة الموبوءة مختلطين بالأشخاص المصابين؛ ما تأدَّى عنه وفاةُ عشرة آلاف (10000) أو خمسة عشر ألفاً (15000) أسبوعياً. أما الأوروبيُّون أو التجار المسيحيُّون، الذين أبقوا أنفسهم منعزلين ومحتاطين، فإنَّهم نجوا، عامَّةً، مِن العدوى.

وقد عاد أخي مِنْ جديد، عبرَ ما ساقَهُ مِنْ حججٍ، ليُغيِّرِ ما اتخذتُه مِن قرارات، فاعتزمتُ الرحيل، وعمدتُ إلى التجهُّز والتحضير لكلِّ شيء؛ ذلك أنَّ العدوى، بوجيز العبارة، قد تعاظمت مِنْ حَولي، وقائمةُ الوفيات قد ارتفعت نحواً مِنْ سبعمئةِ (700) وفاة في الأسبوع الواحد. وقد أخبرني أخي أنَّه لنْ يُغامر في البقاء أكثر مِنْ ذلك. فتمنَّيت عليه أنْ يدعني أنظر في أمر الرحيل حتى اليوم التالي فقط، وحينها سأقرِّر. ولمَّا كنتُ قد أعدَدْتُ كلَّ شيء بما هو مُستطاع فيما خَصَّ تجارتي، ولِـمَنْ أعهدُ بشؤوني، فإنَّه لا يتبقَّى عليَّ إلا تقليب الرأي واتخاذ القرار.

عدتُ الى البيت في ذلك المساء مُجهد الذهن، ومُتردِّداً، ولا أعرفُ ما أفعل. وخصَّصت المساء كلَّه للنظر جدياً في الأمر. وكنتُ وحيداً، فقد لزمَ الناسُ

بيوتَهم واعتادوا، كما لو أنَّهم أجمعوا على ذلك، على عدم الذهاب خارج الأبواب بعد الغروب، وذلك لأسبابٍ لا بُدَّ وأنْ آتي على ذكرها بتفصيل أكبر فيما يأتي.

حاولت في عزلة ذلك المساء أنْ أُقَرِّر في عدَّة أمورٍ، وأوَّلها: ما الذي يتوجَّب عليَّ فعله؟ وقد استعرضت الحجج التي ساقها أخي لدفعي إلى المغادرة باتجاه الريف، ووضعت بإزائها الأفكارَ التي دارت في ذهني للبقاء وعدم المغادرة، مثل النداء الظاهر الذي أتاني، فيما يبدو، مِن الظروف الخاصَّة بحاجاتي، والعناية الواجبة عليَّ للحفاظ على متاعي الذي كان، كما أقولُ، مُمتلكاتي كلِّها، وكذلك الإشارات التي اعتقدتُ أنَّي تلقَّيْتُها مِن السماء؛ تلك الإشارات التي بَدَتْ لي أمراً بالمغادرة. وقد خَطَرَ لي أنَّي إذا تلقيت أمراً بالبقاء، فمِن المتوجِّب عليَّ أنْ أفترضَ أنَّ الأمر ينطوي على وَعْدٍ بِحِفْظي إنْ أنا أَذعَنْت.

كان ذلك أقرب إلى نفسي، وبدا عقلي أكثرَ حَماساً لفكرة البقاء مِنْ أيِّ وقتٍ آخر. وقد عَزَّزَتْهُ قناعةٌ خَفيَّة بأنَّ الله لا بُدَّ حافظي. أضفْ إلى ذلك أنَّني لما أخذْتُ أُقَلِّبُ في صفحات الكتاب المقدَّس الذي كان موضوعاً أمامي، وإذ غدت أفكاري أشدَّ وأحدَّ حيالَ المسألة، فإنَّي صرختُ مُستنجداً: «يا إلهي، لا أدري ما أصنع، فاخْتَرْ لي». وقد توقَّفت في ذلك المنعطف عند المزمور 91، وألقيتُ بَصَري على الآية الثانية، ثم مَضيتُ حتى الآية السابعة بخاصَّة، وانتقلتُ إلى الآية العاشرة هكذا:

2- أَقُولُ لِلرَّبِّ: «مَلْجَأي [6] وَحِصْنِي. إِلهِي فَأَتَّكِلُ عَلَيْهِ».

3- لأَنَّهُ يُنَجِّيكَ مِنْ فَخِّ الصَّيَّادِ وَمِنَ الْوَبإِ [7] الْخَطِرِ.

4- بِخَوَافِيهِ يُظَلِّلُكَ، وَتَحْتَ أَجْنِحَتِهِ تَحْتَمِي. تُرْسٌ وَمِجَنٌّ حَقُّهُ.

5- لاَ تَخْشَى [8] مِنْ خَوْفِ اللَّيْلِ، وَلاَ مِنْ سَهْمٍ يَطِيرُ فِي النَّهَارِ،

6- وَلاَ مِنْ وَبَاءٍ يَسْلُكُ فِي الدُّجَى، وَلاَ مِنْ هَلاَكٍ يُفْسِدُ فِي الظَّهِيرَةِ.

7- يَسْقُطُ عَنْ جَانِبِكَ أَلْفٌ، وَرِبْوَاتٌ عَنْ يَمِينِكَ. إِلَيْكَ لاَ يَقْرُبُ.

8- إِنَّمَا بِعَيْنَيْكَ تَنْظُرُ وَتَرَى مُجَازَاةَ الأَشْرَارِ.

9- لأَنَّكَ قُلْتَ: «أَنْتَ يَا رَبُّ مَلْجَئي». جَعَلْتَ الْعَلِيَّ مَسْكَنَكَ،

10- لاَ يُلاَقِيكَ شَرٌّ، وَلاَ تَدْنُو ضَرْبَةٌ مِنْ خَيْمَتِكَ [9].

ولستُ في حاجة، بعد ذلك، أن أخبر القارئ أنَّني اعتزَمتُ، مُنذُ تلك اللحظة، أنْ أبقى في المدينة. وإذْ أَلْفيْتُ نفسي مُسْتَسْلماً كُلِّياً لِلُطْفِ العَلِيِّ القَدير ورِعايَته، فإنَّي آليتُ على نَفْسي ألا أبْحثَ عَنْ أيِّ مَلجأ آخر مَهما كانت صفتُه. ولما كانت أحوالي بينَ يديْه، فإنَّه لا بُدَّ حافظي في زمن الوباء كما في الصحَّة والرخاء. وإنْ هو رأى من غير الملائم أنْ يُخلِّصني، فإنَّ سَلواي أنَّي بين يديه، وأنَّ من الحكمة أن يفعل بي ما يراه خيراً لي.

ذهبت بهذا القرار إلى الفراش، وتعزَّز لديَّ في اليوم التالي، حين ألمَّ المرضُ بالمرأة التي نَوَيْتُ أنْ أعهدَ إليها بِبَيْتي وشؤوني جميعها،حتى إنَّ عبئاً إضافياً حَطَّ على كتفي، فقد ألفيتُ نفسي، في اليوم الموالي، مَعلولاً؛ ما يعني عدم مقدرتي على الرحيل. وظللت في مرضي ثلاثة أيامٍ أو أربعة، فقضى ذلك ببقائي لا محالة. ولهذا، فإني ودَّعتُ أخي الذي غادر إلى «**دورْكِنْغْ**» (Dorking) في مقاطعة «**سُري**» (Surry)، ثم يمَّمَ وجْهَهُ تجاه «**بَكِنْغْهامْ شايرْ**» (Buckinghamshire)، أو «**بِدْفورْدْ شايرْ**»، في إثر عائلته التي وجد لها مأوى هناك.

وكان منْ أسوأ الأمور أنْ تقعَ طريحَ المرض في ذلك الوقت؛ ذلك أنَّه إذا شكا أيُّ امرئ مِن المرض، قيل على الفور إنَّه مُصابٌ بالطاعون. وعلى الرغم مِنْ عدم ظهور أيٍّ مِنْ أعراضِ الطاعون عليَّ، فإنَّ اشتداد وطأةِ المرض وما أُعانيه مِنْ أَلَمٍ في رأسي ومعدتي أدخَلَ في نفسي الخوف من أنْ أكون مُصاباً بالفعل. لكنِّي تَحسَّنْت في غضون ثلاثة أيام، واسترحت في الليلة الثالثة جيِّداً، فقد تعرَّق جسمي قليلاً، وانتعشتُ كثيراً. وَذَهَبتْ الخشية مِنْ إصابتي بالطاعون مع زوال المرض عنِّي، وعدتُ إلى عملي كالمعتاد.

مهما يكُنْ مِنْ أمرٍ، فإنَّ هذه الأشياء نَزعتْ مِنّي كلَّ تفكيرٍ في الذهاب إلى الريف. وإذْ غادر أخي المدينة فقد توقَّف الجدلُ مَعَه حول موضوع المغادرة، مثلما توقَّف حديثي مع نفسي بهذا الشأن.

وكان تمُّوز قد انتصف في هذا الوقت، والطاعون الذي فشا، أساساً، في الجانب الآخر مِن المدينة في أبرشيَّتَيْ «**سانت جايلز**» و«**آنْدْروزْ هُلْبُرْنْ**»، وباتجاه «**وِسْتْ مِنْسْتَرْ**» كما ذكرت في السابق، قد بدأ يتجه شرقاً حيث أَقطُن. وتتوجَّبُ الإشارة إلى أنَّ الطاعون لم يأت مباشرة نحونا، ذلك أنَّ المدينة، داخل الأسوار، ظلت سليمةً بصورة ما. ولَمْ يَعْبُر التايمزِ وَيتعَمَّق في حَيِّ

«**ساوْثْ ووِرْكّ**» (Southwark). وعلى الرغم مِنْ أنَّ ألفاَ ومئتين وثمانيةً وستين (1268) شخصاً قد توفُّوا هُناك بسبب الأمراض، ويُفترض أنْ يكون سِتمِئَةٍ (600) مِنْ هؤلاء قد هلكوا بالطاعون، فإنَّ عدد مَنْ مات به داخل أسوار المدينة لم يتجاوزْ ثمانيةً وعشرينَ (28) شخصاً، ولم يتعدَّ تسعَ عشرةَ (19) وفاةً في «**ساوْثْ ووِرْكْ**»، بما في ذلك أبرشيَّة «**لامبيث**»، في حين تُوُفّيَ أربعُمئةٍ وواحدٌ وعِشرونَ (421) شخصاً في أبرشيَّتَيْ «**سانت جايلز**» و«**سانْتْ مارْتِنْ**زْ إنْ ذي فيلْدزْ»، كلتيهما.

بيدَ أنَّنا أدركنا أنَّ العدوى انتشرت، على نحوٍ خاصٍّ، في الأبرشيَّات القائمة خارج الأسوار. ولـمَّا كانت الأخيرة أشَدَّ اكتظاظاً بالسكان وأكثرَ ازدحاماً بالفقراء، فإنَّ المرض ألفى أعداداً أكبر مِن الناس لِيَنْقَضَّ عليها، مُقارنةً بما عليه الحالُ في المدينة، كما سأرصدُ تالياً.

وأدركنا أنَّ المرضَ قدْ رَسَمَ لنا خَريطَتَهُ؛ أعني مِنْ خِلال الأبرشيَّات التي فشا فيها وأَعْمَلَ بها يَدَ الفَتْك، وهي: «**كْليرْ كِنْوِل**»، و«**كرِبِلْ غيتْ**»، و«**شورِدِتْشْ**»، و«**بِشوبْسْ غيتْ**»، وتلكما الأخيرتان تتَّصلان بـ «**ألد غيت**»، ويُضاف إلى هذه الأبرشيَّات الموبوءة: «**وايت تشابل**»، و«**ستبني**». وقد حدث ذلك حتى عندما انحسر المرض في الأبرشيَّات الغربيَّة، حيثُ ظهرَ أوَّل الأمر.

كان مِن الغريب أَنْ نلاحظ أنَّ في ذلك الأسبوع الواقع بينَ يَومَي الرابع والحادي عشر (4-11) مِنْ تمُّوز، أيْ الأسبوع الذي ذكرتُ أنَّه مات فيه أربعُمئة (400) شخصٍ بالطاعون في أبرشيَّتَيْ: «**سانْتْ مارْتِنْ**»، و«**سانت جايلز إنْ ذي فيلْدْزْ**» وحدهما؛ لم يمُتْ في أبرشيَّة «**ألد غيت**» سوى أربعة، وفي أبرشيَّة «**وايت تشابل**» ثلاثة. أما أبرشيَّة «**سْتِبْني**»، فلمْ يَمُتْ فيها سوى واحد.

وتنسحبُ الحالُ ذاتُها على الأسبوعِ الذي يليه، الواقع بينَ (11-18) مِنْ تمُّوز، حين بلغت القائمةُ الأسبوعيَّة سبعَمِئةٍ وإحدى وسِتِّين (761) وفاةً، غير أنَّ نسبة منْ قضى بالطاعون على طول الجانب الـمُحادِد لنهرِ التايْمْزْ مِنْ «**ساوْثْ ووِرْكْ**»، لم تتجاوزْ سِتَّ عشرة (16) وفاةً. لكنَّ هذه الصورة ما لبثت أن تبدَّلتْ، وبدأت الأرقام تتعاظمُ في أبرشيَّة «**كرِبل غيت**» خاصَّةً، و«كْليرْ كِنْوِلْ»؛ بحيث شهد الأسبوع الثاني منْ شهرِ آب ثماني مئة وستَّاً وثمانين (886) وفاة في «**كْرِبل غيتْ**» وحدها، وخمساً وخمسين (55) وفاة في «**كْليرْ كِنْوِلْ**». وربما كان مَنْ قضى بالطاعون في الأولى ثماني مئة وخمسين (850) شخصاً، بحسب التقديرات. أما في الأبرشيَّة الثانية، فإنَّ القائمة نفسها تخبر بأنَّ مَنْ مات بالطاعون منْ مُجمل الموتى كان مئةً وخمسةً وأربعين (145) شخصاً.

وخلالَ شهر تموز، وبينما كان الشطر الذي نَقطنُه مِن المدينة سَليماً، كما ذكرتُ، مُقارنة بالجزء الغربي منها، ذَرَعْتُ الشوارع كالمعتاد، بحسب ما يتطلَّبُه عملي. وكُنتُ أذهبُ، عامَّةً، مرَّةً كلَّ يومٍ أو يومين داخل المدينة، وأتوجَّهُ إلى منزل أخي الذي عهد بهِ إليَّ كيْ أستطلع أحواله. وإذْ كُنتُ أضعُ المفتاحَ في جَيبي، فقد اعتَدْتُ أنْ أَلِجَ المنزلَ وأتفحَّصَ مُعظم الغرف، لأرى إنْ كان كلُّ شيء على ما يرام. وعلى الرغم مِن أنَّ مِن العجيب القول إنَّه لا بُدَّ أنْ يمتلك مَنْ أراد القيامَ بالسَّلب والنَّهب قَلباً قُدَّ مِنْ حديد في خِضَمِّ هذه البلوى، فمِن المؤكَّد أنَّ كُلَّ أشكالِ الدناءَةِ وحتى الخفَّة والفسوق مورستْ في المدينة بصورة علنيَّة أكثر مِنْ أيِّ وقتٍ مضى. ولَنْ أذهبَ بالقول إلى أنَّها حدثتْ بالقَدْر الذي كانت تَحدُث به سابقاً، لأنَّ أعدادَ الناسِ قَلَّتْ كثيراً.

لكنَّ الناسَ استأنفوا زياراتهم إلى المدينة، وأعني المدينة داخل الأسوار، لكنَّ أعدادَ الناس تناقصتْ على نحو شديد، بهجرة أعدادٍ غفيرة مِنْ ساكنيها إلى الريف، حتى إنهم استمروا طوال شهر تمُّوز هذا في الفرار، وإنْ بأعدادٍ أقلَّ من السابق. أما حين حلَّ شهر آب، فقد نفروا مِن المدينة على نَحوٍ بدأتُ معه أفكر بأنَّ المدينة ستخلو مِن البشر ما خلا القضاة والخدم.

وإذْ خرجت العائلة المالكة مِن المدينة، فمِن المتعيِّن عليَّ الآن أَنْ أُسجِّل أنَّها أخرجت مبكراً، أي في شهر حزيران، وقصدت «**أكسفورد**»، راجيةً مِن الله الحفظ والرعاية. ولم يمْسَسْهُم المرضُ كما سمعت. ولا يُمكنني القولُ إنَّهم أظهروا أيَّ علامةٍ على شُكرِ الله أو أيَّ صورة مِنْ صُور الإصلاح، على الرغم مِنْ أنَّهم لا يُريدون أَنْ يُقال لَهم، دون خشية من نقض الذمام، إنَّ رَذائلَهُم الصارخة قد بَلَغَتْ مَبْلَغاً كبيراً؛ ما أَنْزَلَ بالأمة جَمعاء هذه النازلة الفظيعة.

كان وجهُ لَندن قدْ تَغيَّر، فِعلياً، على نَحوٍ غريب؛ أعني كتلة المباني مجتمعة، والمدينة، والمناطق الإدارية، والضواحي، و«**ويست منستر**»، و«**ساوث وورك**»، وكلَّ ذلك. أما الجزء الخاص الذي يُدعى بالمدينة، أو ما هو داخل الأسوار، فما كادت العدوى تَطاله بعدُ بصورة كبيرة. لكنَّ وجهَ الأشياءِ، عامَّة، تحوَّل، فقد جثمَ الحزنُ والأسى على كلِّ وجه. ومع أنَّ بعضَ أجزاءِ المدينةِ لمْ يكنْ مغموراً بالبلاء، فقد بدا الناس جميعُهم مهمومين. ولـَمَّا رأينا أنَّ الوَباء قادمٌ لا مَحالَةَ، رأى كُلُّ واحدٍ منَّا نَفسَه وعائِلتَه في دائِرةِ الخَطَرِ المسْتَطير.

وإذا كان من الممكن تص**وير** تلك الأوقات على نحو دقيق، لأولئك الذين لم يشهدوها، وإعطاء القارئ أفكاراً وافيةً حول الرعب الذي تبدَّى في الأمكنة جميعها، فمن المتوجِّب أنْ تخلق انطباعاً عميقاً في عقولهم، وتملأها بالدهشة والاستغراب. ومن الممكن القول إنَّ لندن بحيالها كانت غارقة في الدموع.

وفي واقع الأمر، فإنَّ المتفجعين لم يجوبوا الشوارع، ولا أحدَ ارتَدى السَّواد أو لباساً خاصاً حِداداً على أصدقائه المقَرَّبين. غير أنَّ أصواتَ النائحين كانت تُسمَعُ، حَقاً، في الشوارع. فلدى مُرورنا فيها، كانَ عَويلُ النساء والأطفال، المنبعثُ مِنْ نَوافِذِ بُيوتِهم وأبوابِها حيث يُحْتَضَرُ أعزُّ أقربائهم أو مِمَّن ماتوا تَواً، أمراً كثيرَ الحدوث. كان عويلاً مُمتلئاً بالمرارة، إلى درجة تكفي لاختراق أعتى القلوب في العالم. وغَزَت صُورُ التفجُّع والعويل مُعظم البيوت، ولاسيَّما في بدايات الوباء. أما نهاياته، فقد قست فيها قلوب الرجال، وصار الموت شاخصاً أمام أعينهم في كلِّ حين، إلى درجة أنهم ما عادوا يأبهون لفقد أصدقائهم، لأنَّهم ينتظرونَ أنْ يَستدعيهم داعي الموت في الساعة التالية.

قادني العمل، أحياناً، إلى الجانب الآخر من المدينة، حتى في الأوقات التي كان المرض قد غزا فيها تلك المنطقة. وإذْ بدا الأمر جديداً بالنسبة إليَّ، كما بدا لغيري من الناس، كان من المفاجئ والغريب أنْ أرى تلك الشوارع، التي تَغَصُّ بالمارَّة، وقد غدت مقفرة، لا يُرى فيها إلا نَزْرٌ يَسيرٌ من البشر. وهكذا، لو كنت غريباً وضللتُ طريقي، لربما اقتضاني الأمرُ، أحياناً، أنْ أذرع الشارع بطوله؛ أعني الشوارع الفرعيَّة، دون أن أعثر على أحدٍ لإرشادي سوى حُرَّاسٍ يجلسون على أبواب منازل جرى إغلاقها، وهو ما سأتحدَّث عنه عمَّا قريب.

عندما كنت، ذات يوم، في هذا الجزء من المدينة لغرضٍ مُتعلق بأعمالٍ خاصَّة، قادني الفضولُ لتتبُّع أشياء على غير مَجرى عادتي، فَسِرْتُ، فِعلاً، مسافةً طويلةً في طريقٍ لم تكنْ لي فيها عمل، وصَعِدتُ تُجاه «**هلبورن**»، حيث كان الشارع مزدحماً هناك بأناسٍ توسَّطوا الشارعَ الكبيرَ دونَ أنْ يسيروا على أيٍّ مِنْ جانِبَيْه، لأنَّهم، كما أفترضُ، لا يريدونَ أنْ يختلطوا بمَنْ يخرجون مِن المنازل، أوْ أنْ يتلقَّوا الروائحَ المنبعثةَ مِنْ هذه المنازلِ التي قد تكونُ مَوبوءة.

كانت الهيئات القانونية الأربعُ جميعُها مُغلقةً، ولم يكن هناك الكثير مِمَّنْ يُمكن رؤيتهم مِن المحامين في المنطقة القانونية المسمَّاة «**تِمْبِل**»، ولا في جمعيَّتَي «**لينكولن**» و«**غري**» القانونيَّتَيْن؛ فقد كانَ الناس في حالةٍ من الجمود والسكون. ولم يكنْ هناك داعٍ للمُحامين، فضلاً عن أنَّ ذلك الوقت مِن السنة كانَ وقتَ عُطلتهم؛ ما جعلهم يقصدون الريف في مُعظَمِهم. كانت صفوفٌ كاملةٌ مِن البيوت، في بعضِ الأماكن، مُقفَلَةً تماماً؛ فقد فَرَّ ساكنوها جميعُهم، ولم يَبْقَ إلا حارسٌ أو اثنان.

وحين أقول إنَّ صُفوفاً مِن المنازل قد أُغْلِقَتْ، فإنِّي لا أقصدُ أنَّها أُغْلقتْ مِن قِبل القُضاة، لكنِّي أعْني أنَّ عَدداً كبيراً مِن الأشخاص تَبِعَ المحكمة بِحُكْم عَمَلِهم فيها أو مُعامَلاتِهم، فأغلقوا منازلهم ورحلوا.

وحالما غادرَ آخرون منازلهم مُرتاعين مِن الوباء، غَدتْ بعضُ الشوارع مُقفرة إقفاراً تاماً. غيرَ أنَّ الخوف لم يُحِطْ بالمدينة إحاطة تامَّةً، مثلما قد يُعَبَّرُ عَنْ ذلك نظرياً؛ ذلك أنَّهم، وإنْ ارتاعوا، في بادئ الأمر، بصورةٍ يَتَعَذَّرُ وصفُها، لكنَّ مَوْجاتِ الوباء، كما لاحظتُ مِنْ قبلُ كانت، غالباً، مُتَقطِّعَةً في مُسْتَهَلِّها. وعليهِ، فَقدْ كان الناسُ، بِوجهٍ مِن القول، يرتاعونَ ثُمَّ تَطمئِنُّ قُلوبُهم مِنْ جديد. وإذْ حدث ذلك مرَّةً تلو مرَّة، فقد بات مألوفاً لديهم، بل إنَّه عندما بدا عنيفاً، دون أَنْ ينتشرَ داخل أسوار المدينة، أو في أجزائها الشرقيَّة والغربيَّة، فإنَّ الناس غَدوا أجرأ، بل أصلب، كما يُمكنني القول.

ومِن الصحيح أنَّ عدداً كبيراً مِن الناس، كما دَوَّنتُ آنِفاً، قد جلوا مِن المدينة، لكنَّ هؤلاء كانوا، أساساً، مِن الطرف الغربي للمدينة؛ مِن ذلك الجزء الذي نُسمِّيه «**قلب المدينة**»، أيْ مِن الناس الأثرى، ومِنْ أولئك الذين لم تُعِقْهم تجارةٌ أو عمل. أمَّا الأغلبية، فقد لبثوا في المدينة ليتجشَّموا الأسوأ. وهكذا، فإنَّه في الأمكنة التي ندعوها مناطق إداريَّة، وفي الضواحي، وفي «**ساوث وورك**»، وفي الجزء الشرقيِّ، مثل: «**وابِنْغْ**» (Wapping)، و«**راتْكْلِفْ**» (Ratclif)، و«**سْتِبْني**» (Stepney)، و«**روذِرْهِثْشْ**» (Rotherhith)، وما شابه ذلك، مكث الناس، عامَّةً، في بيوتهم ما عدا قلَّةً مِن الأُسَرِ الثرِيَّة مِمَّنْ لَمْ يَعتمدوا، مثلما ذكرتُ، على أعمالهم وتجارتهم.

يتعيَّن علينا ألا ننسى أنَّ المدينة والضواحي كانتْ شديدةَ الازدحام في هذا الوقت مِنْ حُلول الوباء؛ أقصد في بداياته. وعلى الرغم مِنْ أنَّ العُمرَ امتدَّ بي لأرى زيادة سكانيةً أخرى وأعداداً هائلةً من الناس استقرت في لندن أكثر مِنْ أيِّ وقتٍ مضى، فقد ظلَّ لدينا اعتقادٌ أنَّ أفواجاً كبيرةً اندفعتْ إلى لَندن بعدَ أنْ وضعت الحربُ أَوْزارَها، وسُرِّحَت الجيوشُ، واستُعيدت الملكيَّة، وذلك كيْ تَستقرَّ هذه الجموع في أعمالٍ تجاريَّة، أو للاعتماد على البلاط الملكي وخدمته بغية الحصول على المكافآت، والترقيات، وما إلى ذلك. وإذْ عَرَفَت المدينةُ هذه الأفواج مِن القادمين، فقد جرى احتسابُ قاطنيها بِأَزْيَدَ مِنْ مِئة ألف (100000) نسمة عَنْ أيِّ عددٍ سجَّلتْه في الأزمنة السابقة، حتى إنَّ بعضهم ذهب إلى القول بضعف هذا العدد؛ ذلك أنَّ العائلاتِ الـمُفْلِسَةَ مِن الحزب الملكي جميعها قد توافدت إلى المدينة أفواجاً، وأقام الجنودُ القدامى تجاراتِهم، فضلاً عنْ عديد العائلات التي استقرَّت هنا. ولنُؤَكِّدْ مِنْ جديد، فإنَّ العائلات المالكة جلبتْ معها تَدفُّقاً كبيراً مِنْ أشكال البذخ والأزياء الجديدة، وعَمَّ الرفاهُ والرغدُ الناسَ جميعهم، وجلب الرَّخاء أعداداً غفيرةً مِن العائلات إلى لندن.

ولطالما فكرتُ أنه كما طُوِّقت «**أورْسالمْ**» مِنْ قِبل الرومان، حينَ جرى تجميعُ اليهود للاحتفال بعيد الفصح؛ ما يعني أنَّ عدداً مَهولاً مِن الناس بوغِتوا هناك،

أولئكَ الذين كان مِن الممكن أنْ يكونوا في أقطارٍ أخرى لولا حلول العيد؛ كذا دخل الطاعون لندن، حين حدث تزايدٌ كبيرٌ في تعدادها السكانيِّ بينَ حينٍ وآخر، بسبب الظروف الخاصَّة التي ذكرتها سالفاً.

ونظراً إلى أنَّ هذا التدفق البشريَّ، تُجاه البلاط الملكي، وما صحبه مِنْ حياة اللهو واللعب، قد خَلَقَ تجارةً عظيمة في المدينة، ولاسيَّما في كلِّ ما يتَّصل بالأزياء والزينة، فإنه جذب، بالنتيجة، عدداً كبيراً مِن العُمَّال والصُنَّاع ومَنْ شابَهَهُم، وهم في غالبهم مِن الفقراء الذين يعتمدون في عيشهم على العمل. وإني لأذكر، على وجه الخصوص، حين رُفع تقريرٌ لسيِّدي عُمدة المدينة عَنْ حالِ الفقراء، بأنَّه قُدِّر وجودُ ما لا يقلُّ عَنْ مِئة ألفٍ (100000) مِن النسَّاجينَ داخلَ لَندن وما حولها. وقد عاش أغلبُ هؤلاء، إبان ذلك الوقت، في أبرشيَّات «**شورِدِتْشْ**»، و«**سْتِبْني**»، و«**وايت تشابل**»، و«**بِشوبْسْ غيت**»، أعني التي في محيط «**سْبِتِلْ-فيلْدْز**» (Spittle-fields)؛ ذلك أنَّ الأخيرةَ لم تكنْ كبيرةً كما هي الآن، بلْ خُمْسَ ما هي عليهِ حالياً. ومِن الممكن، استناداً إلى ذلك، أنْ يُحكَم على عدد الناس الإجمالي. ولطالما تعجَّبتُ فعلياً، في كثيرٍ مِن الأحيان، مِنْ هذه الأعداد الهائلة التي بقيت في المدينة مثلما هو ظاهر بعد أنْ غادرت أفواجٌ عديدة في مُبتدأ الأمر.

ولكنْ، يتوجَّبُ عليَّ أنْ أعودَ إلى بداية هذا الوقت العجيب. فبينما كانت مخاوفُ الناس قليلةً ازدادَ عددُهم على نحوٍ غريبٍ بِأثَرٍ مِن عدَّة أسبابٍ غريبة. وإذا ما وَضَعنا هذه الأخيرة سَوِياً، فمِن العجيبِ ألا يَنْهَضَ الجسمُ السكانِيُّ بأجمعه نَهْضَةَ رَجُلٍ واحد ويَهجر الناسُ مساكنَهم تاركين المكان كما لو كانَ فَضاءً أرضِياً صَمَّمَتْهُ السماءُ ليكونَ حَقلَ الدم[10] المحكوم عليه بالزوال عَنْ وَجهِ الأرض، ومعهُ سيهلكُ أولئكَ الذين كانوا فيه. سأذكرُ بَعضاً مِنْ هذه الأشياء، وإنْ كانت بحقٍّ أسباباً عديدة. وقد روَّج لها عددٌ وافرٌ مِن السحرةِ والمشعوذين، إلى درجةٍ تَساءَلْتُ مَعَها إنْ بقي أحدٌ (ولاسيَّما النساء) على وجه المكان...!!

ظهرَ، في المقام الأول، نَجمٌ مُلتهبٌ أو مُذنَّبٌ لعدَّة أَشهُر قَبل أنْ يَحلَّ الطاعون، وظهر آخر بعد سنة، قبل الحريق بزمن قصير. وقد لاحظت العجائزُ، فضلاً عَنْ تلك الفئة السوداويَّةِ المَراقِيَّة [11] مِن الجنسِ الثاني، التي يُمْكنُ أنْ أدعوها بالعجائز أيضاً (ولاسيَّما فيما بعدُ، حين انتهت تِلكُما النازِلَتان)، أنَّ ذَيْنَكَ المُذنَّبَيْنِ مَرَّا في سَماءِ المدينة، وكانا قريبَيْن جداً مِن المنازل، بدرجةٍ يتوضَّح منها أنَّهما جلبا شيئاً خاصاً بالمدينة وحدها، وأنَّ لون المذنب الذي سبق الطاعون كان باهتاً وخافتاً ولا حياة فيه، وكانت حركتُه ثقيلةً ورصينةً وبطيئة. أمَّا المذنبُ الذي استَبَقَ الحريقَ، فقد كانَ ساطعاً ومُتَلألِئاً، أو كما قال آخرون، مُلتَهِباً، وحركتُه سَريعةٌ وغَضْبى. وهكذا، فقد أخبرَ الأوَّلُ عَنْ نازلةٍ ثقيلة وبطيئة،

لكنَّها شديدة ورهيبة ومفزعة. أمَّا الآخر، فقدْ تنبَّأ بِضربَةٍ مُباغتةٍ وسريعةٍ وناريَّةٍ مثل الحريق الكبير. حتى إنَّ بعض الناس، بصفةٍ خاصة، مِمَّنْ رأى المذنَّب الذي سبق الحريق، قد هُيِّئ إليهم أنَّهم لَمْ يروه يمرُّ بصورة خاطفةٍ وعنيفة، وكان بمقدورهم إدراكُ حركتِه بأعيُنهم، حتى إنَّهم سمعوه، أيْ أنَّه أحدَثَ ضَجيجاً هائِلاً وراعداً، فَضلاً عَنْ كونِهِ عَنيفاً ورَهيباً، ومِن الممكن إدراكُه وإنْ كان بعيداً.

لقد رأيتُ كلا النجمَين، ولا بُدَّ لي أنْ أعترفَ أنَّني شاركتُ الناس اعتقادهم فيهما، وكنتُ أميلُ إلى النظر إليهما كما لو كان ظهورُهما نذراً ورسائل إلهية، ولاسيَّما حين أعقب الوباء ظهور النجم الأول، فرأيت الثاني شبيهاً بسابقه. ولم يسعْني سوى القول إنَّ الربَّ لـمَّا يُنْزِلْ عقابَه كاملاً بالمدينة بعد. غيرَ أنَّه لم يكن بمقدوري، في الوقت نفسه، أنْ أذهبَ في الأمر إلى الحدِّ الذي بلغه آخرون، وذلك لمعرفتي أنَّ الفلكيِّين يُحددون أسباباً طبيعية لهذه الظواهر، وأنَّ حركاتها بل ثورانها مَحْسوبٌ بالأرقام، أو يُزْعم أنَّه كذلك. وعليه، لا يُمكن أنْ تُسمَّى، تماماً، نُذُراً وإشارات. فضلاً عَنْ القولِ إنَّها جالبةٌ لتلك الفئة مِن الأحداث مثل الطاعون، والحرب، والحريق وغيرها.

ومهما تكن، أو كانت، أفكاري وأفكار الفلاسفة، فإنَّ هذه الأشياء مارست تأثيراً غير عاديٍّ في عقول عامَّة الناس، وكانت لديهم مخاوف سوداويَّة عموماً من كارثة مفزعة ونازلة تَحلُّ بالمدينة. وتأتَّى ذلك من رؤية المذنَّب والإنذار الصغير الذي جاء في كانون الأول، حين توفي اثنان في أبرشيَّة «**سانت جايلز**» مثلما ذكرنا. وكذا فإن مخاوف الناس تعاظمت على نحوٍ غريب بسبب تصوُّرات العصر المغلوطة وضلالاته؛ إذ كان الناس، استناداً إلى مبدأ ليس بمقدوري تخيُّله، أعظم إدماناً على النبوءات، والتعازيم الفلكية والأحلام، وحكايات «**النساء القدامى**» (خرافة بريطانية تتعلق بشفاء الأمراض)، أكثر من أي وقت مضى. ولا أعرف إنْ كان هذا المزاج الشقيُّ قد استثارته حماقاتُ بعض الناس مِمَّا يتكسَّبون منه، أي بإعداد مطبوعات تحوي النبوءات والتكهنات عن الحوادث المستقبلية. ولكن من المؤكد أن الكتب قد بثَّتْ الفزع في قلوبهم، ومن تلك (التنبؤات): «**رزنامة لِيلي**»، و«**تنبؤات غادبري الفلكيَّة**»، و«**رزنامة روبين الفقير**»، وما شابهها. يضاف إليها العديد من الكتب الدينيَّة الزائفة التي حمل أحدها عنوان: «**اخرج من هنا، يا شعبي، حتى لا تكون مشاركاً في ويلاتها**»، وسُمِّي آخر: «**الإنذار العادل**»، في حين دعي ثالث بـ «**المُذكِّر البريطاني**»، وغير ذلك كثير. وقد تكهَّنت كلُّها، أو معظمها، تصريحاً أو تلميحاً، بخراب المدينة. حتى إنَّ بعضاً من هؤلاء امتلكوا جرأة كبيرة في العدْو عبر الشوارع رافعين أصواتهم بالنبوءات، زاعمين أنهم قد ابتُعِثوا لنُصح الناس وإرشادهم.

وقد صاح واحدٌ منهم في الشوارع كما فعل «**يونان**» في «**نَينَوى**»[12]: بعد أربعين يوماً، ستُدمَّر لندن. ولست متأكداً إنْ قال أربعين يوماً أو بضعة أيام. ليس هذا وحسب، فلقد عدا أحدهم عارياً إلا مِنْ سِرْوالَيْن جُعلا حول وسطه، صائحاً بالناس ليلاً ونهاراً، مثل الرجل الذي ذكر يوسف أنه صرخ قُبَيل دمار المدينة: «**الويل لك يا أورسالم**».

وهكذا فقد صرخ ذلك الشخص العاري المسكين: «**أيها الربُّ العظيم القهَّار**» ولم يُعْقِبْ ذلك بكلمة، وإنما ظلَّ يردِّد العبارة ذاتها بلا انقطاع، بصوت ومُحياً تملَؤُهما الرهبة، ووتيرة سريعة. وما كان لأيٍّ مِن الناس أن يعثر عليه واقفاً أو مُستريحاً، أو مُتَبَلِّغاً ببعض الطعام، أو هذا ما سمعته على الأقل. ولقد صادفت هذا المخلوق المسكين غير مرَّة في الشوارع، وتكلَّمت إليه، لكنه لم يكن ليدخل في أيِّ حديث معي أو مع غيري، وإنما يظلُّ مُطلقاً صيحاته الموحشة دون انقطاع.

وقد أفزَعَت هذه الأشياء الناس فزعاً لا يطاوله فزع، ولاسيَّما حين كانوا يجدون، مرَّتين أو ثلاثاً، كما ذكرتُ من قبل، واحداً أو اثنين من لائحة الموتى قضيا بالطاعون في أبرشيَّة «**سانت جايلز**». وتلحق بذلك أحلام العجائز أو، ينبغي أن أقول، تفسيرات العجائز لأحلام الآخرين. وقد أذْهبَ ذلك عقول كثير من الناس، فسمع بعضهم أصواتاً تحذِّرهم كي يرحلوا عن المدينة، ذلك أنه سينزل وباء عظيم بلندن يتعذَّر به على الحيِّ أنْ يدفن الميت...!! أمَّا بعضهم الآخر فقد رأى أشباحاً في الجوِّ...!! ومِن المتعيِّن السماح لي أنْ أقول عن أفراد كلا الفريقين، دون أيِّ خرق للحرمات كما آمل، إنَّهم سمعوا أصواتاً لم تَنْطق مطلقاً، ورأوا مشاهد لم تظهر قَطُّ. غير أنَّ مُخيِّلة الناس قد جنحت بعيداً ومَسَّها الجنون. ولا عجب إنْ كان أولئك الذين يستغرقون في النظر إلى الغيوم على الدوام قد رأوا أشكالاً وهيئاتٍ وتمثيلاتٍ وتَمَظْهُراتٍ لم تكن في ذاتها سوى هواء وبُخار.

وقد أخبرونا، هنا، أنَّهم رأوا سيفاً مُلتهباً تقبض عليه يدٌ تخرج مِن سحابة، في حين تتجه مُقدمة السيف مباشرة نحو المدينة. وهناك من أخبرونا أنهم رأوا توابيت الموتى والأكفان محمولة في الهواء كي تُدفن. وتحدَّث آخرون عن أكوامٍ مِن الجثث الـمُلقاة هنا وهناك دون أن تُدفن، وما إلى ذلك، بحسب الموضوع الذي كانت مُخيِّلة هؤلاء المساكين المفزوعين تزوِّدهم به ليَبْنوا عليها استيهاماتِهم.

وهكذا، فإن استيهامات المصاب بالوسواس ترسُمُ سفناً، وجيوشاً، ومعارك في السماء. حتى إذا ما قطعت حركةُ أنفاسه نظرةَ عيونه الثابتة عاد كلُّ شيء

إلى مادَّته الأولى، أي السَّحابة. أستطيع أن أملأ هذا الكتاب بالروايات الغريبة التي رواها هؤلاء الناس، يومياً، عمَّا رأوه. وقد كان كلُّ واحد منهم مُتيقِّناً أنه رأى ما زعم أنه رآه، إلى درجة أنَّك إذا عارضته عَدَّ ذلك خرقاً لمبادئ الصداقة، أو أنْ تُرمى بالفظاظة وقلَّة الكياسة من جهة، أو أنْ تُنْعت بأنَّك مُنتهكٌ للحرمات وعديم الإحساس. ففي إحدى المرات قبل حلول الوباء (بخلاف ما ذكرته عن أبرشيَّة جايلز)، وأعتقد أنه في آذار، انضممتُ إلى حشد من الناس لإشباع فضولي، وألْفَيْتهم جميعاً يُحدِّقون في الجوِّ ليَرَوا ما بدا واضحاً للمرأة التي أخبرتهم بما تراه، وهو مَلاكٌ يتلفَّعُ بالبياض، يحمل بيده سيفاً نارياً مُلَوِّحاً به، أو مُتوعِّداً، فوق رأسه. وقد وَصفتْ كلَّ جزء من أجزائه بدقَّةٍ مُتناهيةٍ، مُظهِرةً للنظَّارةِ حركتَه وشكلَه، وانخرط الناس المساكين في ذلك بِشَغَفٍ واستجابة بالغين.

«أجل، إنَّي أرى كلَّ شيء بوضوح»، قال أحدهم، وأردف: «هناك سيفٌ واضحٌ كأحسن ما يكون». في حين رأى آخر الملاك، ورأى ثالث وجهه تحديداً، فَصاحَ: «يا لهذا المخلوق البهيِّ والجليل». وهكذا، فقد كان كُلُّ واحد منهم يرى شيئاً من ذلك الملاك. وقد أرسلت نظري بالشغف ذاته الذي حرَّك الآخرين، ولكنْ لم تَحْدوني، ربَّما، الرغبة ذاتُها في أنْ يُمْلى عليَّ شيء. فقلتُ: لا أستطيع، حقاً، أنْ أرى سوى غيمةٍ بيضاء ساطعة من أحد الجوانب بسبب سطوع الشمس على الجانب الآخر. وحاولت المرأة أنْ تُريني ما تَرى. لكنْ، تعذَّر عليها انتزاعُ اعترافٍ منِّي برؤية ذلك الملاك، ولو قلتُ خلافَ ذلك لكنتُ، فعلاً، أُجانفُ الحقيقة. غير أنَّ المرأة، تحوَّلت بنظرها إليَّ ونظرت في وجهي، وتَهيَّأ لها أنَّي ضَحِكتُ، فَخانَتْها مُخَيِّلتُها هذه المرَّة أيضاً. فأنا، حقاً، لم أضحكْ، بل كنتُ أتأمَّل بجديَّة شديدة كيف كان الناس المساكين فزعين بسبب طغيان مُخيِّلتهم الخاصَّة. ومهما يكُنْ من أمر، فقد أشاحت المرأة بوجهها عني قائلةً إنَّي مُنْتهكٌ للمُحرَّمات ومُستهزِىء، وتوعَّدتني: هذا زمنٌ يعمُّ فيه الغضب الإلهي، والنوازلُ المفزعة قادمةٌ، ولاَ بدَّ للمُستهزئين مِن أمثالي أنْ يَتيهوا على غير هدى ويَهلكوا.

وبدا الناسُ المتحلِّقون حولها مُشمئزِّين مثلَها، ووجدتُ أنَّه ما مِنْ سبيلٍ لإقناعهم بأنَّي لم أضحكْ منهم، وأنَّه لا بدَّ أن يهاجموني دون أن أتمكَّن من تحريرهم من الوهم، فتركتُهم. أمَّا ما رأوه فقد مرَّ مرور النجم الملتهب ذاته. وقد حدثت لي مواجهة أخرى، في واضحة النهار، وذلك حين كنتُ سائراً عبر مجاز ضيِّق يُدْعى «**بِتي-فرانسيس**» يمُّر بصفٍّ من ملاجئ الفقراء، ويفضي إلى مقبرة «**بشوبس غيت**». هناك مقبرتان تُفضيان إلى كنيسة أو أبرشية «**بِشوبس غيت**»، نجتاز إحداهما لِنَمُرَّ من مكان يُدعى «**بِتي-فرانسيس**»، إلى شارع «**بِشوبس غيت**»، حيث لا خروج إلا مِن باب الكنيسة؛ أمَّا الأخرى، فهي

على جانب الممر الضيق، حيث توجد ملاجىء الفقراء إلى اليسار، وسورٌ خفيض تعلوه صفوف من الألواح الخشبيَّة إلى يمين الممر. أمَّا الجانب الآخر إلى أقصى اليمين، فيقوم عليه سور المدينة.

كان يقف في هذا المجاز الضيِّق رجلٌ ينظر من خلال الألواح الخشبيَّة القائمة على السور إلى المدفن. كان واقفاً هناك، بقدر ما يسمح به ضيق المجاز وعديدُ الناس الذين يذرعونه، دون أن يعطِّل حركة المارَّة. وكان يتحدَّث بلهفة شديدة إلى المارَّة مؤشراً بيده إلى أحد الأمكنة، ثمَّ إلى آخر، مُؤكِّداً أنه رأى شبحاً يسير على ذلك القبر هناك. فكان يصف شكله، والوضعيَّة التي اتخذها، وحركته بدقَّة عالية إلى درجة دهشته وذهوله العظيمين مِن أنَّ أحداً لم ير الشَّبح المذكور كما رآه. وكان يصرخ فجأةً: «ها هو ذا، الآن، يأتي من هذه الطريق»، ثم يقول: «ها قد رجع»، وبقي على هذه الحال حتى حملَ الناسَ، بعدَ جَهْد مديد، على الاعتقاد اعتقاداً راسخاً بوجوده، بلْ ظنَّ أحدُهم أنَّه قد رأى ذلك الشبح، وحصل الأمرُ ذاتُه مع شخصٍ آخر. وهكذا، كان يأتي كلَّ يوم صانعاً صَخَباً غريباً، مُتَوَهِّماً أنَّ الشبح يجولُ في مَمَرٍّ ضَيِّق جداً، ويظلُّ على تلك الحال حتى تُشير ساعةُ «**بشوبس غيت**» إلى الحادية عشرة، وعندها يبدأ الشبح، فيما يبدو، كما لو جرى استدعاؤه، بالاختفاء فجأة.

نظرت بحرص في الاتجاهات جميعها، وفي اللحظة نفسها التي أشَّر فيها ذلك الرجل، لكنِّي لم أستطع أنْ أرى علامة على وجود أيِّ شيء. بيد أني كنتُ مُتيقناً أنَّ هذا الرجل المسكين هو مَنْ تسبَّب بالصدمة للناس، وجعلهم يَفرُّون فزعين ومرتعدين، حتى عَزفَ من عَرفَ ذلك منَ الناس، لمدة طويلة، عن سلوك تلك الطريق، ما عدا قلَّةً قليلة. أمَّا في الليل، فما كان لأحدٍ أن يذهب هناك في أيِّ حال من الأحوال.

وقد وضعَ الشبحُ، كما أكَّد ذلك الرجلُ المسكين، علاماتٍ على المنازل والأرضِ والناس، مُنذراً بصورة واضحة أو لنقلْ إنهم تلقَّوا الأمر بهذا المعنى؛ أنَّ عدداً غفيراً من الناس سيُدفنون في مقبرة الكنيسة، كما حدث بالفعل. أمَّا أنَّه رأى تلك الصور، فَعَليَّ أنْ أعترف أنِّي لم أؤمن بذلك قطُّ، ولم أستطع أنْ أرى أياً منها على الرغم من أنني نظرتُ بحرصٍ شديد لرؤيتها ما أمكنني ذلك.

تُظهر هذه القصص المدى الذي تملَّكت فيه الأوهام عقولَ الناس. وإذ كانت لديهم فكرة عن اقتراب البلوى، فإنَّ كلَّ التنبؤات وقعت على أكثر الأوبئة فتكاً؛ الطاعون الذي سيُحيل المدينة جمعاء، بل المملكة، إلى خرابٍ، ولا بُدَّ أنْ يُدمِّر المدينة كلها بِبَشَرِها ودَوابِّها.

وقد أضاف الفلكيُّون إلى ذلك، كما أسلفتُ، قصصاً عن اقترانات الكواكب بطريقة خبيثةٍ وتأثيرٍ مؤذ. وكانت إحداها بصدد الحدوث، وقد حدثت فعلاً في تشرين الأول، في حين حدثت أخرى في تشرين الثاني. وملأ هؤلاء المنجِّمون عقولَ الناس بالنبوءات حول هذه الإشارات السماويَّة، مُنْذرين بأنَّ هذه الاقترانات تُنبئُ بالقحط، والمجاعة، والطاعون. وقد أخطأوا تماماً فيما خصَّ النبوءَتين الأولَيَيْن، ذلك أنَّنا لم نشهد موسم جفاف، ولكنْ جاء في بداية السنة صَقيعٌ قاسٍ استمرَّ من كانون الثاني إلى آذار تقريباً، وأعقب ذلك طقسٌ مُعتدلٌ غلبَ عليه الدفء لا الحرُّ، مَصحوباً بريحٍ مُنعشة، أيْ أنه، بوجيز العبارة، طقسٌ ملائمٌ وغنيٌّ بالأمطار.

rوكانت هناك بعض المساعي لحظر طباعة هذا النوع من الكتب التي أفزعت الناس. ولتخويف ناشريها وبائعيها، جرى اعتقالُ بعضهم. لكنْ، لم يَجْرِ فعلُ شيءٍ حيالَ ذلك، كما أُعلمت، إذْ لم تتوافر لدى الحكومة أيُّ رغبةٍ في إثارة غضب الناس الذين كانوا جميعاً، كما قد أقول، مسلوبي العقول في الأصل.

ealpagex0029xولا أستطيع أن أُبرىء أولئك القُسس الذين أَغرَقوا قلوبَ سامعيهم بالخوف عوضَ أنْ يَرفعوا من معنوياتهم. وما منْ شكٍّ في أنَّ العديد منهم قدْ فعلوا ذلك تقويةً لعزائم الناس، ولاسيَّما للتعجيل في توبتهم وأَوْبَتِهم إلى ربِّهم، لكنَّ ذلك، يقيناً، لم يُحقِّق غاياتِهم، أقلها بالنسبة إلى ما أَحْدَثَتْهُ مِن ضررٍ على نحوٍ آخر. وفي واقع الأمر، فكما فعل الربُّ عبر الأسفار المقدَّسة جميعها، بجذب العبادِ نحوه عبر الترغيب بالدَّعوةِ للأوبةِ إليه وامتلاك الحياةِ عوضَ استخدام الترهيب والوعيد، فإنَّ عليَّ أنْ أَعترف أنَّي ظننتُ بوجوب أنْ يفعلَ القُسُس الأمرَ ذاته، وأنْ يتمثَّلوا صنيعَ الربِّ المبارك في ذلك. وهذا إنجيلُه مليءٌ بالرسائل السماويَّة عن رحمةِ الربِّ وتشوُّقِه لاستقبالِ التائبين والعفوِ عنهم شاكياً: «لكنكم لا تريدون أنْ تأتوا إليَّ لتكون لكم حياة». ولهذا، يُدعى إنجيلُه إنجيل السَّلامِ والنِّعمة.

لكنَّ لدينا بعضَ الرجال الطيبين، ومنْ كلِّ المذاهب والآراء؛ أولئك الذين امتلأت أحاديثهم بالترهيب، ولم يَنطق كلامهم إلا على الأشياء المفزعة. وبينما جمعوا الناس تحتَ وطأةِ الرعب، فإنَّهم أرسلوهُم إلى بيوتِهم باكين، ولم يتنبأوا إلا بالشرورِ وعظائمِ الأمور، باثِّينَ في أنفُسِهم الخوفَ بأنَّهم سيُدمَّرون تدميراً، دونَ إرشادهم، بصورةٍ كافيةٍ على الأقلِّ، للتضرُّع إلى السماء طلباً للرحمة.

كان، فعلاً، زمنَ التصدُّعات الدينيَّةِ البغيضةِ التي سادتْ بيننا، فقد عمَّت الانقسامات والخلافات والآراء المختلفة بين الناس. وكانت كنيسة إنجلترا

الرسميَّة الأنجليكانيَّة قد عادت، فعلياً، مع عودة الملكيَّة قبل نحو أربع سنوات. غيرَ أنَّ القُسُسَ والوُعَّاظَ المشْيَخيِّينَ كما المستقلين، وغيرهم منْ أهلِ الإيمان المعلنِ والطوائف الدينيَّة، شرعوا في استقطاب المجتمعات المنفصلة وأقاموا مَذْبَحاً ضدَّ آخر. وقد كانت لهؤلاء اجتماعاتهم التعبُّديَّة المنفصلة، كما هي حالهم الآن، لكنْ، لم تكن أعدادُهم بذلك القدر وقتذاك، ولم يتشكَّل الخارجون على الكنيسة في جسمٍ واحد مثلما هو أمرهم منذ ذلك الحين، وقد ظلَّت تلك التجمُّعات التعبُّديَّة قليلةً. وحتى هذه الأخيرة، فإن الحكومة لم تسمحْ بها بلْ قَمَعَتْها وفَضَّتْها.

غيرَ أنَّ حلولَ الوباء وفَّقَ بين هذه الفرق من جديد، أقلها إلى حين من الزمن. وقد تجشَّمَ العديدُ، مِنْ أفضلِ القُسُس والوُعَّاظ الخارجين على الكنيسة وأحسَنِهم، عَناءَ الذهابِ إلى الكنائس، إذ فَرَّ قُسُسٌ من الكنيسة الرسميَّة، لأنه لم يكن بمقدور كثير منهم أنْ يَحتملَ البقاء في ضوء الوضع الوبائي، فتوافدَ الناسُ دونَ تمييزٍ لسماع خُطبهم دون استعلام عمَّنْ يكونون أو عنْ أيِّ رأيٍ يَصدُرون. لكنْ، بعدَ أنْ انطوت صفحةُ الوباء تراجعت روحُ المحبَّة، وعادت المياه إلى مجاريها من جديد، وعيَّنت كلُّ كنيسةٍ قُسُسَها منْ جديد، أو جعلوا آخرينَ من شيعَتهِم محلَّ مَنْ مات مِن القُسُس.

ولا بُدَّ للمرء أنْ يقول إنَّ الشرَّ، دائماً، يستجلِبُ الشرَّ، فقدْ قادَ الفزعُ والمخاوف الناسَ إلى آلافٍ منْ صُوَر الضعفِ والحُمق والأذى. ولم يكونوا بحاجة، في الواقع، إلى تلك الطائفة من الأشرار حتى يحثوهم عليها. وتمثَّل ذلك في تراكُضِهم نحوَ العَرَّافين والسحَرة والمنجِّمين لمعرفة حظوظِهِم، أو كما جرى التعبير عنها في الأحاديث الدارجة، مِنْ أجلِ أنْ يُخبَروا بمصائرهم أو أنْ تُحسَبَ طوالعُهُم (الأبراج)، وما إلى ذلك. وما لبثَ هذا الحُمقُ أنْ جعلَ المدينةَ تَغَصُّ بأجيالٍ شريرةٍ من الممتهنين المزيَّفين للسحر، أو الفنِّ الأسود كما أسموه، وما لا أعرفُ أنْ أسميه، حتى إن هناك من الممارسات الشريرة ما هو أسوأ ألف مرَّة ممَّا قارفه الناس من ذنوب.

وقد ازدهرت هذه التجارة بصورة واسعة، ومورست على نطاقٍ واسعٍ إلى درجة بات من الشائع أنْ تُجعلَ لافتاتٌ وكلام منقوش على الأبواب على النحو التالي: «هُنا يقطنُ عرَّاف»، «يَقطنُ مُنجِّم هُنا»، «لعلكَ تحصلُ على حسابِ طَوالِعِكَ في هذا المنزل»، وما إلى ذلك.

وحدث، كذلك، أنْ ترى علامةً دالَّةً على منازلِ هذه الفئة في كلِّ شارعٍ تقريباً، مثل علامة رأس الراهب «**بيكون**» النحاسي، وعلامة الأم «**شيبتون**» (رمز الشعوذة)، وعلامة رأس «**ميرلين**» (ساحر أبيض جبَّار)، وما شابه ذلك.

لا أدري، حقاً، بأيِّ مادةٍ عمياء وغريبة وسخيفة أرضى رُسلُ الشيطان هؤلاء الناسَ وأقنعوهم. ولكنْ، مِن المؤكد أنَّ ما لا يحصى مِن الناس قد تزاحَمَ عند بيوتِ هؤلاء كُلَّ يوم. وإذا شوهدَ واحدٌ من هؤلاء الـمَقيتين خارجاً بِسُترتهِ المخمليَّة، وعصبة الرأس، والعباءة السوداء؛ وهي ما اعتاد هؤلاء الرجالُ الدجالون فعلَه لدى خروجهم، فإنَّ الناس سيتبعونَه أفواجاً ويطرحونَ عليه الأسئلةَ وهو ماضٍ في سيره.

لا أحتاجُ أنْ أذكر فداحةَ هذا الوهم البشع، وإلى أينَ كان يتجه. ولم يبرأ الناس منه، حتى حلَّ الطاعون، فقضى على كلِّ ذلك قضاءً مبرماً. وأفترض أنَّه قدْ طهَّرَ المدينة من معظم قرَّاء الطوالع هؤلاء. وتمثَّلت واحدةٌ من صور الأذى في أنَّه إذا سأل الناسُ المساكين هؤلاء المنجِّمين الخدَّاعين هل سيحلُّ الوباء أم لا؟ فإنهم يجمعون على الإجابة بـ «نعم»، فذلك يُبقي على تجارتهم مزدهرة. ولو أنَّ الناس تحرَّروا منْ خوفهم من الوباء، لغدا السحرة عديمي نفعٍ على الفور، ولَبارتْ تجارتُهم. لكنهم لا يفتأون يُحدِّثونهم عنْ تأثيراتِ كذا وكذا من النجوم، وعن اقترانات كذا وكذا مِن الكواكب التي مِن المحقَّق أنَّها تستجلب المرض والأوبئة، واستصحاباً، الطاعون. وَحَرِصَ بعضُ هؤلاء على إخبار الناس أنَّ الطاعون قدْ حلَّ بالفعل. وكان ذلك صحيحاً على الرغم مِن أنَّهم قالوا ذلك دون أدنى معرفة.

أمَّا القُسُسُ والوُعَّاظ مِن كلِّ فئة مِمَّن غلبَتْ عليهم الجديَّة والفهم، فمِنَ المتوجِّب إنصافُهم والقولُ: إنَّهم اشتدُّوا على هذه الممارسات الشريرة وسواها، وكشفوا عن حُمْقِها وشَرَّانِيَّتِها معاً. فاحتقرها أكثرُ الناس رَصانةً وحكمةً ومَقَتوها، لكنْ بدا من المحال التأثير على الناس العاديين والطبقة العاملة من الفقراء، فقد كانت مخاوفهم غالبةً على مشاعرهم جميعها، وأنفقوا نقودهم، كيفما اتفق، على تلك الممارسات الغريبة. ومثَّلت الخادمات والخدم النسبة الأكبر من زبائن أولئك المشعوذين. وتمثَّل سؤالُهم، الذي يتلو استفهامهم الأول: هل سيحلُّ الوباء؟ أقول: كان سؤالهم التالي هو: بحقِّ السماء يا سيِّدي، ماذا سيحلُّ بي؟ وهل ستحتفظ سيدتي بي، أم أنَّها ستتخلَّص منِّي؟ وهل ستبقى هنا أم أنَّها ستقصد الريف؟ وإنْ فعلت، هل ستصطحبني معها، أم تتركني هنا أتضور جوعاً ثمَّ أموت؟ وكان الخدم من الرجال يسألون الأسئلة ذاتها. وفي واقع الأمر، لقد كانت حالُ الخدم المساكين مُحزنة للغاية، كما سأورد تباعاً كلما سمح المقام بذلك، فمن الواضح أنَّ عدداً هائلاً منهم سيجري التنكُّر له، وقد كان. إذ بادَ عددٌ غفيرٌ منْ هؤلاء، ولاسيَّما مِمَّن مَنَّاهُم هؤلاء الأنبياء الزائفون بالآمال، وبأنَّهم ماضون في خدمتهم، وأنَّهم سيُحملون مع أسيادهم وسيداتهم إلى الريف. ولم تضطلع أيٌّ مِن الجمعيَّات الخيريَّة بإعانة هذه المخلوقات البائسة التي كانت أعدادها تتزايد. وإذ كانت تلك هي

طبيعة الحال في ظروف كهذه، فلا بدَّ أن حال هذه الفئة هي الأسوأ من بين ناس المدينة.

أثارت هذه الأمور عقول عامَّة الناس عدَّةَ أشهر، في حين كانت مشاعر الترقُّب تُهيمنُ عليهم ولم يكن الوباء، كما قد أقول، اندلع بعد. ولا ينبغي أنْ أُغفل أنَّ القِسم الأكثر رصانة مِن السكان سلك سلوكاً مختلفاً. ولقد عزَّزت الحكومة حياتهم الروحيَّة، وأقامت الصلوات الجماعيَّة وعيَّنت أياماً للصيام والتضرُّع، اعترافاً علنياً بالذنب ولِتَوَسُّل رحمة الربِّ وتفادي النازلة المرعبة التي تحوم فوق رؤوسهم. وغنيٌّ عن البيان الحديث عن اللهفة التي تلقَّى بها الناس مِنْ كلِّ المذاهب هذه الفرصة، وكيف أنَّهم توافدوا إلى الكنائس والقداديس، ودخلوا في حالة من التزاحم والتدافع، بحيث لم يتمكَّنْ أكثرُهم من الاقتراب من أبواب الكنائس، بل من أبواب أكبر الكنائس. وأقيمت الصلوات اليوميَّة، صباحَ مساءَ، في عدة كنائس، وعُيِّنت أيام للصلاة الخاصَّة في أمكنة أخرى. وحضر الناسُ الصلواتِ جميعَها بإخلاصٍ غير مألوف، ولجأت عدَّة عائلات، مِنْ غَيرِ مذهبٍ وطائفة، إلى الصوم ولم يصرِّح أفرادها بذلك إلا للأقربين. وهكذا، ولنقل ذلك بوجيز العبارة، إنَّ أولئك الناس كانوا، فعلاً، جادِّين ومُتديِّنين، وقد واظبوا، بطريقةٍ مسيحيَّة حقيقيَّة، على العمل الحقيقيِّ في التوبة والتضرُّع، كما يتعيَّن على المسيحيِّ أنْ يفعل.

وأظهر عامَّة الناس، مرَّةً أخرى، أنَّهم سيتحمَّلون نصيبهم من هذه الأمور، حتى إنَّ العائلة المالكة التي كانت غارقة، وقتذاك، في عالم الرفاه والترف، قد تصنَّعت القلق خشيةً من غضب العامَّة. فأوقفت الأنشطة المسرحيَّة والموسيقيَّة التي أقيمت وأخذت تزداد لدينا، تأسِّياً بالبلاط الملكيِّ الفرنسيِّ. وكذا الأمر بالنسبة إلى طاولات القمار، وصالات الرقص والموسيقى التي تضاعفت أعدادها وبدأت تفسدُ أخلاق الناس، فقد أُغلقت وحُظرت. أمَّا المهن التي على شاكلة عفريت حلوى البودينغ، والمهرِّج أندرو، وعروض الدُّمى، وبهلوان الحِبال، وما شابه ذلك؛ تلك المهن التي سحرتْ أَعْيُنَ العامة من الفقراء، فقد أغلق أصحابُها مسارِحَهم حين كسدت تجارتهم، ذلك أنَّ عقول الناس كانت قلقةً ومنصرفةً إلى أمر آخر. وعلت مسحةٌ من الحزن والفزع مِن الوباء وجوهَ الناس وحتى العامَّة منهم، فقد كان الموت شاخصاً أمام أعينهم، وبدأ كلٌّ واحد منهم يفكِّر بموته لا في المرح واللهو.

ولكنْ، حتى هذه الأفكار الصحيَّة، التي إنْ أُديرت جيداً فإنها ستقود الناس، بكل سرور، للركوع والاعتراف بخطاياهم راجين من مخلِّصهم الرحيم العفو، مُستَمْطرين رحمته في زمن المحنة هذا الذي من الممكن أنْ نكون به نَيْنَوى الثانية، أقول: حتى هذه الأفكار الصحيَّة كانت لها نتائج عكسيَّة متطرفة [13]

لدى العامَّة من الناس، ممَّن اقتيدوا الآن، بخوفهم، إلى مَدَيات الغباء القصوى، بعد أنْ كانوا جهلةً وأغبياء فيما يصدر عنهم من أفكار بقدر ما كانوا أشراراً وطائشين. وكما قلت مِنْ قبل: لقد تراكضوا نحو السحرة والساحرات وأصناف المخادعين ليعرفوا ماذا سيحلُّ بهم (أولئك الذين غَذَّوا مَخاوفَهم وأبقوهم في حالةٍ من القلق والتنبُّه بقصد تضليلهم والاستيلاء على ما في جيوبهم)، وكانوا مجانين بالقدر ذاته حين جَروا وراء الأطباء الدَّجالين والصيادلة المزيَّفين، ووصفات العجائز طلباً للدواء والعلاجات، مُخزِّنين أعداداً كبيرةً من الأدوية على شكل حُبوبٍ وسوائل ومواد واقية كما كانوا يسمُّونها. ولم يقفوا عند إنفاق أموالهم، وإنما عمدوا إلى تسميم أنفسهم سلفاً خشية مِن سمِّ العدوى، وكانوا يُعدُّون أنفسهم للمرض عوض اللجوء إلى الوقاية منه. ومِنْ جهة ثانية، كان مِن المذهل وغيرِ المتخيَّل كيف تُلصَقُ على أعمدة المنازل وزوايا الشوارع يافطاتُ الأطباء وإعلانات أمثالهم من الجهلة الذين يمارسون عبثَهم وشعوذاتِهم في الأدوية، ويَدْعون الناس إلى الحضور لتلقي العلاجات. وغالباً ما اتخذت الدعوة هذه الصيغ الرنَّانة: «حبوبٌ مثالية للوقاية من الطاعون»، و«مواد وقائيَّة فعَّالة ضدَّ العدوى»، و«شرابٌ ناجع جداً ضدَّ فساد الهواء»، و«الإجراءاتُ الصحيحة للتصرف حيال الجسد في حالة العدوى»، و«حبوبٌ مُضادَّة للطاعون»، و«شرابٌ لا يُضاهى، ولم يوجد من قبل لعلاج الطاعون»، و«علاج شامل للطاعون»، و«الماء الحقيقي لعلاج الطاعون»، و«الترياقُ الملكيُّ لأشكال العدوى جميعها»، وغيرها مِمَّا لا أستطيع إحصاءه من الإعلانات، ولو استطعت لاقتضاني ملء كتاب بتمامه.

وعمد آخرون إلى وضع يافطاتٍ تستدعي الناس إلى مساكنهم للحصول على الإرشادات والنصيحة في حالة العدوى، واحتوت تلك اليافطات على عناوين خادعة أيضاً، ومن تلك:

«طبيب هولنديٌّ بارز، قَدِم لتوِّه مِن هولندا، إذ أقام طوال وقت الوباء في السنة الماضية في أمستردام، وعالج العديد من الناس مِمَّن أصيبوا، فعلياً، بالوباء».

و«سيِّدة إيطاليَّةٌ نبيلة وصلت للتوِّ مِن نابولي، ولديها وَصفةٌ سِريَّةٌ لمنع العدوى، تحصَّلت عليها مِن خبرتها العظيمة، وقدَّمت علاجاتٍ مدهشة عبر هذه الوصفة للطاعون، الذي غزا البلاد مؤخَّراً، حيثُ فَتَكَ بعشرين ألف (20000) شخص في يوم واحد».

و«سيِّدةٌ نبيلة مسنَّة مارست، بنجاحٍ كبير، علاجَ الطاعون خلال تفشِّيه مؤخراً في المدينة سنة ألفٍ وستمئةٍ وستٍّ وثلاثين (1636)، ولا تُعطي استشارتها

الطبيَّة إلا للنساء، عبر التحدث معهنَّ وما إلى ذلك».

و«طبيبٌ مُتمرِّس درس، منذ زمن طويل، كلَّ الترياقات المضادَّة لأشكال السمِّ والعدوى، وقد وصل بعد أربعين سنة من مزاولة المهنة حدَّاً مِن المهارة يجعله، بمباركة مِن الله، قادراً بصورة ما على إرشاد الأشخاص حول الكيفيَّة التي تَقيهم التقاطَ أيِّ مَرَضٍ مُعْدٍ مهما كان هذا الأخير ضارياً، وهو يُرشد الفقراءَ دون مقابل».

لقد لَفَتُّ الانتباه إلى أولئك عن طريق تقديم المثال، وبمقدوري أنْ أعطيك دَسْتَتَيْن أو ثلاثاً مِن هذه الفئة التي يبقى، بعد ذلك، عددٌ وافر منها بلا ذكر. ويكفي منْ تلك الأمثلة أنْ نخبر عن واحدة من الصور الهزليَّة لذلك الزمان، وكيف أنَّ مجموعة من اللصوص والنشَّالين لم تَسلب الناسَ أموالَهم وتَغشهم فحسب، وإنَّما سمَّمتْ أبدانهم بمستحضراتٍ كريهة ومُميتة؛ بعضُها من الزئبق وبعضُها من أشياء أخرى سيِّئةٍ مثله، بعيدةٍ كلَّ البُعد عمَّا ادَّعَتْهُ مِن خَواصَّ شفائيَّة، بل إنَّها ضارَّةٌ عِوَض أنْ تكون نافعة للبدن في حالة حدوث العدوى.

وإنْ أنسَ، لا أنسى براعةَ واحدٍ مِن هؤلاء الأطباء الدَّجالين التي أغرى بها الناس الفقراء للتوافُد عليه، لكنَّه لم يقدم لهم شيئاً دونَ مُقابلٍ ماديٍّ. فقد أضاف فيما يبدو إلى يافطته، التي ألصقها في الشوارع، هذا الإعلان بحروف كبيرة: «يُقدِّم استشارته الطبيَّة للفقراء بلا مقابل». فجاء إليه الفقراء أفواجاً بسبب ما أذاعه، وأَتْحَفَهُم بالأحاديث الجميلة، واستفسر منهم عن أحوالهم الصحيَّة وتركيبَتهم الجسديَّة، وأخبرهم بكثير من الفوائد التي يتعيَّن عليهم القيام بها، لكنها لم تَنْطَوِ على اللحظة العظيمة؛ تلك اللحظة التي تُوِّجت بخلاصة ذلك كلِّه، وتمثَّلت في أنَّه أعدَّ مُستَحضراً إذا أخذوا منه مقداراً مَعلوماً كلَّ صباح، فإنه يراهنُ بحياته أنَّ الطاعون لنْ يَطالهم أبداً، حتى لو كانوا يعيشون في منزل مع أناس مُصابين بالطاعون. وقد اعتزم الناسُ، إذَّاك، الحصولَ عليه. لكنَّ ثَمَنَهُ كان باهظاً، وأعتقد أنَّه كان «شِلْنَيْن ونِصف الشلْن».

«لكنْ، يا سيِّدي»، قالت واحدةٌ من هؤلاء الفقراء، «أنا امرأة رقيقةُ الحال أعيشُ على نفقة الأبرشيَّة، ويافطاتُك تقول إنَّك ستقدِّم المساعدة للفقراء بلا مقابل».

«أجلْ، أيتها المرأة الطيِّبة»، أجاب الطبيب، «هكذا أفعل، كما أعلنتُ هناك. فأنا أمنحُ نُصحي للفقراء دون أيِّ مقابل، ولكن لا أقدم المستحضر الدوائيَّ مجَّاناً».

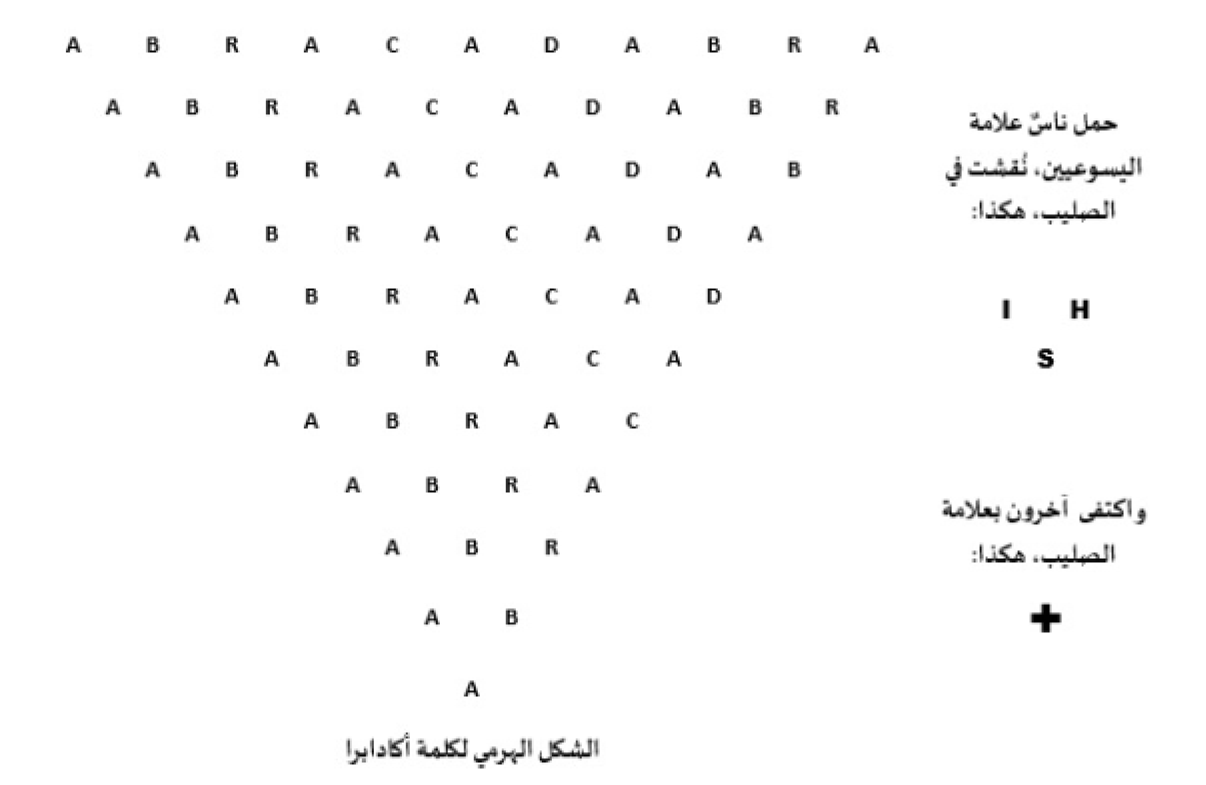
«لَشَدَّ ما هو مُؤسفٌ ما تقوله، يا سيِّدي»، ردَّت المرأة، وأردفت: «هذا فخٌّ وُضِعَ للفقراء، فأنت تمنحهم النصح بلا مقابل، أيْ أنَّك تنصحهم بالمجَّان، كي يشتروا

دَواءَك بالمال، وهذا ما يفعله كُلّ ذي مَتْجَرٍ كَيْ يُروِّج بضاعَتَه»...!!

وبدأت المرأة إذَّاك تُلقي إليه بأسوأ الكلمات، ووقفت على عَتَبَةِ داره طوالَ اليوم مُفصِحَةً عنْ قصَّتها لكل مَنْ قَصدَ بيتَ الطبيب. حتى غدا الطبيبُ، الذي وجد أنَّها نفَّرت زبائنه وأبعدتهم، مُلزماً بدعوتها إلى الطابق العلويِّ وإعطائها علبةَ دواء مجَّاناً؛ الدواء الذي، ربما، لم يكن له أيُّ نفعٍ حين تَعاطَتْه.

لكنْ، لنعد في الحديث إلى الناس الذين هيأهم ارتباكُهم كي يخضعوا لكل فئات المدَّعين والدَّجالين من الأطباء المزيَّفين. فما مِنْ شكٍّ أنَّ هذه الفئة من الدَّجالين جَنَتْ أموالاً طائلة منْ وراء الناس البؤساء. وقد رأينا الأفواج التي تتراكض وراءهم تتعاظم أكثر فأكثر، وأنَّ التزاحم على أبوابهم تجاوز التزاحمَ على أبواب الدكتور «روكْسْ»، والدكتور «أبتون»، والدكتور «هودْجز»، والدكتور «بيرويك»، أو أيَّ طبيب نطاسيٍّ، على الرغم منْ أنَّ شهرة هؤلاء الأخيرين قد طبقت الآفاق. ولقد حُدِّثْتُ أنَّ الواحد مِن الأوَّلين (الأطباء الدجَّالين)، تحصَّل في اليوم الواحد على خمسة جنيهات لقاء ما يبيعه من مستحضره الدوائي.

لكنْ، عَرَفَت تلك الفترةُ جنوناً آخر يتجاوز صُوَر الجنون السالفة جميعها، ولعله يعطي فكرةً عن المزاج الحائر والذاهل للناس المساكين في ذلك الوقت. وتمثَّل ذلك في سعيهم وراء أسوأ فئات المخادعين مِنْ كلِّ مَنْ ذَكرنا مِن المخادعين الصغار الذين غرَّروا بالناس بسرقة ما في جيوبهم والحصول على أموالهم. وهكذا فقد وقع شرُّهم، مهما كانت صفته، أساساً على المخادعين لا على المخدوعين، ولكن في هذا الجانب الذي سأذكره، فإنَّ الشرَّ، أو الفساد، يقع أساساً، على المخدوعين، أو على كليهما معاً، بالتساوي. وتمثَّل ذلك في لُبس المعلَّقات السحريَّة، وشراب المحبَّة، والتعاويذ، والتمائم، وغير ذلك ممَّا لا أعرفه منْ هذه الأشياء، وذلك لاستخدامها في تحصين البَدَنِ ضدَّ الطاعون. وكأنَّ الطاعون لم يكنْ يَدَ الله وقَدَرَه، وإنَّما روحٌ شريرةٌ تتلبَّس الأجساد وسيجري إخراجها بالمصلَّبات وعلامات الأبراج، وأوراقٍ تُربط بالعديد من العقد وتكتب فيها كلمات أو أشكال، مثل كلمة «أبرا كادابرا»، وبخاصة تلك التي يجري تشكيلها على هيئة مُثلَّث أو هَرم، على النحو التالي:



الشكل الهرمي لكلمة أكادابرا

قد أصرفُ وقتاً طويلاً في استغرابي منْ هذه الحماقات، بل منْ شرِّ هذه الأشياء، في هذا الزمن الذي عَلَّمَهُ الخَطرُ، وفي سياقٍ له مثل هذه العواقب المتعلِّقة بالعدوى التي عمَّت البلاد. لكنَّ مذكراتي عن هذه الأشياء تختصُّ بتسجيل الحقيقة حَصراً، وأنْ أذكرَ أنَّها كانت على هذا النحو. أمَّا كيف وجد المساكينُ من الناس عُوارَ هذه الأشياء والوصفات وانعدامَ فائدتها، وكيف حُمل العديد منْ هؤلاء بعيداً في عربات الموتى وأُلقيَ بهم في قبور الأبرشيَّات الجماعيَّة صحبةَ هذه المعلَّقات السحريَّة الشيطانيَّة والتوافه التي تتدلى منْ أعناقهم، فذلك ما سأتحدَّث عنه في ثنايا ما يأتي لاحقاً.

جرى ذلك كلُّه بأثرٍ من الهَرج والـمَرج الذي دخلوا فيه بعد أنْ سرت بينهم المعلومات الأولى عن حُلول الوباء، ولعلَّ ذلك يكون تقريباً، من عيد القديس «**ميخائيل**» لعام ألفٍ وستِّمئةٍ وأربعةٍ وستين (1664)، وبصفة أدق بعد أنْ مات الرجلان في أبرشيَّة «**جايْلز**» في بداية كانون الأول، ومرَّة أخرى، بعد أنْ جاء إنذارٌ آخر في شباط. ولكنْ، حالما انتشر الوباء بصورة جليَّة، بدأوا يرون أنَّ من الحمق إيلاءَ الثقة لتلك الكائنات عديمة النفع التي سلبتهم أموالهم. وقد اتخذت مخاوفُهم، إثرَ ذلك، طريقاً أخرى نحو الذُّهول والغباء، لا يدرون أيَّ طريق يسلكونها، أو ما يصنعون لمساعدة أنفسهم أو إسعافها. فلم يفعلوا سوى

التراكُض منْ مَنزل إلى آخر، بل الاندفاع إلى الشوارع منْ باب إلى آخر، يُردِّدون مُتفجِّعين: يا ربُّ ارحَمْنا برحْمَتِك! ما عسانا نَصْنع؟

وفي واقع الحال، كان الفقراء جديرين بالشفقة في أمرٍ بعينه لا عَزاءَ لهم فيه، وأودُّ، هنا، أنْ أذكُره بخشيةٍ وتأمُّلٍ جدِّيَّيْن، وهو أمرٌ قد لا يستَسيغُه أيٌّ مِن القرَّاء. فبينما لم يكن الموت قد بدأ يحومُ فوقَ رأسِ كلِّ واحدٍ منهم فحسب، كما قد نقول، وإنَّما همَّ بالنظر في منازلهم وحُجُراتِهم والتحديق في وجوههم. وعلى الرغم مِن اجتماع كثيرٍ من الغباء والخَبال في عقول عديد مِن هؤلاء، فإنَّ حِساً كبيراً بالحقِّ تردَّد في أعماق آخرين منهم. إذ استيقظ العديدُ من الضمائر، ورقَّتْ كثرةٌ مِن القلوب القاسية حتى ذابتْ دُموعاً، وجرتْ وفرةٌ من اعترافاتِ التوبةِ المتعلِّقة بجرائم أُخفِيَت رَدْحاً طويلاً مِن الزمن. ولَشَدَّ ما هو جارحٌ لروح أيِّ مسيحيٍّ أنْ يَسمعَ زفراتِ الموتِ لعددٍ كبير من المخلوقات اليائسة وما مِنْ أحدٍ يمتلك الجرأة للاقتراب مِنهم ومُواساتهم، وتعالت الأصوات معترفة بجرائم السرقة والقتل وما مِنْ ناجٍ ليدوِّن هذه الروايات. ومِن الممكن أنْ تُسمَعَ أصواتُ الناس، وتصلَ الشوارع في أثناء عبورنا، وهم يتضرَّعون إلى الله طلباً للرحمة، مُتوسِّلين في ذلك السيِّدَ المسيح، فتجد أحدهم يهتف: كنتُ لصاً. ويصيح آخر: كنتُ سَفَّاحاً أقتلُ النَّاس، ومثل ذلك كثير. ولا أحدَ يجرؤُ على الوقوف والقيام بأدنى استقصاءٍ حول هذه الأشياء، أو لمواساة هذه المخلوقات المسكينة التي تصرخُ منْ هولِ ما تُعانيه جَسَداً وروحاً. وزار بعضُ القُسُس المرضى في البداية زيارة عابرة، ثمَّ توقَّف ذلك، فقد يكون الموتُ بانتظار مَنْ يَقصدُ بعضَ البيوت.

أمَّا مَن اضْطلع بدفنِ الموتى؛ أولئك الذين امتلكوا أصلَبَ القلوبِ في المدينة، فقد كانوا يُحجمون عن العمل في بعض الأوقات، وبدوا مذعورين إلى درجة لم يجرؤوا معها على الذهاب إلى البيوت التي أُزيلت مِنها عوائل كاملة دفعةً واحدة، إذ كانت الأوضاع في بعض تلك البيوت مُفزعةً على نحو خاصٍّ، غير أنَّ ذلك حدث، فعلياً، في حُمَّى الموجة الأولى للوباء. وما لبث أن وطَّنهم الزمن وجعلهم يعتادون كلَّ شيء، فغامروا في الذهاب إلى أيِّ مكانٍ، إثرَ ذلك، دونَ تردُّد. ولا بدَّ أنْ أُعرِّجَ على ذلك ببعض التوسُّع في الآتي مِن الكتاب.

أُقدِّر الآنَ أنَّ الوباء قد حَلَّ، وأنَّ القُضاةَ بدأوا يتلمَّسون أحوال الناس بجديَّة كبيرة. وسيأتي الحديث عمَّا استصدره هؤلاء، من قوانين وتعليمات خاصَّة بالسُكَّان والأسر المصابة، مُستقلاً مِن تَلقاء ذاته في ثنايا الكتاب. أمَّا ما خصَّ الشأن الصحي، فمِن الملائم أنْ نذكرَ هنا أنَّه حين رأى، عمدةُ المدينة؛ ذلك الرجلُ الرزين والمتديِّن، مزاجَ الناس وما فيه مِنْ حُمق في التراكض وراء الدَّجالين من الأطباء وباعة الأدوية، وسَعْيَهم المجنون وراء السحرة

والمنجمين، كما بيَّنا، فإنَّه عيَّن أطبَّاء وجرَّاحين لإسعاف الفقراء وعلاجِهم؛ أعني مَرْضاهم. ليس هذا وحسب، فقد أمرَ كُلِّيَّةَ الطبِّ بإصدار إرشادات تحتوي على العلاجات الرخيصة للوباء في كلِّ مراحلهِ التي تُصيبُ المرضى. وتَبدَّى هذا الفعلُ منْ أكثر الأفعال خيريَّة وحكمة في ذلك الوقت، لأنَّه صرفَ الناس عن التردُّد إلى أبواب كلِّ مَنْ يُوزِّع المطبوعات، وحالَ بينهم وبينَ اتخاذ السمِّ عوض الترياق، والموت عوض الحياة، بصورة عمياء ودون تفكير.

لقد أُنجز دليل الإرشادات الطبيَّة باستشارة أعضاء الكليَّة جميعهم. وإذْ أُخِذ في الاعتبار أنه موضوع لاستخدام الفقراء، ومُتضمِّن للأدوية الرخيصة فقط، فقد أُتيح للجميع حتى يكون بمقدور أيِّ شخص قراءته، ومُنحَ دون مقابل لمن رغب في أنْ يقتنيه. ولكنْ، لمَّا كان الدليل مُتاحاً لكلِّ مَن أراد، ومبذولاً في كلِّ مكان، فلنْ أشغل القارىء في الحديث عنه.

لا ينبغي أن يظنَّ المرء أنني أقلِّل من وزن الأطباء أو مقدرتهم حين أقول إنَّ شدَّة الوباء، حين بلغت أوجَها، كانت أشبه بالنار التي أعقبته؛ النار التي أتت على ما تعذَّر على الطاعون أن يبلُغه، مُتحدية كل طرائق إخمادها، فقد تحطَّمت سيارات الإطفاء، وطُرحت دلاء الماء بعيداً، وتحطَّمت قوَّة الإنسان وعرفت مُنتهاها. وكذا الأمر في الطاعون الذي تحدَّى الأدوية جميعها، ووقع الأطباء في قبضته، في حين كانوا يضعون مُستحضراتهم الطبيَّة في أفواههم؛ هؤلاء الرجال الذين طافوا في البلاد يصفون الأدوية للآخرين ويشيرون عليهم بما يفعلونه حتى ظهرت عليهم علائم المرض وسقطوا صرعى بعد أن أتلفهم العدو الذي أرشدوا الناس إلى كيفية مقاومته. وقد كانت هذه حال كثير من الأطباء، وبعضهم من البارزين، وهي حال كثير من الجرَّاحين المهرة. ومات كثير من الأطباء الدجالين الذين بلغوا من الحمق حداً جعلهم يثقون بأدويتهم، التي تعيَّن عليهم أن يكونوا مدركين في دواخلهم أنها عديمة النفع، وأنهم لمَّا غدوا عارفين بما قارفوه مِن ذنب، توجب عليهم، مثل بقية اللصوص، أن يفرُّوا من العدالة مدركين أنَّها لا بدَّ ستُنزل بهم العقاب الذي أيقنوا باستحقاقهم له.

وليس انتقاصاً من عمل الأطباء وإجراءاتهم القولُ إنَّهم كانوا صرعى الكارثة التي عمَّت جميع الناس، ولا أقصدُ ذلك، بل إنَّه من باب الإطراء عليهم، ذلك أنهم غامروا بحياتهم إلى درجة بذلهم أنفسهم خدمةً للبشريَّة. ولقد سَعوا إلى فعل الخير واستنقاذ حياة الناس، لكنَّنا لم نتأمَّل منهم أنْ يوقفوا حكم الله، أو أنْ يمنعوا الوباء المؤيَّد والمدَعَّم من السماء، من إنفاذ المهمَّة التي حُمِّلها. وما مِن ريب أنَّ الأطباء ساعدوا الكثيرين، بمهاراتهم وحكمتهم ومستحضراتهم، لإنقاذ حياتهم واستعادة صحَّتهم. بيد أنه ليس انتقاصاً من شخصهم أو مهاراتهم

القولُ إنهم ما استطاعوا معالجة مَن ظهرت عليهم الأعراض، أو مَن كان مصاباً على نحو قاتل قبل أن يُرسَل إليه الأطباء، وهي الحال الغالبة.

يبقى أنْ نذكر الآن ما اتخذه القضاة من إجراءات من أجل السلامة العامَّة، ومنع انتشار الوباء حين تفشى أوَّل مرَّة. ولا بدَّ أن تُتاح لي غيرُ مناسبة للحديث عن حكمة القضاة، وإحسانهم، وعنايتهم بالفقراء، فضلاً عن حفظهم النظام العام وتوفير المؤن وغير ذلك، حين تعاظم الوباء كما حدث بعد ذلك. لكنَّ اهتمامي مُنْصَبٌّ الآن على التعليمات والقوانين التي أصدرتها الحكومة فيما خصَّ العائلات المصابة. ولقد ذكرت من قبل إغلاق المنازل، ومن اللازم أن نتوسَّع في هذا ونذكر شيئاً خاصاً بشأنه، ذلك أنَّ هذا الجزء من تاريخ الوباء بئيسٌ جداً، لكنْ من المتعيِّن الإخبار عن القصَّة مهما كانت.

صرف عمدة المدينة وأعضاء المجلس المحلي، بحلول شهر حزيران، جهودهم لتنظيم المدينة. فبتوجيهٍ من وزير الدولة، بدأ قضاة الصلح في «**ميدلسكس**» إغلاق المنازل في الأبرشيات التالية: «**سانت جايلز إنْ ذي فيلدز**»، و«**سانت مارتن**»، و«**سانت كليمنت دانز**»، وغيرها. وقد حقَّقوا نجاحاً كبيراً، فقد توقَّف الطاعون في الشوارع التي فشا فيها، بعد أن وضعت حراسة مشدَّدة على المنازل التي انتقل إليها الوباء. فضلاً عن الحرص على دفن مَن توفُّوا حالاً بعد التأكد من وفاتهم. وقد لوحظ أيضاً أنَّ الوباء ما لبث أن تناقص في الأبرشيَّات التي فشا فيها تفشياً كاملاً بصورة أسرع من أبرشيَّة «**بشوبس غيت**»، وأبرشيَّة «**شوردتش**»، و«**ألد غيت**»، و«**وايت تشابل**»، و«**ستبني**» وغيرها، فقد تبيَّن أن الحرص على اتخاذ هذا النوع من الإجراءات يمثِّل وسيلة ناجعة في كبح الوباء.

وكانت الطريقة المتعلقة بإغلاق البيوت قد اتبعت، أوَّل مرَّة كما عرفْت، في الطاعون الذي حدث عام ألف وستِّمئةٍ وثلاثة (1603) عند تولِّي الملك «**جيمس الأوَّل**» العرش. وقد جاء إلزام الناس بالبقاء في بيوتهم بموجب قانون برلماني أخذ عنوان: «**قانون الإغاثة والإجراء التنظيمي الخاص بالمصابين بالطاعون**»، وقام عمدة المدينة، رفقةَ أعضاء المجلس المحلي في لندن، بموجب هذا القانون، باستحداث الإجراء النظامي الذي استصدروه في ذلك الوقت، ودخل حيِّز التنفيذ في الفاتح من تمُّوز، عام ألف وستِّمئةٍ وخمسة وستين (1665م)، وذلك حين كان عدد المصابين داخل المدينة قليلاً؛ إذ لم تتجاوز الوفيات في الاثنتين وتسعين أبرشيَّة أربع وفيات. وإذ أغلقت بعض المنازل في المدينة، ولمَّا نُقل بعض الناس إلى مشفى الأمراض الوبائية خارج «**بنهيل فيلدز**»، في الطريق إلى «**إِزْلِنْغْتونْ**»، أقول: لما اتخذت هذه الإجراءات، وحين مات قرابة ألف نسمة أسبوعياً في مجمل البلاد، فإن عدد الوفيات داخل المدينة لم

يتجاوز ثماني وعشرين (28) وفاة. وقد حوفظ على المدينة وظلت معافاة أكثر من أيٍّ مكان آخر طوال فترة الوباء.

وقد نُشرت أوامر سيدي العمدة، كما ذكرت، في نهايات حزيران، وغدت نافذة بدءاً من أول تموز. وكانت على النحو التالي:

أوامرُ بشأن عدوى الطاعون عام 1665م

وَضعها وأصدرها عمدة مدينة لندن ومجلسها المحليُّ

كان قد استُصدر في عهد ملكنا الراحل الملك «**جيمس**»؛ صاحب الذكرى العطرة، قانونُ إغاثة وتنظيم لوضع المصابين بالطاعون، إذ مُنحت السلطة لقضاة الصلح، وعمداء البلديَّات، والمأمورين، وغيرهم من كبار الموظفين، كي يعيِّنوا ضمن مناطقهم المتعدِّدة مُفتِّشي صحَّة، وقضاةً محقِّقين في الوفيات، ومراقبين، وحرَّاساً، وحانوتيَّة، يختصُّون في مراقبة الأشخاص المصابين والأماكن التي ألمَّ بها الوباء؛ وكي يأخذوا القَسَم من هؤلاء الأخيرين من أجل الاضطلاع بمهامهم. كما خوَّلهم القانون ذاته صلاحية إصدار تعليمات أخرى بقدر ما يرونها ملائمة في حالة الضرورة الطارئة. ولقد غدا من المفيد للغاية حينها، وفق اعتبارات خاصة؛ منعاً للإصابة بالمرض وتجنُّباً له (تبعاً لما يرضي الرب)، أن يجري تعيين الموظفين، الذين سَيَرِدُ ذكرهم تالياً، وأنْ يتمَّ الالتزام بالأوامر التالية على نحو وافٍ:

* يجري تعيين مُفتِّشي صحَّة في كلِّ أبرشيَّة.

أوَّلاً: من المطلوب والضروري أن يُجعل على كُل أبرشيَّة واحدٌ أو اثنان أو أكثر بمسمَّى مُفتِّش صحَّة، من الموثوقين وأصحاب السمعة الجيِّدة. ويجري اختيارهم وتعيينهم من جانب مساعد العمدة، ومفوِّضه، والمجلس المحلي لكلِّ حيٍّ. على أنْ يستمروا في هذه المهمَّة مدةَ شهرين على الأقلِّ. وإذا حصل ورفض أيٌّ من الأشخاص الملائمين المعيَّنين الاضطلاع بالمهمَّة، فيُصار إِلى رميهم في السجن حتى يلتزموا بما عُهِدَ إليهم به.

* مهمَّةُ مُفتِّش الصحَّة

- يؤدي المُفتِّشون اليمين أمام أعضاء المجلس المحلي، وبذلك يضطلعون بعملية الاستقصاء والتَّعرُّف إلى البيوت الموبوءة في كُلِّ أبرشيَّة، ومَنْ هم الأشخاص المصابون، وبأيٍّ مرض. وذلك بقدر ما يستطيعون التحصُّل عليه من معلومات. وَحالَ الشَّك بأيِّ حالةٍ، يجري الحجر على الشخص حتى تتكشَّف طبيعة المرض. وإذا وجدوا أيَّ شخص مصاب بالطاعون، توجَّب أن يخبروا رجل الشرطة كي يقوم بإغلاق المنزل. وإذا وُجِدَ الأخير مُهملاً أو مُقصِّراً في أداء واجبه، يُبَلَّغ مسؤول المجلس المحلي في الحيِّ بذلك على الفور.

* الحُرَّاس

يُجعلُ على كلِّ منزلٍ موبوء حارسان، أحدهما في النهار والآخر في الليل. ويَحرص هذان أشدَّ الحرص على ألا يدخل أحدٌ أو يخرج من المنازل الموبوءة التي أوكلت لهما مسؤولية حراستها، تحت طائلة العقاب الشديد. ويضطلع الحارسان بغير ذلك من مهام بحسب ما يتطلَّبه المنزل الموبوء من حاجات. وإذا أُرسل الحارس في أيٍّ من هذه المهمَّات، تعيَّن عليه إقفال باب المنزل وأخذ المفتاح معه. يبقى الحارس النهاريُّ، كذلك، في مناوبته حتى الساعة العاشرة ليلاً. أما الحارس الليلي، فحتى الساعة السادسة صباحاً.

* المُحقِّقات في الوفيات

يتعيَّن الحرص على تعيين نساء محقِّقات في الوفيات، وأن يكنَّ من ذوات السمعة الحسنة، ومن أحسن ما يمكن التوفر عليه من هذه الفئة. وأنْ يقُمن بأداء القسم على أن يَشْرَعْن بالتحقيق اللازم وإعداد التقرير الحقيقي، تبعاً لأقصى ما يتوافر لهنَّ من معرفة، لتشخيصِ ما إذا كان الموتى الذين تمَّ تعيين جثثهم لغايات الفحص، قد ماتوا بالطاعون، أو بأيٍّ من الأمراض الأخرى، وذلك بقدر ما يستطعن. وينبغي على الأطباء الذين سيجري تعيينهم لمعالجة المرض والوقاية منه، أنْ يستدعوا المحقِّقات في الوفيات مِمَّن عُيِّنَّ، أو سيتمُّ تعيينهنَّ، في العديد من الأبرشيَّات ليكُنَّ تحت رعايتهم الخاصَّة. ويجري استدعاؤهنَّ بُغية التَّحقُّق من أهليتهنَّ لهذا العمل، فضلاً عن مُحاسبتهنَّ، مِن وقت إلى آخر في أثناء عملهنَّ على التحقُّق من سبب الوفاة، إذا ظهر عُوار في أدائهنَّ للواجبات.

«ولا يحقُّ لأيٍّ من المحقِّقات في الوفيات، إبان فترة الوباء هذه، أنْ تمارسَ عملاً عاماً أو وظيفة، أو أن تدير دُكَّاناً أو كُشْكاً، أو أنْ تحترف غسلَ الثياب، أو أيَّ عمل عام آخر على الإطلاق.

* الجرَّاحون

بغرض مُساعدة المحقِّقات في أسباب الوفيات على نحو أفضل، ونظراً إلى ما حصل مِن ضرر جسيم تَأتَّى عن التقارير المغلوطة عن العدوى؛ وهو ما أسهم في انتشار الوباء وتفشِّيه، فقد صدرت الأوامر باختيار جرَّاحين مُقتدرين ورصينين، فضلاً عن أولئك العاملين، أصلاً، في مشافي الأمراض الوبائيَّة. إذ يُوزَّع هؤلاء في أنحاء المدينة، ومناطقها، بعد أن تقسَّم إلى أجزاء وأمكنة بقدر ما تكون هذه الأخيرة ملائمة. ويحدَّد كلُّ واحد منهم بحيٍّ. وينبغي على الجرَّاحين أن ينضمُّوا، كل في حدود منطقته، إلى المحقِّقات لمعاينة الجثَّة، وذلك للتحصُّل بقدر الإمكان على تقديرٍ صحيحٍ حول المرض.

وينبغي على الجرَّاحين المذكورين زيارة هذه الفئة من الناس وفحصهم؛ سواءً أولئك الذين أرسل إليهم الجرَّاحون أو أولئك الذين سماهُم مُفتِّشو الصحَّة ووجَّهوهم إليهم. ليس هذا فحسب، وإنما أنْ يُحقِّقوا المعرفة بطبيعة المرض لدى الأشخاص المفحوصين. وإذْ أقصي الجراحون عن معالجة أيٍّ من الأمراض الأخرى، وقُيِّدوا بعلاج الطَّاعون حصراً، فقد تقرَّر أن يُنْقَدَ كلُّ جراحٍ من هؤلاء اثني عشر قرشاً عن كلِّ جثَّة يفحصها، تُؤخذ من مَتاع الرجل المتوفَّى، إنْ كان وضعُه يفي بذلك، وإلا أُخذ المبلغ مِن الأبرشيَّة.

* ممرِّضاتُ الرعاية المنزليَّة

إذا اتفق أنَّ أياً من مُمرِّضات الرعاية أخرجت نفسها من منزل من المنازل الموبوءة قبل أنْ يمضي ثمانيةٌ وعشرون (28) يوماً على وفاة أيِّ شخص بالطاعون في المنزل المذكور، فمن المتوجِّب أنْ يغلق هذا الأخير حتى تنقضي الفترة المشار إليها.

«الأوامر المتعلقة بالمنازل الموبوءة والأشخاص»

* الإِخطارُ عن المرض

«ما إنْ يشتكي شخص في منزله من بقعة أو احمرار أو تورُّم في أي جزء من جسمه، أو يقع طريحَ حالةٍ مرضيَّة حَرجة، ودون أن يكون ذلك بسبب مرض آخر على نحو جليٍّ، فمن المتوجِّب على ربِّ المنزل أنْ يُعلم مُفتِّش الصحَّة خلال ساعتين من ظهور الأعراض المذكورة.

* عزل المريض

حالما يعثر مُفتِّش الصحَّة أو الجرَّاح أو المحقِّقة على أيَّ شخص مصاب بالطاعون، فيتوجَّب عزله في الليلة ذاتها والمنزل ذاته.

* تعقيمُ متاع المنزل

من أجل تعقيم متاع المنزل الموبوء، من المتوجِّب تعريض السجَّاد والملابس وستائر الغرف تعريضاً جيداً للنار والأبخرة العطريَّة، بحسب ما يتطلَّبه الأمر داخل المنزل الموبوء، وذلك قبل أن يُصار إلى استخدامها مرَّة ثانية، وينبغي أن يجري هذا بأمرٍ من مُفتِّش الصحَّة.

* إغلاقُ المنزل

إذا زار أيٌّ من الناس أحداً مِمَّن عُرِفَتْ إصابته بالطاعون، أو دخل بإرادته أيَّ بيت موبوء دون أن يكون مُخَوَّلاً بدخوله، توجَّب، حينئذ، إغلاقُ منزل الزائرِ ذاتِه لأيام محدَّدة بتوجيهٍ مِن مُفتِّش الصحَّة.

* في وجوب عدم الخروج من المنزل الموبوء ما خلا حالات بأعيانها:

بند: يتوجب عدم خروج أيِّ شخص التقط العدوى في منزلٍ ما إلى أيِّ منزل أو مكان آخر في المدينة (إلا إنْ كان هذا المكان مشفى الأمراض الوبائيَّة، أو خيمةً، أو منزلاً يملكه الزائر المصاب ويُقيم فيه خَدَمُه). ولأجل تأمين السلامة للأبرشيَّة التي تجري فيها عملية النقل، ينبغي الالتزام بكلِّ متطلبات العناية والتكفُّل بالأشخاص المصابين على نحوٍ دقيقٍ قبل أنْ تُجرى عملية النقل، ودون أنْ تتكلَّف الأبرشيَّة بأيِّ شيء، ويتعيَّن أنْ يجري النقل ليلاً.

ويجوز لأيِّ شخص يمتلك منزلين أنْ ينقل أهله من المرضى أو السليمين إلى منزله الإضافي حسب اختياره. على أن يتمَّ ذلك على هذا النحو: إذا أرسل ربُّ البيت فرداً سليماً من عائلته إلى المنزل الآخر، فمن المتوجِّب عليه ألا يُرسل الفرد المريض إلى هناك، وبالعكس. ويتعيَّن أنْ يُغلق على مَنْ أرسل مدةَ أسبوع على أقلِّ تقديرٍ وأنْ يُفصَلَ عن أيِّ أحدٍ تَحَسُّباً لظهور بعض علامات العدوى في مُبتدأ الأمر.

* دفنُ الموتى

ينبغي أن يكون دفن من مات بالوباء في أكثر الأوقات مُلاءمة، وأنْ يجري دائماً عند شروق الشمس أو غروبها بالاتفاق مع وكيل الكنيسة أو الشرطيِّ، وليس غير ذلك. ولا يُسمح لأيِّ أحدٍ من الجيران أو الأصدقاء بمرافقة الجثَّة إلى الكنيسة، أو الولوج إلى البيت الموبوء، وإلا تعرَّض للعقوبة، فإمَّا شُمِعَ بيتُه وإمَّا أُدخلَ السجن.

ويتوجَّب ألا تُدفن أيُّ جُثَّة لأحدٍ مات بالطاعون في الكنيسة، أو أنْ تبقى وقت القدَّاس، أو الموعظة، أو الخطبة. ومِنْ غير المسموح اقترابُ الأطفال عند دفن أيِّ جُثَّة في أيِّ كنيسة أو مقبرة أو مدفن، أو الاقتراب من الجثَّة أو التابوت، أو القبر. ويتعيَّن أن تكون القبور بعمقِ ستِّ أقدام. ليس هذا فحسب، وإنما تُمنع التجمُّعات العامَّة في الجنازات العاديَّة الأخرى إبَّان ضراوة الوباء.

* عدمُ إزالة الأشياء الملوثة أو نقلها

لا يُسمح أنْ تُحمل الملابس، أو المنسوجات، أو الفُرُش، أو الكسوة، أو تُنقل مِن أيِّ بيت موبوء. ويُحظر، تماماً، التدليلُ على الفُرش أو الملابس العتيقة لأجل بَيعها أو رَهنها. ولا يُؤذن لسماسرة الفُرش أو الملابس العتيقة بإقامة أيِّ عَرضٍ خارجي. ويُمنعُ عرضُ الفُرش أو الملابس العتيقة، في قاعات عرض السلع، أو على أرفف المتاجر، أو واجهات العرض التي تواجه أيَّ شارع، أو زقاق، أو طريق عامة، أو ممر. ومَنْ يفعل ذلك يتلقَّ عقوبة الحبس. وإذا قام أيٌّ من السماسرة أو الأشخاص بشراء أيِّ فُرُش أو ملابس أو غيرها مِن منزل موبوء قبل أنْ يمضي شهران مِن تاريخ حلول الوباء فيه، توجَّب غلقُ منزل هذا السمسار بوصفه منزلاً موبوءاً وذلك لمدَّة تمتدُّ عشرين يوماً على أقلِّ تقدير.

* يُمنع خروج أيِّ شخص مِن أيِّ منزل موبوء

وإذا انتهز شخصٌ مُصابٌ المراقبة الضعيفة، أو أيَّ وسيلة، وقَدِم أو انتقل مِن مكان موبوء إلى أيِّ مكان آخر، بات مِن اللازم على الأبرشيَّة التي قدِم منها أو جرى نقله إليها، لدى تلقِّيها إشعاراً بذلك، أنْ تُعيد الشخص المصاب الذي فرَّ مِنْ مَكان سُكناه، على نفقته الخاصَّة، ليلاً، مِن حيثُ أتى. ويُقضى على المخالف بعقوبةٍ تبعاً لتعليمات المجلس المحلي، فضلاً عن إغلاق المنزل الذي استقبل الشخص المصاب مدَّةَ عشرين يوماً.

* وضعُ علامة على المنزل الموبوء

ينبغي أنْ يُعلَّم كلُّ منزل موبوء بصليب أحمر، بطول القدم، في وسط الباب حتى يُرى بوضوح، مُرْفقاً بالكلمات المطبوعة الجارية على كل لسان وهي: «رُحْماك يا ربُّ»، وتُجعلُ هذه العبارة مباشرة فوق الصليب. وتبقى العلامة هناك حتى يُفتح المنزل قانونياً.

* مُراقبةُ المنزل الموبوء

يتعين على الشرطة التحقَّق مِن أنَّ كل منزل موبوء هو قيْد الإغلاق، وجُعِلَ عليه حارسٌ حتى يبقى السُّكان داخله. وينبغي تزويدهم بالحاجات الضروريَّة على نفقتهم الخاصَّة إنْ كانوا مُقتدرين، أو على نفقة الأبرشيَّة إنْ كانوا أرقَّاء الحال. ويمتدُّ إغلاق المنزل إلى أربعة أسابيع بعد تعافي جميع قاطنيه.

وينبغي الالتزام التزاماً شديداً بأنْ يحمل الجرَّاحون والمحقِّقات والحرَّاس والحانوتيَّة عصاً حمراء أو صَوْلجاناً أحمر بأيديهم، طوله ثلاث أقدام، وأنْ تكون العصا المذكورة بادية للعيان. وألا يذهبوا إلى أيِّ منزل آخر سوى منزلهم، أو إلى المكان الذي يُرسلون إليه، حتى إنَّ من المتوجِّب عليهم الامتناع عن مُخالطة الآخرين، ولاسيَّما إذا انخرطوا مؤخَّراً في واحدٍ من تلك المهام الموكلة إليهم.

* سُكانُ المنزل

في حالة وجود العديد من الساكنين في المنزل ذاته، واتُّفق أنَّ واحداً من هؤلاء كان مصاباً، فلا يجوز لأي شخص أو عائلة مِن قاطنيه أنْ ينتقل إلى مكان آخر دون أنْ يتحصَّل على شهادة مِن مُفتِّش الصحة في تلك الأبرشيَّة، وفي غياب ذلك، يتعيَّن إغلاق المنزل الذي انتقل إليه أي مِن هؤلاء كما لو كان المنزل موبوءاً.

* عرباتُ الأجرة

ينبغي توخِّي الحذر مِن أَصحاب عربات الأجرة (فقد لوحظ أنَّ بعضهم لا يلتزم بقواعد السلامة بعد أن يقوموا بنقل الأشخاص المصابين إلى مشافي الأمراض الوبائية أو غيرها مِن الأماكن)؛ ما يقتضي عدم إعادتهم للخدمة العامَّة حتى تُطهَّر عرباتهم، وأنْ تبقى هذه خارج الخدمة مدةَ خمسة أيامٍ أو ستَّة بعد كل مهمَّة تقوم بها.

* أوامرُ بتنظيف الشوارع وكَنْسِها

أولاً: من الضروري واللازم على كل صاحب منزل أن يُهيِّئ ما يقابل منزله من الشارع، وأن يُبقي عليه نظيفاً أو مَكنوساً طوال الأسبوع.

* جمعُ القمامة والتخلُّص منها

يجمِّع عُمَّال النظافة نفايات المنزل وقاذوراته كل يوم، ويتخلصون منها في مكان بعيد، وينبغي على عامل النظافة أنْ يعلن عن قدومه عبر النفخ في البوق كما جرت العادة حتى ذلك الوقت.

* إبعاد الأمكنة التي تجعل فيها أرواث الماشية خارج المدينة

يتوجب إبعاد مكبَّات الأرواث إلى أقصى منطقة خارج المدينة، وبعيداً عن الطرق العامة. ولا يسمح للعامل الذي يفرغ الحفرة الامتصاصيَّة أو لأي شخص آخر إفراغ المياه العادمة في أي حديقة قريباً من المدينة. ويتوجب الحذر من الأسماك واللحوم الفاسدة، ومِن الحبوب المتعفِّنة. ولا يُسمح ببيع الأسماك المنتنة، أو اللحم الفاسد، أو الحبوب المتعفِّنة، أو غير ذلك من الفواكه العفنة مِنْ أي نوع، في أي مكان من المدينة أو أنحائها. ليس هذا وحسب، فمِن اللازم الاستقصاء عن مصانع البيرة والخمَّارات وفحص براميل الخمر إنْ كانت متعفِّنة وغير صحيَّة. ولا يُسمح بتربية الخنازير، أو الكلاب، أو القطط، أو الحمام المستأنس، أو الأمهار. ولا ينبغي أن تكون هناك خنازير في الشوارع أو الزقاق، ويتعين أنْ يُزربَ أي خنزير يُرى في الشارع من جانب شمَّاس الكنيسة أو أي موظف آخر، ويعاقب صاحبُه تبعاً لقانون المجلس التشريعي لمدينة لندن. أمَّا الكلاب، فيتوجب أنْ يُرْديها قاتل الكلاب الذي يُكرَّس لهذه المهمَّة.

الأوامر الخاصَّة بالأشخاص المتعطِّلين والتسوُّل

* المتسوِّلون

لـمَّا تصدَّرت الشكوى من كثرة المحتالين والمتسولين الجائلين، الذين تَغصُّ بهم المدينة، سواها من الشكاوى، لما مثَّلته هذه المشكلة من سبب كبير في انتشار العدوى؛ ولـمَّا كان من العسير تجنُّبها على الرغم ممَّا صدر من أوامر لمجابهتها، فقد صدرت الأوامر الآن لرجال الشرطة، ولمن يهمُّه الأمر بأي حال من الأحوال، أن يبذلوا كل جهد لمنع المتسولين الجائلين من الوجود في طرقات المدينة بأي طريقة كانت، وذلك تحت طائلة العقوبة القانونية التي تُنزَّل بهم على نحو كامل وشديد.

* الألعابُ

تُمنع الألعاب التالية منعاً باتَّاً: مُصارعةُ الدببة، وألعاب الميْسر، وحفلات **«البالاد»**[14]، ومباريات المبارزة التي يستخدم فيها الترس، وغير ذلك مِن الألعاب الجماهيريَّة. وتخضع الأطراف المخالفة لأشدِّ العقوبات من طرف مندوب المجلس المحلي في ذلك الحي.

* حظر الاحتفالات

تُحظَر الاحتفالات ولاسيَّما المتعلقة بأندية المدينة، وحفلات العشاء في الحانات، والخمارات، وغيرها من أماكن الترفيه العامة، ولا يُصار إلى فتحها إلا بصدور إشعارات جديدة وأذونات. أما الأموال التي تتوافر بسبب وقف

الاحتفالات، فيجري الاحتفاظَ بها واستخدامها لإغاثة الفقراء المصابين بالطاعون.

* الخمارات

يتوجب القيام بمراقبة مُشدَّدة تتعلق بسلوكات معاقرة الخمرة المخالفة للآداب في الحانات، والخمارات، والمقاهي، والأقبية؛ ذلك أنَّ معاقرة الخمرة هي أُمُّ الموبقات في ذلك الوقت، فضلاً عما تتسبَّب به من انتشار الطاعون. ولا يُسمح لجمع من الناس أو فرد البقاء أو القدوم لمعاقرة الخمرة في أي من الأمكنة المذكورة آنفاً بعد التاسعة مساءً التزاماً بالقانون القديم، والعُرف المتَّبع في هذه المدينة. وإلا تعرَّض المخالف للعقوبات المنصوص عليها بهذا الصدد.

ومن أجل تنفيذٍ أفضل لهذه الأوامر وأمثالها من القوائم والتوجيهات، سيكون من الضروري، لدى إنعام النظر، أنْ يُؤمَر أعضاءُ المجلس المحلي، والمفوضون، وأعضاءُ مجلس المدينة بعقد اجتماع كل أسبوع مرَّة أو مرتين أو ثلاث مرات أو أكثر، «بحسب ما تقتضيه الحال»، في أحد الأمكنة العامَّة المعتادة في أحيائهم الخاصة (على أن يكون المكان خالياً من الوباء)؛ وذلك للتشاور حول الطريقة الوافية في إنفاذ الأوامر المذكورة. دون أنْ يعني هذا أنَّ من المتوجب على مَن يقطن، مِن المذكورين، قريباً مِن أماكن موبوءة، أنْ يحضر الاجتماع إذا كان حضوره مثيراً للريبة. ويجوز لأعضاء المجلس المحلي، والمفوضين، وأعضاء مجلس المدينة «**لندن**» في أحيائهم العديدة أنْ يضعوا موضع التنفيذ أياً من الأوامر الإضافية في اجتماعاتهم هذه من أجل الحفاظ على حياة رعايا جلالة الملك مِن الطاعون.

لستُ بحاجةٍ إلى القول إنَّ هذه الأوامر لا تغطِّي إلا الأماكن الواقعة ضمن سُلطة عمدة المدينة. وعليه، من اللازم أنْ نلاحظ أنَّ قُضاة السلام اتبعوا الطريقة ذاتها ضمن تلك الأبرشيَّات والأمكنة التي تدعى «**هاملت**» (قرى صغيرة)، فضلاً عن المناطق الخارجية. وكما أذكر، فإنَّ الأوامر المتعلقة بتشميع المنازل لم تتمَّ مبكِّراً في منطقتنا، ذلك أنَّ الطاعون، مثلما أسلفت، لم يصل إلى تلك الأجزاء الشرقية من المدينة على أقلِّ تقدير، ولم يغدُ مُستَشرياً إلا في الفاتح من شهر آب. فعلى سبيل المثال، بلغ مجموع الوفيات، من 11 إلى 18 تموز، ألفاً وسبعمئةٍ وإحدى وستين (1761) وفاةً. في الوقت

الذي لم يتجاوز فيه عدد الوفيات إحدى وسبعين (71) وفاة، في كل الأبرشيَّات التي ندعوها «**تاور هاملتون**»، وقد كانت على النحو التالي:

الأبرشيَّات	الأسابيع (11 إلى 18) تموز	(18 إلى 25) تموز	من 25 تموز إلى 1 آب
ألد غيت	14	34	65
ستِبني	33	58	76
وايت تشابل	21	48	79
سانت كاث. تاور	2	4	4
ترين. مِنُرِز	1	1	4
المجموع	71	145	228

الجدول الرابع

ولقد بلغ الوضع الوبائيُّ درجة عالية؛ ذلك أنَّ الجنائز في الأسبوع نفسه كانت في الأبرشيات المجاورة على النحو التالي:

الأبرشيَّات	الأسابيع (11 إلى 18) تموز	(18 إلى 25) تموز	من 25تموز إلى 1 آب
لين. شُردِتش	64	84	110
بوت. بِشُبس غيت	65	105	116
سانت جايلز كرِبلْ غيت	213	421	554
المجموع	342	610	780

الجدول الخامس

وقد عُدَّ تشميع المنازل، في بادئ الأمر، إجراءً غير رحيمٍ ومنافياً للخلق المسيحي، وارتفعت **أصوات** الفقراء المحجوزين بالعويل، وجيءَ لعُمدة مدينتي بشكاياتٍ عديدة من التَّعسف في تطبيق الإغلاق على بعض البيوت، بلا سبب، بل طبِّق الإغلاق في بعض الأحيان بدافعٍ عدائيٍّ شرير. لا أستطيع أنْ أقول أي شيء حيال ذلك أو البتَّ به، ولكنْ تبيَّن لدى الاستقصاء أنَّ منْ جأر بالشكوى وُجِد في حالةٍ تقتضي الاستمرار في حجزه. وهناك آخرون حُرِّروا من الحجز حين تكشَّفَ، بعد إجراء الفحص، أنَّ الشخص المريض ليس مُصاباً

بمرضٍ مُعدٍ، أو أنَّ إصابته غير مؤكّدة لكنَّه ارتضى، وقتذاك، أنْ ينتقل إلى ملجأ الموبوئين.

ولكنْ، من الصحيح أنه إجراء يتسم بالقسوة والفظاظة، وذلك حين يجري إغلاق المنازل وتشميعها على مَنْ فيها، ووضع حارس، ليلاً نهاراً، على بوَّاباتها ليمنع ساكنيها مِن أنْ يُطلُّوا خارجها أو أنْ يأتي إليهم أي إنسان. ولربما تمكَّن أصحَّاءُ العائلة المحجورة من النجاة لو أنَّهم فارقوا المرضى إلى مكان آخر. وقد لقي عديدٌ من الناس حُتوفَهم بسبب هذا الحجر المأسوي. ومِن المنطقي الاعتقاد أنَّه ما كان لهؤلاء أنْ يلتقطوا العدوى لو أنهم حُرِّروا مِن المنزل على الرغم مِن كونه موبوءاً. وقد كان الناس، في مبتدأ الأمر، في هياجٍ واضطراب. وارتُكبت أعمالُ عنف عديدة ضد الحرَّاس الذين جُعلوا على البيوت المغلقة، وألحقت بهم إصابات. كما أنَّ كثيراً من الناس خرجوا عنوةً من أماكن عديدة كما سأدوِّن ذلك تباعاً. غير أنَّ المصلحة العامَّة برَّرت صور العنف الاستثنائية هذه. ولم يكن من الممكن الحصول على أي إجراء تخفيفيٍّ عبر التقدم بالتماس للحكومة أو القضاة، أو لأقُل: إنَّني لم أسمع بذلك قطُّ. وقد دفع هذا الأمر الناس إلى اللجوء لكل أشكال الحيل للفرار، إنْ استطاعوا، من البيوت المغلقة.

وقد يحتاج الأمر إلى مجلَّد لتدوين الطرائق التي اجترحها أصحابُ هذه المنازل للتعمية على أعيُن الحرَّاس، وخداعهم، والفرار منهم عنوةً، وهو ما استجلب مشاجرات متكرِّرة وبعض الضرر في أحيان كثيرة وطرائق مختلفة.

بينما كنت أسير في شارع «**هاوند سديتش**» في أحد الصباحات قريباً من الساعة الثامنة، تناهى إلى مسمعي صخب شديد. ومن الصحيح، فعلياً، عدم وجود حشد كبير، فمن غير المسموح للناس التجمع، أو البقاء طويلاً في ذلك المكان الذي احتشدوا فيه، وأنا نفسي لم أمكث طويلاً. غير أن الصراخ أثار فضولي فناديت شخصاً كان يطلُّ من النافذة وسألته: ما الذي يحدث؟ ويبدو أن حارساً عُيِّن ليقوم عند باب منزل أُغلق لأنه موبوء، أو قيل إنه موبوء، وقد بقي الحارس مرابطاً على باب المنزل مدة ليلتين على التوالي، كما يُخبر عن قصَّته، وكان الحارس النهاريُّ هناك قبل ذلك، وأتى حينها ليشغل مكان الحارس الليليِّ. وقد جرى كل ذلك دون أنْ تصدر من البيت أي جلبة ولم يُرَ فيه أي ضوء. ولم يُنادِ أهلُه الحارسَ لأي غرض، ولم يرسلوه في أي مَهمَّة؛ وقد مثَّلت تلك الوظيفة الأساسيَّة للحارس. حتى إنَّهم لم يشغلوه كما قال، بأي أمر منذ مساء الإثنين، حين سمع صراخاً شديداً داخل المنزل، وافترض أنه ناشىء عن وفاة أحد أفراد العائلة في ذلك الوقت تحديداً. ويبدو أنَّ عربة نقل الموتى، كما كانت تُسمَّى، قد توقَّفت في الليلة الفائتة، هناك. وكانت قد أُحضرت جثة

خادمة عند الباب، فوضعها الحانوتيَّة أو الحمَّالون، مثلما كانوا يُدعون، في العربة، لا تَستُرها سوى سجادةٍ خضراء، وأخذوها بعيداً.

ويبدو أنَّ الحارس قد قرع الباب حين سمع ذلك الصراخ، والعويل الذي أشرت إليه، ولم يجب أحد قبل أن يمضي وقت طويل. وفي الأخير، برز أحدهم من النافذة وقال بنبرة غاضبة ونزقة، ولكن بصوت يتخلله البكاء، أو لأقلْ بصوت مازالت فيه آثار البكاء: ما الذي تريده وجعلك تطرق الباب بهذه الشدَّة؟ فأجاب: أنا الحارس، هل أنتم على ما يُرام؟ ما الأمر؟ فأجاب الرجل: وما يعنيك أنت؟ أوقف عربة الموتى فقط. كان ذلك، فيما يبدو، نحو الساعة الواحدة. ولم يمض وقت طويل على طلب الرجل لعربة الموتى حتى كان الحارس قد استوقف العربة، ثم طرق الباب من جديد، ولكن أحداً لم يُجب. وظلَّ يطرق الباب مرَّة بعد مرَّة، ونادى دلَّالُ المدينة على مَنْ في البيت مرَّاتٍ عديدة: أَخرِجوا الميت، أخرجوا الميت. ولم يُجبْ أحد أيضاً؛ ما اضطرَّ سائق العربة، الذي طُلب إليه التوجه إلى بيوت أخرى، إلى عدم الانتظار والانطلاق بالعربة بعيداً. ولم يَدْرِ الحارسُ ما يصنع حيال ذلك كله، لذا تركهم وشأنهم حتى يأتي الحارس الصباحيُّ أو النهاريُّ، كما يسمُّونه، ليشغل مكانه. وإذْ روى الأوَّل لهذا الأخير تفاصيل ما جرى، عمدا إلى طرق الباب مرَّات ومرَّات دون أنْ يجيب أحد. وحينها لاحظا أنَّ الشبَّاك أو النافذة البابيَّة التي برز منها الشخص الذي أجاب الحارس من قبل، ما زالت مشرعة، وكانت تلك إحدى نوافذ الطابق الثاني.

وفي ظلِّ هذه المعطيات، جاء الحارسان بسُلَّمٍ طويل ليُشبِعا فُضولهما، وصَعِد أحدهما إلى النافذة ونظر إلى الغرفة ليرى امرأة ميتة ممدَّدة على نحو مُريعٍ لا يستُرُها إلا قميص النوم. فنادى الحارس بصوت مرتفع وضَرب الأرض ضرباً شديداً بعصاه الطويلة دون أن يظهرَ أحدٌ أو يجيب، بل لم يصدر من البيت أي صوت، ثم كرَّر الأمر من جديد دون جدوى وأعلم رفيقه بواقع الحال فصعِد هو الآخر. وقرَّرا إطلاع العمدة أو غيره من قضاة الصلح، لكنهما لم يُبديا استعداداً للوُلوج إلى المنزل عبر النافذة.

وقد أمر القاضي، بناءً على المعلومات التي نقلها الحارسان، أنْ يُفْتَحَ المنزلُ عنوةً. وأمر بتعيين شرطيٍّ وأشخاص آخرين ليشهدوا ذلك خشية أنْ تُنهَب أشياءُ المنزل. وقد جرى ذلك تبعاً للأوامر ليكتشفوا أنَّ المنزل خالٍ مِن الناس ما خلا المرأة الشابَّة التي كانت مُصابةً وتخطَّت كل أملٍ في الشفاء، فتركها أهلُ المنزل تُواجِهُ مَصيرَها وحيدة، وغادروا جميعاً حين عثروا على طريقة ما في تضليل الحارس، لفتح الباب، أو الخروج من باب خلفيٍّ، أو عَبْر تسلُّقِ أسطُحِ المنازل، وهذا ما لم يعرفه الحارس. أمَّا ذلك العويل والصراخ الذي

سمعه، ففي الغالب أنَّه عويلُ العائلة المحرور لحظةَ الفراق المرير الذي من المؤكد أنَّه كان مؤلماً لهم جميعاً حين نعلم أنَّ الفتاة المتوفاة كانت أُختَ ربَّة المنزل.

ومهما يكنْ مِن أمر، فإنَّ ربَّ المنزل، وزوجته، والعديد من أولادهم الصغار، والخدم فرُّوا جميعاً، سواءً أكانوا أصحَّاء أم مصابين، فهذا ما لم أستطع تبيُّنه، ولم أستَقْصِ عنه كثيراً.

وقد حدثت عمليَّات فرار عديدة من بيوت موبوءة، ولاسيَّما عندما كان الحارس مُبتعثاً في واحدة من المهمَّات؛ ذلك أنَّ عمله اقتضى إنفاذ أي مهمَّة يبعثه بها أهل المنزل المحجور. وتتمثَّل في الحاجات الضروريَّة مثل الطعام والدواء، واستدعاء الأطباء، إنْ أبدوا استعداداً للقدوم، أو الجرَّاحين، أو الممرضات، أو طلب عربة الموتى وما إلى ذلك. ولكنَّه يأخذ، في هذه الحالة المفتاح معه بعد أنْ يُغلِقَ البوَّابة. ولتجنُّب ذلك، والاحتيال على الحارس، فقد كان الناس يحتفظون بمفتاحين أو ثلاثة لِـمِغْلاق الباب، أو كانوا يلجؤون لطرائق في فكِّ الأقفال بالطريقة ذاتها التي استخدمت لتثبيتها، أيْ بفكِّ براغي التثبيت وسحب القفل. وهكذا، فحين يرسلون الحارس إلى السوق، أو إلى المخبز، أو إلى هذا أو ذاك من الأمور الصغيرة، فإنَّهم يفتحون الباب ويخرجون كما يحلو لهم. وإذْ كُشف هذا الأمر، فقد صدرت الأوامرُ بوضع الأقفال على الأبواب من خارجها وتثبيتها بالبراغي بحسب ما يجده الحُرَّاس ملائماً.

وقد بلغني أنَّ عائلة بأكملها، في الشارع المجاور داخل «**ألد غيت**»، قد أغلق منزلها وحجر عليها بسبب إصابة الخادمة بالمرض. واشتكى ربُّ البيت، مُوسِّطاً أصدقاءه، إلى عضو المجلس المحلي وعمدة المدينة، مُفصحاً عن موافقته على نقل الخادمة إلى مشفى الأوبئة، لكنه لم يُجَبْ إلى طلبه. ولهذا، فقد جُعِلت علامة صليبٍ أحمر على الباب الذي وُضع عليه قفل، كما ذُكر آنفاً، وعُيِّن حارسٌ هناك، وفقاً للنظام العام.

ولما ألفى ربُّ البيت ألا مَناصَ منْ أنْ يُحجَرَ عليه وعلى زوجته وأطفاله بمعيَّة تلك الخادمة المسكينة التي التقطت المرض، نادى الحارس وأخبره بأنه يتوجب عليه الذهاب، والحالة هذه، لإحضار ممرِّضة كي تُعنى بالفتاة المسكينة؛ ذلك أنَّ موتهم سيكون محتَّماً إذا أُلزموا بتمريضها. وأخبره، بلا مداورة، أنَّه إنْ لم يفعل ذلك فإن الخادمة لا بُدَّ ستهلك سواءً من المرض أو الجوع، ذلك أنَّ «ربَّ البيت» قرَّر ألا يقترب منها أحدٌ من أفراد عائلته. وها هي تستلقي في الطابق الرابع هناك في عِلِّيَّة البيت حيث لا تقدر أنْ توصل صراخها أو صوتها لأي إنسان طلباً للمساعدة.

وقد استجاب الحارس، فذهب وأحضر مُمرِّضة، كما طَلب منه، في المساء ذاته. وانتهز ربُّ البيت هذه الفسحة مِن الوقت لإحداث فسحة كبيرة عبر متجره تنفذ إلى كُشْكٍ أو ورشة مُظلَّلة حيث أقام إسكافيٌّ في ورشته هناك قُبالة أو تحت واجهة عرض المتجر، غير أنَّ المستأجر، كما يُفترض في مثل تلك الأوقات المريعة كان قد مات أو انتقل إلى مكان آخر، ولهذا فقد احتفظ ربُّ البيت بالمفتاح في عُهْدَته.

وإذْ شقَّ طريقه إلى ذلك الكُشك الذي ما كان له أنْ يصله لو أنَّ الحارس كان يقف عند الباب؛ فمن شأن ما أحدثه من جلبة أن يُنبِّه الحارس. أقولُ: وإذْ شقَّ طريقه داخل ورشة الإسكافيِّ، فإنَّه جلس ساكناً حتى عاد الحارس بصحبة الممرضة، وظل على حاله حتى نهار اليوم التالي. لكنْ، في الليلة التالية، بعد أن احتال في إرسال الحارس في واحدة من الطلبات البسيطة، وهي كما أعتقد إرساله إلى محلِّ العطارة لجلب لصِفة طبيَّة لأجل الخادمة؛ ما يقتضي من الحارس البقاء لفترة حتى ينتهي العطَّار مِنْ إعدادها، أو في أي من المهمَّات الأخرى التي مِن شأنها ضمان بقائِه لبعض الوقت؛ أقولُ: في الليلة التالية، خرجَ وَعائلتَه من المنزل، وترك للمُمرضة والحارس مَهمَّة دفن الخادمة المسكينة، أيْ رميها داخل العربة، والتكفُّل بشأن البيت.

ومن الممكن أن أعرض العديد من هذه القصص المثيرة للفضول التي خبرتها، أي سمعت بها على مدار تلك السنة المريعة. ومن المؤكد أنَّها صحيحة، أو قريبة من الحقيقة، أي أنَّها حقيقيَّة بصفة عامَّة، فليس بمستطاع أي امرئ في مثل هذه الأوقات أنْ يُحيط بكل التفاصيل. وقد كان هناك عنف، كما أوردت سابقاً، تجاه الحرَّاس في أمكنة عديدة. وأعتقد أنَّه، بدءاً من حلول الوباء إلى نهايته، تراوحَ عددُ مَنْ قُتل من الحرَّاس من ثمانية عشر (18) إلى عشرين (20) حارساً، أو أنَّهم جُرِحوا جروحاً بالغةً إلى درجة أنهم عُدُّوا في صفوف الموتى. ومن المفترض أنَّ مَنْ قارَف هذا الفعل هُم الناس الذين يسكنون المنازل الموبوءة التي جرى إغلاقها؛ إذ حاولوا الخروج فاعترَضهم الحُرَّاس.

وفي واقع الأمر، مِنْ غير الممكن توقُّع ما هو أقل من ذلك، فقد كان هناك عددٌ كبير من البيوت المغلقة، أو بمعنى آخر عدد كبير من السجون. وإذْ حجز الناس أو سجنوا لا لجريمة اقترفوها، وإنَّما بسبب حظهم العاثر، فقد غدا هذا الواقع أكبر من مقدرتهم على الاحتمال.

وهناك نقطة أخرى مُهمَّة. فلمَّا كان لكل سجن، كما قد نسمِّيه، سجانٌ واحد، وكان من واجب الأخير أنْ يحرس المنزل بأكمله، ولـمَّا كان لكثير من البيوت مَخارج عدَّة، بصورة تتباين من بيت إلى آخر، وبعض هذه البيوت لها مَخارج

نافذة إلى عدَّة شوارع، غدا من المستحيل على رَجلٍ واحد الاضطلاع بحراسة كل المخارج لمنع الناس من الهرب، لاسيَّما وقد بات هؤلاء يائسين نظراً إلى ظروفهم المريعة، وبسبب الاستياء من الطريقة التي يعاملون بها، أو غضباً من الوباء نفسه. وهكذا، فقد عَمد بَعْضُهم إلى الانخراط في مُحادثة الحارس، عند إحدى جهات المنزل، في حين تفرُّ العائلة من الجهة الأخرى.

ولنضربْ لذلك مثالاً، فقد كان يتفرَّع عن شارع «**لوكمان**» زقاقٌ عديدة كما هي حاله الآن. وقد شُمع أحد المنازل الكائنة فيما كانوا يدعونه «**وايتس آلي**»، وكانت لهذا المنزل نافذة خلفية، لا بابٌ، تُطلُّ على ساحة يتفرَّع عنها ممرٌّ يُفضي إلى زقاق «**بيل**». وكان أنْ جعل مسؤول الأمن حارساً على باب المنزل، وقد رابط الأخير هناك، بالتناوب مع رفيقه، ليلاً ونهاراً، في حين انْسلَّت العائلة في المساء من النافذة إلى الساحة تاركةً الحارسيْن المسكينَيْن يقومان بالخفارة والمراقبة نحواً من الأسبوعَيْن.

وليس بعيداً عن المكان ذاته، قام ناسٌ بنسف حارس مستخدمين البارود، وقد أحرقوا الرجل المسكين على نحوٍ مُثير للفزع، وحين أخذ بالصراخ على نحوٍ فظيع، ولم يجرؤْ أحد على الاقتراب لمساعدته، تسرب أفراد العائلة، ممَّن كانوا قادرين على الحركة، من نوافذ الطابق الأول، مخلِّفين وراءهم مَريضَيْن يستصرخان. وقد مُنح الأخيران مُمرِّضَتَيْن للعناية بهما، ولم يُعثر على مَنْ فرَّ من أفراد العائلة الذين آبوا إلى منزلهم حين انحسر الوباء. ولـمَّا كان من العسير إثبات أي شيء لإدانتهم، تعذَّر اتخاذ أي إجراء ضدَّهم.

ولا بدَّ أن نضع في حسباننا، أيضاً، أنَّ تلك المنازل كانت سجوناً، ولكنْ دون القضبان والأقفال التي تُجهَّز بها سجوننا العامَّة، لذا كان الناس يتسلَّلون من النوافذ حتى تلك المُواجِهَةِ للحارس مُشهرين سيوفهم أو مُسدساتهم، مُهدِّدين الرجل البائس بإطلاق النار عليه إنْ تحرَّك أو طلب النجدة.

وثمَّة حالاتٌ أخرى تنفصل فيها البيوت عن بعضها بحديقة أو جُدر تتخلَّلها أزقَّة أو أسيجة، فضلاً عمَّا يفصلها من أفنية أو تهويات. وهكذا، فمِنْ شأن سكان المنازل المشموعة، بحكم ما يجمعهم من صداقة مع جيرانهم، أو عبر الاستعطاف، أن يتسوَّروا تلك الجدران أو الأسيجة ويخرجوا عبر أبواب جيرانهم، أو أنْ يلجأوا إلى رشوة خدم هذه البيوت كي يسمحوا لهم بالتسلل ليلاً عبر بيوت أسيادهم. وهكذا، يمكن القول باختصار إنَّه لم يكن من الحكمة إغلاق البيوت وتشميعها، وما كان يحقق الغاية المرتجاة إطلاقاً، فقد أسهم هذا الإجراء في جعل الناس أشدَّ قنوطاً، ودفعهم إلى تلك الحالات المتطرفة التي مِنْ شأنها أنْ تستحثَّهم على الفرار مهما كانت الأكلاف. وقد تمثَّل ما هو أسوأ

من ذلك، في أنَّ مَنْ فَرَّ مِن المصابين بالطاعون نشر العدوى بصورة أكبر عبر تَطوافه التائه واليائس.

ولا بدَّ لمنْ يعتبر بهذه الظروف أنْ يُقرَّ بأنَّ قسوة هذه الإغلاقات دفعت هؤلاء الناس، يقيناً، إلى حالةٍ مِن اليأس، واستحثَّتهم للفرار مِن منازلهم على غير هُدى، وهم يحملون المرض وتظهر عليهم علائمه، لا يدرون ما يصنعون وإلى أين يتَّجهون، بل لا يدرون ما صنعوا فعلاً...!!

وقد وقع كثيرٌ ممَّنْ فعل ذلك في حالةٍ مُدقعةٍ من الحرمان والشدائد، وسقطوا صرعى في الشوارع أو الحقول بسبب الحاجة الشديدة إلى الطعام والشراب، أو بأثرٍ من الحُمَّى الـمُسْتَعِرة في أوصالهم، في حين تاهَ عديدٌ آخر في الأرياف وتعمَّقوا فيها كيفما اتَّفق، مدفوعين بيأسهم وغير مدركين إلى أين اتجهوا أو سيتَّجهون. وظلُّوا على هذه الحالة، حتى طالهم الإرهاق والضعف دون أن يحصلوا على بعض الراحة، ودون أن تسمح لهم القرى والمنازل المجاورة للطريق بالدخول أو تقدم لهم المأوى، سواء أكانوا مصابين أم لا. فهلكوا على جنبات الطرق، أو ولجوا داخل الحظائر وماتوا هناك دون أنْ يجرؤ أحدٌ على الاقتراب منهم أو استنقاذهم، حتى لو كانوا مُعافيين، فما كان لأحدٍ أنْ يُصدِّقهم.

ومِنْ جهةٍ أخرى، حين ينزل الطاعون بإحدى العائلات، أيْ حين يخرج أحد أفراد العائلة ويلتقط العدوى، بسبب مِن غفلته أو لأي سببٍ آخر، ويجلب الوباء إلى المنزل، فإنَّ العائلة، بداهةً، تعرف ذلك قبل الموظفين الذين، كما سترى على التوالي، قد عُيِّنوا لفحص أوضاع جميع المرضى لحظة إخبارهم بأنَّهم التقطوا المرض.

وقد كان لدى ربِّ البيت، خلال الفاصل الزمني بين التقاط العدوى ووصول المُفتِّشين، الفرصة والحريَّة أن ينتقل هو، أو جميع أفراد عائلته، إلى مكان آخر إنْ كان يعلم وجهته، وقد فعل ذلك كثيرون. ولكنْ، تكمن الطامَّة في أنَّ كثيرين انتقلوا بعد أن كانوا قد التقطوا العدوى ونقلوا المرض إلى أولئك الذين أكرموا وفادتهم وتلقَّوهم بترحاب شديد. ولا بدَّ من الإقرار أنَّ هذا السلوك اتَّسم بالقسوة والجحود الشديدين.

وكان ذلك جزئياً السبب في شيوع الانطباع العام، أو المقيت، الذي سرى في الناس حول طبيعة الناس المصابين، أي أنَّهم لم يأبهوا أو تتحرَّج ضمائرهم من نقل العدوى للآخرين. وعلى الرغم مِن أنَّني لا أستطيع القول إنَّ ذلك انطوى على بعض الحقيقة، لكنَّها ليست حقيقة عامة كما قيل. فأنا لا أدري أي منطق

يمكن أن يكون وراء عمل كريه يقوم به أناس في وقتٍ يتعين عليهم فيه ربَّما التجهز للمثول أمام محكمة العدل الإلهية. وإنَّي مُتيقِّن تماماً أنَّ هذا السلوك لا ينتمي إلى دينٍ أو مبدأ بقدر عدم انتمائه للحسِّ الإنسانيِّ أو مكارم الأخلاق، وقد أُعرِّج بالحديث عن ذلك مرَّة أخرى.

غير أنَّ حديثي الآن يدور حول الناس الذين أوصلتهم مخاوفهم من الحجز حدَّ اليأس، وحول فرارهم عُنوةً أو حيلةً. وقد كانوا مثالاً للمأساة سواء في حجزهم أو في فرارهم، بل إنَّ فرارهم فاقم من مأساتهم على نحوٍ تراجيديٍّ. ومِن جهةٍ أخرى، فقد امتلك مُعظم مَنْ غادر بعيداً مناجعَ يأوون إليها ومنازل إضافية؛ حيث أغلقوا على أنفسهم هناك وبَقوا مُتوارين حتى انتهى الطاعون. وعَمدت كثرة من الأسر، التي توقَّعت حلول الوباء، إلى تخزين المؤن التي تكفي مَجموع عوائلها، ثم أغلقت الباب على أنفسها وَكَنَّت في بيوتها تماماً فلم يُرَ أو يُسمعْ منها حتى انحسر الوباء انحساراً كاملاً، فخرجت حينها سالمةً مُعافاة.

وبإمكاني أنْ أذكر العديد من الحالات المشابهة، وأنْ أقصَّ عليك بالتفصيل كيف تدبَّر هؤلاء أمرهم. فممَّا لا ريب فيه أنَّ هذه الطريقة مثَّلت الطريقةَ الأكثر فاعليَّة لأولئك الذين لم تسمح لهم ظروفهم بالرحيل، أو لم يمتلكوا مناجع خارج المدينة ملائمة لهذه الغاية. وهكذا، بدا إيصاد الأبواب دون العالم الخارجيِّ بمثابة ابتعاد سكان المنزل المغلق مئة (100) ميلٍ عن المدينة. ولا أذكر أنَّ مكروهاً قد مسَّ أياً من تلك العائلات. وبرز منْ بين هؤلاء العديد مِن التجَّار الهولنديِّين الذين جعلوا منازلهم شبيهة بقلاعٍ صغيرة مُحاصَرة لا يُسمَحُ لأحدٍ الدخول إليها أو الخروج منها ولا حتى الاقتراب مِن أسوارها، ولاسيَّما ذلك التاجر الذي قطنَ جادَّة «**ثروجمورتون**»، وكان منزله قائماً في حديقة «**دريبَرْزْ**» (Drapers).

ولكنْ، لأعدْ إلى حالة العائلات التي شُمِّعت منازلُها بأمرٍ مِن القضاء، فَلَقَدْ عرفَتْ هذه العائلات مِن البؤس ما لا تستطيع الكلمات أنْ تصفه، وكان من المعتاد أنْ نسمعَ ما لمْ نَخْبَرْهُ مِنْ صَرخات وصَيحات مُريعة مُنْبعثة مِنْ حَناجر الناس المساكين الذين كانوا فزعين ومُرتاعين حَدَّ الموت لَدى رُؤيَتهم حالَ أعزِّ أقربائِهم، فضلاً عن رُعْبهم مِن الحجز الذي ألفَوا أنفسهم فيه مع هؤلاء الأخيرين.

أذكر سيِّدة بعينها يُخايل لي وأنا أسطِّر قصَّتها أنَّ نَحيبها يتردَّد الآن في أذني. وكانت لهذه السيِّدة بنتٌ يافعة ووحيدة في التاسعة عشرة من عمرها. وقد توفرت السيِّدة على ثروة كبيرة، وَكانتا تقيمان في بَيْتٍ مُستأجَر. خرجت البنتُ الشابَّة، وأُمُّها والخادمة في مُناسبَةٍ ما عُدْتُ أذكرُها، إذْ لمْ يَكن المنزل

مُغلقاً أو مَشموعاً. وحين عادوا إلى البيت بعد نحوٍ مِن الساعتين، اشْتكت البنتُ بأنَّها على غير ما يرام، وما هي غير خمس عشرة دقيقة حتى بدأتْ بالتقيُّؤ، وشعرت بِصُداعٍ شديد. فَصاحتْ الأمُّ مُرْتاعةً: يا الله، أسألُكَ ألا يكونَ الوباءُ قد مَسَّ ابنتي...!!

واشتدَّ على الابنة الصُّداع، فطلبت الأم مِن الخادمة تدفئةَ السرير، وعَمَدَتْ إلى وضعِها فيه، واستعدَّتْ لإعطائِها أشياء تُسبِّبُ التعرُّق، وهو الإجراء العلاجي المعتاد حين تبدأ عوارض الطاعون بالظهور. وبينما كانت الخادمة تقوم بتدفئة السرير جرَّدت الأمُّ ابنَتَها مِنْ ثيابها، وحالما وُضعت في السرير، وما إنْ تفحَّصت الأم جَسَدَ ابْنَتِها مُستَعينَةً بشمعة، حتى اكتشفت على الفور علائِمَ مُميتَةً في باطن فَخِذَيْها. وإذْ عَجِزَت الأمُّ عنْ تمالُكِ نفسها، ألقتْ بالشمعة وأطلقت صَرخةً مُريعة تَبُثُّ الفَزَعَ في أشَدِّ القلوب قوةً وصلابة؛ لم تكن صرخةً أو صيحةً واحدة بل صرخاتٍ مُتواليةً، ولكنْ، حينَ تملَّكها الفزعُ أُغْمِيَ عليها بادىء الأمر، ثمَّ استَفاقَتْ، وراحتْ تركضُ في أرجاء المنزل جميعها، صاعدةً السلالم.. هابطةً منها، مثل الذي ذَهِلَ عنْ نفسه، حتى إنها غابت عن رشدها فعلاً، وظلَّت تصرخُ وتَصيحُ عدَّةَ ساعات ذاهلةً عن عقلها، أو لأقلْ غير متماسكة، ولم تستردَّ وعيها كاملاً، كما أُخْبِرْتُ. أمَّا ابنتها الشابَّة، فقدْ غَدَتْ جُثَّةً هامدةً منذ تلك اللحظة؛ ذلك أنَّ «**الغَرْغَرينا**»، التي ظهرت على هَيئَةِ بُقَعٍ، انتشرت في جسمِها بأكمله، وقَضَتْ في أقَلَّ مِنْ ساعتين. غيرَ أنَّ الأمَّ استمرَّتْ في الصراخ ذاهلةً عنْ كل شيءٍ، ما خلا ابنتها التي كان قد مضت على وفاتها ساعات عدَّة. وقد فات على ذلك زمن طويل، وما عادت ذاكرتي تُحيطُ بكل ما حدث، لكنِّي أعتقد أنَّ الأمَّ لمْ تَبْرأْ ممَّا أصابها، وماتت في غُضونِ أُسبوعَيْن أو ثلاثة.

لقد مَثَّلَتْ تلك القصة حالةً استثنائيّة؛ ما حملني على بَسْط الحديث فيها، فضلاً عنْ أنَّه اتَّفَقَ لي الاطِّلاع عليها عن كَثَب. ولكنْ، كان هناك ما لا يأتي عليهِ إحصاءٌ من الحالات. وقلَّما صدرت لائحة الموتى الأسبوعية دون أنْ تتضمن وفاتين أو ثلاثاً بِسببِ الذُّعر، أيْ مِن الممكن القولُ إنَّهم ذُعروا إلى حَدِّ الموت. لكنَّ فترة الوَباء عَرَفَت حالاتٍ أخرى غير تلك التي كان يُصْرَع فيها الشخصُ، منْ فَورِه، فَرَقاً، فقد كان هناك مَنْ تسبَّبَ الذُّعر لهم بأحوال شديدة، فأخرج بعضَهم عن عقله، في حين فقدَ آخرون ذاكرتَهم، وفقدَ فريقٌ ثالث فاهِمَتَه...!!

ولكنْ، لأعدْ إلى البيوت التي أَمَرَتْ السلطاتُ بإغلاقها. وكما توسَّل عديدٌ من الناس الحيلةَ للخروج مِن منازلهم التي حُجرَ عليهم فيها، فقد لجأ آخرون إلى إرشاء الحُرَّاس بالمال كي يسمحوا لهم بالخروج خِفيةً تحتَ جُنْحِ الليل. ولا بدَّ لي أنْ أعترفَ أنَّي اعتقدتُ، في ذلك الوقت، أنَّ هذا السلوك الفاسدَ أو

الرشوةَ يُعدُّ أكثرَ أشكالِ الذنوبِ براءَةً على الإطلاق، ولهذا فإنَّي أشفقتُ لحال الحرَّاس المساكين، وأعتقد أنَّ من الثقيل على نفسي أنْ أرى ثلاثةً من هؤلاء الحرَّاس يُجْلَدون في الشوارع على مَشهدٍ مِن الناس لأنهم سمحوا للناس بالخروج مِنْ منازلهم التي تقرَّرَ إغلاقُها.

وعلى الرغم ممَّا كان الناسُ فيه مِنْ شدَّة، فقد توفَرَ الفقراء على المال بصورة أو أخرى، ووجدَت العديدُ من العائلات الموارد الماليَّة للفرار منْ بيوتهم بهذه الوسيلة بعد أنْ حُجِرَ عليهم. لكنَّ هذه، عامَّةً، كانت حال مَن امتلك مكاناً يأوي إليه. وعلى الرغم مِن تعسُّر عبور الطرق في أي اتجاه بعد الفاتح منْ آب، ظلَّت هناك طرائقُ للهرب، لاسيَّما، وكما ألمحتُ سابقاً، أنَّ بعض الناس امتلكوا خيماً ونصبوها في الحقول، حاملين معهم أسرَّة، أو أكواماً من القشِّ للاضطجاع عليه، ومُؤناً للتبلُّغ بالطعام. وهكذا، فقد عاشوا فيها عيشَ الراهبِ في صَومَعته؛ ذلك أنه ما كان لأحد أنْ يجرؤَ على الاقتراب منهم.

وقد رُويت قصصٌ كثيرة عن هؤلاء أخذَ بعضُها شكلاً هزلياً، في حين اتَّخَذَ الآخر شكلاً تراجيدياً. وتحدَّث بعضُها عن أولئك الذين عاشوا مثل حُجَّاج هائمين في الصحراء، وقد فرُّوا من الموت بتمثُّل حياة الترحال، التي يُعلِّمُها الشظف والشدَّة بصورة لا تعقل، بيدَ أنَّهم تمتعوا بحريَّة أكبر ممَّا يأملهُ المرءُ في مثل هذه الظروف.

أعرف قصَّة أخوين وقريب لهما. وعلى الرغم منْ أنَّ هذين رفقةَ قريبهما كانوا عُزَّاباً، فإنهم تأخَّروا كثيراً في الخروج. وفي واقع الأمر ما كانوا يعرفون مكاناً يلجؤون إليه، وما كانوا يملكون من المال ما يمكِّنهم من السفر بعيداً؛ ما اضطرَّهم إلى تبنِّي مسار للنجاة بأنفسهم، وبدا ذلك المسار مُحاولةً يائسة باديء الأمر، لكنَّها كانت طبيعيَّة جداً إلى درجة أنَّ المرء ليعجب لِمَ لَمْ يَحْذُ آخرون حَذْوَهم في ذلك الوقت. وعلى الرغم منْ أنهم كانوا في وضع بائس، غير أنهم لم يكونوا في فقر مُدقِعٍ يحول بينهم وبينَ تأمين أنفسهم بقليل من الحوائج التي تُبقيهم على قيد الحياة. ولمَّا رأوا الوباء قد فشا في أرجاء المدينة، عَزَموا على تدبُّر أمرهم بقدر ما يستطيعون، والرحيل عنها.

وكان أحد الأخوَيْن جُندياً محارباً في الحروب الأخيرة التي خاضتها بريطانيا ضدَّ إسبانيا عام 1655م، وتلك التي خاضتها قبل ذلك ضدَّ هولندا عام 1652م. وإذْ لم يَخبَرْ أي صنعةٍ سوى الجنديَّة، ولـمَّا كان يعاني منْ إصابةٍ تلقَّاها في إحدى الحروب، وعاجزاً عن مزاولة العمل الشَّاق، فقد عمل بعضَ الوقت في مَخبَز بسكويت البحَّارة في منطقة «**وابِنْغْ**». أمَّا شقيقُه، فقد كان ملَّاحاً، لكنَّه أُصيب بطريقة أو أخرى في إحدى ساقَيْهِ؛ ما أقعده عن الذهاب إلى البحر، بيد أنه

كسب عيشه بالعمل لدى أحدِ صُنَّاع الأشرعة في منطقة «**وابِنْغْ**» أو جوارها. ولمَّا كان مُقتصِداً في معيشته، فقد وفَّرَ بعض المال فغدا أغنى الثلاثة. أمَّا قريبُهما، فقد كان نجَّاراً، أو مُحترفاً مهنةَ التجارة ورجلاً ماهراً، وكان صندوق عُدَّته كلَّ ثروته التي يستطيع بها أنْ يكسب عيشه في أي وقت؛ مثل هذا الوقت كما هو متوقَّع، وفي أي مكان، وسكن قريباً من «**شادويل**».

وقد عاش ثلاثتهم في أبرشيَّة «**ستِبْني**» التي، كما أسلفت، كانت آخر مكان انتقلت إليه العدوى، أو على الأقل لم يتفشَّ فيها الوباء، وقد ظلوا هناك حتى رأوه، بجلاء، ينحسر في الجانب الغربيِّ من المدينة، ويتَّجه نحو الشرق حيث يقيمون.

وإذا قنع القارىء بروايتي قصَّةَ هؤلاء الرجال الثلاثة مستخدماً شخوصهم دون التعهد بصحة جميع التفاصيل، أو تحمل مسؤولية ما يشوبُها من أخطاء، فإنِّي سأعْرِضُها بقدر ما أستطيعه مِن وضوح، مُعتقداً أنَّ التاريخ سيكون مثالاً جيِّداً يتبعه أي رجل فقير إذا حلَّ الخراب العامُّ مِن جديد. وإذا جنَّبَنا الربُّ برحمته الواسعة ذلك، فإنَّ القصَّة تظلُّ مُفيدةً بغير طريقة، بحيث لا يُقال مثلما آملُ أبَداً، أنَّ سردَها عديمُ النفع. وإذْ قدَّمت لهذه القصَّة، فإنَّ لديَّ الكثير لأقوله قبل أنْ أغادر ما يتعلَّق بي وأعود للقصَّة ذاتها.

لقد ذرعتُ الشوارع، في بدايات الأمر بحرية، ولكنْ دون أنْ أبلُغ حداً يوقعني في خطر شديد. ما عدا مرَّةً واحدةً حين حُفِرَتْ حُفرةٌ كبيرة في مَدْفَن أبرشيَّة «**ألد غيت**». وقد كانت حُفرَةً مهولةً إلى درجة أنني لم أستطع أنْ أقاوم فضولي في الذهاب لمعايَنَتِها. وبقدر ما أستطيعُ الحكمَ فقد بلغ طولُها زهاء أربعين (40) قدماً، في حين تراوح عرضُها بين خمس عشرة (15) وستَّ عشرة (16) قدماً، وبلغ عمقُها، لدى أوَّلِ نَظرةٍ، تسعَ (9) أقدام. لكنْ، قيل إنَّ عُمقَها بلغ في أحد جوانبها نحو عشرين (20) قدماً، أي أنَّهم بلغوا الحدَّ الأقصى الذي لو تجاوزوه لوصلوا إلى طبقة المياه الجوفيَّة، إذْ يبدو أنَّهم قد تمرَّسوا في حفر العديد من الحفر الكبيرة قبل هذه الأخيرة.

وإنْ اقتضى الطاعون وقتاً طويلاً في الوصول إلى أبرشيَّتنا، فإنه ما إنْ حلَّ هناك حتى تَجاوز عُنفُه في أبرشيَّتي «**ألد غيت**» و«**وايت تشابل**»، ما عداهما مِنْ أبرشيَّات. أقولُ: إنَّهم حفروا حُفراً كبيرة في أرضٍ أخرى حين بدأ الوباء بالانتشار، ولاسيَّما عندما أخذت عرباتُ الموتى تجوبُ المكان، وهو ما لم نَرَه في أبرشيَّتنا إلا في بداية آب. ولعلَّهم وضعوا في هذه الحُفر خَمْسينَ أو ستِّينَ جُثَّةً في كل واحدة منها، ثمَّ عمدوا إلى توسيع الحفرة، حيث دفنوا كل ما كانت تأتي به العربةُ مِنْ جُثَثٍ في أسبوع. وقد تراوحَ عددُ الجثث أسبوعياً، من

منتصف آب حتى آخره، بين مئتين (200) وأربَعِمِئةِ (400) جُثّة. ولم يكن بمقدورهم الحَفْرُ أعمقَ من ذلك؛ ذلك أنَّ القُضاة قَنَّنوا عملهم، وأمروا ألا تقلَّ المسافةُ الفاصلة بين الجُثثَ وسطح الأرض عنْ ستِّ أقدام، فضلاً عن أنَّ المياه الجوفيَّة تتدفَّقُ عندَ سبع عشرة قدماً أو ثماني عشرة. وهكذا، لم يكن بمقدورهم وضعُ المزيد من الجثث في الحفرة الواحدة. غيرَ أنَّ الطاعونَ حينئذ، أيْ في بدايات آب، قد انتشرَ انتشارَ النار في الهشيم. وارتفعَ عددُ الوفيات في أبرشيَّتنا أكثرَ مِن أي أبرشيَّة بحجمْها في مُحيط لندن. وعليهِ، فقد صدرت الأوامرُ أنْ تُحفرَ هذه «**الهاويةُ**» الرهيبةُ؛ إذ لا يَصحُّ وصفُها بالحفرة. وكان مِن المفترضِ أنْ تَكفي هذه الحُفْرةُ لدفن الجثث على مدى شهرٍ أو أكثر. ومِن الناس مَنْ لوَّم على سَدَنَةِ الكنيسة، لأنَّهم سمحوا بحفر هذه الهاويةِ المفزعة، قائلين لهم: لقد كنتم تُعدُّون العُدَّةَ لدفن سُكانِ الأبرشيَّة جميعِهم، وما شابه ذلك مِنْ أقوال. لكنَّ الزمنَ أظهرَ أنَّ سَدَنَةَ الكنيسة أدرى بحالِ الأبرشيَّة مِمَّنْ أغلظوا لهم القول، ذلك أنَّهم ما كادوا ينتهونَ مِنْ تجهيزها في الرابع مِنْ أيلول، وفق ما أعتقد، حتى شَرَعوا بدفن الموتى فيها بدءاً من السادس منه، وما إنْ أشْرقَتْ شمسُ اليوم العشرين منه، أيْ بعدَ مضيِّ أسبوعين لا غير، حتى بلغَ مجموعُ ما ألقوا فيها ألفاً ومئةً وأربعَ عشرة (1114) جثَّة، وحينَها كانوا مضطرِّين إلى إغلاقها، فقد بلغت الجثثُ الحدَّ المسموح به، أيْ ستَّ أقدام دون سطح الأرض. وإنَّي لأميلُ إلى الاعتقاد أنَّ مِن الممكن أنْ يكون بعضُ كبارِ السنِّ على قيد الحياة، حتى اللحظة، في الأبرشيَّة، مِمَّنْ يمكن أنْ يشهدوا بهذه الحقيقة، وأنْ يكونوا قادرين، بصورة أفضل منِّي، على تعيين مكان الحفرة في مَدْفَن الكنيسة. وقد ظلَّت الخطوطُ الدَّالة على الحُفرةِ باديةً، عدَّةَ سنين، على سطح مَدْفَن الكنيسة. وهي تمتدُّ بالتوازي مع الممرِّ المحاذي لجدار المدفن الغربيِّ من جهة شارع «**هاوند سديتش**»، ثم تنعطفُ شرقاً، من جديد، داخل «**وايت تشابل**»، وتخرج من هناك لتنتهي عند فندق «**الراهبات الثلاث**».

كان ذلك في العاشر منْ آب تقريباً حين قادني فضولي، بل دفعني على نحو قهريٍّ، إلى الذهاب ورؤية الحفرة مِنْ جديد، وذلك عندما بلغ مَنْ دُفن فيها قرابَةَ أربعِمِئَةِ (400) جثَّة. ولم يَروِ رغبتي أنْ أراها في واضحة النهار، كما فعلتُ منْ قبل، إذْ لنْ يكون هناك ما أراه سوى الترابِ المُزالِ مِن الحفرة وقد أُعيدَ إليها، ذلك أنَّ كل الجثث التي أُلقيَ بها هناك جرى رَدمُها بالتراب المزالِ مِن جانب حفَّاري القبورِ الذين دُعوا في أوقاتٍ أخرى بحمَّالي الجنائز. لكنَّني قررتُ الذهابَ ليلاً كي أرى بَعضَ الجُثَثِ وهي تُلقى بالحفرة.

وصدر أمرٌ صارمٌ بمنعِ الناس مِن القدومِ إلى تلك الحُفَر، للحيلولة دونَ انتقالِ العدوى. وغدا هذا المنعُ، بعدَ مرور بعض الوقت، أكثرَ ضرورةً. فقد كان

المصابون بالطاعون مِمَّن اقتربتْ نهايَتُهم، ودخلوا في حالةٍ هذيانيَّة، يَجْرون تُجاهَ تلكَ الحُفَرِ مُتَدثِّرين بالمُلاءات أو السجَّاد، ثم يُلقونَ بأنفسهم فيها ويَحْثُون على أنفسهم الترابَ كما قيل. ولا أستطيع القول إنَّ ضُبَّاط الشرطة قد سمحوا طواعيةً لأحدٍ بأنْ يدفنَ نفسه هناك، لكنِّي سمعتُ عنْ حُفرةٍ مَهولَةٍ في أبرشيَّة «**كريبلْ غيت**»، التابعة لدائرة «**فينسبري**»، التي كانت مفتوحةً على الحقول، ولم تكن مُسوَّرةً آنَئذٍ، أقولُ: سمعتُ أنَّ «**عديداً**» مِن الناس كانوا يأتون إليها ويُلقون بأنفسهم فيها، حيث يلفظونَ أنْفاسَهُمْ هناك قبل أنْ يُهالَ عليهم التراب. وحينَ يأتي الحانوتيَّةُ لدفن موتى آخرين فإنهم يعثرون عليهم هناك موتى وإنْ لم تَبْرُدْ أجسادُهُم بعد. قد يُسعف هذا قليلاً في وصف الحالة المروِّعة التي حطَّت بظلالها على ذلك اليوم. ومع ذلك، فمن العسير إعطاءُ فكرة حقيقيَّة عن تلك الحال لمنْ لمْ يَخْبَرْها عَياناً. وكل ما يستطيع المرءُ أنْ يقوله إنَّه كان مفزعاً أيما إفزاع ومُريعاً إلى درجة تَعْصى على الوصف.

وقد تمكَّنتُ مِنْ دخول مَدفن الكنيسة، بفضلِ معرفتي بـ «**القندلفت**» [15] الذي كان يعمل هناك. وعلى الرغم منْ أنه لم يصدقني، فقد جَهدَ في إقناعي بعدم الذهاب قائلاً لي برصانةٍ شديدة (إذ كان رجلاً صالحاً، وتقياً، وحسَّاساً): «إنَّ من واجبنا وصُلْبِ عملنا، نحنُ القيِّمين على الكنيسة، أنْ نُغامرَ ونركبَ المخاطر جميعَها، ونرجو، بسبب ذلك، أنْ يحفظَنا الربُّ». أمَّا أنت، فلا تملك دافعاً سوى فضولك الذي لا يمكن الزعم بكفايته لركوب المغامرة، فأخبرتُه: «أنَّ هاجِسَ الذهابِ إلى الحفرة ما انفكَّ يُلحُّ عليَّ، ولرُبما عاد عليَّ المشهدُ باستبصاراتٍ نافعة»، فأجاب الرجل الصالح: «حسناً، إنْ كنتَ تَبغي خوضَ المغامرة لهذا السبب، فعلى بركة الله، فَمِنْ شأنِ ذلكَ أنْ يكون موعظةً لك، ولعلَّها تكونُ أفضلَ ما سمعتَه في حياتك مِنْ عِظات»، وأردف قائلاً: «إنَّه مشهدٌ ناطقٌ وصادحٌ بصوت مرتفع، يبغي دعوتنا إلى التوبة»، وختم بالقول: «ادخُلْ إنْ شِئْتَ».

لقد هزَّ خطابُه قراري بالذهاب قليلاً، ووقفتُ مُتردِّداً فترةً من الوقت. لكنِّي رأيتُ في هذه الأثناء، مشعلَيْن يلوحانِ نهايةَ شارع «**مينوريز**»، وتَناهَتْ إليَّ جَلْجَلةُ الناقوس، ثُمَّ ظهرتْ عربةُ الموتى، كما كانت تُسمَّى، مُنحدرةً من الشارع، فما عاد بمقدوري دفع رغبتي بمشاهدة ذلك، فولجتُ مدفنَ الكنيسة الذي خلا مِنْ أي إنسان، كما بدا لي في مُبتدأِ الأمر، ولم يَلِجْه سوى الحانوتيَّة والرجل الذي قاد العربة، أو الذي قادَ الحصانَ والعربة. لكنهم حينَ وصلوا الحفرةَ رأوا رَجلاً يذرعُ المكانَ جيئةً وذهاباً وقد تلفَّعَ بعباءةٍ بُنيَّةٍ، وراحَ يُحرِّكُ يدَيْه داخلَ العباءةِ وكأنَّما يُغالبُ ألماً مُبرحاً، وما لبثَ أنْ التَفَّ الحانوتيَّة حولَهُ، مُفْتَرِضينَ أنَّهُ واحدٌ من الناس المساكين اليائسين إلى درجةٍ هذيانيَّةٍ مِمَّنْ اعتادوا، كما أسلفتُ، مُحاوَلَةَ دفنِ أنْفُسهم. ولم يتلفَّظْ بكلمةٍ وهو يَذْرَعُ

المكانَ، لكنَّه تأوَّهَ مرَّتين، أو ثلاثاً، بصوتٍ عميق ومُرتفع، وأطلقَ تَنْهيدَةً كاد قلبُهُ يَتفَطَّر منها. وعندما اقتربَ الحانوتيَّةُ منه، وجدوا أنَّه لمْ يكنْ مِنْ أولئكِ المرضى الذينَ بلغوا درجة اليأس، ولا كانَ رَجُلاً مُخْتَلَّ العقل، وإنَّما رجلٌ أَثْقَلَهُ الحزن، فقد كانتْ زوجته وأبناؤه في العربة التي وصلتْ للتوِّ، فأدركَهُ عذابٌ وحزنٌ شديدان. وكما يُمكنُ للمرء أنْ يرى بوضوح، فقدْ أمرَضَهُ الحزن، لكنَّه ذلكَ الشكلُ من الحزنِ الرجوليِّ الذي لمْ يستطعْ أنْ يُنفِّسَ عنهُ بالدموع. وقد واجَهَ الحانوتيَّةَ بهدوءٍ طالباً إليهم أنْ يتركوهُ وشأنهُ، قائلاً إنَّه لا يُريدُ سوى رؤيةِ جُثثِ ذويهِ لدى دَفْنِها ويُغادر مِنْ ساعَتِه.

وكان ينتظرُ أنْ يُلحَدوا بصورةٍ لائقةٍ على أقلِّ تقدير، وإنْ اقتنعَ، لاحقاً، أنَّ ذلكَ مُمتنعٌ عملياً. وهكذا، فما إنْ رأى العربةَ تستديرُ وترمي بهم، كيفما اتَّفَقَ، في الحفرة حتى انفجرَ في البكاءِ والصراخ غيرَ قادرٍ على تمالُكِ نَفسِه. ولمْ أستطعْ سَماعَ ما قالَهُ، لكنَّه تراجعَ خُطوَتَيْنِ أو ثلاثاً قبل أنْ يَسقُطَ مَغْشِياً عَلَيه.

فتراكضَ الحانوتيَّةُ حولهُ وأسندوهُ، ثمَّ ما لبثَ أنْ أفاق، فأخذوه إلى حانةِ «**تافرنِ باي**» الواقعة في آخر شارع «**هاوْنْدسْ دِتْش**» حيث كانَ الرجلُ معروفاً، فيما يبدو، فأخذه أصحاب الحانة وعُنوا به. وقد ألقى نظرةً أخيرةً إلى الحُفرةِ وهو يُغادرُ المكانَ لكنَّ الحانوتيّةَ كانوا قد دفنوا الجُثَثَ، حالاً، في التراب.

وليسَ ثَمَّةَ ما يُرى، على الرغم منْ أنَّ المنطقة مُضاءَةٌ، طوالَ الليلِ، بصورة كافية. فقد كانت هناك فوانيس وشموع منصوبة، حولَ جوانبِ الحفرة على أكوامِ التراب. وتَراوحَ عددُ المشاعل بين الستَّة والسبعة، ورُبَّما أكثر. وقد كان ذلك، فعلاً، مشهداً مُحْزِناً مثل غيره من المشاهد، لكنَّ المشهد التالي الذي أبصرته بدا مُفْزِعاً ومُثيراً للذعر، إذ حملت عربة الموتى ستَّ عشرَة (16) جثَّة أو سبعَ عشرَة (17). وكان بعضُها مُكفَّناً بملاءات كَتانيَّة، وبعضُها الآخر ملفوفاً بالخِرقِ والأسمال البالية، في حين كان بعضُها الأخير عارياً تقريباً، أو أنَّ ما دُثِّروا بهِ سائب إلى درجة أنَّه انْحَسَرَ عنها لحظة إلقائِها في الحُفْرَةِ فسقط أصحابها عُراةً تماماً بينِ الجُثَثِ الأخرى. وما كان ذلك لِيَعيبَهم، ولا كانَ مَشْهَداً خادِشاً بالنسبة إلى الناظرينَ الذينَ رأوا أنفسهم جميعاً أمواتاً، وأنَّهم سيُحْشَرون جميعاً، عمَّا قريب، في قَبرِ البشريَّةِ المشتركِ كما يمكن أنْ ندعوه. فالناس سواسيةٌ هنا، يُؤتى بفقيرهم ومُوسِرِهِم جنباً إلى جنب ويُلْحَدان سَوِياً. فلم تكن هناك أنواعٌ أخرى من الجنازات، وما كان مِن الممكن أنْ تكون. فمِنْ أيْنَ يُؤتى بالتوابيت لكل هذه الأعداد المهولَةِ مِن الناسِ الذينَ قَضوا في هذهِ النازلة. وقد تناقَلَتْ الأخبارُ ما مارسه الحانوتيَّةُ منْ أفعالٍ مُشينة، فقد عَمَدَ هؤلاء إلى أخْذ أي جثَّة مَلفوفةٍ، على نحوٍ لائق، بكفنٍ معقودٍ عند الرأس

والقدمين، وغالباً ما كان هذا الكفنُ ملاءَةً قَشيبةً، أقول: إنَّ الحانوتِيَّةَ كانوا فاسدينَ إلى درجةِ أنَّهم كانوا يَعمَدون إلى تَجريدِ الجُثث مِنْ هذهِ الملاءاتِ في أثناء نقلها في عربة الموتى، ويُلقون بها في الحفرة عارية تماماً. ولكنْ، لما كنتُ غيرَ قادرٍ على أنْ أنسبَ أي فعل مُشينٍ إلى المسيحيِّين، ولاسيَّما في هذا الوقت الذي يَعُمُّهُ الفَزَعُ، فإنَّي أسوقُهُ هُنا دونَ أنْ أقطعَ بِوُثوقيَّتِه.

وقد سرى ما لا يُحصى مِن القَصَص حولَ السلوكات والممارسات القاسيَة للمُمَرِّضات اللواتي كُنَّ يُعْنَيْنَ بالمرضى، وعنْ تَعجيلهنَّ بمصيرِ هؤلاء، ولكنْ سأعمدُ إلى ذكرِ المزيد عنْ هذا الأمر في موضِعِه. وأعودُ هنا للقول إنَّني كنتُ مَشدوهاً بما رأيتُ، وقد استحوذ عليَّ هذا المشهد، وابتعدتُ وقد أثقلَ الحزنُ قلبي، وتغشَّتْني الأفكارُ المحزنةُ التي يَعْسُرُ عليَّ وَصْفُها. وما كِدْتُ أخرجُ من مدفن الكنيسةِ وأنقلبُ إلى الشارع المؤدي إلى منزلي، حتى رأيتُ عربةَ موتى أخرى تعلوها المشاعلُ وَيَتقَدَّمُها قارعُ الناقوس، وكانت تنحدرُ على الجانب الآخر منْ شارعِ «**هارو أليه**» المؤدي إلى «**طريق الجزَّارين**» «Butcher Row»، ولقد لاحظتُها وهي مَلْأى بالجُثَث. فذهبت مباشرةً عبر الشارع باتجاه الكنيسة، وتوقفتُ بعضَ الوقت. ولكنْ، لمْ تساورني أي رغبةٍ في العودة مرَّة ثانية لأُعايِنَ المشهد المريعَ ذاتَه من جديد، فعُدْت مِنْ فوري إلى البيت، وما كانِ بمقدوري إلا أنْ أستذكر، بامتنانٍ كبير، تلك المجازَفَةَ التي خُضْتُها مُعتقِداً أنَّي قد فارَقْتُها، من غيرِ سوء، كما حَدَثَ بالفعل.

وما إنْ استقرَّ بي المقام في البيت حتى قَفزَت إلى رأسي صورةُ الرجلِ النبيلِ الحَزينِ مُجدَّداً، ولم أستطعْ حبسَ دموعي لدى استذكار ذلك المشهد. ولعلِّي بكيتُ أكثرَ ممَّا بكى، وقد حطَّت هذه القصة بِثِقلِها على تفكيري فما استطعتُ تمالُكَ نفسي، وآلَيْتُ عليها النزول إلى الشارع مُجدداً والتوجُّه نَحو حانةِ «**تافرن باي**» عازماً على الاستفسار عمَّا آلَت إليه حاله.

كانت الساعة تُشير إلى الواحدة بعدَ مُنْتَصَفِ الليل، ولـمَّا يَزل الرجلُ النبيلُ المسكين واقفاً هناك، وفي الحقيقة، لقد استضافَهُ أصحاب الحانة الذين عرفوه، وتَركوهُ واقفاً هناك طوالَ الليل، غيرَ آبهينَ بِخَطَرِ التقاطِ العَدوى مِنهُ، على الرغمِ مِنْ أنَّ الرجلَ بدا سليماً تماماً. ولا أستطيع أنْ أذكرَ هذه الحانة دونَ أنْ يَصحبَ هذا أَسَفٌ كبير. فقد كان أصحابُها دَمِثينَ، وذوي سلوكٍ راقٍ، فَضلاً عَنْ كونِهم وَدودينَ وكُرَماء عامة. وقد أبقوا على الحانة مفتوحةً حتى هذا الوقت وظلَّ عملُهم قائماً، وإنْ لم يكن جهاراً كما كان مِنْ قَبل. ولكنْ، كانت هناك مجموعة من الزعَّار يعتادون القدوم إلى الحانة، ويلتقون هناك، في حُمَّى هذه الحال المريعة، كل لَيلَةٍ، ويُمارسون كل أشكال العربدة والصخب

كما لو أنَّ الأحوال عاديَّة، حتى إنَّهم فعلوا ذلك بصورةٍ قبيحةٍ جعلتْ صاحِبَ الحانةِ وصاحِبَتَها يشعران بالخجل في البداية، ثُمَّ بالفزع منهم.

وكان هؤلاء يجلسون، عادة، في غرفة مُواجهةٍ للشارع. وإذْ كانوا يَتَسامرونَ حتَّى ساعةٍ متأخرة، فإنَّهم حين تمرُّ عَرَبةٌ مِنْ عربات الموتى، عبرَ نهاية الشارع نَحوَ طريقِ «**هاونْدسْ دِتْش**»، حيث يمكن رؤيتها من نوافذ الحانة، كانوا يُهْرَعون، كلما سمعوا صوت الناقوس، إلى النوافذ فيَفتحونها ويُتابعون العربةَ بأنظارهم. وإذْ كانوا، كما هُو مُتوقع، يَسمعون تَفَجُّعَ الناس في الشوارع أو لدى مرور العربة، فإنَّ هؤلاءِ الأشقياء اعتادوا إطلاق صَيْحاتِ السخْريةِ والاستهزاءِ على نَحوٍ ماجنٍ وَصفيق، ولاسيَّما إذا تناهى إليهم دُعاءُ الناس المساكين إلى الربِّ بأنْ ينزل عليهم رحمته، مثلما يفعل الناس عادة في مثل هذه الأوقات وهم يَذْرَعون الشوارع.

ولمَّا تعكَّر هؤلاء السادةُ؛ ممَّا تسبب بهِ إحضار الرجل المسكين إلى الحانة مِنْ بَلبَلة، فإنَّهم احتدُّوا على صاحبِ الحانة ولاموهُ بكل عجرفةٍ لأنَّه سمح لهذا «**المخلوق**»، ودَعاه للقدوم مِن المقبرة إلى الحانة. وما إنْ أجابَهُمْ صاحبُ الحانَةِ بأنَّ هذا الرجل هو جارُه وأنه مُعافى، لكنَّ مُصيبَتَهُ التي استبدَّتْ به في عائلته، حتى انقلبَ غَضَبُهم إلى سخرية مِن الرجل ومِنْ أساهُ على زوجته وأولاده. ولمزوهُ بالخَوَر وإحجامه عن القفز إلى الحفرة والذهاب معهم، وقالوا مُتَهَكِّمينَ، إلى الجنة صُحبة عائلته، مُضيفين إلى ذلك بعضَ التعابيرِ التدنيسيَّة بل التجديفيَّة. وقد كانوا مُنهمكين في هذا السلوكِ الخَسيس في أثناء عودتي إلى المنزل، وبقدر ما استطعتُ أنْ ألاحِظَ، فعلى الرغمِ مِنْ أنَّ الرجلَ جلسَ في سُكونٍ وَصَمتٍ وقلبٍ مَكلومٍ، وعلى الرغم منْ أنَّ إساءَتهم لَمْ تصرفْهُ عمَّا هُو فيه مِنْ حزن، فإنَّ كلامَهُم تَسبب له بالكَمَدِ والإهانة. ولـمَّا رأيتُ ذلك وَبَّخْتُهُمْ برفق، فقد كنتُ مُلِماً بِطَبيعتهم، فضلاً عنْ مَعرفتي الشخصية باثنين منهم، وأخذوا، مِنْ فَورِهِمْ، يَكيلونَ لي أقذَعَ الشتائمَ والسُّباب، وراحوا يَسْألونَني لم خَرَجْتُ مِنْ قَبْري في مثل هذا الوقت الذي اقتيدَ فيهِ مَنْ هوَ أَنْبَلُ مِنِّي إلى المقبرة؟ ولماذا لَسْتُ في البيت أَتْلو صَلَواتي حتى لا تَأْتيني عَرَبَةُ الموتى؟ وما إلى ذلك مِنْ كلامٍ ساخر.

لمْ آبَهْ مُطلقاً بِتَصَرُّفِهِمْ، على أي حال، ولزمت هدوئي، وأَجَبْتُهُمْ أنَّني أَتحدَّاهم كما أتحدى أي مَخلوقٍ في العالم أنْ يَرميني بأي شيء مُعيب، لكنِّي أُقِرُّ بأنَّ كثيرين مِمَّنْ هُمْ أفضل منِّي قد مضوا، خلال هذه النازلة الإلهية المريعة، وسيقوا إلى لُحودهم. ولكنْ للإجابة عن تساؤلهم مباشرة أخبرتُهم أنَّ الربَّ العظيمَ، الذي ألْحَدوا بِاسْمِهِ وَدَنَّسوهُ بِسبابِهم وَشتائِمِهم المقْذِعة، قَدْ حَفِظَني بِرَحْمَتِه. وأعتقدُ أنَّ الربَّ قَدْ حَفِظَني لأَسبابٍ وَحِكَمٍ كثيرة، ولاسيَّما بسبب

توبيخي لهم على وَقاحَتِهِم وَجُرأتِهِمْ على التصَرُّفِ بهذه الصورَةِ القَميئَةِ وفي هذا الوقتِ المريع. مُتَمَثِّلاً، بِصِفَةٍ خاصَّةٍ، بِسُخْرِيَتِهِمْ وَتَهَكُّمِهِمْ على رَجُلٍ نَبيلٍ ومُستقيمٍ، بَلْ جارٍ لهم (فقد كان بعضهم على معرفةٍ به)؛ ذَلِكَ الرجُل الذي رأوهُ وَقَدْ غَمَرَهُ الحزنُ بسببِ الوَيْلاتِ التي أَنْزَلَها اللهُ بِعائِلَتِه.

لا أستطيعُ أنْ أَتَذَكَّرَ، بالضبط، رَدَّهُم الساخرَ والـمَقيت على كلامي. فقدْ تَمَيَّزوا مِن الغَيْظ، فيما يبدو، لأنَّني لَمْ أَكُنْ خائِفاً مِنْ مُصارَحَتِهِمْ بِحَقيقَتِهِم. وإنْ حَدَثَ وَأنْ تَذَكَّرْتُ رَدَّهُم، فإنِّي لَنْ أُضَمِّنَ رِوايَتي تَجديفاتِهِم، وَشَتائِمَهم، وَكلماتِهِمْ البَذيئَةَ التي ما كان لأحَدٍ مِن أَسْوَأِ الناسِ وَأَوْضَعِهِمْ أَنْ يَسْتَعْمِلَها في مِثْلِ هَذِهِ الساعَة. فَإذا نَحَّيْنا هَذِهِ المخلوقات القاسيةَ جانِباً، فإنَّ أَكْثَرَ الأَشْرارِ خِسَّةً يَرْتَعدونَ، في هَذهِ الأوقاتِ، مِنْ يَدِ القَدَرِ التي مِن الممكنِ أَنْ تُهْلِكَهمْ في لحظة.

ليسَ هذا فَحسب، فَقَد تَمثَّلَ أَسوأُ ما في لُغَتِهم الشيْطانيَّة، في عَدَم خَشْيَتهم مِن التجديفِ والإلحادِ بآياتِ الربِّ، وذلك حين سَخِروا مِنْ تَسمِيَتي للطاعونِ بالعقابِ الربانيِّ. وَتَهَكَّموا بَلْ سَخروا مِنْ كَلمتي «القَضاء الربانيِّ»، كما لَو أَنَّ التدبيرَ الإلهيَّ لا صِلَةَ لَهُ في إنزالِ هذهِ الضربةِ الماحقة، وكما لَو كانَ تضرُّعُ الناسِ إلى الله، لَدى رُؤْيَتِهِمْ عَرَباتِ الموتى، لا يَعدو كَونَه اندفاعَةً عاطفيَّة، وَعَبَثاً، وَسَفَهاً.

ولقد واجهْتُهم بِبعضِ ما أَلِفَيْتُهُ مُلائماً مِنْ رُدود، فلم يزدهم ذلك إلا ضَلالاً وإمعاناً في التهكُّم. ولهذا، فَإنِّي أعترفُ أنَّ سُخْرِيَتَهم مَلأتْني بالفزع والغَضَب وابتَعدتُ، كما قُلتُ لَهمْ، خَشْيَةَ أَنْ تَأْخذَ النازلةُ الربانيَّة، التي حَلَّت بالمدينة، هؤلاءِ الرجال وتَصبَّ نقمتَها عَليهم وعَلى مَنْ هُو قريبٌ منهم.

ولقد استَقبلوا كل تَوبيخٍ بأَقْصى قَدْرٍ مِن الامتهان، واستَعملوا أَقصى ما اجتمع لهمْ مِنْ أشكالِ السخْريَةِ للتهكُّمِ عَلَيَّ. وقَد طالعوا مَوعِظتي، كما سَمَّوها، بِكل ما استطاعوا صَوغَه مِنْ ضُروبِ السخريةِ المتَغَطْرِسة والازْدِراء؛ ما أَمَضَّني بِأكثر ممَّا أَغْضَبَني. وابتعدت شاكراً الله في قلبي أنني لم أتجنَّبهم، وأني أغلظت لهم القول على الرغم مما كالوه لي من إهانات.

وظلوا على هذه الحالِ البائسة ثلاثةَ أيامٍ أو أربعةً، يَستهزئون ويسخرون مِنْ كل مَنْ يُبْدي سُلوكاً تَقَوِياً أو جدِّياً، أو مِنْ كل مَنْ استَشْعَرَ، بِأي طَريقةٍ مِن الطرائق، القضاءَ الربانيَّ الصاعِقَ الذي نَزلَ بنا. وأُعْلِمْتُ، أَيضاً، أَنَّهم سَخروا، بالطريقة ذاتِها مِن الناس الصالحين الذين اجتمعوا بالكنيسة، غيرَ آبهينَ بالعَدوى، صائمين ومُتَضرِّعينَ إلى الله أَنْ يَرفعَ عنهُم سَوطَ عذابه.

كنتُ قد ذكرتُ أنَّ هؤلاء الأشقياء ظلوا على حالهم مِن السخرية من الناس لثلاثة أيام أو أربعة، ولا أظنُّهم تجاوزوا هذا الزمن. ذلك أنَّ واحداً منهم؛ أعني الشخص الذي سألَ الرجل النبيل المسكين ما الذي يفعله خارجَ قَبْرِه، قد عَصَفَتْ بِهِ يدُ القَدر وأنزلت به الطاعون وماتَ بطريقةٍ بائِسة. ولأوجز ذلك بكلمة، فأقول: إنَّ كل واحدٍ منهم قد حُملَ إلى الحُفرةِ المهولة التي تحدثت عنها سابقاً، قبل أنْ تُملأ عَنْ آخِرِها، وجرى ذلك في غُضونِ أسبوعَيْنِ أو نَحوهما.

لقد قارف هؤلاء الزُعَّار صُوراً مِن الطَّيْشِ التي يعتقد المرء أنَّ منْ شأن الطبيعة البشرية أنْ ترتعدَ لمجرد التفكير فيها، في هذا الوقت الذي عمَّ فيه الرعبُ الذي عصف بنا، ولاسيَّما سُخريةُ هؤلاء واستهزاؤُهم مِنْ كل سُلوك ديني اتَّفقَ لهُم أنْ يَروه، ومنْ ذلك توافُدُ الناس، بحماسةٍ كبيرة، إلى دور العبادة لاسْتِمْطار رَحمةِ الربِّ مِن السماء في مثل هذا الوقت العصيب. ولمَّا كانت الحانة، التي غدت مسرحاً للقاءاتهم، مُطلَّةً على بابِ الكنيسة، فإنَّهم أمْعَنوا، في غَيْرِ مُناسبة، في لَهْوِهِم التجديفيِّ والـمُسِفِّ.

لكنَّ سلوكَهم بدأ يتلاشى بعد الحادث الذي أشرتُ إليه منذ قليل؛ ذلك أنَّ الوباء تعاظَمَ بشدَّة، حينها، في هذا الجانب من المدينة؛ ما جعل الناس يتخوَّفون من الذهاب إلى الكنيسة، أو لنَقُل: يذهبون بأعدادٍ أقلَّ من المعتاد. كما أنَّ العديد مِن رجال الدِّين ماتوا بالطاعون، وارْتَحَل آخرون إلى الريف. فقد تطلَّب من المرء شجاعة راسخة وإيماناً وطيداً، لا للمخاطرة في البقاء داخل المدينة في هذا الوقت العصيب، وإنما للمغامرة في القدوم إلى الكنيسة لإقامة القدَّاس في جماعة المؤمنين، فمن المنطقي أنْ يعتقد القسس أنَّ العديد من المصلين مصابون بالطاعون، ناهيكَ عنْ إقامة القدَّاس مرَّة في اليوم أو مرَّتين، مثلما كان معتاداً في بعض الأمكنة. ومن الصحيح أنَّ الناس أبدوا حماسة فائقة في ممارسة هذه الطقوس، ولمَّا كانت أبوابُ الكنيسةِ مُشْرَعَةً، دأبَ الناسُ على الذهاب فُرادى في الأوقات جميعِها، سواءً أُقيمَ القُدَّاسُ أمْ لَمْ يُقَمْ، مُتَنَحِّينَ في أحدِ المقاعدِ المنفصلة ليدخلوا الصلاة في حالة من التضرُّع الشديد والإخلاص.

وقد اجتمعَ آخرونَ في دور للصلاة، كل حسب مُعتقدهِ وطائفتِه، غَيرَ أنَّهم جميعاً، دون تمييز، كانوا مَوضعَ سُخريةِ هؤلاء الأشقياء، ولاسيَّما في بداية الوباء. وقد جُوبِهَ هَؤلاءِ، بسبب امتهانهم الدِّين، من جانب العديد من الناس الصالحين على اختلاف طوائفهم؛ ما خفَّف، إلى بعض الوقت فيما يبدو، مِنْ غِلظَتِهم التي أسهم في صَدِّها، أيضاً، تَفشِّي الوباء. فقد استيقظتْ لديهم روحُ البذاءَةِ والتجديفِ بسبب الضجَّة التي استجلَبَها إحضارُ الرجلِ النبيلِ المسكين،

واستُثيرت لديهم هذه الروحُ الشيطانيَّة، ربَّما، لأني أخذتُ على عاتقي تَوبيخَهم، على الرغم مِنْ أنَّي فعلت ذلك، بدايةً، بأقصى ما استطعتُه مِنْ هُدوء تامٍّ وأدبٍ جَمٍّ، ولذلك أمعنوا في إِهانتي مُعتقدينَ أنَّ هُدوئي هذا جاءَ خوفاً منْ غَضَبِهم، وإنْ وجدوا خلافَ ذلك بَعدَئِذٍ.

وفي الحقيقة، عُدتُ إلى البيتِ وقد أثقلَ قلبي الحزنُ والكَمَد بسبب ما صدر عَن الزعَّارِ مِنْ شَرٍّ مَقيت. لكنَّي كنت مُتيقِّناً أنَّهم سيكونون عبرةً ومثالاً مُفزعاً على فِعل العدالة الإلهية. ذلك أنَّي رأيتُ أنَّ ذلكَ الدَّور من الزمن سيكونُ الساعةَ التي اختارَها الربُّ لإنزالِ نِقمتِه، وأنَّ الربَّ سيُحدِّد الأسباب الحقيقيَّة لغضبه بطريقةٍ أوضح وأكثرَ ماديةً في هذا الوقت دونَ سائر الأوقات. وعلى الرغم مِن اعتقادي بأنَّ العديد مِن الناس الصالحين سيَقَعون، وقدْ وَقعوا، في المصاب العميم، فلا قاعِدَةَ مُؤكَّدَةٌ للحكم على المصير الأبديِّ لأي امرىء، سواء نجا أو هلك مِنْ هذا الدمار العميم. ولكنْ، لا يبدو من المعقول الاعتقاد بأنَّ من شأن الربِّ أن يرى من الملائم، مع رحمته، استبقاء مثلِ هؤلاءِ الأعداءِ الوقحينَ الذين دَنَّسوا اسمَه وكَيْنونَتَهُ، وتَحَدَّوا نِقْمَتَه، وسَخِروا مِنْ عِبادَتِه وعِبادِه في هذا الوقت العصيب. وحتى إذا شاءَ الربُّ في أوقات أخرى أنْ يَحتَمِلهم ولا يُنزلَ بهم العذاب، فإنَّ هذا الوقتَ هُوَ وقتُ البلاءِ الذي يَعُمُّ، وساعةُ الغضبِ الربَّانيِّ. وقد طافتْ هذهِ العباراتُ مِنْ سِفْرِ إِرْميا (أي 9) في خاطري: «**أفما أُعاقِبهمْ على هذه، يقول الربُّ؟ أمْ لا تَنتقمُ نفسي مِنْ أمَّة كهذه**؟».

لقد ألقت هذه الأشياء بثقلها على رأسي، ورجعتُ إلى البيتِ كسيرَ القلب ومقهورَ النفس بسبب فظاعة الشرِّ الذي صدر عن هؤلاء. وَلَشَدَّ ما هو مؤلمٌ، كذلك، التفكيرُ في أمرٍ دَنيء وبالغِ القَسْوَة وشديد الكَراهة مثلِ امتِهانِ الربِّ وخُدّامِهِ وعبادته بهذا الأسلوب القميء، وفي مثل هذا الوقت حين قَبَضَ الربُّ على سيفه لا للانتقام منهم فحسب، وإنما لأخذِ الأمة جمعاء.

ولقد استشعرتُ إزاءَهُم ببعضِ الغضب في بداية الأمر. لكنه لم يتأتَّ عن الإهانة التي وجَّهوها إليَّ شخصياً، وإنَّما مِن الرعبِ الذي تلبَّسني جَرَّاء ما صَدَرَ عنْ ألسنتهم مِن تَجديفات. ومع ذلك، كنتُ في شكٍّ إذا ما كان في داخلي مِن استياءٍ صَدَرَ عنْ باعثٍ شخصيٍّ؛ ذلكَ أنَّهم رَموني بأقذعِ السُّباب. ولكنْ، بعد قليلٍ مِن الصَّمتِ المتأمِّل، والحزنِ الذي أثقلَ قلبي فإنَّي انْزَوَيْتُ لحظةَ وصولي البيت، فلمْ يَغمضْ لي جَفنٌ في تلك الليلة. وإذْ ظللت أحمدُ اللهَ بِكل خُشوعٍ، لأنَّه حَفظني ممَّا كُنتُ فيهِ مِنْ خَطرٍ عظيم، فإنِّي وجَّهتُ قلبي، مُخلصاً، بالدعاء لتلكَ المخلوقاتِ البائسة، سائلاً الربَّ أنْ يَعفوَ عنهم، وأنْ يُبَصرهُم بالحقِّ ويُخضِعَهُمْ.

وإذْ صَلّيْتُ لأجلِ أولئكَ الذينَ ازْدَروني، فإنِّي لَمْ أقمْ بِواجبي فحسب، وإنَّما لجأتُ بذلك إلى طريقة لِتَمْحيصِ قلبي، لأَجِدَ أنَّه لَمْ يكنْ مُمْتلئاً بأي روح انتقاميَّة لامتهانِهم إيايَ، ممَّا أدخلَ الرضا إلى نفسي. وإنِّي لأوصي، بتواضُعٍ، بهذه الطريقة لكل مَنْ أراد أن يعرف، أو يتحقَّق، من الكيفيَّة التي يَميزُ فيها حماسَتَهُ لمجدِ الربِّ مِنْ تأثيراتِ مَشاعِرهِ الشخْصيَّة وضَغائِنه.

لكنْ، يتعين عليَّ أنْ أرجع إلى الأحداث الخاصة، التي تقفز إلى ذهني، عند التفكير بزمن الوباء، ولاسيَّما في تلك الأوقات المتعلِّقة بإغلاق المنازل في بداية حلول الطاعون. ذلك أنَّ الناس، قبل بلوغ الوباء ذُروتَه، قد امتلكوا حُرية أكبر في تبادل الملاحظات، ولكنْ حين اشتدَّ الوباء وفشا باتَ التواصُل بينَ الناس أمراً مُتَعَسِّراً.

وقد تعرَّض الحُرَّاس، كما أسلفتُ، لبعض العنف. أمَّا ما خصَّ الجنودَ، فَلَمْ أَقَعْ على شيء، فالعدد القليل مِن الحرَّاس الذين كانوا لدى الملكِ آنَئِذٍ؛ أولئكَ الحرَّاس الذين لا يُقارَن عددُهم مُطلقاً بالأعدادالكبيرة التي جرى تجنيدها لاحقاً، أقولُ: إنَّ ذلك العدد القليل من الحرَّاس كان مُتَفَرِّقاً إمَّا في البلاط الملكي في أكسفورد، وإمَّا في مناطق نائية من البلاد. تُستثنى من ذلك السرايا الصغيرة التي اضطلعت بواجباتها في «**بُرْج لَنْدن**» وجادَّة «**وايتْ هول**»، وقد كانت قليلة جداً. ولست متأكِّداً من وجود حرس آخرين في البُرج ما خلا «**حُرَّاس البرج**»، كما كانوا يُدْعَوْن، الذين يقفون عند البوَّابة بمعاطفهم وقلانِسهم، مثلهم كمثل حرس «**اليومن**» [16]. هذا إذا استثنينا، أيضاً، الرماة «**حملة البنادق**» المعتادين، البالغ عددهم أربعة وعشرين (24) جندياً، والضباط الذين جُعِلوا لصيانة السلاح وحراسته، وكانوا يُدعَوْن بـ «**خزنة السلاح**». أمَّا المجموعات المدرَّبة، فكان مِنْ المتعذِّر حشدُ أي منها، وحتى لو أمَرَ ضباطُ لندن أو «**ميدلسكس**» أنْ تُقْرَعَ الطبولُ إيذاناً بجمع المليشيا، فإنَّ أياً مِنْ رُفقاء السلاح، لنْ يستجيبَ، فيما أعتقد، مهما استجلب عليهم عصيانُهم للأمر مِنْ أكلاف.

وقد قلَّل ذلك مِنْ هَيبة الحرَّاس، ولعلَّه تسبَّب بعنفٍ أكبر ضدَّهم. وأذكرُ ذلك في هذا السياق لأقول إنَّ وضع الحرَّاس للحجر على الناس في بيوتهم لم يكن، أوَّلاً وقبل أي شيء، فعَّالاً. حتى إنَّ الناس خرجوا مِن بيوتهم عُنوةً أو تحايلاً، وقد فعلوا ذلك كما يطيبُ لهم في أغلب الأحيان. أمَّا ثانياً، فإن معظم مَنْ خَرَقَ الحَجْرَ كانوا مِن المصابين بالوباء الذين أخذوا يُهرعون من مكان إلى آخَر، غيرَ آبهين بِمَنْ يتسببون لهم بالأذى. ولعلَّ هذا، كما ذكرت، قد تسبب في تولُّد الشائعة التي تزعُمُ أنَّ من الطبيعي أنْ يَرغبَ المصابون بنقل العدوى إلى الآخرين. وفي واقع الأمر، لقد كانت هذه الشائعة زائفة، وإني لَعلى دِراية جيِّدة

بهذا الأمر. وهناكَ العديد مِن الحالات التي تمكِّنني مِن تقديم غَير رواية عن أُناسٍ صالحين وأتقياء مِمَّن حين التقطوا العدوى كانوا أبعد ما يكونون عن التسبُّب بانتقال العدوى إلى الآخرين، بلْ بلغ الأمر بهم درجةَ أنْ يمنعوا أفراد عائلتهم مِن الاقتراب منهم ضَنّاً بهم وأملاً بسلامتهم، حتى إنَّ هؤلاء قضوا دون أنْ يَروا أقرب الناس إليهم خَشيةَ أنْ يكونوا سبباً في نقل المرض إليهم أو تعريضهم للخطر. وهكذا، فإذا اتَّفق أنْ وُجد مَنْ لم يكترثْ بالأذى الذي ألحقه بالآخرين، فإنَّ هذا ينسحب يقيناً على الحالة التالية، إن لم تكن الحالة الغالبة، وأعني حين عمد المصابون بالطاعون إلى الخروج من حجرهم المنزليِّ، مُنْقادين بالحاجة الماسَّة للمؤن أو الاسترواح، فإنَّهم سعوا إلى إخفاء وضعهم المرضي، وعليه فقد كانوا عاملاً لا إرادياً في نقل العدوى للآخرين الذين جهلوا الأمر من غير الحذرين.

لقد مثَّل هذا واحداً من الأسباب التي جعلتني أعتقد في ذلك الوقت، ومازلت أعتقد الآن، أنَّ إغلاق المنازل بالقوَّة، وحَجْر الناس، بل حَبْسهم في منازلهم، كما أسلفتُ، ليس ذا نفعٍ كبير، أو بلا نفعٍ البتَّة، وإنَّي من المعتقدين بأنَّه إجراء مُضِرٌّ أجبرَ هؤلاء الناس البائسين على التطوافِ هائمين على وجوههم وهم يحملون الوباء، في حين كان مِن الممكن أنْ يموتوا في أَسِرَّتِهم بسلام.

أتذكَّر أحد المواطنين الذي ذهب، بعد أن كسر الحجر المفروض عليه في منزله الكائن في شارع «**ألدرز غيت**» (Aldersgate) أو في جواره، ذارعاً الطريق المؤدية إلى منطقة «**إِزْلنْغتون**» (Islington)، وحاول الدخول إلى نُزُل «**آنْجِلْ**» (Angel)، ثمَّ نُزُل «**وايْتْ هورْسْ**» (White-Horse)، ومازال كلا النزُلَيْن يحملان الاسم عينه. لكنَّ طلبه قوبل بالرفض، فاتجه إلى نُزُل «**بِيِدْ بُل**» (Pyed Bull)، الذي يحتفظ، هو الآخر، بالاسم نفسه حتى اللحظة، وقد طلب إليهم الإقامة ليلةً واحدة فقط، زاعماً أنَّه سيقصد «**لِنكِنْ شايرْ**» (Lincolnshire)، مؤكداً أنَّه معافى وسليم من المرض الذي لم يبلغ في ذلك الحين حدود الجائحة. فأخبروه أنَّهم لا يتوفرون على مكان يخصِّصونه لإقامته ما عدا سريراً موجوداً في العليَّة يستطيع أنْ يُقيمَ فيه ليلَتَه تلك قبل أنْ يأتي أحدُ رعاة الماشية الذي كان قدومُه مُتوقَّعاً في اليوم التالي. وعليه، فبمقدوره أنْ يَمكُثَ فيها إنْ شاء، وقد كان.

فَصَحِبَتْهُ خادمةٌ، وبيدها شمعة، لتريه الحجرة. وكان مُتَأنِّقاً كأحسن ما يكون التأنُّق، ولم تَبدُ عليه سيماءُ شخصٍ اعتاد المبيت في عِليَّة. وحين وصل الحُجرة أخذَ نَفَساً عميقاً، وقال للخادمة: قلَّما بِتُّ في مَسْكن مثل هذا. وأضاف بعد أنْ أكَّدت له الخادمة أنْ ليس لديهم أفضل منها في الوقت الحالي: حسناً، يتعين عليَّ أنْ أتدبَّرَ أمري، فما هي غير ليلةٍ واحدة. وهكذا، جلس على حافَّةِ السرير،

وطلب مِن الخادمة طلباً ما، أظنَّه أنْ تُحضِرَ له زجاجة مِن البيرة الدافئة. وذهبت الخادمة لإحضارها، لكنَّها صادفت بعض الأمور المتعجِّلة التي صَرَفَتْها، رُبَّما، إلى عمل آخر، وَأَنْسَتْها أَمْرَ الجِعَة فلم تصعد إليه مِنْ جديد. وما إنْ لوحظَ غيابُ الرجل النبيل في اليوم التالي، حتى طلبَ أحدُ القيِّمين على النزُل من الخادمة التي رافقت السيد إلى حُجْرته أنْ تصعدَ لترى ما حلَّ به. وحين قيل لها ذلك جَفلت وقالت: يا وَيْلي، لقد غفلت عنه، كان قد طلب منِّي أنْ آتيه بجِعَة دافئة لكنِّي نسيت. واقتضى ذلك أنْ يُرْسَلَ شَخصٌ آخر يستطلعُ حالَ النزيل. وما إنْ وصلَ الحُجرةَ حتى ألفاه جُثَّةً مُتَصَلِّبَةً وباردة تقريباً. وكان الرجلُ مُمدَّداً، كيْفَما اتَّفق، على السرير، ثِيابُهُ مَنزوعةٌ، وفكُّهُ مُتَدَلٍّ، وعيناهُ جاحِظتان على نحو مُفْزِع، وكان يقبض بإحدى يديه على مفرش السرير. وعليه، كانَ مِن الواضح أنَّه تُوفِّيَ حالما غادرَتْهُ الخادمة. ومِن الممكن لو أنَّها صَعِدت إليه بالجعة لألفتْه ميتاً بعد أنْ جلس على السرير ببضع دقائق. وَعَمَّ الذعرُ الشديد أرجاءَ النزُل؛ فقد كان، كما يمكن للمرء أنْ يتخيَّل، خُلْواً مِن الوباء قبل أنْ تحلَّ هذه المصيبة التي جلبت العدوى للنزُل، وما لَبِثَتْ أنْ نَشَرَتْهُ في الأنزال الأخرى. لا أذكرُ كم عدد الأشخاص الذين قَضوا في النزل المذكور، لكنِّي أعتقد أنَّ الخادمة، التي صَعِدت معه إلى الحجرة، قد مَرِضَت لِفَرْط ما ألمَّ بها مِن الذعر، وأصابَ الآخرين ما أصابَها. وكان لذلك ما يُفَسِّره؛ فبينما مات بالطاعون اثنان فقط، في «**إزلنغتون**» قبل ذلك بأسبوع، شهد الأسبوعُ الذي أعقبَهُ سبعَ عشرة (17) وفاة، تسبَّب الطاعون بأربع عشرة (14) منها. وكان ذلك في الأسبوع الواقع من الحادي عشر إلى الثامن عشر من تموز.

كان هناك إجراء واحد لدى العائلات، وهي كثيرة، التي انتقلت العدوى إلى منازلها وغدت موبوءة. وتمثَّل ذلك في أن أفرادها كانوا يفرِّون، في بداية ظهور الوباء، إلى الريف حيث يُؤْويهم أصدقاؤُهم. وكانوا يعهدون ببيوتهم، عامة، إلى مَنْ يجدونه من الجيران أو الأقارب، وذلك حفظاً لمتاع المنزل أنْ تطاله يد السرَّاق. وكانت بعض تلك المنازل قد أغلقت تماماً، فجعلت على بوَّاباتها الأقفال، وجعلت على الأبواب والنوافذ الألواح الخشبيَّة، ثمَّ سُمِّرت، وترك أمر مراقبتها إلى الحرَّاس الاعتياديين وشرطة الأبرشيَّة، لكن هذه الحالات كانت قليلة.

ساد الاعتقاد بأن هناك ما لا يقل عن عشرة آلاف (10.000) منزل مهجور في المدينة وضواحيها، بما فيها تلك الكائنة خارج الأبرشيات وفي «**سيري**»، أو في ذلك الجانب من التايمز المدعو «**ساوث وورك**». ينضاف إلى هؤلاء المستأجرين والأشخاص الذين فرُّوا من عوائلهم، وهكذا فقد جرى احتساب العدد الإجمالي ليصل إلى نحو مئتي ألف (200.000) نسمة هاجرت مِن المدينة. لكني لنْ أخوض في هذا الشأن هنا، وما ذكرته هنا إلا لأسلِّط الضوء على عادة

سَرَت في ذلك الوقت. فقد جرت العادة حالَ التقاط العدوى، إنْ امتلك ربُّ الأسرة منزلين تحت تصرُّفه، أنْ يُخفي الأمر عن مُفتِّشي الصحة أو أي مِن المسؤولين الآخرين، وينقل بقية أفراد الأسرة سواءً أكانوا أطفالاً أمْ خدماً بحسب ما هي عليه الحال، إلى المنزل الآخر الذي عهد به إليه، ثم يبلغ مُفتِّش السلطة عن الشخص المريض. ويعمد، بعد ذلك، إلى تعيين مُمرِّضة أو عدد من الممرضات للعناية به، فضلاً عن تعيين شخص آخر يُحجر عليه مع المريض (وهو أمر قام به كثير من الناس طلباً للمال) وذلك حتى يتكفَّل هذا الشخص بالبيت إذا مات المريض.

وكان ذلك، في مُعظم الحالات، خلاصاً للعائلة بأكملها، فلو أغلق عليها بمعيَّة المريض لَهَلَكتْ. ولكنَّ ذلك مثَّل، مِن جهة ثانية، واحداً مِن سلبيَّات إغلاق المنازل؛ ذلك أنَّ الخشية والرَّهبة من الحجر جعلتا الكثيرين يفرِّون مع بقيَّة العائلة. وعلى الرغم مِن أنَّ مَن فرَّ منهم مع العائلة لم يكن معروفاً لدى الناس بأنَّه مصاب، وأنَّ علامات المرض لم تكن بادية عليه، فإنه كان حاملاً للمرض. ولـمَّا كان مُمْتلكاً الحريَّة الكاملة في الرواح والمجيء، ومُضطراً إلى إخفاء حالته الصحية أو غير دارٍ بها، فقد كان ينقل العدوى إلى الآخرين على نحوٍ مُريع كما سأشرح في القابل من الصفحات.

وأستطيعُ هنا، رُبَّما، أنْ أُسجِّل مُلاحظةً أو اثنتين مِنْ إنشائي. فلعلَّهما تكونان ذاتي نفعٍ لمنْ وَقَعَتْ هذه الصفحات بيده واتفق له أنْ يعيش أحوالاً وبائيَّة مُريعة مُماثلة.

(1) الملاحظة الأولى: انتقلت العدوى إلى المنازل، في الغالب، عن طريق الخدم الذين اضطرَّ أصحاب المنزل إلى إرسالهم، مرَّات عديدة، إلى الشوارع لإحضار الحاجيَّات، أيْ الغذاء والدواء من المخابز، والخمارات، والحوانيت وما إلى ذلك. ومَنْ كان هذا دأبه في الذهاب وراء الحاجيَّات عبر الشوارع قاصداً الحوانيت والأسواق وما شابههما، فمِن المحال ألا يقابل، بصورةٍ أو أخرى، أُناساً موبوئين ينقلون إليهم الأنفاس القاتلة التي ينقلها الخدم بدورهم إلى العوائل التي ينتمون إليها.

(2) الملاحظة الثانية: كان مِن الخطأ، ويا له مِن خطأ، ألا تتوفر مدينة كبيرة مثل لندن إلا على مشفى واحد للأوبئة؛ أعني ذلك القائم وراء مقبرة «**بونهيل فيلدز**» الذي لم تتجاوز سعته مائتين (200) أو ثلاثمئة (300) مريض. فلو كانت هناك عدَّة مشافٍ للأوبئة، يتَّسع كل واحد منها لألف (1000) مريض دون أنْ

يُضطر إلى جعل اثنين في سرير واحد، أو سريرين في غرفة واحدة؛ ولو أنَّ أرباب الأسر، استتباعاً، اضطرُّوا إلى إرسال الخدم، لحظة التقاط الآخرين للعدوى، إلى أقرب مشفى من تلك المشافي، إنْ هم رغبوا في ذلك، وقد كان أكثرهم راغبين، ولو أنَّ مُفتِّشي الصحة قاموا بالأمر ذاته فيما خصَّ الفقراء ممَّن أصابتهم العدوى، أقول: كنت مُستيقناً، ومازلتُ، أن الأمور لو جرت كلها على ذلك النحو، لأُنْقِذت آلاف الأرواح، ذلك أنَّه لوحظ -وبمقدوري أنْ أعطي أمثلةً عديدة ضمن نطاق معرفتي، في الحالات التي وقع فيها خادمٌ أسيرَ الوباء، وعمدت العائلة إلى إخراجه من المنزل أو أنَّها هجرت المنزل وتَركت الرجل المريض هناك، كما قلت سابقاً- نجاةُ العائلة بأكملها. أما حين جرى إغلاق المنزل على العائلة بوجود فردٍ موبوء أو أ كثر، فإنَّ العائلة كلها هَلكت؛ ما اضطرَّ الحانوتيَّة إلى الدخول وإخراج الجثث، فما مِن أحدٍ هناك ليحضرهم إلى عتبة الباب بعد أنْ فتك الطاعون بهم جميعاً.

(3) ويجعلني هذا غير شاكٍّ البتَّة، أنَّ هذه الكارثة قد انتشرت جرَّاء العدوى، أي عبر أشكال من الأنفاس والأدخنة، التي يدعوها الأطباء بـ «**الأبخرة**»، وتنتقل عبر النَّفَس، أو العَرق، أو عن طريق الإنتانات المنبعثة مِن قُروح المريض، أو غير ذلك من الطرائق التي تَخفى، رُبَّما، على الأطباء أنفسهم. وهكذا، فإنَّ الأبخرة تمسُّ الإنسان السليم الذي يقترب من المصابين ضمن مسافات محدَّدة، وما تلبث أن تخترق أعضاءهم الحية وتُحيل دمهم، فوراً، إلى حالة مِن الفوران، وتستثير أمزجتهم إلى تلك الدرجة مِن الهيجان التي ألفَيْنا عليها حال المرضى. وهكذا، فإنَّ الأشخاصَ المصابين بالطاعون حديثاً ينقلون العدوى، بالطريقة ذاتها، للآخرين. وسأعطي حيال ذلك بعض الأمثلة التي لنْ تُقنع إلا مَن يَنظر فيها بجديَّة. ولا أستطيع إلا أنْ أتعجَّب مِن بعض الناس الذين يرون، بعد أنْ انقضى الوباء، أنَّه كان نازلةً مباشرةً مِن السماء لم يتخلَّلها عالم الأَسباب؛ نازلة أوكل إليها أنْ تصيب شخصاً دون آخر. وهو ما نظرت إليه بازدراء بما هو أثرٌ مِن آثار الجهل والحماسة العاطفيَّة. وكذا الأمر بالنسبة إلى الآخرين الذين كانوا يقولون إنَّ العدوى لا تنتقل إلا عبر الهواء عن طريق ما يحمله مِن حشرات وكائنات غير مرئيَّة تدخل الجسد في أثناء التنفُّس، أو تنفذ عبر الهواء مِن خلال مسامات الجلد حيث تولِّد هناك أو تنفذ أشدَّ أنواع السموم فتكاً، أو تصدر بيوضاً سامَّة تمتزج بالدم وتبث العدوى في الجسم. وهو خطاب مليء، فيما أعتقد، بالسذاجة المكتسبة التي تستند إلى التجربة العامَّة.
وسأتوسع في هذا الأمر عندما تحين لحظته. ولا بدَّ لي أنْ أضيف هنا أنَّه ما مِن شيء أسهَم في إهلاك عددٍ غير قليل من سكان المدينة مثل الإهمال المتأتِّي عن الخمول لدى هؤلاء؛ ذلك أنَّهم لم يكترثوا، طوال فترة التحذير السابقة على حلول الوباء، ولم يحتاطوا لهذه النازلة بتخزين المؤن والحاجيَّات التي

يستعينون بها إذا ما اعتزلوا في بيوتهم، كما فعل بعضُ من أخبرت عنهم؛ أعني أولئك الذين نجا معظمهم بفضل هذا التحذير.

ولم يتغيَّر سلوك تلك الفئة المهملة حتى بعد أنْ رأت الطاعون رأي العين؛ فلم يرعووا عن مُخالطة بعضهم بعضاً كما اعتادوا في الفترة السابقة على الوباء، على الرغم مِن أنَّ فيهم مَن هو مصاب بالمرض الآن، بل على دراية بذلك.

أعترف أنَّي كنت واحداً من هذه الفئة المستهترة التي لم تَدَّخِرْ مُؤناً لهذه الساعة، إلى درجة أنَّ خدمي اضطروا إلى الخروج لشراء الحاجات البسيطة التي لا يزيد ثمنها على قرش أو نصف قرش، كما كان الأمر عليه قبل الوباء. وبقيت على هذه الحال حتى أدركت، بالخبرة، ما في ذلك مِن حُمق. فصرتُ أكثر حكمة، ولكن بعد أنْ أدركني الوقت ولم أستطع أنْ أتزوَّد إلا بما يكفي معيشتنا مدةَ شهر.

لم تَزِدْ عائلتي عني وعن مُدبِّرة المنزل العجوز، وخادمة، وعاملين مُتدرِّبين في التجارة. وإذ بدأ الطاعون يتزايد حولنا، دارت في ذهني أفكارٌ حزينة حول المسار الذي يتعين عليَّ أن أتخذه والكيفيَّة التي يجب أن أتصرَّف بها. ولقد ملأتني الصور المريعة العديدة، التي حدثت في كل مكان وأنا أتجوَّل في الطرقات، بقدر كبير من الرهبة فزعاً من الطاعون الذي كان مُروِّعاً جداً في ذاته، وكان أفظع في بعض المطعونين دون بعضهم الآخر.

وحين كانت **الدُّبول** [17] التي تظهر، عامةً، في الرقبة وأَرْبِيَة الفخذ، تكبر ولا تنفجر، فإنها تتسبَّب بألم شديد لا يكافئه إلا أشد صور التعذيب. ولجأ بعض المصابين الذين عجزوا عن احتمال العذاب، إلى إلقاء أنفسهم من النوافذ، أو إطلاق النار على أنفسهم، أو غير ذلك من الطرائق. ولقد وقعت عيني على العديد من الصور المريعة الشبيهة. أمَّا الآخرون، مِمّن لم يستطيعوا أنْ يتمالكوا أنفسهم، فقد نفَّسوا عن آلامهم بإصدار جُؤار متصل. وكان من الممكن سماع هذه الصرخات البائسة والمدوِّية طوال سيرنا في الطرقات، ومن شأنها أن تخترق قلب المرء لمجرَّد التفكير فيها، ولاسيَّما أنَّ الوباء، وفق الاعتقاد السائد، قد ينزل بنا في أي لحظة.

ولا أستطيع إلا أن أقول لنفسي إنني بدأت الآن أرتاب من قراراتي، وقد خذلني قلبي خذلاناً شديداً، وندمت أشدَّ النَّدم على الطيش الذي وسم سلوكي في هذا الأمر. وحين كنت أطوف خارج البيت، مجابهاً الأشياء المريعة التي تحدثت عنها، فإنَّي ندمت على تهوُّري والمخاطرة في البقاء في المدينة. وتمنيَّت، في أحيان كثيرة، لو لَم آخذ على عاتقي أمر البقاء وغادرت، عوض ذلك، مع أخي

وعائلته. وإذْ كان يتملّكني الفزع من تلك الصور المفزعة، كنت أنسحب إلى المنزل، أحياناً، وأقرِّر ألا أخرج ثانيةً. وربما التزمت بهذا القرار لثلاثة أيام أو أربعة، كنت أزجيها بالشكر الخالص لله على حفظه لي ولأسرتي. كما أمضيتُها في الاعتراف الدائم بخطاياي، مُسَلِّماً نفسي، كل يوم، للربِّ، ومُتقرِّباً له بالصيام، والتضرُّع، والتدبُّر في آياته. أمَّا فترات الراحة، فقد كنت أستثمرها في القراءة وتدوين يوميَّاتي التي أخذت منها معظم ما جاء في هذا الكتاب، ضمَّنته كل ما تعلَّق به من أحداثٍ جَرَتْ خارج المنزل، وقد دوَّنتها في هذه اليوميات. أمَّا تأملاتي الخاصة، فإني أحتفظ بها لنفسي، ولا أريد أن يُصار إلى نشرها لأي سبب كان. وكتبتُ، أيضاً، تأمُّلات أخرى تتعلق بالكرامات الإلهية، مثل تلك التي حدثت لي في ذلك الوقت وربطت على قلبي، لكنَّها مِن المضنون به على غير أهله، وعليه فلن أتبسَّط في الحديث عنها.

وقد حظيت بصديق عظيم، كان طبيباً، ويدعى «**هيث**»، كنت أزوره مراراً وتكراراً في زمن الوباء العصيب، وكنت مُمتناً لنصائحه المتعلِّقة بالوقاية من التقاط العدوى لدى خروجي، فقد لاحظ أنَّي أفعل ذلك كثيراً. ومن ذلك، أنَّي أُبْقي فمي مُغْلَقاً طوال تطوافي في الطرق. وكان يزورني كثيراً مثلما فعلت أنا، ولمَّا كان مسيحياً صالحاً بقدر ما هو طبيبٌ نطاسيٌّ، فإنَّ حديثه الطلي مثَّل سنداً كبيراً لي في أسوأ مراحل هذا الوقت العصيب.

كان ذلك في بداية شهر آب، وقد فشا الطاعون في المنطقة التي أقطن بها، حين أتى دكتور «**هيث**» لزيارتي واكتشف أنَّي أغامر كثيراً بالخروج إلى الشوارع، وقد حثَّني بشدة على أنْ أغلق الباب على نفسي وأسرتي، وألا أسمح لأي منا بالخروج، والإبقاء على النوافذ مغلقة بإحكام، وإغلاق المصاريع والستائر، وألا تفتح إطلاقاً. على أن يجري، أولاً، تدخين الغرفة التي يُفتح بابها ونافذتها عادة، وذلك بإحراق الراتينج، والقار، والكبريت، أو البارود وما شابه ذلك. وقد التزمنا بذلك لبعض الوقت، ولكن كان من المتعذِّر البقاء داخل المنزل تماماً، لأنَّي لم أكن قد خزَّنت مؤونة لمثل هذا الحجر الطويل. وعلى أي حال، فقد حاولت، وإن جاء ذلك متأخِّراً، أن أفعل شيئاً بهذا الخصوص.
فعمدت، أولاً وبما لديَّ من وسائل تخمير الجعة وصنع الخبز، إلى إحضار كيسين من الدقيق. ولما كنت أملك فرناً فقد ظللنا نصنع ما يكفينا من الخبز طوال عدة أسابيع. كما أحضرت «**الملت**»[18]، وقمت بتخمير كمية من الجعة بقدر ما يمكن أن تحتويه ما لديَّ من براميل، وقد بدت كافيةً لسدِّ حاجة المنزل خمسة أسابيع أو ستة. وجلبت كمية من الزبدة المملَّحة، وجبنة «**تشيشاير**»، لكنِّي لم أحضر لحوماً طازجة. فقد كان الطاعون متفشياً في مَحالِّ الجزارة والمسالخ على الجانب الآخر من الشارع حيث توجد بأعداد كبيرة. وكان من المستحسن، والحالة هذه، ألا تذهب إلى هناك.

ومن المتعيِّن عليَّ هنا أنْ أشير، ثانيةً، إلى أنَّ الحاجة للخروج من منزلنا لشراء المؤن والمستلزمات كان، بقدر كبير، وراء خراب المدينة بأكملها، فقد نقل الناس العدوى بعضُهم إلى بعض في أثناء تبضُّعهم، حتى إنَّ البضاعة ذاتها كانت مُلوَّثة بالطاعون، أو لأقلْ: إنَّ لديَّ من الأسباب ما يجعلني أعتقد بذلك على أقل تقدير. وبناءً عليه، لا أستطيع أنْ أتفق مع ما أعرف أنَّه يتردَّد على ألسُن الناس بموثوقيَّة عالية أنَّ أصحاب السوق وأولئك الذين يشحنون البضائع والمؤن إلى المدينة، لم تَمْسَسْهم العدوى. وأنا على يقين بأنَّ جزَّاري «**وايت تشابل**»، حين يذبحون أكبر عدد من المواشي، كانوا أكثر الناس إصابة بالوباء إلى درجة أنَّ محالهم أُغلقت ما خلا عدداً قليلاً. أمَّا القلَّة التي بقيت مَحالُّهم مفتوحة، فكانوا ينحرون ذبائحهم في «**مايل إند**»، ثمَّ يحضرونها إلى السوق على الأحصنة.

وعلى أي حال، لم يكن بمقدور الفقراء من الناس شراء كميَّات كبيرة من المؤن وتخزينها، وتوجَّب عليهم، إذَّاك، أنْ يقصدوا السوق لشراء حاجيَّاتهم، وأنْ يبعث آخرون بالخدم أو صغارهم. وإذ كانت هذه ضرورة مُستأنفة بصفة يوميَّة، فإنها استجلبت إلى السوق كثيراً من الناس الموبوئين، فضلاً عن أنَّ كثيراً ممَّن قصدوا السوق سالمين، عادوا إلى منازلهم حاملين الموت لها.

ومن الصحيح أنَّ الناس اتخذوا الاحتياطات الممكنة جميعها، فكان الواحد منهم إذا اشترى قطعة لحم من السوق يحرص على أن تُناوله إياها الكلابُ. ومن ناحية ثانية، حرص الجزَّار على ألا يلمس النقود، وإنَّما يسأل المُشتري أن يضعها في إناء مليء بالخلِّ احتفظ به لهذه الغاية. واعتاد المشتري أن يحضر معه قطعاً من العملة المعدنيَّة الصغيرة حتى يستكمل بها ثمن ما يشتريه من لحم إذا اتفق أنْ كان المبلغ بالكسور، فلا يضطر حينها إلى أن يستلم من الجزَّار أي نقود. وحمل الناس معهم زجاجات الطيب والعطر بأيديهم، واستخدموا كل وسيلة ممكنة، لكنَّ الفقراء لم يقدروا على ذلك، فخاضوا المخاطر جميعها.

وكان يُسمع، كل يوم، ما لا يأتي عليه إحصاء من القصص المريعة المتعلقة بهذا الشأن. فحدث، في بعض الأحيان، أنْ يقع رجل أو امرأة صريعاً في وسط السوق، ذلك أنَّ العديد من الناس لا يدركون أنَّهم مُصابون بالطَّاعون حتى تفتك **الغرغرينا** الداخليَّة بأعضائهم الحيويَّة، فما هي إلا بضع دقائق، إثر ذلك، حتى يَقضي مطعوناً. وقد تسبَّب ذلك في موت العديد من هؤلاء، على النحو المذكور، فجأة ودون إنذار، ولعلَّ ثلَّةً منهم امتلكوا الوقت فذهب واحدهم إلى الكُشك الآخر أو أي عَتبة مظلَّلة، وجلس ليموت هناك كما أشرتُ فيما سلف من صفحات. وكانت هذه المشاهد مُعتادة في الشوارع، فحين يستعر الوباء

في إحدى النواحي، تخلو الشوارع، تقريباً، من المارَّة، غير أن العديد من الجثث تكون مُلقاة هنا وهناك على الأرض.

من ناحيةٍ أخرى، لوحظ أنَّ الناس، في مبتدأ الأمر، كانوا يتوقَّفون حال مرورهم بهذه المشاهد، وينادون على جيرانهم ليشهدوا ما يشهدون، لكنهم ما عادوا يأبهون لذلك، بمضيِّ الوقت، فإذا اتفق لنا أنْ رأينا جثَّةً ممدَّدةً، عمدنا إلى اجتياز الطريق والابتعاد عنها، أو إنْ كانت الجثَّة في زقاق ضيِّق رجعنا أدراجنا والتمسنا طريقاً أخرى للقيام بما كنَّا فيه مِن شغل. وكانت الجثَّة، في تلك الحالات، تُترك حتى يُبلِّغ الموظفون ويؤمرون بأخذها بعيداً، أو أنَّها تبقى حتى يهبط الليل حين يأتي الحانوتيَّة بعربة الموتى ويأخذونها بعيداً. ولا يتوانى هؤلاء الرجال الجسورون، الذين يقومون بهذه المهمَّة، عن تفتيش جيوب الموتى، وحتى تجريدهم من ملابسهم، أحياناً، إنْ كان هؤلاء مُتأنِّقين، كما هي حال بعضهم، فيأخذ الحانوتيَّة إذَّاك ما يمكنهم تحصيله. ولكنْ، لِنَعُدْ إلى الأسواق، فقد حرص الجزَّارون على أنْ يكون بضعة مأمورين تحت تصرُّفهم، فإنْ أحدٌ مات حمله هؤلاء على محفَّة، ونقلوه إلى مقبرة قريبة، وكان ذلك متكرِّراً إلى درجة أنَّه لا يجري إدخال الوفيات التي تحدث في الشوارع أو الحقول في القائمة الأسبوعية، كما هي الحال الآن، لكنها تدخل في الإحصاءات العامَّة للطاعون العظيم.

بيد أنَّ الطاعون الآن اشتدَّ ضراوةً إلى درجة أنَّ الأسواق ذاتها لم تكن تحتوي إلا على نسبة قليلةٍ من البضائع والمؤن، أو أنَّ المتسوِّقين ما عادوا يختلفون إليها بأعداد كبيرة كما كانت عليه الحال مِن قبل. وفضلاً عن ذلك، فقد أمر العمدة بإيقاف مَن كان يُحضر المؤن والبضائع مِن أهل الريف عند بوابات المدينة، فيجلسون هناك ويجعلون بضائعهم على بُسُط ويبيعونها دون أن يَلِجوا إلى المدينة، ثمَّ لا يلبثون أنْ يرجعوا من حيث أتوا، ذلك أنَّهم كانوا يبيعون ما لديهم عند مداخل المدينة، بل حتى في الحقول، ولاسيَّما في الحقول الكائنة وراء «**وايت تشابل**» في «**سْبِتِلْ فيلدز**»، وفي حقول «**سانت جورج**» الواقعة في «**ساوث وورك**»، وحقول «**بونهيل**»، وفي الحقل الفسيح المدعو «**وودز كلوز**» القريب من «**إِزْلِنْغتون**». ودأب العمدة، وأعضاء المجلس البلدي، والقضاة على إرسال مرؤوسيهم وخدمهم لشراء ما تحتاجه عوائلهم، مُبقين على أنفسهم داخل منازلهم على قدر ما يستطيعون، ونهج آخرون النهج ذاته. وإذْ جرى اعتماد هذه الطريقة، فقد كان أهل الأرياف يأتون مُبتهجين أيما ابتهاج، وقد جلبوا معهم بضائع شتَّى. ولم يطلهم مكروه، ممَّا عزَّز، كما أفترض، الإشاعة التي تقول إنَّهم محفوظون على نحوٍ إعجازيٍّ. أمَّا ما خصَّ عائلتي الصغيرة، فقد أسلفتُ أنِّي خزَّنت الخبز والزُّبد والجبن والجعة، وعليه فإنِّي أخذت بنصيحة صديقي الطبيب، وأغلقتُ الباب على نفسي وعائلتي،

وقررت أنْ أختبر قسوة العيش بضعةَ شهور من دون الحصول على لحم طازج، عوض أن أشتريه بما يحمل ذلك من مخاطرة بأرواحنا. ولكن، على الرغم من أنَّي حجزت عائلتي، فإنَّي لم أستطع التحكُّم بفضولي المتعطِّش للمزيد فأبقى في المنزل طوال الوقت. ومع أنَّي كنت أرجع إلى البيت خائفاً ترتعد فرائصي مِن هول ما رأيت، فقد عجزت عن حبس نفسي عن الخروج. لكنِّي، في واقع الأمر، ما عدت أخرج مراراً كما اعتدت في بادىء الأمر.

وقد كانت لديَّ، فعلاً، بعض الالتزامات الصغيرة، مثل الذهاب إلى منزل أخي الكائن في أبرشيَّة شارع «**كولمان**»، الذي عهد به إلي. وقد اختلفت إليه يومياً في بادىء الأمر، لكنِّي صرت أزوره لاحقاً مرَّة أو مرَّتين أسبوعياً.

ورأيت، في روحاتي تلك، مشاهد مريعة، ولاسيَّما المتعلقة بالأشخاص الذين كانوا يتساقطون صَرعى في الطرقات، فضلاً عن صرخات النساء وصيحاتهن الملتاعة؛ النساء اللائي كنَّ يفتحن نوافذ غرفهنَّ بعنف، لشدَّة ما بهنَّ من ألم، ويصرخن بطريقة مريعة ومفاجئة. وفي الحقيقة، مِن المتعذِّر وصف الأشكال التي يُعبِّر بها الأشخاص المساكين عن آلامهم.

حين كنتُ ماراً عبر «**توكين هاس يارد**»، في «**لوثبري**»، فُتحت نافذة بابيَّة فجأة فوق رأسي مباشرةً، وأصدرت امرأة ثلاث صيحات مُفزعة، ثمَّ صرخت: أوَّاه أيها الموت، أقبل أيها الموت. فعلت ذلك بنبرةٍ لا تُشبهها نبرة، بثَّت في أوصالي الرعب والقشعريرة. كان الشارع بأكمله خالياً لا ترى فيه أحداً، وما مِن نافذةٍ أخرى فُتحت، فما عاد لدى الناس فضول، حينها، وما عاد بمقدور أحدٍ أن يُساعد أحداً، فمضيتُ في طريقي عابراً إلى زقاق «**بيل ألي**» الذي ما كدت ألجه، عند يمين الطريق، حتى سمعت صراخاً أكثر ترويعاً، على الرغم من أنَّه لم يأتِ مباشرةً من النافذة، غير أنَّ العائلة بأكملها كانت في فزع شديد، وكان بمقدوري أنْ أسمع النساء والأطفال يتراكضون، صارخين، بين الغرف كما لو أنهم ذهلوا عن أنفسهم، وذلك حين فتحت نافذة عِليَّة من الجانب الآخر للزقاق وبرز منها رجل منادياً:

ما الأمر؟ وجاء الجواب من نافذة الجهة المقابلة:

- يا إلهي، لقد شَنق سيِّدي المسنُّ نفسه، وعاد الرجل ليسأل:

- هل مات تماماً؟ فأجابه الشخص ذاته:

- أجلْ أجلْ، جثَّة هامدة وباردة.

- وكان ذلك السيِّد الذي شنق نفسه تاجراً وعُضوَ مَجلسٍ مَحلّيٍّ ومِنْ أهل اليسار والثروة. ولست معنياً بذكر اسمه على الرغم من معرفتي به، فمِن شأن الإفصاح عنه أن يتسبَّب للعائلة، التي تنهض من جديد، بعسر وضيق. لكننا نتحدَّث عن حالة واحدة هنا، إذ يعجز المرء عن تصديق ما حلَّ من أحوال مفزعة ببعض العائلات كل يوم. فقد كان الناس، في حُمَّى تفشِّي الوباء في أبدانهم أو الأوجاع غير المحتملة المتأتِّية عن الدمامل، يركضون بجنون منفلت، هائجين ذاهلين. وغالباً ما يبطشون بأنفسهم، ويلقون بأنفسهم من النوافذ، **وير**مون أنفسهم في النار وما إلى ذلك. وكانت بعض الأمهات، في سورة جنونهن، يقتلن أطفالهنَّ، وبعض الناس يموتون كمَداً، في حين ماتت ثلَّة منهم من فرط الخوف والذهول، دون أن يمسَّهم الوباء. ليس هذا وحسب، فقد قاد الهلع عدداً من الناس إلى العَتَه وحالة من الحمق الهذيانيِّ، وأفضى بطائفة أخرى إلى اليأس والخَبَل، وانتهى بناسٍ آخرين إلى ضرب من «**الماليخوليا**».

كان الوجع الناتج عن الدمامل مُبرحاً وشديداً على نحو استثنائي، بل كان بعضها لا يُطاق. ولعلَّ المرء يقول إنَّ الأطباء والجرَّاحين قد عذَّبوا عدداً كبيراً من المخلوقات المسكينة حتى الموت، فقد كانت الدَّمامل لدى بعض المصابين تَصْلُب وتغدو قاسية، ويعمد الأطباء بُغْية فَصْدِها إلى وضع اللواصق والكمادات الطبيَّة بصورة عنيفة، وإذا لم يُجد ذلك نفعاً، لجؤوا إلى استئصال الدُّمل وكَشْطِه بالمبضع على نحو مُريع. وكانت بعضُ هذه الدمامل تتصلَّب، جزئياً، مِنْ شدَّة الطاعون، وبسبب استئصالها بعنف كذلك؛ ما جعلها أصلب فلا تنفع في استئصالها أداة، فيعمد الأطباء حينها إلى كيِّها بالمواد الكاوية. وهكذا، فقد قضى عديدٌ منهم من هول العذاب والألم، في حين قضى آخرون إبَّان العمليَّة ذاتها.

وفي صُلب هذه العمليات الرهيبة، كان بعض هؤلاء يُؤذون أنفسهم في غياب مَنْ يُعين على تثبيتهم في أَسِرَّتهم، أو مُراقبتهم، في حين يخرج بعضٌ آخر، عنوةً، من المنزل، ربما عُراةً، وينحدرون راكضين نحو النهر، إنْ لم يوقفهم الحارس أو أي من الموظفين، ثمَّ يغمسون أنفسهم في الماء أنَّى وجدوه.

ولطالما تصدَّعت روحي لِسَماع تأوُّهات أولئك الذين تلقَّوا مثل تلك العلاجات المبرحة وصرخاتهم. ولكنْ، كانت الطريقة الأخيرة أكثر الطرائق وعداً في الشفاء، فإنْ حُصر الصَّديد إلى رأس الدُّمَّل وجرى شقُّه وفَصدُه، أو كما يُعبِّر الجرَّاحون «**إطفاء الدُمَّل**»، فإنَّ المريض يبرأ، في الغالب، مِن الطاعون. أما أولئك الذين يصابون بصورةٍ فتَّاكةٍ منذ البداية، مثل ابنة السيدة النبيلة التي تقدَّم الحديث عنها، وتظهر عندهم علامات المرض في مرحلة متقدِّمة، فإنهم غالباً ما يمضون في طريقهم غير شاعرين بالمرض حتى تأتي اللحظة التي

يسقطون فيها، كما هي الحال في نوبات الصرع والسكتات الدماغيَّة؛ إذ كانت هذه الفئة من المرضى، التي يفتك بها الطاعون فجأة، يُهرع أفرادها إلى أحد المقاعد أو حافَّة ناتئة، أو أي مكان مُهيأ للجلوس، أو إلى منازلهم إنْ أمكنهم ذلك كما تقدَّم، فيجلسون هناك، ثمَّ يُغمى عليهم ويموتون. ويشبه هذا الشكل من الموت الميتات الشائعة، مثل أنْ يُغمى على المرء ويدخل، إنْ جاز القول، في حالة «**حُلميَّة**». وكان هؤلاء لا يلحظون أنَّهم التقطوا العدوى مطلقاً حتى تتفشى الغرغرينا في أجسامهم بأكملها. ولم يكن بمقدور الأطباء أنفسهم أنْ يعرفوا، يقيناً، حالتهم حتى يكشفوا عن صدور المرضى أو أجزاء أخرى من أجسادهم ويرون علامات المرض.

وقد بلغَنا العديد من القصص المفزعة، في ذلك الوقت، حول الممرِّضات والحرَّاس الذين عُهد إليهم برعاية المحتَضرين من المرضى، أيْ الممرِّضات اللائي استؤجرن للعناية بالمصابين، فيعمدن إلى معاملتهم بوحشيَّة، وتجويعهم، وخنقهم، أو التعجيل بأجلهم متوسِّلات طرائق أخرى، أيْ قَتْلهم. أمَّا الحرَّاس الذين جُعلوا على المنازل التي أُغلقت وخَلت مِن أهلها غيرَ واحد، وربما كان هذا الأخير طريحَ المرض، فكانوا يقتحمون عليه المنزل ويقتلونه، ثم يلقون به حالاً في عربة الموتى. وهكذا، فإنَّهم يرمون الجثَّة ولـمَّا تبرد بعد.

لا أستطيعُ الزعم أنَّ بعضاً مِن هذه الجرائم لم يحدث، وأعتقد أنَّ اثنين مِن أولئك قد أودعا السِّجن، لكنهما ماتا قبل أنْ تحين مُحاكمتهما. ولقد نُمي إليَّ أنَّ ثلاثةً آخرين، بأوقات مختلفة، قد بُرِّئوا من جرائم مشابهة. ولكنْ، يتعين عليَّ القول إنِّي أعتقد أنَّ ذلك لم يكن شائعاً كما أحبَّ بعضُ أناسِيِّ ذلك الزمن أنْ يعتقدوا. ولا يبدو من المعقول، بعد أنْ أقعد المرض بعضَ الناس إلى درجة العجز عن مساعدة أنفسهم؛ أولئك الذين قلَّما كُتبت لهم النجاة، أقولُ: ليس من المعقول أنْ تُغري هذه الحالة أي امرئٍ بارتكاب جناية القتل، ولاسيَّما أنَّهم مُتيقِّنون أنَّ هؤلاء المرضى لنْ يلبثوا أنْ يموتوا.

أما أنَّ المدينة شهدت، حتى في هذا الزمن المريع، عدداً كبيراً مِن السرقات والممارسات الشرِّيرة، فقد كان الجشع في الناس قويَّاً إلى درجةٍ تجعلهم يركبون المخاطر الشديدة للقيام بالنهب والسَّلب، ولاسيَّما في تلك البيوت التي هَلَك سُكانُها أو أهْلُها جميعهم وحُملوا إلى مدافِنهم؛ إذ كان السُرَّاق يقتحِمونها غير آبهين بالمخاطر، ودون اعتبارٍ لخطر التقاط العدوى، ناهبين حتى ملابس الموتى والملاءات التي يتدثَّرون بِها.

ولا بُدَّ أن تكون هذه حال تلك العائلة في جادَّة «**هوندسدِتْش**»، حيث وُجِدَ الرجلُ وابنتُه، فضلاً عن بقيَّة العائلة قبل أن يُنْقَلوا مثلما أفترضُ، في عربة

الموتى عُراةً تماماً. وكانوا جميعاً صَرْعى على الأرض، كل في حُجرةٍ مُختلفة. وقد سُرِقت الملاءات التي مِن المتوقَّع أنها سُحِبت مِن تحتهم فسقَطوا عن أسرَّتهم.

ومن الجدير بالملاحظة أنَّ النساء، على امتداد هذه الكارثة، كُنَّ المخلوقات الأكثر تهوُّراً واندفاعاً وطَيْشاً. ولـمَّا استُخْدِمنَ، بأعدادٍ كبيرة، كمُمرضات للعناية بمرضى الطاعون، فقد ارتكبن العديد من السرقات الصغيرة في المنازل التي استُعملن فيها. وقدْ جُلِد بَعضُهنَّ على رؤوس الأشهاد لهذا، في حين كان من المتعيَّن أنْ يُشنقنَ لِيَكُنَّ عبرةً للمعتبر؛ ذلك أنَّ الكثير من البيوت سُرقت في تلك الظروف. وظلّ ذلك قائماً حتى عُهِدَ إلى مَسْؤولين في الأبرشيَّة بتزكية الممرضات اللائِي يُعْنين بالمصابين. وقَدْ أخذوا دائماً معلومات عن النساء اللواتي أُرسِلن حتى يُصار إلى استدعائهنَّ ومُحاسبتهنَّ إنْ جرى العبث بالمنزل الذي استُعملن فيه. غير أنَّ هذه السرقات لم تتجاوزْ، أساساً، الألبسة، والملاءات، أو ما يمكن أن يجدنه مِن خواتم ومالٍ يعود للميت الذي كن يقمن على رعايته مَريضاً، ولم تتعدَّ ذلك لتصل إلى نهبٍ شاملٍ للمنزل. وأستطيعُ أنْ أسوقَ رواية واحدة من الممرضات، التي اعترفت، برهبةٍ شديدةٍ بعد سنين وهي على فراش الموت بالسرقات التي ارتكبتها في أثناء عملها. وقد أَغْنَتْها تلك السرقات إلى درجةٍ كبيرة. أمَّا جرائم القتل، فإنَّي لم أقعْ على أي دليلٍ يؤكِّد حدوث ذلك بالكيفيَّة التي جرى الحديث عنها، ما خلا ما ذكرتُه مِن حالات.

ولقد ذُكر لي، فعلاً، أنَّ إحدى الممرضات في أحد الأماكن حطت قطعة قماش مبلَّلة على وجه مريضٍ مُحتَضر واضعةً حداً لحياته التي كان يُغالبها. وقدْ حُدِّثْتُ عن مُمرِّضةٍ أخرى خَنقَت مريضةً شابَّة كانت ترعاها، وذلك حين دخلت الأخيرة في حالةِ إغماء كان من المُرتقب أن تُفيقَ مِنها، في حين عمد آخرون إلى قتل مرضاهم بإعطائهم هذه المادة القاتلة أو تلك، ولجأت طائفة أخرى إلى تجويع مرضاهم وحرمانهم مِنْ أي مادةٍ مُغذِّية.

غير أنَّ هذه القصص ارتبطت، دائماً، بِمَلمَحين مُريبين؛ ما جعلني أتجاهلها ولا أنظر إليها إلا بوصفها قصصاً يسوقها الناس، دائماً، لتخويف بعضهم. ويتمثَّل أوَّل هذين المَلمحين في أنَّ راوي هذهِ القصص، بصرْف النظر عن المكان الذي تُروى فيه، يُعيِّن المشهد في الطرفِ الآخرِ من المدينة، أيْ في الجهة المقابلة أو في النقطة الأبعد عن المكان الذي تَستمعُ فيه لهذه القصَّة. وهكذا، إنْ أنتَ استمعتَ إلى القصة في «**وايت تشابل**» فإن مجرياتها تحدثُ في أبرشيَّة «**سانت جايلز**»، أو في «**ويست مينيستر**»، أو «**هلبورن**»، أو في آخر المدينة. وإنْ استمعت إليها في آخر المدينة فإنَّ أحداثها تجري في «**وايت**

تشابل»، أو في أبرشيَّة «**مينوريز**»، أو حول «**كربل غيت**». وهكذا، إذا قُصَّت عليك القصة في المدينة يكون مسرحُ أحداثها في «**ساوث وورك**»، وإنْ سمعتها في هذه الأخيرة فإنَّ أحداثها تجري في المدينة، وهَلُمَّ جَراً.

أما الملمح الثاني الذي يُشكِّك بموثوقيَّةِ هذه القصص، فماثلٌ في أنَّك أَينما سمعتَ القصة، فإنَّها تنطوي على التفاصيلِ ذاتها. ولاسيَّما المتعلقة منها بقِطعة القماش المطويَّة والمُبلَّلة على وجهِ شخصٍ يُحْتَضر، وخَنق امرأة نبيلة. وهكذا، باتَ من الواضح، بحَسْب ما أرى على أقلِّ تَقدير، أنَّ عُنصر الخيال، في هذه القصص، سائدٌ على ما هو حقيقيٌّ فيها.

ومهما يكن مِن أمر، لا أستطيع إلا أنْ أقول إنَّها مارستْ تأثيراً ما على الناس، ولاسيَّما أنَّهم، كما ذكرت، أضحوا أحرص حيال مَن يُحضرونه إلى منازلهم ومَن يُوكلون إليه أمر أنفسهم. وغالباً ما يلجؤون، إنْ استطاعوا، إلى أشخاصٍ جَرَتْ تزكيتُهم، وإنْ عزَّ هؤلاء، بسبب قِلَّتهم، لجأ الناس إلى المسؤولين عن الأبرشيَّة.

ولكن البؤس يحطُّ، هنا ومن جديد، على المصابين من الفقراء الذين لا يملكون طعاماً أو دواءً، وليس لديهم طبيب أو صيدلاني يساعدهم، ولا ممرِّضة لرعايتهم. وهكذا، فقد قضى العديد منهم وهم يستصرخون ويستغيثون، بل إنهم يَجأرون طلباً للقوت، عبر نوافذ منازلهم بصورةٍ يتقطَّعُ لها نِياطُ القلب. ولكنْ، لا بُدَّ أن أُضيف أنَّه ما مِن مرَّة بلغت أحوال هؤلاء الأشخاص أو العائلات إلى سيِّدي العمدة إلا وجرى استنقاذهم ومدُّهم بيد العون.

ومن الصحيح أيضاً أنَّ العائلات التي لم تكن فقيرةً جداً، وعمدت إلى إرسال النساء والأطفال بعيداً، وصرف الخدم إنْ وجدوا، أقول: من الصحيح أن هؤلاء لجأوا، بُغيةَ تخفيف المصاريف، إلى إغلاق الأبواب على أنفسهم، ومِنْ ثمَّ ماتوا وحيدين في غياب مَنْ يُعينهم.

كان لأحدِ جيراني ومعارفي بعضُ الذِّمم الماليَّة لدى صاحب متجر في جادَّة «**وايت كروس**» أو نواحيها. فبعث بشاب مُتمهِّن لديه، يبلغ من العمر نحو ثماني عشرة (18) سنة، في محاولةٍ لجلبِ ما يدين له صاحب المتجر مِن مال. وحين وصل إلى بوابة المنزل وألفاه مُغلقاً طرق عليه بِشدَّة. وحين سمع، بحسب ما تهيَّأ له دون أنْ يكون مُتيقناً، أحدهم يجيب من الداخل فإنَّه انتظر عند الباب، ثم طرق الباب كرَّةً ثانية بعد وقتٍ قصير، ثُمَّ فعل ذلك مرَّة ثالثة حين سمعَ أحدَهم ينزل إلى الطابق السفلي. وظهر رجلٌ، بعد وقتٍ غير قصير، عند الباب، مُرتدياً بنطالاً قصيراً أو سروالاً تحتياً، وقميصاً داخلياً أصفر، وخُفَّين من

دون جورب، وقُبَّعةً بيضاء على رأسه. وكان الموت، كما قال الشَّاب، ظاهراً على وجهِه. وحين فتح الباب، بادَهَ الرجلَ بقوله:

ما الذي أتى بِكَ لتُقلق راحتي؟ فأجاب الشاب برغم ما ألمَّ به مِن مفاجأة:

أنا قادمٌ مِن طرف فلان، وقد أرسلني لإحضار المال الذي يقول إنَّك على دراية به.

فَردَّ الشبح الحي:

حسناً يا غلام، حين تَمرُّ بكنيسة «**كريبل غيت**»، نادِ عليهم واطلب منهم أنْ يقرعوا الأجراس.

ثُمَّ أغلَقَ البابَ وصَعِدَ مِن جديد، وماتَ في اليوم ذاته، بل لعلَّه مات في الساعة ذاتها. وقَدْ أخبرني الشَّاب نفسه بهذه القصة، ولديَّ مِن الأسباب ما يجعلني أصدِّقه. وكان ذلك في وقتٍ لمَّا يبلغ فيه الوباء أَوْجَهُ بعد، وأعتقدُ أنَّه كان في نهايات حزيران، ولا بُدَّ أن يكون سابقاً على الوقت الذي بدأتْ فيه عربات الـمَوتى تجوبُ الأمكنة، وقبل أن توقَفَ مراسمُ قرعِ نواقيس الكنيسة إعلاناً عن الوفيات. وكان ذلك قد توقَّف، يقيناً، في هذه الأبرشيَّة على أقلِّ تقدير، قبل شهر حزيران. فبحلول الخامس والعشرين من حزيران، مات هناك خمسُمئة وخمسون (550) فأكثر، في أسبوعٍ واحد. وعليه، عاد مِن العسير عليهم أن يُقيموا المراسم لدفن الموتى، سواء منهم الغني أو الفقير.

لقد ذكرتُ، آنفاً، أنه برغم حلول هذه الكارثة المريعة، فإنَّ اللصوص وُجِدوا، في كل مناسبة، حيثما ألفوا فريسة، وكان أكثر الفرائس من النساء. ولقد توجَّهت، في أحد الصباحات عند الساعة الحادية عشرة تقريباً، إلى منزل أخي في أبرشيَّة «**كولمان ستريت**»، كما أسلفت غير مرَّة، وذلك لأتفقد المنزل الذي كان يحتوي على ساحةٍ وجدارٍ من الطوب وتتوسَّطه بوابة. وكان في داخل السور العديد من المستودعات التي جُعل فيها العديد من البضائع، واحتوى واحدٌ من هذه المستودعات على العديد من رُزم القبَّعاتِ ذوات الحوافِّ العالية التي جيءَ بها من الرِّيف لغاية التصدير كما أظنُّ، وإن كنت لا أعرفُ وجهة التصدير. وقد أخذتْني المفاجأة حين اقتربت من منزل أخي، عند مكانٍ يُدعَى زقاق «**سوان**»، وقابلت ثلاث نساءٍ أو أربعاً يعتمرنَ قبَّعاتٍ ذوات حوافٍّ عالية. وكما أذكر فإنَّ واحدةً أو أكثر منهنَّ حملت بيدها بعضاً من القبَّعات ذاتها. ولكنِّي لم أسعَ إلى مواجهتهنَّ بأي حديث، فأنا لم أرَهنَّ يخرُجن مِن منزل شقيقي، وما كنت أعرفُ أنَّ لدى شقيقي هذا النوع من البضائع في منزله. فعبرتُ الشارع لأتحاشى اللقاء بهنَّ على مجرى عادةِ الناسِ في ذلك

الوقت، اتِّقاءَ العدوى. لكنِّي حين صرتُ أقرب من البوابة رأيتُ امرأةً أخرى تخرج مُحمَّلةً بالقبَّعات. فبادرتها بالسؤال:

- ماذا كنت تصنعينَ هناك أيتها السيِّدة؟

- فأجابت: يوجد العديد من الناس هناك، لم أفعل أكثر ممَّا فعلوا.

فانصرفتُ عنها وأسرعتُ نحو البوابة واستثمرتْ هي ذلك للفرار. وما إنْ وصلتُ إلى البوابة حتى رأيتُ اثنتين أُخْرَيين تعبران الساحة باتجاه البوابة وهما تعتمران قُبَّعتين، فضلاً عما وضعتاه تحت ذراعَيْهما، فصفقتُ من ورائي البوابة التي انغلقتْ بإحكامٍ لكونها مُجهَّزة بقفلٍ زنبركيٍّ، واستدرتُ نحو المرأتين قائلاً:

- مَرحى بكما، ماذا تفعلان هنا بحقِّ السَّماء؟!

ثم قبضتُ على القبعات وأخذتها منهما. فقالت إحداهنَّ، التي أُقرُّ بأنها لم تَبْدُ من السُرَّاق:

نحنُ مُخطئتان بلا شكٍّ. ولكنْ، قيل لنا إنَّه لا مالك لهذه البضائع. اسْترِدَّها من فضلك، وانْظُرْ هناك حيثُ يوجد العديد من الزبائن أمثالنا.

- ثُمَّ بَكتْ وبَدتْ مُثيرةً للشفقة. لذا، أخذتُ القبَّعات منها وفتحتُ البوابة، وأمرتُهما بالذَّهاب. لكنِّي ما إنْ نظرتُ باتجاه المستودع حيث أشارت، حتى رأيتُ ستَّة من النساء أو سبعة يَستنْسِبْنَ القبَّعات على رؤوسِهنَّ بأريَحيَّةٍ وهدوءٍ تامَّين كما لو كُنَّ في متجرٍ للقبَّعات يشترين بضاعته مِن حُرِّ مالِهنَّ. وقد تملكتني المفاجأة، لا بسبب رؤية العديد من اللصوص فحسْب، ولكن بسبب الظرف الذي أنا فيه؛ أعني الدفع بنفسي وسط هذا العدد مِن الناس. فقد كنت لبضعةِ أسابيع خَلَتْ حَذِراً إلى درجة أنَّني إذا قابلت أي شخص في الشارع أعبرُ إلى الجانب الآخر مُبتعداً عنه.

وقد فوجِئَتْ السيِّدات داخلَ الساحة أيضاً، ولكنْ لسببٍ آخر. إذْ أخبَرْنَني أنَّهنَّ يَقْطُنَّ في الجوار، وتَناهى إليهنَّ أنَّ بمقدور المرء أنْ يأخذ من القبعات ما يشاء، فلا مالك لها، وما شابه ذلك. وقد تحدثتُ إليهنَّ بغلظة، في باديء الأمر، وعُدتُ إلى البوابة وأخرجتُ المفتاح، ليُصبِحنَ، بذلك، سَجيناتٍ عندي، مُهدِّداً بحَجزِهنَّ جميعاً في المستودع، ثُمَّ أذهبُ لأحضِرَ لهنَّ الشرطة التابعة لسيِّدي العُمدة. فتَوسَّلْنَ بحرارة، مُعترضات بأنهنَّ ألْفَيْنَ البوابةَ مفتوحةً وكذلك بابَ المستودع، ومِن المؤكد أنَّ أناساً قد كسروه مُتوقِّعين أنْ يجدوا هناك سلعةً

ذات قيمة عالية، وهو أمر معقول، فقد كان درباسُ المستودع مَكسوراً، كما كان القفل المغلق على البوابة الخارجية فالِتاً، ولم يُسْلَبْ كثيرٌ من القبعات. وقد قدَّرْت، في آخر المطاف، أنَّه ليس مِن الملائم، في وقتِ العُسْرة هذا، أنْ يكون المرءُ قاسِياً وصارماً. فضلاً عمَّا يقتضيهِ ذلك مِن الذهاب إلى غيرِ مكان، واستقبالِ العديد من الناس، وزيارةِ آخرين لا أعرف شيئاً عن وضْعِهم الصحيِّ، ولاسيَّما في هذا الوقت الذي استشرى فيه الوباءُ إلى درجةٍ بلغت فيها نسبة الوفيات الأسبوعية أربعةَ آلاف وفاة. وهكذا، فإنَّ إظهار استيائي، أو حتى السعي لاستعادة حقِّ أخي، قد يكلفني حياتي. فاكتفيت بأخذ أسمائهنَّ وعناوينهنَّ، وقد كُنَّ فعلاً من نساء الحي، وتوعَّدْتُهنَّ بأنَّ أخي سيَستدعيهنَّ ويُحاسِبُهنَّ على ما فَعلن حين يعود إلى مسكنه، ثم وَجَّهت حديثي معهنَّ وجهةً أخرى، وسألتهنَّ، مُستنكراً، كيف يمكنهنَّ أن يُقارفن هذه الأفعال في هذا الوقت الذي عمَّت فيه البلوى، بل، إنْ جازَ القول، مُتَحدِّيات أكثرَ النوازل السماويَّة رَهبة، في حين وصل الطاعون إلى عَتباتِ دورِهنَّ، وربما، داخل دورِهنَّ ذاتِها وهُنَّ لا يَعلَمن. وعلى الرغم من ذلك، رُبَّما تتوقَّف عربة الموتى عند أبوابهنَّ في بِضع ساعات لحملهنَّ إلى قُبورهنَّ...!!

لا أستطيع القول إنَّ حديثي مارس تأثيراً كبيراً عليهنَّ طوال ذلك الوقت، إلى أنْ جاء رجلان مِن أهل الحي. إذ لـمَّا سمعا الجلبة، وكانا مُستَخْدَمَيْن لدى أخي، فإنَّهما عَرفا مِنْ فورهما ثلاثاً من هؤلاء النساء، وأخبراني عن هُويَّتهنَّ وأين يَقطنَّ. ويبدو أنَّهنَّ أعطينني رواية حقيقيَّة عن أنفسهنَّ قبل مجيء هذين الرجلين.

ويستجلب هذا ذكرى أخرى تتَّصل بهذين الرجلين. دُعي أحدهما **جون هايوارد**، وقد شغل، في ذلك الوقت، وظيفةَ «**قندلفت**» من الدرجة الثانية، في أبرشيَّة «**سانت ستيفين**» بزاوية جادَّة «**كولمان**»، وكانت توكل إلى مَن يشغل هذا الموقع مهمَّة حفر القبور ونقل الموتى. وقد نقل هذا الرجل، أو عاون على نقل، جميع مَن مات في تلك الأبرشيَّة الكبيرة إلى قبورهم، تَبعاً للشعائر المتبعة في الجنائز. وكان يرافق، بعد العمل بهذه المراسم، عَربة الموتى والناقوس لجلب الجثث من المنازل، ونقْلِ عددٍ كبيرٍ منها وحملها مِن الحجرات والمنازل؛ ذلك أنَّ هذه الأبرشيَّة كانت مُميَّزة عن سائر الأبرشيَّات في لندن بعددٍ هائل من الأزقَّة والطرق الطويلة المتضايقة حيث لا يمكن لعربة الموتى أنْ تنفذ خلالها، ما يضطرهم إلى حمل الجثث راجلين مسافةً طويلة. وماتزالُ الأَزِقَّةُ شاهدةً على ذلك حتى الوقت الحاضر، مثل زقاق «**وايتس**»، وزقاق «**كروسْ-كي-كورت**»، وزقاق «**سوان**»، وزقاق «**بِلْ**»، وزقاق «**وايت هورس**»، وكثير غيرها. وكانوا يأتون، والحالة هذه، بِمِحَفَّة ويجعلون الجُثث عليهاٍ، ثم يَعمدون إلى حملها حيث تكون العربة. وقد اضطلعَ الرجل بهذا العمل

دون أن يَمَسَّه الطاعون، بل إنَّه عاش عشرين سنة بعد ذلك. وشغل وظيفة «**قندلفت**» في الأبرشيَّة حتى مماته. وقد عملتْ زوجتُه، في أثناء الوباء، مُمرِّضة للمُصابين، وعُنِيت بكثيرٍ مِمَّن ماتوا في الأبرشيَّة، فقد أوصى بها القائمون على الأبرشيَّة لما عُرِفَ عنها مِن أمانة. بيدَ أنها لمْ تلتقط العدوى هي الأخرى. ليسَ هذا وحَسْب، فإنَّ الرجل المذكور لم يأخذ أي دواء يَقي من العدوى، ما خلا وضع الثوم وشيئاً من نبتة «**الفيجن**» في فمه، فضلاً عن تدخين التبغ، وقد أخبرني ذلك بنفسه. أمَّا زوجتُه فتمثَّل الدواء الذي استخدمتْهُ بأنها كانت تغسِل رأسَها بالخلِّ، وتَرُشُّ غطاءَ رأسها، أيضاً، به، وذلكَ لإبقائه رطباً. ومِن عادَتها، إنْ صدرت رائحةٌ كريهةٌ بصورة غير اعتيادية مِمَّن كانت تُعنى بهم، أنْ تلجأ إلى استنشاق الخلِّ، ورشِّ أَوْشِحَتِها به، ووضع منديل مُشبع بالخلِّ على فمها.

ولا بُدَّ مِن الاعتراف أنَّه على الرغم مِن تفشي الوباء، أساساً، بين الفقراء، فإنَّ هؤلاء الأخيرين كانوا أكثر الناس في إهداف أنفسهم للخطر، وعدم الاكترات بالوباء. وقد ذهبوا إلى أعمالِهم بشجاعةٍ توحُّشِيَّة، ويتعين عليَّ أنْ أصفَه بهذا الوصف، لأنَّنا لا نعثرُ على أصلٍ لهذا السلوك في دينٍ أو لدى عقلٍ راجح. وقلَّما يتَّخذُ هؤلاء أي خُطوات وِقائيَّة، وإنَّما يُسارعون إلى أي عمل يمكنهم الحصول عليه، على ما فيه مِن أخطارٍ جِسام. ومِن ذلك، رعاية المصاب، وحراسة المنازل المُغلقة، وحمل المصابين بالطَّاعون إلى المشافي المُخصَّصَة للمصابين، وأسوأ من ذلك كله نقل الموتى إلى لُحودهم.

وكانت حالةُ الزمَّار مِن ضمن ما اضطلع به **جون هايوارد** من مسؤولياتٍ ضمن نطاقه؛ تلك القصة التي كانت أضحوكةَ الناس وحديثَ المتندرين، وهي قصَّة حقيقيَّة كما أكَّد لي **هايوارد** نفسه. وقد شاع أنَّ الزمَّار كان أعمى، لكنَّه لم يكن أعمى، بحسب ما روى لي **هايوارد**، وإنَّما ساذج، وضعيف، وفقير. وكان يقوم بجولاته، عادةً، في نحو الساعة العاشرة ليلاً، يَزْمُر من باب إلى باب. واعتاد الناس إيواءَه في الحانات، حيثُ كان معروفاً هناك، ويقدِّمون له الشراب والأطعمة، والقطع النقديَّة الصغيرة أحياناً. وكان بدوره يَزْمُر لهم ويُغني ويَسرُد الأحاديث البلْهاء، وفي هذا تسلية لهم. وهكذا، فقد تعيَّش من ذلك. غير أنَّ الوقت لم يكن مُواتياً لمثل هذه التسلية والحالُ كما ذكرت. ومع ذلك، فقد ظلَّ الأبله المسكين على سيرته الـمُعتادة، لكنَّه أشرف على الهلاكِ جوعاً، وإنْ سأله أحدٌ عن حاله يُجيب: لم تُقلَّني عربةُ الموتى بعد، لكنهم وعدوا بأنْ يحملوني في المرَّة القادمة...!!

ولعلَّ أحدهم أعطاه، في إحدى الليالي، كثيراً من الشَّراب المُسكر، لكنَّ المسكينَ لم يكن يُعاقر الخمرة، كما ذكر **جون هايوارد**، وإنَّما زوده بعضُ

الناس بأكثرَ ممَّا هو مُعتاد من الأطعمة في إحدى الحانات الموجودة في جادَّة «**كولمان**». ولمَّا اعتاد هذا المسكين الجوعَ ولم يعرف الشَّبع، ربَّما، فترةً طويلة، فإنَّه اضطجع على عَتبةِ بابٍ عند أحد الشوارع القريبة من جادَّة «**لندن وول**» تجاه «**كربل غيت**»، وراح في سُباتٍ عميق. وحين سمع ناسٌ من أحد البيوت الكائنة عند زاوية الزِّقاق قرعَ الناقوس الذي كان يسبق عربة الموتى، فإنَّهم وضعوا على العتبة ذاتها جُثَّة حقيقيَّة لرجلٍ مات بالطَّاعون، مُعتقدين أنَّ هذا المسكين النائم مَيتٌ هو الآخر، وأنَّ بعضَ جيرانهم قد ركنوا جُثَّته هناك.

وهكذا، حين قدم **جون هايوارد**، رفقةَ صاحب الناقوس ورفقائه في عربة الموتى، وألفوا جثَّتين مركونتين على العتبة، عمدوا إلى الأداة التي يستعملونها في نقل الموتى فحملوهما وألقوا بهما داخل العربة وقد حدث كل ذلك والزَّمار يغطُّ في نومٍ عميق، ثم مضوا في طريقتهم منتشلين مزيداً من الجثث حتى باتوا قريبين، كما نبَّأني الرجل الصادق هايوارد، من دفن الزمَّار حياً، دون أن يُفيق من سُباته العميق. ووصلت العربة، أخيراً، إلى المكان الذي تُلقى به الجثث الذي كان بحسب ما أذكر في منطقة «**ماونت ميل**». وقد كان من المعتاد أن تقف العربة بعضَ الوقت قبل أن تتجهَّز لإلقاء حمولتها البئيسة. وما إنْ توقفت حتى استيقظ الزَّمار المسكين وأخذ يصارعُ قليلاً ليُخرج رأسه من بين الجثث، ثم صاح وهو يرفع رأسه:

يا ناس، أين أنا؟

- وقد أفزع ذلك الحانوتيَّة، لكن هايوارد تمالك نفسه، بعد هُنيهة، وقال:

حِفْظَك يارب، هناك شخص ما في العربة لم يَمُتْ تماماَ. وما لبث أنْ ناداه آخر قائلاً:

- مَنْ أنت؟ فأَجاب:

- أنا الزَّمار المسكين، قولوا لي أين أنا؟ فأجابه هايوارد:

- تسألُ أين أَنت؟ حسناً، إنَّك في عربة الموتى، ونَتهيَّأُ لِدفنك...!! فقال الزمَّار:

- لكنِّي لم أمُتْ بعد، أمْ أنَّني متُّ؟!

- جعلهم سؤاله يضحكون، على الرغم ممَّا داخَلَهُم مِنْ فَزَع في بادئ الأمر، كما ذكر هايوارد. وهكذا، فقد أنزلوا الرجل البُهلول ومضى إلى حال سبيله.

وأنا أدري أنَّ القصة، كما سَرَتْ في الناس، تقولُ إنَّه أخرج مِزماره، وأنشأ يَزمُر فأفزع الحانوتيَّة وغيرَهم مِن المارَّة إلى درجة أنَّهم أطلقوا سيقانَهم للريح. لكنَّ هايوارد لم يَقصُص هذه الحادثة على هذا النَّحو، ولم يأتِ على ذكر النَّفخ في المزمار مُطلقاً، وإنما ذَكر أنَّه كان زَمَّاراً مِن البهاليل، وأنَّه حُمِلَ كجُثَّة كما ذُكر آنفاً. وأنا مُتيقِّنٌ تماماً بأنَّ هذه هي حقيقة القصَّة.

ومن الجدير أنْ يُشار إلى أنَّ عربات الموتى في المدينة لم يكُن يجري تقييدها بأبرشيَّات مُعيَّنة، فقد اتَّفق أنْ طافتْ عربةٌ واحدةٌ بِعدَّة أبرشيَّات وذلك تبعاً لعدد الوفيات المُسجَّلة؛ ولا كانت مُلزَمةً بِحمْل الميت إلى أبرشيَّته التي ينتمي إليها، بل إنَّ العديد من الموتى أُخِذوا مِن المدينة إلى مدافنَ خارجيَّةٍ بسبب عدم سعة المدافن في الأبرشيَّات التي شهدت معدَّل وَفَيات مرتفعاً.

سبقَ أنْ ذكرت أنَّ الناس أُخِذوا بغتةً، حين حلَّ الوباء بينهم، بادئَ الأمر. ومن المُتعيَّن أنْ يُتاح لي تقديم مُلاحظاتي في مستوى أكثرَ رصانَة، فضلاً عن الجانب الدينيِّ من الـمَسألة. فمِن المُؤكد أنَّه من غير المُمكن لمدينة، بهذه الضَّخامة والكبر، أنْ تُؤخذ بغتةً دون أن تكونَ مُستعدِّة، ولو بقدرٍ معقول، لهذا الوباء، سواء تعلَّق الأمر بالإعدادات المدنيَّة أو الدينيَّة. لكنَّ حالَهم في لندن كان، فعلاً، حالَ مَنْ لمْ تَصِلْه علاماتٌ مُنذِرة، ومَنْ غابت لديه حاسَّة الاستشراف، ومَنْ لم تُساورْه المخاوف. وعليه، فقد اتُّخِذتْ الإجراءات بحدِّها الأدنى، وبِصورةٍ عامَّة. وهكذا، فإنَّ العُمدة ومُدراء الشرطة لم يتَّخِذوا، بوصفِهم مسؤولين عن النظام، أي خطَّة فيما يتعلَّق بالتشريعات التي ينبغي أنْ تُتَّبع حِفظاً للنظام. ليسَ هذا وحسْب، فإنَّهم لم يَتَّخِذوا أي إجراءاتٍ لإغاثةِ الفقراء، إذْ لم تكُن هُناك مخازن أو مستودعات للحنطة أو الدقيق لإغاثةِ الفقراء. ولو جرى تزويدهم بذلك، كما يَحدثُ في مثل هذه الحالات في أمكنةٍ أُخرى، إذنْ لأُغيثَتْ كثرةٌ مِن العوائِل البائسة التي آل بها الأمرُ الآن إلى حالةٍ عَسرة، ولَجرى ذلك بطريقةٍ أفضل مِن تلك التي يُمكن القيام بها الآن.

يُمكنني القول إنَّ مخزون المدينة مِن الأموال كان وفيراً، فقد قِيل إنَّ غرفة تجارة لندن تتوفر على موارد ماليَّة كبيرة. ومن المُمكن استنتاج ذلك من المبالغ الهائلة التي أُنفِقتْ في إعادةِ إعمار المباني العامَّة بعدَ حريق لندن، فضلاً عن بناء مبانٍ جديدة. وتمثَّلت المباني التي أُعيد بناؤها في مقرِّ **النقابة المهنيَّة** (Blackwell-Hall)، «مركز تجارة الصوف والقماش»، وجزء من سوق «**ليدن هول**»، ومنتصف السوق التجاري الملكي (Exchange)، ومبنى المحكمة، والسجن الخاص بالمدنيِّين، وسجون «**لود غيت**»، وسجن «**نيو غيت**»، وغيرها. فضلاً عن أرصفة الموانئ، والمدرَّجات، والمراسي الخاصة بنهر التايمز. وكانت هذه المنشآت، جملةً، قد أُحرِقتْ تماماً أو تضرَّرت في حريق لندن الكبير،

الذي حدث في العام التالي للطاعون. أمَّا المنشآت الجديدة التي جرى بناؤها، فتحدَّدت بالنصب التذكاري لحريق لندن الكبير، والنهر الجوفيِّ الذي يتخلَّل المدينة مع جسوره، ومستشفى «**بِتْلِم**» (Bethlem) أو «**بِدْلام**» (Bedlam)، وغيرها من المنشآت. ولكنْ، مِن الممكن أنَّ المتصرِّفين في موارد المدينة في ذلك الوقت كانوا أكثر خشيةً في التَّصرُّف بأموال اليتامى، للتصدُّق بها على المنكوبين من المواطنين مِن المتصرِّفين بالمال العام في السنوات اللاحقة، حين استخدم هؤلاء الأخيرون المال في تجميل المدينة وإعادة إعمار المباني وتحسينها. مع أنَّ مَنْ خَسِرَ أموالَه، في الحالة الأُولى، كان سيعتقد أنها أُنفقتْ في باب من أبواب الخير، ولكانت إدارة المدينة أقلَّ عُرضة للتشهير والاتِّهام من قِبل الناس.

يتوجب التسليم أنَّه على الرغم مِن فرار المواطنين الغائبين بأنفسهم إلى الأرياف طلباً للسلامة، فإنَّهم أولوا عناية خاصَّة بمعيشة مَنْ تركوهم وراءهم، ولم يغفلوا عن تقديم الأعطيات السخيَّة لإغاثة الفقراء، كما جُمِعتْ مبالغ كبيرة من المدن التجاريَّة الواقعة في الأجزاء القَصيَّة من إنجلترا. وقد نُمِيَ إليَّ، أيضاً، أنَّ الأشراف والنُّبلاء في أرجاء إنجلترا جميعها تعاطفوا مع المدينة المنكوبة، وأرسلوا مبالغ كبيرة، هِبةً منهم، إلى العمدة وقُضاة الصُّلح لإغاثة المعوزين والفقراء. وليس هذا وحسْب، فقد أُخبِرتُ أنَّ الملك أمر بألف جنيه، أسبوعياً، تُقسَّم إلى أربعةِ أَقسام؛ فيُجعلُ رُبعها للندن ودائرة «**ويست منيستر**»، ورُبع آخر يُجعل لسكان «**ساوث وورك**» من جهة النَّهر، وثالث للمناطق الإداريَّة والأجزاء الواقعة داخل أسوار المدينة. أما الرابع، فيُخصَّص للضواحي التابعة لمقاطعة «**ميديكس**» الريفيَّة، فضلاً عن الأجزاء الشرقية والشماليَّة من المدينة، لكنِّي سأتحدث عن ذلك لاحقاً على هيأة تقرير.

ومِن المؤكَّد أنَّ القسم الأكبر من الفقراء أو العوائل التي كانت تعتاش من العمل اليوميِّ، أو من تجارة التجزئة، يعتاشون الآن من الصدقات والأعمال الخيريَّة. ولولا أنْ توافرت مبالغ ماليَّة ضخمة مَنَحَها مسيحيُّون خيِّرون وطيِّبون لهذه الغاية، لما قامت للمدينةِ قائِمة. ولا ريب أنَّه كان هناك سجلَّات حفِظتْ هذه الأعمال الخيريَّة وعمليات توزيعها العادلة التي قام بها قُضاة الصُّلح. ولكنَّ العديد من القائمين على التوزيع، الذين وزَّعوا الهبات بأيديهم، ماتوا، كما أنَّ معظم السِّجلات التي دوَّنتْ هذه الأعمال الخيريَّةَ فُقدت في الحريق الكبير الذي اندلعَ في السنةِ اللاحقة، وأتى حتى على مكتب أمين الخزانة الملكيَّة والعديد من الأوراق. وهكذا، فإنِّي لم أتحصَّل على السِّجل الخاصِّ الذي سعيتُ حثيثاً إلى رؤيته.

مهما يكن مِن أمر، ولعلّه يكون من النافع، إذا اتَّفق وحلّ الوباء، الذي نجَّى الله المدينة منه، مجدداً، أنْ نلاحظ هنا حِرْص العُمدة وأعضاء المجلس المحلـي، في ذلك الوقـت، على توزيع مساعدات ماليَّة كبيرة أسبوعياً، لإغاثة الفقراء، وقد استنقذ ما سبق أعداداً غفيرةً من الناس، الذين لولا هذه المساعدات لَهَلَكوا. ودعني هنا أتطرَّق، بإيجازٍ، إلى حالِ الفقراء في ذلك الوقت. فلعلّنا، بذلك، نفيد من ذلك، ونُشكّل رأياً حول ما يُمكن أنْ تكون عليه الحال إنْ حلَّتْ بالمدينة بلوى جديدة.

فعندما غاب لدى الناس، في بداية حلول الطَّاعون، أي أملٍ في نجاة المدينة من انتشار الطَّاعون في عموم أرجائها، وحين عَمِد، كما أسلفت، كل مَنْ كان له أصدقاء أو منزلٌ في الريف إلى الاعتزال هناك بمعيَّة عوائلهم، ولَـمَّا خطر في بال الناظر في المشهد أنَّ المدينة ذاتها تفرُّ من البوَّابات ولنْ يبقى فيها أحدٌ على الإطلاق، أقولُ: حين جرى كل ذلك، غدا المرء مُتيقناً بصورة ما أنَّ أنواع التِّجارة جميعها، من تلك اللحظةِ فَصاعداً، توقفت تماماً ما خلا المُتعلِّقة منها بالحاجات المعيشيَّة الـمُلحَّة.

وقدْ كانت هذه هي حال المدينة فِعلياً، وتصوِّر جانباً كبيراً مِن حال الناس الحقيقيِّ، إلى درجةٍ تجعلُني أعتقد أنني لا أستطيع الخوض في كل حالةٍ بعينها، والاستفاضة بذكرِ التفاصيل. وعليه، فإنِّي سأقتصر على الفئات أو الطبقات الاجتماعيَّة التي وقعتْ في محنةٍ عاجلةٍ بسبب تلك الحال. ومن ذلك:

كل أصحاب الورش والحرف، ولاسيَّما تلك المُتعلِّقة بالزينة، وما يَدخل في نطاق الكماليَّات من الملابس والثياب والأثاث، مثل أشرطة الزينة «عُقدة الفراشة» وأمثالها من النِّساجات، وصناعة الدانتيل الذَّهبي والفضيِّ، ورسم المُخرَّمات الفضيَّة والذَّهبيَّة، وحياكة الأزياء، وتزيين القُبَّعات وبيعها، والسِّكافة، وصِناعة القُبَّعات، وصناعة القفَّازات، والتنجيد، والنجارة، وصناعة الخزائن، وصناعة المرايا، وما لا يُحصى من الحِرف والصِّناعات التي تعتمد على الحِرف السَّالفة. أقول: إنَّ أصحاب هذه الورش والحِرف قد أوقفوا أعمالهم، وصرفوا عُمَّالهم المُحترفين وغير المحترفين، وكل مَن يعمل لديهم.

١) ولمَّا كانت تجارة البضائع قد توقَّفتْ توقُّفاً شِبه تام، فإنَّ السُّفن لم تغامر، إجمالاً، في الصعود تجاه النهر، ولم تغادر مكانها. وهكذا، فإنَّ جلَّ موظفي الجمارك، رِفقةَ النوتيَّة، والعتالين الذين يستخدمون العربات للنقل، والحمَّالين، وكل المساكين الذين يعتمدون في عملهم على التُّجار، أقول: كل هؤلاء صُرِفوا على الفور، وباتوا عاطلين من العمل.

٢) وكان عمل أصحاب المتاجر الحرفيَّة الذين يُستعمَلون، عادةً، في بناء المنازل وترميمها قد تعطَّل؛ ذلك أنَّ الناس كانوا غير راغبين البتَّة في بناء البيوت، وقد خَلَت آلافُ البيوت مِن سُكانها دفعةً واحدة.

٣) لـمَّا كانت المِلاحة متوقِّفة، فإنَّ سُفننا توقَّفت عن رحلاتها ذهاباً وإياباً، وغدا البحَّارة، بذلك، عاطلين من العمل، وبات الكثيرُ منهم في الفصل الأخير والأسوأ من المأساة. والتَحَق بهؤلاء العديد مِن الحِرفيِّين والعُمَّال الذين يعملون في بناءِ السفن وتجهيزها مثل النجَّارين وعُمَّال الجلفطة [19]، وصُنَّاع الحبال، ونحَّاسي الأحواض الجافَّة [20]، وصُنَّاع الأشرعة، وحدَّادي المراسي وغير ذلك من الحدَّادين، وصانعي القوالب، والنَّحاتين الذين يصنعون التماثيل الحيزوميَّة [21]، وصُنَّاع الأسلحة، ومُتعهدي لوازم السُفن، ونحَّاتي السفن، وما إلى ذلك. رُبَّما عاش أربابُ هذه الورش على ما لديهم مِن ثروة، لكنَّ البواخر التِّجاريَّة كانت متوقِّفة عامَّة، فسُرِّح العمَّال العاملون في هذا القطاع جميعُهم.

٤) ليس هذا وحسْب، فقد خلا النهر، بصورةٍ ما، مِن القوارب، فكان أنْ توقَّف النوتيَّة، والحمَّالون الذين ينقلون البضائع من البحر إلى النهر، وبنَّاؤو القوارب، والبنَّاؤون الصغار عن العمل، وغَدوا بلا عمل.

٥) عَمِدت العائلات جميعها إلى الاقتصاد في معيشتها قدْر ما تستطيع، سواء التي غادرت المدينة أو التي مكثت فيها. وهكذا، فإنَّ عدداً لا يأتي عليه إحصاء مِن الأُجراء، والخدم، والبقَّالين، والعُمَّال المُياومين المَهَرة، والمُحاسبين، وغير هؤلاء ممَّن ينتمون إلى هذه الفئة، ولاسيَّما الخادمات المسكينات، تُرِكوا إلى مصائرهم بِلا عونٍ أو مُعين، وبِلا عملٍ أو مأوى، وتبدَّى ذلك فصلاً مُريعاً حقاً.

٦) وأستطيع أنْ أتوسَّع في عرض هذا الجانب من حياة المدينة، لكنْ، لعلَّه يفي بالغرض أنْ أُجمل القول وأذكر أنَّه لـمَّا توقفت أشكال العمل والتجارة جميعها فإنَّ العمل توقَّف، وتوقَّف معه، حُكماً، قوتُ الفقراء. وقد كانت صرخات الفقراء وتأوُّهاتهم، في مُبتدأ الأمر، مِن أكثر ما يرثي لسماعه المرء، على الرغم من أنَّ توزيع الصدقات والمُساعدات خفَّف من مأساتهم على نحوٍ كبير. وقد غادر كثيرٌ من الناس، فعلاً، إلى الأرياف، لكنَّ آلافاً آخرين لم يبارحوا المدينة إلى أنْ دفعهم اليأس إلى الرحيل عنها، فتخطَّفهم الموت في الطُرقات. وهكذا، فقد نُظِر إليهم بوصفهم رُسلاً للموت. أمَّا مَن أكمل رحلته حاملاً العدوى، فقد نشر الوباء، على نحوٍ مؤسف، حتى أقصى أجزاء المملكة. وقد كان العديد مِن هؤلاء ضحايا بائسين لحالة اليأس التي أشرتُ إليها سلفاً،

وما لبثوا أن غدوا ضحايا الهلاك الذي أعقب ذلك. ولعلَي أقول إنَّ هذا الهلاك لم يتأتَّ عن الوباء بِحدِّ ذاته، وإنَّما بما تمخَّض عنه، أي الجوع والعُسرة والافتقار إلى كل شيء، فلا مأوى ولا مالٌ، ولا صديقٌ مُعينٌ، ولا عملٌ يتحصَّلون منه على أقْواتهم، أو أحدٌ أو جهةٌ تزوِّدهم بهذه الأقوات، ذلك أنَّ أكثرهم مُفتقر إلى ما ندعوه إقامةً قانونيَّة، ولم يكنْ بمقدورهم، والحالة هذه، المُطالبة بالدعم مِن الأبرشيَّات، وما تحصَّلوا عليه كان عبر التقدُّم بالتماس إلى قُضاة الصُّلح طلباً للإغاثة التي قُدِّمت (من أجل إنصاف هؤلاء الأخيرين) حُبّاً وكرامةً بقدر ما وجَد القُضاة ذلك مُلِحاً. وهكذا، فإنَّ مَن بقيَ في المدينة لم يَخْبَروا العوز والحاجة بهذا القدر الذي استشعره مَن غادر بالطريقة المذكورة آنفاً.

وليتخيَّل أي شخص على دراية بالعدد المَهول لِمَن يُحصِّل قوته اليوميَّ في المدينة، سواء منهم العامل المُحترف والعامل العادي، أقول: ليَتخيَّل هذا الشخص أي حالٍ بائسة تغرق فيها المدينة إذا غدا الناس بلا شغل وتوقَّف العمل ومعه ما يتحصَّله العُمَّال من أُجور، وقد كان هذا ما آلت إليه حالنا في ذلك الوقت. ولولا المبالغ الماليَّة التي تبرَّع بها خِيارُ الناس على اختلاف مشارِبهم، خارج المدينة وداخلها، لما كان في وُسع العُمدة ومُدراء الشرطة حفظ السَّلام العامِّ. وقد داخلتْ هؤلاء وأولئك خشية، كما حدث بصورةٍ ما، مِن أَنْ يقود اليأسُ الناسَ إلى حالةٍ مِن الفوضى والاضطراب فينهَبوا منازلَ الأثرياء ويسلِبوا المواد التموينيَّة، ولو حدث ذلك لَفَزِع أهلُ الأرياف الذين كانوا يأتون بهذه المؤن بِحُريَّةٍ واطمئنانٍ كبيرين، ولـَما عادوا مرَّة ثانية، ولغرِقت المدينة، إذَّاك، في مجاعةٍ لا مناصَ منها.

غير أنَّ حكمة سيِّدي العُمدة وأعضاء محكمة المجلس المحلي داخل المدينة، وحكمة قُضاة الصُّلح خارجها، مشفوعةً بالدعم المالي من الأطراف جميعها، بلغت مبلغاً عظيماً، فسكَّن ذلك الفقراء، ولُبِّيت حاجاتهم بقدر ما تسمحُ به الحال. وقد أسهم أمران آخران في منع الرعاع من أنْ يعيثوا فساداً في المدينة؛ أوَّلهما أنَّ الأثرياء أنفسهم لم يُخزِّنوا المؤن في منازلهم كما كان ينبغي عليهم أنْ يفعلوا، ولو أنَّهم فعلوا ذلك وأغلقوا الأبواب على أنفسهم، مثلما فعل بعض الناس، إذن لَرُبَّما تحاشوا المرض على نحوٍ أفضل. لكنَّهم لم يفعلوا كما تبيَّن، فانتفى لدى الرعاع أي تفكيرٍ في العثور على مستودعات المؤن هناك إذا ما اقتحموا تلك المنازل. وقدْ كانوا، كما وَضح، قريبين مِن فعل ذلك، ولو فعلوا لاختتموا بذلك المشهد الأخير من دمار المدينة؛ إذْ لم تكُن هناك قوَّات نظاميَّة تتصدَّى لهم، ولم يكن من المُستطاع حشد المجموعات المُدرَّبة للدفاع عن المدينة لغياب الرِّجال الرَّاغبين في حمل السِّلاح.

لكنَّ يقظة العُمدة ومَنْ وُجِدَ مِن القُضاة (ذلك أنَّ بعضاَ منهم، ومن أعضاء المجلس المحلي، قد ماتوا، وبعضهم غادر المدينة) حالتْ دون السقوط في حالة الفوضى. وقدْ فعلوا ذلك بأقصى ما اجترحته مُخيِّلتهم من طرائق لطيفة، ولاسيَّما في إغاثة أفقر الناس بالمال، وتوفير العمل لآخرين، ولاسيَّما العمل في حراسة المنازل الموبوءة التي شُمِّعت. ولـمَّا كانت أعداد هذه البيوت كبيرة (فقدْ قيل إنه كان هناك، في وقتٍ من الأوقات، ألفا بيتٍ (2000) شُمِّعت أبوابُها، وجُعِلَ على كُل بيتٍ مِن هذه حارسان، أيْ واحد في الليل وآخر في النَّهار) فقد أعطى ذلك المجال لتوظيف عدد كبير جداً مِن الرجال الفقراء. وينسحبُ الأمر ذاته على النساء والخادمات اللائي سُرِّحن مِن أعمالهنَّ، فقدْ جرى استعمالُهنَّ كمُمرِّضاتٍ للعناية بالمرضى، وقد قلَّل ذلك من عدد العاطلات في صفوفهنَّ.

وعلى الرغم مِن أنَّه مثَّلَ فصْلاً كئيباً بذاته، لكنَّه كان خلاصاً بِحدِّ ذاته، وأَعني بذلك الطَّاعون الذي استشرى على نحوٍ مُريعٍ بعد مُنتصف آب إلى أواسط تشرين الأول، وأهْلَك، في هذه الفترة، ما بين ثلاثين إلى أربعين ألفاً (30000 - 40000) من هذه الفئة، التي لو استبقاها الطَّاعون لكانتْ عبئاً لا يُحتمَل بسبب فقرها المُدقع، أيْ أنَّ المدينة ما كانت لِتَستطيع إعانة أفرادها والإنفاق عليهم، أو مدهم بالطَّعام. وإذنْ للَجَأوا، في غضون ذلك، وتحت وطأة الحاجة، إلى نهْب المدينة وأريافها المجاورة لإعاشة أنفسهم؛ ما كان شأنه، عاجلاً أو آجلاً، أنْ يضع الأمة جمعاء، كما المدينة، في حالةٍ من الإرهاب والاضطراب الكبيرين [22].

وهكذا، كان من المُلاحَظ أنَّ المُصيبة التي ألـمَّت بالناس جعلتهم مُتواضعين ومُوادعين. فقد مات، في تسعةِ أسابيع على التوالي، ما يقرب من ألف (1000) شخص يومياً. ويتوافق هذا حتى مع القوائم الرسميَّة التي أمتلكُ سبباً للاعتقاد أنَّها لم تحتوِ على عدد الوفيات كاملاً، وإنْ احتوت أعداداً ألفيَّة، ذلك أنَّه لـمَّا كانت المدينة على هذه الحال من الارتباك، ولـمَّا كانت عربات الموتى تعمل ليلاً، بدا مِن المُتعسِّر القيام بأي توثيق لأعداد الموتى في بعض الأمكنة. لكنَّهم مضوا في عملهم، في غياب كَتَبَة العدل والقندلفتيَّة لمُدةِ أسابيع، ودون معرفةٍ بعدد الموتى الذين يقومون بنقلهم، ويعتمد هذا الكتاب على قوائم الوفيات التالية:

قائمة الوفيات من 8 آب إلى 10 تشرين أول

بسبب الطاعون	بسبب الأمراض الأخرى	التاريخ من	إلى
3880	5319		15 آب
4237	5568	8 آب	22 آب
6102	7496		29 آب
6988	8252		5 أيلول
6544	7690		12 أيلول
		29 آب	19 أيلول
7165	8297		19 أيلول
5533	6460		26 أيلول
4929	5720		3 تشرين الأول
		26 أيلول	
4227	5068		10 تشرين الأول

المجموع	59870	49605

الجدول السادس

وهكذا، فإنَّ غالبَ مَنْ مات مِنْ أَهل المدينة ماتَ في غضون هذين الشهرين، ذلك أنَّ الإحصائيَّة الكُليَّة لمن قضى بالطَّاعون هي ثمان وستون ألف (68.000) وفاة، وقدْ كان لدينا خمسون ألف (50.000) وفاة، على الأقل، مِمَّن مات في غضون هذين الشهرين، أي النسبة الغالبة من مُجمل الوفيات على امتداد فترة الطَّاعون. وأقول: خمسون ألفاً (50.000)، لأنَّ العدد المنقوص منها هو مئتان وخمس وتسعون (295)، كما هو ظاهر في القائمة أعلاه، فإن ذلك يعني في حساب الوقت يومين منقوصين من الشهرين.

وعندما أقول إنَّ القيِّمين على الأبرشيَّة لم يُقدِّموا إحصاءً كاملاً، أو أنَّ ما قدموه غير ذي موثوقيَّة، فإنَّ من المُتعيِّن على أي أحد التفكير والتساؤل كيف يمكن للرجال العاملين أنْ يتحرَّوا الضبط في هذا الزمن الذي مَسَّتْ الناسَ فيه الضرَّاء على نحوٍ مُريعٍ، بل على المرء أنْ يتفطَّن إلى حقيقة أنَّ العديد منهم قد التقط العدوى، ولعلَّهم ماتوا أيان كانوا يُقدِّمون تقاريرهم؛ وأعني كَتبَة الأبرشيَّة بالإضافة إلى منْ هم أقل رتبةً مِن المستخدمين، ذلك أنَّ هؤلاء الرجال المساكين أهدفوا أنفسهم للمخاطر جميعها ولم يكونوا، في الوقت عينه، في منأى عن المُصاب الذي عَمَّ المدينة، ولاسيَّما إنْ كان صحيحاً أنَّ أبرشيَّة «**ستِبْني**» كان لديها مئة وستة عشر (116) من **القندلفتيَّة**، وحفَّاري القبور، فضلاً عن مُساعديهم، أيْ: حَمَلةِ الجُثث، وقارعي النواقيس، وسائقي العربات المُخصَّصة لنقل الجُثث.

وفي واقع الأمر، لم تكن طبيعة هذا العمل تُتيحُ لهم فُسحَة من الوقت لتسجيل تقديرٍ دقيقٍ عن الجُثث التي كانت تُكدَّس سوياً في ظلمة الليل وتُلقى في الحفرة؛ تلك الحفرة أو الخندق الذي لا يُمكن لأي رجلٍ الاقتراب منه دون أنْ يلِج دائرة الخطر الشديد. ولقدْ لاحظتُ غير مرَّة أنَّ الوفيات التي وقعت أسبوعياً في أبرشيَّة «**أولد غيت**»، و«**كريبل غيت**»، و«**وايت تشابل**»، و«**ستبني**» تراوحت، كما جاء في القوائم الرسميَّة، بين خمسمائة (500)، وستمائة (600)، وسبعمائة (700)، وثمانمائة (800) وفاة، أما إنْ نحن صدَّقنا رأيَ أولئك الذين عاشوا في المدينة طوال الوقت مثلي، فقد مات، في بعض

الأوقات ألفا شخص (2000) أسبوعياً في تلك الأبرشيَّات. ولقد رأيت ذلك موثّقاً بِيَد أحد الناس، الذي تفحَّص هذا الأمر تفحُّصاً صارماً بأقصى ما استطاع. وقد خرج بنتيجةٍ مُؤدَّاها أنَّه مات، مِن غير ريب، مئة ألف (100.000) إنسان بالطَّاعون في تلك السنة، في حين تقول القوائم الرسميَّة المُتعلقة بمن مات مطعوناً أنَّ عدد هؤلاء لا يتجاوز ثمانية وستين ألفاً وخمسمئة وتسعين (68.590). وإن سُمِحَ لي بأن أُدلي بدلوي فإني أعتقد بالأمر ذاته استناداً إلى ما رأيت بِأُمِّ عيني، وتناهى إلى سمعي من شهود عيان، أيْ أنني أعتقد مُتيقِّناً أنَّ مئة ألف (100.000) على الأقل قضوا بالطَّاعون، ولا يدخل في هذه الإحصائيَّة مَن مات بأمراض أخرى أو مَن هَلَكَ في الحقول والطُّرق العامَّة، أو الأماكن الخَفيَّة، أيْ في «المناطق الواقعة خارج التغطية»، كما كانت تدعى. وكان أولئك لا يُدرَجون في القوائم الرسميَّة مع أنَّهم، فعلياً، ينتمون إلى الجسم السُّكاني. ولقد كان معروفاً لدينا جميعاً أنَّ عدداً كبيراً من الكائنات البائسة التي أُصيبت بالطاعون، ومسَّها الجنون والكآبة بسبب المأساة التي حلَّت بها، وهو أمر شائع في ذلك الوقت، يتيه في الحقول والغابات، وداخل الأمكنة الشعواء في أي مكانٍ تقريباً، ليتسلل إلى أي دغلٍ أو سياجٍ من الشجيرات ويموت هناك. وقد عَمَدَ سكان القرى المجاورة، بدافع الشفقة، إلى حمل الطعام إليهم ووضعه ضمن مسافةٍ آمنة؛ آملين أنْ يتمكن هؤلاء المساكين من الحركة وجلبه إنْ استطاعوا، وهو أمرٌ لم يكونوا قادرين على القيام به أحياناً. وحين يعود مَنْ وضع الطعام في المرة التالية كان يجد أولئك المساكين وقد لفظوا أنفاسهم دون أنْ يمسُّوا الطعام. كان عدد هذه الكائنات الشقيَّة كبيراً، وأنا نفسي أعرف العديد مِمَّنْ مات هذه الميتة، وأعرفُ بالضبط المكان الذي لفظوا فيه أنفاسهم، إلى درجة أنَّني أستطيع أنْ أذهب إلى المكان عينه ونبش عظامهم. أمَّا أهل الريف، فقد كانوا يلجأون، في هذه الحالة، إلى حفر حُفرة على مبعدةٍ من جثث من قضى من أولئك البؤساء، ثم إحضار أعمدة طويلة، وشبكها بأطراف الجثث وسحبها نحو الحُفر وحثو التراب عليها من مسافةٍ بعيدةٍ على قدر ما يستطيعون. آخذين في عين الاعتبار اتجاه الرياح، بحيث يأتون من الجانب الذي يدعوه البحَّارة «مهبَّ الرياح»؛ كيْ يتحاشوا روائح الجثث.

مهما يكُن مِن أمر، فإنَّ أعداداً غفيرة من الناس غادرت هذا العالم دون أنْ يُعلَم عنها أي شيء، أو دون أنْ يُدرَجوا في سجل الموتى، سواء في قوائم الوَفَيات الرسميَّة أو سواها. وقد استَقيتُ هذا من القصص التي حدَّثني بها الآخرون، ذلك أنَّني قلَّما سرتُ بعيداً في الحقول، ما خلا السير في مراعي «**بيثنال غرين**» و«**هاكني**» أو غيرها، كما سأروي ذلك لاحقاً. ولكنْ، حين كنتُ أسيرُ هناك كنت أرى، مِن بعيدٍ وبصفةٍ دائمةٍ، عدداً كبيراً مِن البؤساء الهائمين في الحقول، لكنِّي لم أعرِف عن حالاتِهم سوى النَّزر اليسير، فقد كانتِ

القاعدة العامَّة: إنْ رأيتَ أحدهم قادماَ، في الشارع كما في الحقول، انْأ بنفسك عنه. ومع ذلك فإنَّي أعتقدُ أنَّ هذه الرواية، عن حال الهائمين في الأرياف، صحيحةٌ على نحوٍ دقيق.

وإذْ جرَّني ذلك إلى الحديث عن مسيري في الشوارع والحقول، فإنَّي لا أستطيع أنْ أغفل التأشير إلى ما تبدَّت عليه المدينة من مكانٍ مُقفر وموحش في ذلك الوقت، فهذا الشارع الشهير الذي عشتُ فيه (المعروف أنَّه أعرض الشوارع في لندن، أعني في الضواحي وفي المُتصرِّفيَّات الأخرى) حيث بدا الجانب الذي يقطن فيه الجزَّارون، ولاسيَّما الكائن وراء الحانات، حقلاً أخضر لا شارعاً مرصوفاً. وكان مِن عادة الناس، عامَّةً، أنْ يسيروا في وسط الشارع رفقة العربات والأحصنة. ومِن الصحيح أنَّ نهاية الشارع المُمتدَّ باتجاه كنيسة «**وايت تشابل**» لم يكُن مرصوفاً بالكامل، لكنْ حتى الجزء المرصوف منه كان يكسوه العُشب أيضاً. ولا ينبغي أن يكون ذلك مُستغرَباً، ذلك أنَّ العشب كان ينمو في عدة أماكن في الشوارع الشهيرة داخل المدينة، مثل شارع «**ليدن هول**»، وشارع «**بشوبس غيت**»، و«**كورن هِل**»، بل حتى شارع «**إِكس تشانج**» (شارع المركز التجاري). وليس هذا فحسب، وإنما لم تكُن ترى عربةً صغيرةً أو كبيرةً من الصبح حتى المساء، ما عدا بعض العربات القادمة من الرِّيف التي تجلب إلى سوق المدينة الخضراوات الجذريَّة «الجزر»، والفاصولياء أو البازِلَّاء، والتبن، والقشّ. ولا يُقاس عدد هذه العربات إلى العربات التي كانت تذرع الشارع في الأحوال العاديَّة. أما العربات ذوات الأربعة دواليب، فلم تكُن تُستخدم إلا نادراً في نقل المرضى إلى مشفى الموبوئين أو غيره من المُستشفيات، واستُخدِم بعضها الآخر لحمل الأطباء إلى تلك الأماكن التي رأوا أنَّ من المُلائم زيارة مَن فيها من المرضى. وتعود قلَّة استخدام الناس لهذا النوع من العربات لكونها خطِرَة، وقد حرص الناس على عدم ركوب المُغامرة واستخدامها، إِذْ إنَّهم لا يدرون مَنْ حُمِل بها مؤخَّراً. فقد كان المرضى الحاملون للعدوى، كما قُلت، يُنقَلون بها، عادةً، إلى مشافي الموبوئين، وبعضُ هؤلاء يموتون فيها قبل بلوغهم مَقصِدَهم.

من الصحيح أنَّه حين بلغت العدوى ارتفاعاً هائلاً، مثلما ذكرتُ منذ قليل، عزف الكثير من الأطباء عن الخروج لزيارة المرضى في بيوتهم، فضلاً عنْ أنَّ الكثير من زملائهم قد ماتوا بالطاعون رفقة الجرَّاحين. فقد شهد ذلك الوقت أياماً مُريعةً بحقٍّ. وإذا ما نحَّينا ما ورد في قوائم الوفيات الرسميَّة، فأعتقد أنه، ولمدة شهرٍ كاملٍ، مات ما لا يقلُّ عنْ ألفٍ وخمسمئةٍ (1500) أو ألفٍ وسبعمئةٍ (1700) يومياً، يوماً إثر يوم.

وتبدَّى الأول مِنْ أيلول، فيما أعتقدُ، واحداً مِنْ أسوأ الأيام التي عشناها، وذلك عندما بدأ الناس الصالحون يعتقدون فعلاً أنَّ الربَّ عازمٌ على إفناء الناس في هذه المدينة البائسة. وتوافق ذلك مع حلول الوباء وتفشِّيه في الأبرشيَّات الشرقية؛ إذ دفنَتْ أبرشيَّة «أولد غيت»، إنْ جاز لي أنْ أعطي رأيي، ما يزيد على ألف (1000) جثَّةٍ أسبوعياً، لمدة أسبوعين، على الرغم منْ أنَّ القوائم الرسميَّة لم تأت على ذكر هذا العدد.

وهالني أنَّي كنتُ مُحاطاً بالوباء على نحوٍ مريع، فقد كان هناك بيت واحد موبوء مِنْ كل عشرين بيتاً في أبرشيَّة «**مينوريس**»، و«**هاندستش**»، وفي تلك الأجزاء من أبرشيَّة «**أولدْ غيت**» المحيطة بـ «**بوتشدرو**» (منطقة المسالخ)، كما في الأزقَّة على الجانب الآخر مِن منزلي. أقولُ: إنَّ الموت خيَّم على كل ركنٍ منْ أركان هذه الأمكنة. وكانت هذه حال أبرشيَّة «**وايت تشابل**» أيضاً. وعلى الرغم من أن معدَّل الوفيات فيها أقل من الأبرشيَّة التي كنت أعيش فيها، فإنها دفنت ستَّمئةٍ (600) شخص أسبوعياً بحسب القوائم الرسميَّة، وضِعفَ هذا العدد، فيما أحسب؛ فقد انْمحتْ عوائلُ بأكملها، بل أحياء بأكملها في وقتٍ واحد، إلى درجة أنَّ مِن المعتاد أنْ ينادي الجيران قارع الناقوس، ليطلبوا منه أنْ يذهب إلى منازل بأعيانها لإخراج مَنْ فيها، ذلك أنهم هلكوا جميعاً. وقد غدت عمليةُ إزالة الجثث عملاً بغيضاً وخطيراً بحقٍّ، إلى درجة أنَّ الناس اشتكوا مِن انصراف الحانوتيَّة عنْ إخلاء المنازل التي مات سكانُّها أجمعون، وأنَّ الجُثث تبقى مُلقاةً عدَّةَ أيام حتى تتعفَّن، وتُعاني العوائل المجاورة من رائحتها المنتنة في مُبتدأ الأمر، ثم يتسبَّب ذلك لها بالعدوى. ولمَّا كان الأمر على هذه الحال منْ إهمال عُمَّال الأبرشيَّة، فقد استُدعي وُكلاء الكنيسة والشرطة لتولِّي الأمر، حتى إنَّ قُضاة الصلح في الضواحي ألفوا أنفسهم مُجبرين على المغامرة بأنفسهم والانخراط في صفوفهم لتحفيزهم وحثِّهم على العمل، ذلك أنَّ عدداً لا حصر له من الحانوتيَّة قضى بسبب عدوى التقطوها من الجُثث التي كانوا مُجبرين على الاقتراب منها. ولولا أنَّ عدد الفقراء من الناس الذين يحتاجون للعمل وكسب قوتهم (كما أسلفت) كان كبيراً، وأنَّ الحاجة دفعتهم للقيام بأي شيءٍ واقتحام أي شيء، لما وُجِدَ مَنْ تستخدمه المدينةُ في هذا الضرب من الأعمال، ولَبَقيت الجثث مُمَدَّدة فوق الأرض، ولتحلَّلت وتعفَّنت على نحو مُريع.

لكنَّ ذلك لم يكن بفضل القُضاة تماماً؛ أعني الحفاظ على نظام صارم في دفن الموتى، واستبدال مَنْ عُيِّن لنقل الموتى ودفنهم حالما يلتقطُ هذا الأخيرُ العدوى ويموت، كما حصل مراراً وتكراراً. إذْ لما كان عددُ المعوزين الذين فقدوا أعمالَهم كبيراً، سَهُلَ على القُضاة استعمالُ الأُجَراء في هذه المهمة. وهكذا، على الرغم مِن الأعداد الهائلة لِـمَن مرضوا وماتوا، في وقت واحد تقريباً، فإنَّ العمل على إخراج جُثثهم ونقلها، كانَ على قدمٍ وساق. ومِن هنا،

لم يكنْ مِن الممكن القول مُطلقاً إنَّ أحياءَ لندن لم يكونوا قادرين على دفن موتاهم.

ولـَمَّا تعاظم الخرابُ في تلك الأوقات العصيبة، تعاظَمَ معه ذهولُ الناس ودهشتهم، وكان مِن شأنهم أنْ يقوموا بآلاف الأفعال غير المسؤولة في حُمَّى الفزع الذي ألمَّ بهم، مثلما فعل آخرونَ الأشياءَ ذاتها بأثَرٍ مِنْ عذابات الطاعون المبرحة، وقد كان هذا الجانب من المشهد مُؤثِّراً جداً. فكان بعضُهم ينخرطُ في جُؤارٍ وصُراخ شديدين ويعتصرونَ أيديهم طوال سَيْرهم على الطريق، في حين تلجأ طائفةٌ ثالثة إلى الدعاء رافعينَ أيديهم إلى السماء، سائلين الله رحمته.

وفي واقع الأمر، لا أستطيع أنْ أقول إنَّ تضرَّعهم إلى الله لم يأتِ بأثرٍ ممَّا مَسَّهم مِن ذهول واضطراب. ولكنْ، حتى لو صحَّ ذلك، فإنَّه يظلُّ دليلاً على رَجاحَة عقلهم لدى استعمالهم مداركهم، وكان أفضل بكثير، حتى بهيئته التي كان عليها، من الصراخ والعويل المفزعين اللذين كانا يُسمَعان كل يوم، ولاسيَّما عند الأماسي، في بعض الشوارع. وأفترضُ أنَّ العالم قد سمع بـ «**سليمان إكُلْزْ**»[23] الشهير، الذي عُرِف بسلوكه الطائش. فعلى الرغم مِن أنَّ المرض لم يَمسَّه إلا في رأسه، فإنَّه راح يطوف في الأرجاء، شاجباً حُكم الله في المدينة بطريقةٍ كريهة، وكان يفعل ذلك، أحياناً، وهو عارٍ تماماً، جاعِلاً على رأسِهِ مِقْلاةً مَملوءَةً بالفحم المشتعل. أمَّا ما كان يقولُه أو يَدَّعيه فليس بمقدوري أنْ أُردِّدَه مِن جديد.

لنْ أُعْنى بالقول إنْ كان هذا القسُّ ذاهلاً عن نفسه أم لا، أو إذا ما كان فَعَلَ ذلك اهتماماً وعطفاً على حال المساكين؛ ذلك الشخص الذي دأب على التجوال، كل مساء، عبر شوارع «**وايت تشابل**»، رافعاً يديه نحو السماء، ومُردِّداً ذلك الجزء من القدَّاس الكنسي مِراراً وتكراراً: «نجِّنا يا ربُّ، أيها الرَّبُّ الرحيم نَجِّ شعبَك الذي افتديتَه بدمك الكريم». أُقرُّ بأنِّي لا أستطيع أنْ أتحدَّث، على نحوٍ يَقيني، حيال هذه الأشياء، ذلك أنَّ هذه الأمور تبدَّت أمامي وأنا أنظرُ عبر نوافذ غرفتي (فقلَّما كنت أفتحُ النوافذ البابيَّة) في الفترة التي أغلقتُ فيها على نفسي الأبواب إبَّان استشراء الوباء وتَفشِّيه كما لم يَتَفَشَّ مِن قبل؛ في ذلك الحين عندما بدأ العديد من الناس، فعلاً، وكما أسلفتُ، يفكِّر أو حتى يصرح بأنْ لا مفر. وقد بدأتُ أنا أيضاً أعتقد بذلك؛ ما جعلني أحجُر نفسي داخل المنزل لنحو أسبوعين، ولم أُغامِرْ بمغادرته. لكنْ، لم أستطع أنْ أمضي في ذلك، فضلاً عن وجود بعض الأشخاص الذين لم يتخلَّوا، رغم الخطر المحيق، عن حضور القداديس في أخطر الأوقات.

ومن الصحيح أنَّ عدداَ كبيراَ من رجال الدين قد أغلقوا كنائسهم وفَرُّوا بأنفسهم الى الريف، مثلَ غيرهم من الناس، طلباً للنجاة، لكنَّ هذا لا يصحُّ على الناس جميعهم. وقد غامر بعض هؤلاء في ترؤُّس القداديس وإقامة الصلوات، وحتى إعطاء المواعظ والنصائح القصيرة التي تحضُّ على التوبة وإصلاح النفس، وذلك مادام هنالك أناس يقصدون الكنيسة. وقد فعلت الطوائف الأخرى الشيء ذاته، بل فعلوا ذلك في الكنائس الكاثوليكية ذاتها؛ في الأبرشيَّات التي فرَّ منها القُسُس أو قَضوا بالطاعون. فالوقت لا يسمح بروح الفُرقة والخلاف.

ولَشدَّ ما كان أمراً مُحزناً أنْ تسمع الأنواح المشجية للمساكين وهم يُحْتَضرون، يستصرخون القُسُس لمواساتهم والدعاء لهم، ونصحهم وهدايتهم، سائلين الرَّب العفو والرحمة، ومعترفين بصوت مرتفع بما قارفوه مِن خَطايا قديمة. وكان مِن شأن أكثر القلوب قوَّة أنْ تتفطَّر لدى سماع الدعوات العديدة التي يوجِّهها التائبون المحتضرون إلى الآخرين مُحذِّرينَ أنْ إياكم أنْ تُرجئوا توبتكم إلى أنْ يحلَّ زمن البلاء. ذلك ألا وقت للتوبة في زمن البلاء القاتل هذا، ولا وقت للتضرُّع إلى الله. ويا ليتني أقدر على ترجيع صوت تلك الآهاتِ والصرخات التي طرقَتْ مسامعي مِن بعض المخلوقات المسكينة المُحْتَضرة التي كانت في حُمَّى آلامها والبلاء. ليتني أستطيع أنْ أسمعَ القارئ صوتَهم كما أتخيَّلُه الآنَ نافذاً إلى مسمعي، ذلك أنَّه مايزال، كما يبدو، يَقرعُ أذني. وإنْ استطعت أنْ أروي هذا الجزء بنبرةٍ حيّةٍ، بصورة تهزُّ أعماق القارئ، فسأكونُ فَرحاً أنَّي دوَّنت هذه الأحداث، حتى لو كانت روايتي مُبْتَسَرة ومَنقوصة.

وإنَّي لأَحمدُ الله أنَّي مازلت بمنجاةٍ من المرض، ومازلتُ مُفعماً بالحياة ومُعافى. لكنَّ صبري بدأ يفرغ مِن الحَجْر والبقاء بين الجدران دون هواء. فقد مضى عليَّ في مُنْعَزَلي أربعة عشر يوماً أو نحوها. ولم أستطع كبحَ جماح نفسي، والذهاب إلى مكتب البريد حاملاً رسالة لأخي. وحينها، لمستُ، فعلاً، الصمتَ العميق الذي يخيِّم على الشوارع. وحالما وصلت إلى مكتب البريد، وتوجَّهتُ لوضع رسالتي هناك، رأيتُ رجلاً يقف في أحد أركان الساحة مُتحدِّثاً إلى آخر عند أحد النوافذ. وكان هناك رجلٌ ثالث فتح باباً من أبواب مكتب البريد. وقد وُجِدَتْ، في وسط السَّاحة، محفظة جلديَّة تحوي مالاً، ويتدلَّى منها مفتاحان، لكنَّ أحداً لم يُعنَ بلمسها. واستفهمتُ:

كم من الوقت مرَّ على وجودها هناك؟ فأجاب الرجل الذي كان يطلُّ من النافذة:

- مضى عليها نحوٌ من الساعة، لكنَّهم لم يلمسوها، فهم لا يدرون، فلعلّ مَنْ أسقطها عاد للبحث عنها.

لم يكن يعوزني المال، ولم يكن المبلغ كبيراً فيغريني باقتحام الأمر، أو المجازفة بأخذ المال مع احتمال حضور صاحبه. وهكذا، بدا لي أنْ أبتعد حين قال الرجل الذي فتح الباب إنَّه سيأخذها، فإنْ ظهر المالك الحقيقي حصل عليها على نحوٍ أكيد. وهكذا، فإنَّه دخل إلى المكتب، وأحضر سَطلاً، ووضعه بجوار المحفظة، وما لبث أنْ ذَهب مرَّة ثانية وأحضر معه بعض البارود، وسكب قدراً كبيراً من مسحوق البارود على المحفظة، ثم صنع منه قطاراً بلغ طوله نحواً من ياردتين، ثم دخل المكتب من جديد وعاد بملقطين قام بتسخينهما لهذه الغاية، فيما أعتقد، حتى احمرَّا. وأشعل النار، بداية، بقطار البارود الذي سفع المحفظة، وطهَّرت المكان بما انبعث منها من دخان على نحوٍ كاف. لكنه لم يكن قانعاً بذلك، فالتقط المحفظة بالملقطين وظلّ ممسكاً بها حتى نفذ الملقطان، بفعل الاحتراق، إلى المحفظة، فقام، حينها، بنفض ما فيها من نقود وأسقطها داخل سطل الماء وحمله بعد ذلك. وكان حاصل النقود، كما أذكر، نحو ثلاثة عشر شلناً، وبعض قطع «**الجروت**» (بنسات فضية)، وبعض قطع «**الفارذينغ**» (قطعة نقدية نحاسيَّة تساوي ربع البنس).

مِن الممكن أنْ يكون هناك العديد مِن أرقَّاء الحال، كما أشرتُ أعلاه، مِمَّنْ أهدَفوا أنفُسَهم للمخاطر طلباً للمال. ولكنك قد تلمس بِيُسْرٍ، مثلما أسلفتُ أيضاً، أنَّ العدد القليل من الناس الذين نجوا كانوا حذرين في ذلك الوقت الذي فشا فيه الوباء.

وقد خرجت، في الوقت عينه تقريباً، إلى الحقول باتجاه «**باو**»، تحدوني رغبة شديدة في معرفة كيف تُدار الأمور في النهر والسفن. ولما كان لديَّ اهتمام بالملاحة فقد تكوَّن لديَّ رأي بأنَّ أفضل الطرائق لإبقاء المرء سليماً من العدوى أنْ يلجأ إلى سفينة. وإذْ كنت أتفكَّر كيف أُرضي فضولي في هذا الشأن، فإنَّي انعطفت عبر الحقول من «**باو**» إلى «**بروملي**» نزولاً إلى «**بلاك وول**» باتجاه الرصيف المخصَّص للرسو أو جلب الماء.

ولقد رأيت، هنا، رجلاً مسكيناً يمشي وحيداً على رصيف النهر أو الجدار البحري كما كانوا يدعونه. ولقد طفْت أنا الآخر في الأنحاء لبعض الوقت، ورأيت أنَّ المنازل جميعها مغلقة. وفي آخر الأمر، خضتُ في بعض الحديث عن بُعدٍ مع الرجل المسكين، وسألته كيف يصنع الناس هنا في الجوار، فأجاب:

لشديد الأسف، يا سيدي، ليس إلا الخراب الذي يكاد يكون كاملاً؛ الناس موتى أو مرضى. فغالب العوائل في هذا الجزء، أو في تلك القرية (مُشيراً إلى «**بوبلار**»)، إمَّا أنْ يكون نصفهم قد مات، وإمَّا أنْ يكون مَن تبقَّى مُصاباً بالطاعون. ثم قال وهو يشير إلى أحد المنازل: لقد مات كلُّ مَن في ذلك المنزل، وظلَّ المنزل مفتوحاً على حاله دون أنْ يجرؤ أحد على الدخول إليه، ما خلا لصاً مسكيناً غامر بدخوله لسرقة شيء ما، فدفع الغالي والنفيس لقاء سرقته؛ فقد نُقِل إلى مقبرة الكنيسة في الليلة الماضية.

ثم أشار مُحدِّثي إلى عدة بيوت أخرى، قائلاً:

- هناك، مات أفراد العائلة جميعهم؛ الرجل وزوجته رِفْقة أطفالهم الخمسة. أما في ذلك المكان، فقد حُجر على أصحاب المنزل، وهناك حارس، كما ترى، على الباب. وكذا الأمر بالنسبة إلى المنازل الأخرى.

- فقلت له حينها:

وما تفعل هنا وحيداً؟

- أنا رجل مسكين وبائس؛ أجاب بذلك، وأردف: الشكر لله أنَّي نجوت من العدوى، لكنَّ الوباء ألمَّ بعائلتي، وقد مات أحد أطفالي بالطاعون.

- فسألته حينها:

- ماذا تعني، إذن، بأنَّك لم تُصب بالمرض؟ فقال:

- تسألني كيف ذاك، حسناً، ما العجب في ذلك؟! ذلكم هو منزلي (وأشار إلى منزلٍ صغيرٍ منخفض)، وفيه تعيش زوجتي رفقةَ طفلي، هذا إنْ جاز أنْ نقول يعيشون، ذلك أنَّ زوجتي وواحداً من أطفالي مُصابان بالمرض، لكنَّني لا أذهب إليهم.

- قال العبارة الأخيرة وقد فاضت عيناه بالدمع، والحَقَّ أقول، إنَّ ذلك استدرَّ الدمع مِنْ عَيني أيضاً. لكنِّي عدتُ لأقول:

- ولم لا تأتيهم؟ كيف لك أنْ تهجر فَلذاتِ كبِدِك؟

- آهٍ يا سيِّدي، قال ثمَّ عَقَّب: مَعاذ الله، لمْ أَهجُرْهم بل أعمل لأجلهم ما استطعت، وأشكر الله أنَّني جنَّبْتُهم الحاجة إلى أي شيء.

وقد لاحظتُ، لدى تَلفُّظه بذلك، أنَّه شَخَصَ بعينيه نحو السماء، وقد أنبأني وجهُه، في الحال، أنَّني وقعتُ على رجلٍ لم يكنْ مُنافقاً، وإنَّما رجلٌ وقور، وتقيٌّ، وصالح. وكان صراخُه تعبيراً عن الشكر لله. فعلى الرغم ممَّا كان فيه مِنْ حالٍ، فقَدْ آلى على نفسه أنْ يقولَ إنَّ عائلته لا تحتاجُ شيئاً. قلتُ له:

- حسناً أيها الرجل الصادق، يا لها مِن رحمةٍ عظيمة أنْ تسير الأمور على ما يُوافق حالَ الفقراء. ولكنْ، كيف تسيِّر أمورك، وكيف اتَّقيت المصيبة المريعة التي نزلت بنا جميعاً؟ فأجاب:

- تسألني كيف أتدبَّر أمري، وأقولُ لك إنِّي نوتِيٌّ، وذاك قاربي، أعمل به نهاراً، وأبيتُ فيه ليلاً، وأضعُ ما أجْنيه على ذلك الحجر.

- قالَ ذلك، وأراني حجراً عريضاً على الجانب الآخر من الشارع، يبعُد عن منزله مسافة لا بأس بها. ومضى يقول:

- ثُمَّ أصيحُ مُنادياً عليهم حتى يسمعوني، فيأتون حينها ويأخذون ما وضعتُه لهم. قُلتُ:

- هذا حَسنٌ يا صديقي، لكنِّي أسألك كيف يمكنك أنْ تتحصَّل على المال مِن هذه المهنة؟ هل يُسافر أي مِن الناس عبر المياه في هذه الأوقات؟

- أجلْ يا سيِّدي، ثمة أناسٌ كُثر حيث أعمل. انظر هناك، هل ترى السفن الخَمس عند المرسى (كان يشيرُ إلى النهر بعيداً في أسفل المدينة). وتابع يقول: وهل ترى تلك السفن الثماني أو العشر الراسيات هناك (مُشيراً إلى أعلى المدينة)، ثمة عوائل على متن تلك السفن جميعها. عوائل تعود لتجَّار السفن، ومالكيها، وما إلى ذلك. وقد أغلقوا على أنفسهم هناك، وعاشوا محبوسين فيها خشيةً من الوباء. وقد تولَّيت شؤونهم، مثل إحضار الأشياء لهم، وحمل الرسائل، والقيام بما هو ضروريٌّ ومُلِحٌّ، فلا يضطرُّون، إذَّاك، إلى القدوم نحو الشاطئ. وكنتُ أعمدُ، في كل ليلة، إلى ربط قاربي بواحدٍ مِن زوارق السفن، وأنامُ وحيداً هناك. ولله الشكرُ والمنَّة، فأنا مُعافى حتى اللحظة. قُلتُ:

- حسناً يا صديقي، ولكنْ، هل يأذنون لك بالصعود إلى متن السفينة بعد إذْ كُنتَ هنا على الشاطئ؛ هذا المكان المريع والموبوء تماماً...؟!

- بالنسبة إلى هذا الأمر، فإني لا أصعدُ إلى حوض السفينة إلا ما ندر، وإنما أوصلُ ما أحضره إلى قاربهم، أو أنزِل إليه وأضعُ الأشياء ليرفعوها بدورهم إلى السفينة. وإنْ أنا صعِدتُ إلى متن السفينة، فلا خطرَ منِّي عليهم، فيما أحسب، ذلك أنَّي لمْ أدخِلْ بيتاً مِن البيوت القائمة عند الشاطئ، ولم ألـمَسْ مخلوقاً مُطلقاً، ولا أحداً مِن أفراد عائلتي، وإنَّما كنتُ أجلبُ لهم المؤن فقط. قلت:

- بل قد يكون ذلك أسوأ، فلا بُدَّ أنَّك جلبتَ تلكَ المؤن مِن شخص أو آخر، ولـمَّا كان هذا الجزء مِن البلدة موبوءاً بالكامل، فَمِن المجازفة مُخالطة أي إنسان، ذلك أنَّ القرية تقع في أوَّل المدينة، إنْ جاز القول، وإنْ كانت بعيدةً عنها بصورة ما، فعقَّب قائلاً:

- هذا صحيح، لكنَّك لا تفهمُني على نحو صحيح، فأنا لا أبتاعُ لهم المؤن مِن هذا المكان، بل أجدِّف بقاربي إلى «**غرينيتش**»، وأشتري اللحوم الطازجة مِن هناك، وأعمدُ، أحياناً، إلى التجديف في النهر نُزولاً باتجاه «**وولويتش**» وأشتري مِن هناك، ثم أذهبُ إلى المزارع المنعزلة في مُحيط «**كينيتش**»؛ حيثُ يعرفني الناس هناك، فأشتري الدجاج والبيْض والزُّبْد وأحضرُ منها إلى السفينة ما يُطلبُ مني في كل فترة، وقلَّما آتي إلى الشاطئ هنا. وقد أتيتُ الآن لأنادي على زوجتي، وأسمع أخبار عائلتي، وكيْ أعطيهم قليلاً مِن المال الذي تَحَصَّلْتُ عليه في الليلة الفائتة.

- يا لبؤْس حالك...!! قُلتُ، ثم أردفت: وكم المبلغ الذي تحصَّلت عليه لأجلهم؟ فردَّ بالقول:

- لقد تحصَّلت على أربع شلنات، وهو مبلغ كبير بالنسبة إلى حال الفقراء في هذا الوقت العصيب. وقد أعطوني كيسَ خُبز كذلك، وسَمَكَةً مُمَلَّحَةً وبَعضَ اللحم، ويمثِّل ذلك كله عوناً كبيراً. قلتُ:

- حسناً، وقد أرسلت بهذه الأشياء إلى عائلتك؟

- لا، ليس بعد، أجاب الرجل، ثم تابع: لكنِّي ناديتُ عليهم، وقد أجابت زوجتي أنَّها لا تستطيع الخروج الآن، وتأملُ أنْ تتمكَّن مِن ذلك في غضون نصف ساعة. يا لبؤْس هذه المرأة...!! لقد أثقلَت هذه الحالُ قلبَها بالحزن. لقد ظهر في جسمها دُمَّلٌ وانْفجر، وأرجو أنْ تبرأ مِن مرضها، لكنِّي أخشى أنْ يموتَ الطفل، غيرَ أنَّه حكمُ الله.

- قال ذلك، وبكى بُكاءً مُراً. قلتُ:

حسناً يا صديقي الفاضل، لديك مُواسٍ حقيقيٌّ، فإذا كنت قد أسلمْتَ نفسَك لإرادة الله، فإنَّه يعامِلنا جميعاً بقضائه الحكيم.

- آه يا سيِّدي، أنْ ينجو واحدٌ منَّا فهذه رحمةٌ لا تُحدُّ، ومَنْ أنا لِأَتَسَخَّط...؟! فقلت له، إذَّاك:

- تُبْتلى وتقول ذلك؟ ما أعمقَ إيمانك وما أضعفَ إيماني...!!

- في تلك اللحظة ضربني قلبي، وأنَّبني مُستشعراً الأساسَ القوي الذي يقوم عليه إيمانُ هذا الرجل المسكين بحيث بقي في قلب الخطر؛ إيمانٌ أيْنَ منهُ إيماني الضعيف، فلا ملجأ يذهب إليه، ولديه عائلة بقي مُلتزماً وحريصاً على رعايتها، في حين لا أملكُ عائلةً. أمَّا إيماني ومُصابرتي، فمظنونان، فضلاً عن أنَّ اتكالَه وجسارَته مَوكولان إلى الله، ومع ذلك فقد أخذ بكل الأسباب الممكنة مِن أجل سلامته.

وإذْ تملَّكتْني هذه الأفكار، فقد نأيتُ بنفسي قليلاً عن الرجل. ففي واقع الحال، لم أستطع حبس دموعي والانخراط، مثله، في البكاء.

وفي آخر الأمر، وبعدَ أنْ تحدثنا لبعض الوقت، فتحت المرأة المسكينة الباب ونادت: روبرت، روبرت، فأجابها الأخير وطلب منها البقاء بضعةَ دقائق حتى يُوافيها. وهكذا، فقد نزل الدرج المفضي إلى قاربه، وأحضرَ الحقيبة التي جعلَ فيها المؤن التي جلبها من السُّفن، ثم نادى بأعلى صوته كرَّة أخرى، وما لبث أنْ اتجه إلى الصخرة الكبيرة التي أشَّر لي عليها، وأفرغ الحقيبة هناك واضعاً كل شيء على حِدَة، ثم قفل عائداً قبل أنْ تأتي امرأته رفقة صبيٍّ صغير لجلب الأغراض. وكان ينادي، ويقول: الشيء الفُلاني بعث به الكابتن العلَّاني، أما ذاك الشيء، فقد أرسله الكابتن الفلاني. ويضيف أخيراً: وكلها عطايا الرب، فاشكريه على نعمائه. وقد أخذت المرأة المسكينة الأغراض جميعها، لكنَّها كانت أضعف مِن أنْ تحملها مرَّة واحدة، على الرغم مِن أنَّ وزن الأغراض لم يكن ثقيلاً. ولهذا، فإنَّها تركت البسكويت الذي كان في حقيبة صغيرة، وأبقت الصبيَّ هناك ليحرس هذه الأخيرة ريثما تعود وتأتي بها.

قلت له حينها:

حسناً، ولكنْ، هل تركت الشلنات الأربعة التي قلت إنَّها أجرتك الأسبوعية؟

- أجلْ، أجلْ، ستسمعها وهي تقول إنَّها وجدتها وأخذتها.

- وهكذا فقد صاح مِن جديد:

ريتشِلْ، ريتشِلْ (الذي بدا أنَّه اسمها): هل التقطت الشلنات؟

- أجلْ، صاحت المرأة مُجيبة زوجها الذي عاد ليسأل:

- وكم عددها؟ أربعة شلنات وأربعة بنسات، فردَّ عليها:

- حسناً، حسناً، فليحفظكم الله جميعاً، واستدار ليذهب في سبيله.

ولـمَّا كنت عاجزاً عنْ حبس دموعي مُتأثراً بقصَّة هذا الرجل، ما كان بمقدوري أنْ أمنع نفسي مِن أنْ أمدَّ له يد المساعدة فناديته: «أَصغِ إلي، يا صديقي. لقد أتيت إلى هنا لأنَّي أعتقد أنَّك سليمٌ مُعافى، مما جرأني على الاختلاط بك».

وهكذا فقد انتشلت يدي التي كانت في جيبي، وأردفت قائلاً: لم لا تذهب وتنادي على زوجتك راتشيل مرَّة أخرى وتعطيها منِّي ما يُعينها **ويروِّح** عنها؛ فالربُّ لنْ يخذل عائلة أوكلت أمرها إليه كما فعلتم. وهكذا فقد أعطيته أربعة شلنات أخرى، وطلبت منه أنْ يذهب ويضعها على الحجر إياه، وينادي زوجته.

ولا أجدُ الكلمات التي تُعبِّر عن امتنان الرجل، ولم يكن بمقدوره هو، أيضاً، أنْ يعبر عنها فنابت عنه عبراته التي انحدرت على وجهه. وهكذا، فقد نادى على زوجته، قائلاً: لقد حرَّك الربُّ قلب أحد الغرباء، لدى سماعه بحالهم، ليمنحهم كل هذا المال، وزاد في مثل هذا الحديث زيادة كبيرة. وفعلت المرأة الشيء ذاته معلنة عن آيات الشكر للربِّ كما لي، ثم أخذت النقود وقد تملَّكها سرور عظيم. ولا أظنُّ أنَّني أنفقت مالاً طوال هذه السنة على نحوٍ أفضل مما فعلت الآن.

وسألتُ الرجل المسكين إثر ذلك، إنْ كان الوباء قد وصل «**غرينيتش**»؟ فقال:

لا، أقلُّها قبل أسبوعين مِن هذا التاريخ. بيد أنه كان وَجِلاً لاعتقاده أنَّ الوباء قد حلَّ هناك الآن. لكنَّ وجوده اقتصر على الطرف الجنوبي للمدينة، الممتد باتجاه جسر «**دِبْتفورد**»، وأضاف أنه لم يذهب إلا إلى البقال والجزار اللذيْن يبتاع منهما، عادة، الأشياء التي يبعثون به لإحضارها، لكنه ذكر أنَّه كان حذراً.

وقد سألته، إثر ذلك، كيف عمد هؤلاء الناس إلى حجر أنفسهم في السفن دون أنْ يضعوا فيها مؤونة كافيةً مِن كل ما هو ضروري، فقال:

إنَّ بعضهم فعل ذلك. ولكنَّ آخرين لـمَّا يأتوا إلى السفن إلا حين قادهم الفزع إلى هناك، وحين غدا مِن الخطر بالنسبة إليهم أنْ يقصدوا التجار بهدف تخزين الحاجيات. وأضاف أنَّه تكفَّل بحاجيات سفينتيْن، أشَّر لي إليهما، لأنَّهما لم تتجهَّزا إلا بالقليل أو بلا شيء سوى الخبز القاسي «**الكراديش**» والجعة، فاشترى لهما الأشياء جميعها تقريباً.

وعدت لأسأله إنْ كان ثمَّة سفن غير هاتين عزل أصحابُها أنفسَهم داخلها؟ فردَّ بالإيجاب، وأردف قائلاً:

ترسو، على طول النقطة المقابلة تماماً لـ «**غرينيتش**» وحتى المسافة ما بين رصيفَيْ «**لايْمْ هاوس**» و«**رِدْريف**» البحريَّين، كل السفن التي وجدت فسحة لترسو أزواجاً في عرض النهر، وبعض هذه السفن حملت على متنها عدَّة عائلات. ولم أقفْ عند هذا الحدِّ، وإنما سألته إنْ لم يصل الوباء إلى هذه السفن؟ فقال: إنَّه لا يعتقد ذلك ما خلا سفينتَيْن أو ثلاثاً ممَّا لم يكن أصحابُها، خلافاً لأصحاب السُّفن الأخرى، حريصين على منع الملاحين مِن الذهاب إلى الشاطئ. وأضاف: لَشَدَّ ما هو منظرٌ جميل أنْ ترى الكيفيَّة التي كانت ترسو بها السفن في صفوف متوازية...!!

ولمَّا قال إنَّه سيذهب إلى «**غرينيتش**» حالما يبدأ المدُّ بالظهور، سألته إنْ كان يسمح لي بمرافقته ثم العودة بي، فلديَّ رغبة كبيرة في رؤية السفائِن مصفوفة على النحو الذي أنبأني به. فردَّ بالإيجاب على شرط أنْ أؤكد له، بإيماني المسيحيِّ وبما لديَّ مِن أمانة، أنَّي لستُ حاملاً للطاعون. فأكَّدتُ له ذلك وأنَّ الربَّ مَنَّ عليَّ بحفظه، ذلك أنَّني عشتُ في «**وايت تشابل**»، لكنِّني لم أُطقْ البقاء داخل المنزل، وأنَّي غامرتُ في السَّير إلى مسافة معقولة لاستنشاق الهواء المنعش، لكنْ لم يُمَسَّ أحد مِن الذين سكنوا معي في المنزل.

- حسناً، سيِّدي، أجاب الرجل، لما حرَّكتك طيبَتُك للإشفاق عليَّ وعلى عائلتي الفقيرة، فمِن المؤكَّد أنَّه لنْ تنعدمَ لديك الرأفةُ فتضع نفسك في قاربي دون أنْ تكون سليماً مُعافى، وإلا فإنَّ في ذلك سيكون هلاكي وتحطيم عائلتي مِن بعدي.

- لقد أقلقني الرجلُ المسكين حينَ تحدَّث عَنْ عائلته بهذه الحساسية العالية والطريقة العاطفيَّة إلى درجةٍ جَعَلَتْني أتردَّد، لوهلةٍ، في الذهاب. لكنِّي عُدْتُ لأقول له، بأنَّي سأنَحِّي فُضولي جانباً عوض أنْ أتسبَّب له بالمتاعب، على الرغم مِن أنَّني مُتيقن، وشاكر للربِّ على ذلك، أنَّني لا أحملُ أثراً للطاعون

وأكثر صحَّة مِن أصحِّ رجلٍ في هذه المعمورة. لكنَّه ما كان يُريد لـي أنْ أتخلّف عنْ ذلك، ولكيْ يُظهر لـي ثقتَه بأمانتي وبما قلته له فقد حثَّني على مُرافقته. وهكذا، ما إن بدأ المدُّ يتصاعدُ حتى وصل إلى القارب وقفزتُ داخله وحملني إلى «**غرينيتش**». وبينما كان يشتري الأشياء التي كلف بجلبها لساكني السفن، فإنَّي صعِدتُ إلى أعلى نقطة في التلَّة التي تشرف على المدينة، وقصدت الجانب الشرقيَّ منها لأطلَّ على النهر. ولَشَدَّ ما كانت دَهْشَتي لدى رؤية هذا العدد مِن السفائن التي كانت ترسوا في صُفوفٍ مُتوازية، حيث تصطفُّ أزواجاً أزواجاً، في حين يصطف بعضها ثلاثاً ثلاثاً في عرض النهر. وليس هذا مقتصراً على المنطقة المائية التي تتخلَّل المدينة؛ أيْ بين المنازل التي ندعوها «**راتكليف**» و «**ردريف**»، ويدعونها بـ «**البركة**»، بل نزولاً إلى أسفل النهر بأكمله وصولاً إلى رأس الـ «**لونغ رِتش**» البعيد إلى درجة لا نستطيع رؤيته إلا مِن التلال.

لا أستطيع أنْ أُقدِّر عددَ السفن، لكنِّي أعتقدُ أنَّه لا بد أنْ تكون في عداد المئات، ولا يسعُني إلا أنْ أشيد بهذا الاختراع «**السفن**»، ذلك أنَّ عشرة آلاف أو يزيد، ممَّن عمل بالملاحة فضلاً عنْ عوائلهم، احتموا فيها، يقيناً، مِن بطش الطاعون وعاشوا في سلام وأمان.

عدت إلى مقامي راضياً أشدَّ الرضا عن رحلتي اليوميَّة ولاسيَّما برفقة ذلك الرجل المسكين. كما سرَّني سروراً عظيماً أنْ أرى هذه الملاذات الصغيرة التي وفِّرت للعديد مِن العائلات في هذا الوقت الذي عمَّه الخراب. وقَدْ لاحظت أنَّه مع ارتفاع غلواء الوباء، فإنَّ السفن المحملة بالعائلات حمَّلت مراسيها وأبحرت بعيداً، كما أخبرت، لترسو في الموانئ والممرات الآمنة على الساحل الشمالي بقدر ما أمكنها الوصول. ولكنْ، مِن الصحيح أيضاً أنَّ الناس الذين غادروا اليابسة للعيش على متن السفن لم يكونوا في مأمنٍ تامٍّ مِن العدوى، ذلك أنَّ العديد منهم قضى مَطعوناً وأُلقوا مِن السفن إلى البحر؛ بعضهُم بعد أنْ جرى تكفينه، في حين ألقي بعضٌ آخر، كما نقل إليَّ، مِن دون كفن؛ أولئك الذين شوهدت جثثهم تتمايل صُعوداً وهُبوطاً مع حركة المدِّ البحري. لكنِّي أعتقد أنَّه يمكنني أنْ أتجرَّأ على القول إنَّ هذه السفن الموبوءة قد لحق بها الوباء لأنَّ الناس قد لجأوا لها بعد فوات الأوان، ولم يسارعوا إلى السفينة، بل تباطأوا حتى أصيبوا بالطاعون (ربما دون أنْ يستشعروا ذلك). وعليه، فإنَّهم لم يلتقطوا العدوى وهم على متن السفينة، وإنما حملوها معهم مِن اليابسة. وهناك احتمال آخر، وهو أنَّ هذه السفن كانت مِن بين تلك السفن التي أخبر عنها النوتيُّ المسكين، وقال إنَّها لم تمتلك الوقت للتزوُّد بالمؤن، ما اضطرَّهم إلى إرسال بعض مَن فيها إلى الشواطئ، أو أنَّهم غامروا باستقدام

القوارب مِن الشواطئ لتحمل إليهم ما يحتاجون. وهكذا، فقد تسلّل إليهم الطاعون وهم لا يشعرون.

وهنا لا يسعني إلا أنْ أسجِّل مُلاحظة لأقول إنَّ المزاج الغريب لسكَّان لندن في ذلك الوقت أسهم إسهاماً كبيراً في تدميرهم. فقد بدأ الوباء، كما لاحظت، في الطرف الآخر من المدينة، أيْ في «**لونغ آكر**»، و«**دروري لين**»...إلخ. واتَّجه، مِن بعد ذلك، نحو المدينة بخطى وئيدة. وبدأ الناس يشعرون بوجوده في كانون الأول، ثم في شباط، وفي نيسان مِن جديد. ولكنْ دائماً بأعداد قليلة. وما لبث أنْ توقَّف الوباء حتى حلَّ آذار، غير أن الأعداد بقيت قليلةً حتى في الأسبوع الأخير منه، إذْ لم تتجاوز سبع عشرة إصابة. وكان ذلك كله في الحدِّ الطرفيِّ مِن المدينة، وكله يجري حتى تجاوز عدد الوفيات ثلاثة آلاف (3000) وفاة أسبوعياً، ومع ذلك فإنَّ الناس في «**ريد ريف**»، و«**وابِنْغْ**»، و«**راتكليف**» على ضفَّتَي النهر، بالإضافة إلى جُلِّ ضفة «**ساوث وورك**»، وَهِموا وَهْماً عظيماً حين اعتقدوا أنَّ الطاعون لنْ يحلَّ بديارهم، أو على أقلِّ تقدير لنْ يكون فاشياً وعنيفاً في أوساطهم. وقد توهَّم بعضُ الناس أنَّ رائحة القار والقطران، رفقة أشياء أخرى، مثل الزيت والراتينج الصنوبري، والكبريت؛ تلك المواد المتعلقة بصناعة السفن، ستحفظهم مِن الطاعون، في حين حاجَجَ آخرون أنَّه حينَ يبلغ الوباء ذروَته العنيفة في «**ويست مينستر**» و«**سانت جايلز**»، و«**سانت أندرو**»... إلخ، فإنَّه يبدأ بالانحسار لديهم، وقد كان ذلك صحيحاً بصورة ما. فعلى سبيل المثال:

القائمة الأسبوعية للوفيات للفترة (8–22) آب						
الأسبوع		الأبرشيّة	الوفيات	الأبرشيّة	الوفيات	المجموع الأسبوعي
من	إلى					
8 آب	15 آب	سانت جايلز إن ذي فيلز	242	ستبني	197	4030
		كريبل غيت	886	سانت ماغ. بيرموندسي	24	
				روذر هتش	3	
15 آب	22 آب	سانت جايلز إن ذي فيلز	175	ستبني	273	5319
		كربل غيت	847	سانت ماغ. بيرموندسي	36	
				روذر هتش	2	
(8–22) آب		المجموع الكلي				9349

الجدول السابع

ملحوظة:

مِن الملاحظ أنَّ الأرقام المذكورة المتعلقة بأبرشيَّة «**ستبني**» في ذلك الوقت تُشير، عامَّةً، إلى ذلك الجانب مِن «**ستبني**»، عند النقطة التي تتَّصل بها الأبرشيَّة المذكورة بـ «**شوردتش**»، وندعوها بـ«**سبتل فيلد**»، حيث تقترب مِن مقبرة كنيسة «**شوردتش**»، وأنَّ الطاعون قد انحسر في ذلك الوقت في «**سانت جايلز إنْ ذي فيلدْزْ**»، وفشا بشدَّة في أبرشيَّة «**كريبلْ غيت**»، و«**بِشوبْسْ غيت**»، و«**شوردتش**». ولكنَّنا لا نعثر حتى على عشرة وفيات أسبوعياً في كامل ذلك الجزء من أبرشيَّة «**ستبني**» الذي يشمل «**لايم هاوس**»، وطريق «**راتكليف**»، أيْ ما هو الآن أبرشيتا «**شادويل**» و«**وابِنْغْ**»، وصولاً إلى أبرشيَّة «**سانت كاثرين**» المجاورة لبرج لندن، وذلك حتى نهاية آب. غير أنَّ الناس هناك دفعوا ثمن غفلتهم لاحقاً، وهو ما سأتناوله تباعاً.

وقد جعل هذا الناس في: «**ريد ريف**»، و«**وابِنْغْ**»، و«**راتكليف**»، و«**لايم هاوس**»، أقول: جَعلهم يُفرطون في الاطمئنان وتفاخروا أنَّ هذا الوباء يتلاشى دون أنْ

يمَسَّهم، وأنهم لم يحرصوا على اللجوء إلى الريف أو حَجْر أنفسهم. بل إنَّهم كانوا غير مُكترثين إلى درجة أنَّهم استقبلوا أصدقاءهم أو أقاربهم المقيمين في مناطق أخرى مِن المدينة داخل منازلهم. ليس هذا وحسب، فقد اتخذ العديد مِن الناس في المناطق الموبوءة، ذلك الشطر مِن المدينة ملاذاً آمناً بما هو مكان، بحسب اعتقادهم، سيعفيه الله من البلاء، ولن يحلَّ الطاعون فيه كما أحلَّه في المناطق الأخرى من المدينة.

ولهذا، حين نزل بهم الطاعون كانوا مصعوقين مِن هول المفاجأة، وغير مُجهَّزين بالمؤن، وحائرين أكثر ممَّا كان عليه الناس في الأمكنة الأخرى. فحين حلَّ الوباء فيما بينهم على نحو فعليٍّ وشديد، كما حصل في شهري أيلول وتشرين الأول، لم يكن هناك مجال للخروج إلى الأرياف، وما كان لأحد أنْ يسمح لغريب بالاقتراب منه، ولا حتى مِن حدود البلدات التي يقطنونها. وقد نُمي إليَّ أنَّ العديدين ممَّن هاموا في الريف الواقع على حدود «**سوري**» (Surry)، عُثر عليهم في الغابات والحدائق موتى مِن الجوع، لأنَّ الريف في هذا الجانب مِن لندن، كان مُتاحاً أكثر مِن غيره مِن الجهات، فضلاً عنْ طبيعته الغابيَّة، ولاسيَّما ذلك الجانب مِن أبرشيَّة «**كامبِر وِل**»، و«**دولج**»، و«**لوسوم**»؛ حيث لم يجرؤ أحدٌ على إسعاف هؤلاء المساكين المكروبين خوفاً من التقاط العدوى.

وكانت هذه الفكرة، إثر انتشارها كما أسلفت لدى الناس في ذلك الجزء من المدينة، وراء توجُّه هؤلاء إلى السفن واتخاذها ملجأ مثلما أشرت من قبل. وحيثما فعلوا ذلك مبكِّراً وعلى نحو حصيف، أيْ أنهم عمدوا إلى تزويد أنفسهم بالمؤن التي تجعلهم في غير حاجة للذهاب إلى الشاطئ لجلب حوائجهم، ومن غير أن يضطرُّوا إلى السماح للنوتيَّة بالقدوم بقواربهم والصعود إلى متن السفينة لجلب المؤن، أقول: حيثما فعلوا ذلك فقد امتلكوا الملتجأ الآمن من أي ملتجأ حازه الآخرون على الإطلاق. ولكنْ، كان الكرب عظيماً إلى درجة أنَّ الناس تراكضوا إلى السفن في حالة من الهلع دون أن يحملوا معهم طعاماً يتبلَّغون به، في حين قصد آخرون سفناً خلت من البحَّارة ليقودوا السفينة بهم بعيداً، أو يقودوا أحد مراكب السفينة والإبحار نحو الشاطئ لجلب الحوائج حيثما يكون ذلك آمناً. وهكذا، فقد عانت هذه الفئة والتقطت العدوى على متن السفينة، بالقدر ذاته الذي كان من الممكن أن تلتقطها على الشاطئ واليابسة.

وبينما لجأت الفئة الأَثرى إلى السفن، لجأت الطبقات الدنيا إلى الصنادل [24] والمراكب الشراعيَّة والزوارق ومراكب الصيد. وقدْ استقرَّ العديد من هؤلاء، وبخاصَّة النوتِيَّة منهم، في مراكبهم. لكنَّ عاقبة ذلك كانت وخيمة، ولاسيَّما

على هؤلاء الآخرين؛ ذلك أنهم لـمَّا سعوا للتزوِّد بالمؤن، لكسب عيشهم، فشا بينهم الوباء وأحدث ضرراً عميماً ومُفزعاً، فقد مات العديد من النوتِيَّة وحيدين في مراكبهم، وهم يعبرون أسفل النهر أو أعلاه. ولم يُعْثر عليهم، أحياناً، إلا وقد غدوا في حالٍ لا تُمكن أحداً من لمسهم أو الاقتراب منهم.

ولقد كانت محنة الناس في ذلك الجزء البحري من المدينة مؤسفةً بحقٍّ وتستدعي أشدَّ صور الرثاء. ولكنْ، من أسفٍ أنَّ ذلك جرى في زمنٍ شُغل به كل امرئ بخلاصه، فما عاد في وسعهم الرثاء لحال الآخرين ومحنتهم.
فالموت، إنْ جاز التعبير، يربضُ على باب الجميع، بل اقتحم عليهم بيوتهم، وما عادوا يدرون ما يصنعون أو إلى أين يفرِّون.

لقد أتى ذلك، فيما أرى، على أي صورة من صور الشفقة والمرحمة، وكانت غريزة البقاء، فيما يبدو، هي القانون المتسيِّد دون سواه. فقد فرَّ الأولاد من أهاليهم عندما كان الأخيرون يُقاسون أشدَّ المحن إيلاماً. وقد حدث أن فعل الأبَوانِ الشئَ ذاته في بعض الأماكن إنْ لم يكن بالوتيرة ذاتها، بل جرت بعض الحوادث المفزعة، ولاسيَّما حادثتان جرتا في أسبوع واحد، وذلك حين عمدت أُمَّان مُصابتان بالطَّاعون إلى قتل أطفالهما في نوبة من الغضب والذهول. وكانت إحداهما تقطن قريباً من مكان سكني. ولم تعش المسكينة، التي ذهلت عن عقلها، طويلاً لتعي الذنب الذي قارفته، ناهيك عن تلقِّي العقاب على جنايتها تلك.

وفي واقع الأمر، لا غرابة في ذلك، فخطر الموت، الذي كان يُحلِّق فوق رؤوسنا، نزع من أحشائنا كل حب، وكل اكتراث لشأن الآخر. وأتكلم هنا بصفة عامَّة، فلقد عرفنا أمثلة عديدة من العاطفة الراسخة، والمرحمة، والشعور بالواجب، ووقعت بعضٌ من هذه في نطاق معرفتي، ضمن ما يمكن وصفه بالأقاويل المرسلة، ذلك أنني لا أحمل على عاتقي القطع بصحَّة التفاصيل.

ولأعرض واحدة من صور الفظاظة، دعوني، بادئ الأمر، أذكر واحدة من أشد الحالات بؤساً في هذه الجائحة الحالية، وقد تمثَّلت في النساء الحبالى اللواتي حين كُنَّ يدخلْن في المخاض وما يستصحبه من آلام، لا يجدن أي صورة من صور المساعدة، ولا قابلةَ أو جارة تأتي لزيارتهنَّ، فقد عصف المرض بأرواح مُعظم القابلات، ولاسيَّما أولئك اللائي كُنَّ يقمن على مساعدة الفقراء. وكانت معظم القابلات الخبيرات قد لجأن إلى الريف.

وهكذا، فمن رابع المستحيلات لامرأة فقيرة غير قادرة على دفع أجرٍ باهظ، أنْ تتحصَّل على قابلة لمساعدتها. وإنْ هي تمكنت من الدفع فإنَّ القابلات اللائي

يمكن استدعاؤُهن كُنَّ، عامَّة، غيرَ مُتمرِّسات وجاهلات. ومؤدَّى ذلك أنَّ عدداً مذهلاً وغير اعتيادي من النساء رزحن تحت حالة من الكَرب دونه كل عذاب. فقد وضع بعضُهن أحمالهنَّ، وتشوَّهن بفعل رعونة وجهل مَن زعمن التضلُّع بأعمال القبالة. ويمكن لي أنْ أقول إنَّ ما لا يأتي عليه إحصاء من المواليد قد قتلوا بأثرٍ من الجهل ذاته، لكنه الجهل الذي يجري تسويغه هذه المرَّة بحجة استنقاذ حياة الأم بصرف النظر عمَّا تؤول إليه حال الطفل. وكانت الأم والطفل، في أحيان كثيرة، يلفظان أنفاسهما للسَّبب نفسه: الجهل، ولاسيَّما إذا كانت الأم تعاني من الطاعون. فلا أحدَ يجرؤ على الاقتراب منهما، فيموت الاثنان أحياناً، في حين تموت الأم، في أحيان أخرى، من الطاعون قبل أن يخرج الجنين بالكامل، أو أنه يولد دون أنْ يُفصلَ حبلُه السرِّي عن الأم. وثمَّة طائفة من أولئك النسوة كنَّ يَستوفين أَجَلَهُنَّ في حُمَّى آلام المخاض دون أنْ يَلِدْن. وقد كانت هذه الحالات من الكثرة بحيث يعسر الحكم على صحَّتها. ومن الممكن أنْ نتبيَّن هذه الحال في الأرقام غير الاعتياديَّة لقوائم الوفيات الأسبوعيَّة (وإنْ كنـت لا أرى أنَّها قادرة على إعطاء صورة كاملة)، وذلك ما يقع في هذه القوائم تحت الفئات التالية:

وفيات النفاس

الجهيض والموت الجنيني

حديثو الولادة والمعمَّدون الصغار

ولنأخذ الأسابيع التي كان الطاعون فيها أشرس، ولنقارنها بأسابيع السنة ذاتها التي سبقت بداية الطاعون:

قوائم وفيات الأطفال الأسبوعيَّة (من 3 كانون أول إلى 7 آذار)

الأسبوع		وفيات النفاس	الجهيضون وموتى الأجنة	حديثو الولادة والمعمّدون الصغار	المجموع الأسبوعي
من	إلى				

3 كانون أول	10 كانون أول	7	1	13	21
10 كانون أول	17 كانون أول	8	6	11	25
17 كانون أول	24 كانون أول	9	5	15	29
24 كانون أول	31 كانون أول	3	2	9	14
31 كانون أول	7 شباط	3	3	8	14
7 شباط	14 شباط	6	2	11	19
14 شباط	21 شباط	5	2	13	20
21 شباط	28 شباط	2	2	10	14

28 شباط	7 آذار	5	1	10	16
المجموع		48	24	100	172

الجدول الثامن

قوائم وفيات الأطفال الأسبوعيَّة (من 1 آب إلى 3 تشرين أوّل)

الأسبوع		وفيات النفاس	الجهيضون وموتى الأجنة	حديثو الولادة والمعمّدون الصغار	المجموع الأسبوعي من
من	إلى				
1 آب	8 آب	25	5	11	41
8 آب	15 آب	23	6	8	37
15 آب	22 آب	28	4	4	36
22 آب	29 آب	40	6	10	56

29 آب	5 أيلول	38	2	11	51
5 أيلول	12 أيلول	39	23	0	62
12 أيلول	19 أيلول	42	5	17	64
19 أيلول	26 أيلول	42	6	10	58
26 أيلول	3 تشرين أول	14	4	9	27
المجموع		291	61	80	432

الجدول التاسع

وإذا أردنا أن نفهم التباين القائم في هذه الأرقام، فلا بدَّ أن نأخذ بعين الاعتبار أنه لم يكن في المدينة، في شهري آب وأيلول، ثلث مَنْ كان فيها مِن السكان في شهري كانون الثاني وشباط. وذلك وَفقاً لرأينا نحن، جميعاً، الذين كنَّا هنالك. وبوجيز العبارة، فإنَّ العدد المعتاد الذي كان يموت من تلك الفئات الثلاث، كما كنتُ أسمع، مات فعلاً بسببها في السنة السابقة. وكان كالتالي:

قائمة وفيات الأطفال (في العامين 1664 و1665»عام الطاعون»)

الأطفال	عام 1664	عام 1665
وفيات النفاس	189	625
الجهيضون وحديثو الولادة	458	617
المجموع	648	1243

الجدول العاشر

وأكرِّر القول إنَّ التباين في الأرقام يزداد بصورة كبيرة عند الأخذ في الحسبان عدد الناس. ولنْ أزعم القيام بأي حساب دقيق لأعداد الناس في ذلك الوقت، لكنِّي سأقوم بتقدير معقول لذلك الجزء من المدينة تباعاً. لكنَّ ما قلته للتو يَقصدُ إلى تبيان بؤس تلك المخلوقات التي جرى التطرُّق إلى ذكرها أعلاه، بحيث يمكن القول بحقٍّ، كما ورد في الكتاب المقدَّس: «**ويل للحبالى والمرضعات في تلك الأيام**»؛ ذلك أنَّ الويل والثبور قد مسَّهن، فعلاً، على وجه الخصوص.

لم أكنْ على صلة قويَّة بعدد كبير من العائلات التي جرت لها مثل هذه الأمور، لكنَّ صرخات هذه المخلوقات التعسة وتأوُّهاتها كانت تُسمع من مكان بعيد. ولقد رأينا، بما خصَّ الحبالى، بعض الإحصاءات: فقد لفظت مئتان وإحدى وتسعون (291) امرأة أنفاسها في فترة النفاس خلال تسعة أسابيع، أي ثلث من كان يموت في الأحوال العاديَّة، في الوقت ذاته من السنة، مع ملاحظة أنَّ

أربعاً وثمانين (84) وفاة بسبب الولادة كانت تحدث من جملة هذه الوفيات في الأحوال العاديَّة.

وليس هناك من شك في أنَّ ما حاق بالمرضعات من بؤس مُساوٍ في شدِّته لبؤس الحبالى من النساء. ولا يُلقي ما نتوفر عليه من قوائم الوفيات ضوءاً على هذه الفئة بصفة عامة، لكنَّ بعضها ألقى بعض الضوء، وقد قضى عددٌ كبير وغير اعتيادي من النساء جوعاً في فترة الرِّضاع. لكن البؤس لم يقف عند ذلك، وإنما يتجلَّى حين كانت الأم تموت تحت وطأة الحاجة، ثم يلحق المصير ذاته بأفراد العائلة جميعهم، لتجد الأطفال الرُضَّع مائتين بجانبها بسبب حاجتهم للرعاية والرضاع. وإذا جاز لي الجهر برأيي، فإنَّني أعتقد اعتقاداً راسخاً أنَّ عدة مئات من المواليد هلكوا، بالطريقة ذاتها، وحيدين وبلا عون. وكانت تلك واحدة من طرائق هلاك الرُّضع، أما الثانية فقد تمثَّلت في أنهم لم يموتوا جوعاً وإنما التقطوا العدوى من الـمُرضعة، وحتى في الحالات التي كانت فيها الأم مُرضعة ومصابة بالطاعون فإنها تنقل المرض؛ أي العدوى، للرضيع مع حليبها قبل أن تدري أنها حاملة للعدوى. بل إنَّ الوليد يكون قد مات، في هذه الحالة، قبل الأم. ولا يفوتني أنْ أدوِّن النصيحة للأجيال القادمة في حال نزل هذا الوباء المريع مرَّة أخرى بهذه المدينة، ومُؤَدَّاها أنَّ من المتوجِّب على النساء الحوامل والمرضعات أنْ ينتقلن، إنْ تيسَّرت لهنَّ أي وسيلة ممكنة، خارج المكان الموبوء؛ ذلك أنَّ شقاءهنَّ، إنْ التقطن العدوى، سيزيد أضعافاً مضاعفة عن شقاء الآخرين.

وبمقدوري أنْ أسوق هنا قصصاً قاتمة ومُحزنة عن رُضَّع أحياء عُثِر عليهم وهم يلتقمون أثداء أمَّهاتهم أو مُرضعاتهم اللائي كُن قد قَضَيْنَ بالطاعون. وتتعلق واحدة من هذه القصص بإحدى الأمهات التي تقطن في الأبرشيَّة التي أسكن فيها. فحين استشعرت أنَّ وليدها ليس على ما يرام، أرسلت في طلب الصيْدلي «العطَّار» ليعاين المولود. وعندما أتى الأخير، كما تروي القصة، كانت تُرضع الطفل، وبدا أنَّ الأمَّ نفسها في صحَّة وعافية. ولكنْ، حين اقترب منها الصيدليُّ لاحظ علامات على ثَدْيِها. فأخذته الدهشة لكنَّه لم يرغب بإخافة المرأة، ورجاها أنْ يأخذ الطفل بيديه. وهكذا، فقد أخذه، وسار إلى سرير في الحُجرة ووضعه هناك. وإذ فضَّ عنه ثيابه ألفى تلك العلامات على جسده أيضاً. وقد مات كلاهما قبل أن يعود الصيدلانيُّ ويبعث بالـمُستحضر الوقائيِّ للأب الذي أخبر عن حالهما. وليس من المؤكد أيهما نقل العدوى إلى الآخر؛ أهو الطفل أم الأمَّ، ولكنْ على الأرجح أنَّ الطفل تلقَّاها من الأم.

وثمَّة قصَّةٌ مُشابهة تحكي عن طفل أُحضر إلى الوالدين من عند مرضعة ماتت جرَّاء الوباء. وما كانت الأم الحنون لترفض حضانة طفلها، فأخذته بين ذراعيها

واحتضنته لتلتقط العدوى منه، وتموت مثل الطفل الذي مات أيضاً بين ذراعيها. وإنَّ أقسى القلوب لتتفطَّر حيال قصص عن كثير من الأمَّهات الرؤومات اللواتي كنَّ يعتنين بأطفالهن الأعزَّاء ويقُمن على تمريضهم، بل إنَّهن يمُتن قبلهم. ليس هذا وحسب، فإنهنَّ، أحياناً، يلتقطن الطاعون منهم ويمُتن، في حين أنَّ الطفل، الذي ضحَّى القلب لأجله، يتعافى وينجو. ومنْ ذلك قصَّة التاجر في «**إيست سميث فيلد**»، الذي كانت زوجته مُثقلَةً بحملها الأوَّل، وقد جاءها المخاضُ وهي تحملُ الطاعون. ولم يكن الزوج قادراً على جلب قابلة لمساعدتها أو مُمرِّضة لرعايتها، وقد فرَّ منها الخادمان اللذان استبقاهما زوجها. وراح هذا الأخير يسعى مِن منزلٍ إلى آخر كمَن ذُهل عن عقله، دون أنْ يتحصَّل على أي مساعدة، وأقصى ما استطاع تحصيله وعداً من أحد الحراس؛ كان يحرس بيتاً موبوءاً مَشموعاً، أنْ يرسل له ممرِّضة في الصباح. ورجع الرجل إلى منزله كسير القلب، باذلاً وسعه في مساعدة زوجته، إذ قام بعمل القابلة، وأحضر الطفل إلى العالم ميتاً، ثم ما لبثت زوجته أنْ ماتت، بعد نحو ساعتين، بين ذراعيه، حيث ظلَّ قابضاً على جُثَّتها بقوَّة حتى الصباح عندما جاء الحارس رِفقة الممرضة كما وعد. وحين صعد الاثنان إلى الطابق العلوي (لأنَّ الزوج كان قد ترك الباب مفتوحاً، أو مغلقاً دون إحكام) ألفيا الرجل جالساً وهو يحتضن زوجته المتوفَّاة بذراعيه. وإذ غمره الحزن فإنَّه توفي بعد بضع ساعات، دون أن تظهر عليه أي علامة من علامات الوباء، وإنَّما أكْمَدَهُ الحزن وخرَّ صريعاً تحت وطأته.

وقد تناهت إلى مسامعي، أيضاً، قصصٌ عن بعضهم، ممَّن اختلط عقلهم لدى موت أقربائهم، بسبب الحزن الذي لا يطاق. ومِن ذلك، أنَّ أحدهم تَملَّكه الكمد حتى غاص رأسه في جسده، فما عاد رأسه يُرى من بين كتفيه إلا قليلاً. وبدأ، شيئاً فشيئاً، يفقد صوته وقدراته العقليَّة. أما وجهه حين ينظر إلى الأمام، فكان يلامس عظم الترقوة، وما كان بمقدوره أنْ يرفعه أكثر من ذلك ما لم يرفعه شخص آخر بيديه. ولم يعد الرجل المسكين إلى حالته الطبيعيَّة، وبقي على هذه الحال التعسة حولاً أو بعض حول حتى قضى أجله دون أن يُرى، طوال ذلك الوقت، رافعاً بصره أو ناظراً إلى شيء بعينه. وليس بمقدوري أنْ أعطي ما يتعدَّى الملخَّص حيال تلك الحوادث، إذ لم يكن من الممكن الوصول إلى دقائق الأمور، فقد عصف الوباء، أحياناً، بجميع العوائل التي انتابتها هذه الأحوال. بيد أنه كان هناك عددٌ لا يحصى من الحالات المشابهة التي كانت تظهر للعين وتطرق السمع حتى لدى عبور الشوارع كما أشرت من قبل، فضلاً عن ذلك، ليس من السهل تدوين أي قصَّة عن هذه العائلة أو تلك دون أن توجد لهذه القصَّة سلسلة من القصص المشابهة التي تعضدها.

ولكنْ، لمَّا كنت أتحدَّث الآن عن الوقت الذي استشرى فيه الوباء في أقصى الجزء الشرقي من المدينة، وكيف أنَّ سكان تلك المنطقة اغترُّوا بأنفسهم معتقدين أنَّهم لا بُدَّ ناجون من الوباء، وكيف أنَّهم صُعقوا من هول المفاجأة حين نزلَ بهم؛ ذلك أنَّه هبط عليهم، فعلاً، كما لو كان رجلاً مُدجَّجاً بالسلاح. أقول لـمَّا كنت أتحدَّث عن ذلك، فإنه يأخذني من جديد إلى الرجال المساكين الثلاثة الذين هاموا على وجوههم، وهم خارجون من «**وابِنْغْ**»، لا يعرفون إلى أين يذهبون ولا يدرون ما يصنعون. وكنتُ أتيت على ذكرهم من قبل، إذْ كان الأول خبَّازاً في مصنع للبسكويت، والثاني صانع أشرعة، أما ثالثهم فكان نجَّاراً، وثلاثتهم من «**وابِنْغْ**» أو ما حولها.

وكان السُّبات والطمأنينة، في ذلك الجزء من المدينة، كما أسلفت، كبيرين إلى درجة أنَّ سكان تلك المنطقة لم يبادروا إلى الرحيل كما فعل الآخرون، بل إنَّهم كانوا يتفاخرون أنهم في مأمن ممَّا أصاب الآخرين، وأنَّ الأمان حليفهم. وقد غادر العديد من الناس خارج المدينة وخارج الضواحي الموبوءة إلى «**وابِنْغْ**»، و«**راتْكْلِفْ**» (Ratclif)، و«**لايم هاوس**»، و«**بوب لار**» وغيرها من الأمكنة المشابهة بوصفها واحة أمان. وليس من المستبعد أنهم عاونوا، بفعلهم هذا، على جلب الوباء بدرجة أسرع. فعلى الرغم من أنَّني أؤيِّد هروب الناس وإفراغ المدن لدى أوَّل ظهور للوباء، وأشدِّد على أن من المتوجِّب على كل مَن لديه ملاذ محتمل أن يفيد منه في الوقت المناسب ويلوذ به، أقولُ: على الرغم من رأيي هذا، فإنَّ من المتعيِّن عليَّ القول إنَّه عندما يكون من استطاع الخروج قد خرج، فعلى الذين استبقوا أنفسهم أو مَن تعيَّن عليهم البقاء، أن يمكثوا بلا حراك، حيث هم، وعدم الانتقال من جهة إلى أخرى من المدينة، فذلكم هو الهلاك المبين، لأنَّ الناس يحْملون الطاعون في ثيابهم من منزل إلى آخر.

وقد أُمرنا، لذلك، بقتل الكلاب والقطط كافَّة، فلمَّا كانت هذه الحيوانات تُقتنى في المنازل، وتنتقل، عادة، من منزل إلى منزل، ومن شارع إلى شارع، فإنَّها مُهيَّأة لحمل الأبخرة والروائح المعدية حتى في فرائها وشعرها. وعليه، فقد صدر أمرٌ من جانب السيد عمدة المدينة والقضاة بقتل الكلاب والقطط حالاً، وذلك بناء على نصيحة الأطباء، وقد عُيِّن مُوظَّف لإنفاذ الأمر. وإذا صدقت التقارير، فقد أُردي عدد مهول من هذه المخلوقات. وأعتقد أنه جرى الحديث عن إهلاك أربعين ألف (40000) كلب، وخمسة أضعاف ذلك الرقم من القطط. إذْ ندر أنْ يخلو بيت من قطَّة، بل إنَّ بعضهم اقتنى عدَّة قطط تصل، أحياناً، إلى خمس قطط أو ستٍّ في المنزل الواحد. واستنفدت الجهود جميعها للقضاء على الفئران والجرذان، ولاسيَّما هذه الأخيرة، وذلك باستعمال الزرنيخ وغيره من السموم لقتلها، فَقُضي على أعداد لا حصر لها من هذه الكائنات.

ولطالما فكرت بحالة الغفلة التي أحاطت بالسكان جميعهم، لدى نزول هذه الكارثة بهم أولَ مرة، وكيف أنها حدثت بسبب الافتقار إلى اتخاذ التدابير والاستعدادات في الوقت المناسب، سواء على الصعيد العام أو الخاصِّ. فلو اتخذت الخطوات الملائمة، مشفوعة بالعناية الإلهيَّة، لما حدث ما استتبع ذلك من اضطراب، فضلاً عن العدد الهائل من الناس الذين وقعوا صرعى تلك الكارثة. وزيادة على ذلك، من الممكن للأجيال القادمة، إن هي فكَّرت على نحو ملائم، أن تعتبر وتتخذ الاحتياطات في حالة مماثلة، لكني سآتي إلى ذلك الجزء لاحقاً.

أعود إلى الرجال الثلاثة. فقصَّتهم تنطوي على عبرة في كل جزء من أجزائها، كما أنَّ سلوكهم برمَّته، وسلوك بعض مَن انضمَّ إليهم، يشخص مثالاً يحتذى لمن يأتي بعدهم، من الرجال الفقراء، وكذلك النساء، إنْ عادت هذه الحال كرَّة أخرى. وإذا لم يكن ثمَّة هدف آخر من تدوين هذه القصة، فإنَّي أرى أنَّ ما فيها من عبرة ينهض سبباً قوياً لسردها، سواء أكانت روايتي لها متَّفقة مع الحقائق تماماً أم لا.

وقد قيل إنَّ اثنين منهما شقيقان، أحدهما محارب قديم لكنه الآن صانع بسكويت، والآخر بحَّارٌ أعرج، يعمل الآن في صنع الأشرعة. أما ثالثهم، فامْتَهَن النِّجارة. وفي خضمِّ هذه الحال، قال جون الخبَّاز لأخيه توماس؛ صانع الأشرعة:

- أَخي **توم**، ماذا سيحلُّ بنا، فالطاعون يستشري في المدينة ويشتدُّ كما ترى، فما نصنع؟

- حقاً، قال **توماس** وأضاف: إنني في حيرة ولا أدري ما أصنع، ذلك أنه إذا نزل الطاعون في «**وابِنْغْ**» فسيكون لزاماً عليَّ أنْ أغادر مسكني.

وهكذا، بدأ الأخوان في الحديث عن الوباء قبل وقوعه.

- **جون**: تغادر منزلك، يا **توم**! إذا غادرت، فلا أدري مَن سيُنزلك في بيته؛ فالناس تتوجَّس خيفة من بعضها، بحيث لا يمكن الحصول على مأوى في أي مكان.

- **توماس**: لِمَ ذاك، إنَّ الأهالي حيث أقطن أناسٌ طيبون ومهذَّبون ويُكنِّون لي قدراً كبيراً من الودِّ أيضاً، لكنهم يقولون إنَّي أسافر خارج البلدة كل يوم في طريقي إلى عملي، وإنَّ ذلك محفوف بالخطر. وهم يتحدثون عن عزل أنفسهم، وعدم السماح لأي كان في أن يقترب منهم.

- **جون**: لم العجب، إنَّهم على حقٍّ، لا بُدَّ أن يفعلوا ذلك إنْ هم قرَّروا المجازفة والبقاء داخل البلدة.

- **توماس**: لا، حتى أنا يمكن أنْ أعزل نفسي معهم داخل المنزل أيضاً، لأنه باستثناء زوج من الأشرعة، اللذين مازالا بين يدي ربِّ العمل وأوشك على الانتهاء منهما، فمن غير المحتمل أن نحصل على عمل آخر لمدَّة طويلة، فليست هناك حركة تجارية في الوقت الحاضر، والعمال والخدم يجري تسريحهم في كل مكان، وهكذا سيكون من دواعي سروري أن ألتزم البيت معهم أيضاً، ولكني لا أعتقد أنهم سيرغبون في الموافقة على ذلك البتَّة.

- **جون**: إذن، ماذا ستفعل حينها، يا عزيزي؟ وماذا سأفعل أنا؟ أسألك لأنَّي، تقريباً، في الوضع السيِّئ ذاته، فقد غادر أهل المنزل الذي أقطنه إلى الريف، ولم يبق سوى خادمة، من المقرَّر أن ترحل هي الأخرى الأسبوع القادم، وتغلق المنزل تماماً قبل أنْ ترحل، وهكذا سأغدو في مهبِّ الريح أمام العالم الفسيح. بناءً على ذلك، فقد قررت أنْ أرحل أنا الآخر، ولكنْ إلى أين المسير، لست أدري!

- **توماس**: كلانا كان ذاهلاً عن عقله، فلمْ نغادر من البداية. إذنْ لقصدنا حينها أي مكان نريد. أمَّا الآن، فليست هناك حركة للمسافرين، وسنموت جوعاً إذا تجرَّأنا على مغادرة المدينة. ولنْ يسمح لنا أحد بالتزوُّد بالمؤن، أقلها ليس مقابل الدراهم المعدودة التي بحوزتنا، بل لنْ يُسمح لنا بدخول المدن الأخرى، ناهيك عن دخول منازلهم.

- **جون**: ولكي تكتمل المأساة، أنا الآخر لا أملك من المال القدر الكافي الذي أتدبَّر به أمري.

- **توماس**: فيما خصَّ ذلك يمكننا أن نتدبَّر أمرنا، فلديَّ بعض المال وإنْ لم يكن كثيراً. لكنِّي أحيطك علماً أنَّ الحركة منعدمة على الطرقات. وأنا أعرف بضعة من الرجال المساكين الخلوقين الذين حاولوا الذهاب إلى «**بارنت**» أو «**وستون**» أو نواحيهما، لكنَّ الناس هناك هدَّدوا بإطلاق النار عليهم إذا تجرَّأوا على التقدُّم خطوة إلى هناك. ولذلك، فقد عادوا خائبين.

- **جون**: لو كنت مكانهم لغامرت غير آبه بنيرانهم، ولو أنَّهم منعوني من أخذ الطعام مقابل المال، إذنْ لرأوني آخذها عنوة أمام أعينهم. ولـمَّا كنت سأعرض عليهم النقود لقاء تلك الأطعمة، فلنْ يكون بوسعهم مُقاضاتي.

- **توماس**: إنك تتحدث بلغة المحارب العتيد، كما لو أنَّك مازلت في «الأراضي الخفيضة» (**هولندا**)، لكنَّ الأمر جدٌّ خطير الآن، والناس يمتلكون سبباً قوياً لإبعاد أي شخص غير مُتيقِّنين أنه مُعافى، في مثل هذه الحال، ويتوجب علينا ألا ننهبهم.

- **جون**: لا، يا أخي. إنك تسيء فهم الأمر، وتُسيء فهمي أيضاً. لنْ أقوم بنهب أحد، ولكنْ، أن تلجأ أي بلدة على جوانب الطريق لمنعي من اجتياز البلدة من خلال الطريق العام، ومنعي من الحصول على المؤن مقابل المال، فهذا يساوي أنَّ المدينة لها الحقُّ بتجويعي حتى الموت؛ وهذا وذاك مُجافٍ للحقِّ.

- **توماس**: لكنهم لا ينكرون عليك حريَّة العودة مِن حيث أتيت، وبذلك فإنَّهم لا يجوِّعونك حتى الموت.

- لكنَّ البلدة التالية التي ورائي، ستقوم، عملاً بالقاعدة نفسها، بمنعي من العودة. وبذلك فإنَّهم يقومون بالفعل بتجويعي حتى الموت وأنا محصورٌ بين البلدتين. علاوة على ذلك، فليس هناك أي قانون يمنعني من التنقُّل والسفر حيث أشاء.

- **توماس**: لكنْ، سيكون من الصعب جداً الدخول في جدال وشجار عند كل بلدة على الطريق. ولا ينبغي على الفقراء عمل ذلك أو القيام به، خصوصاً في مثل هذا الزمن الذي نعيشه.

- **جون**: لِمَ، يا أخي...؟! إنَّ ظروفنا في مثل هذا الوضع أسوأ من ظروف أي شخصٍ آخر؛ فليس بوسعنا الارتحال ولا البقاء هنا. أشعرُ بأنَّي مثل «**مَجْذومي السامرة**»، وإذا بقينا هنا فمن المؤكد أنَّ مصيرنا آيل للموت، ولاسيَّما في هذا الوضع الذي يرزح كلانا تحته، فليس لنا منزل نقيم فيه أو مسكن نكتريه. ولا يمكن للمرء في هذا الوقت، أن يفترش الطريق، ولن نلبث أن نستقلَّ عربة الموتى عمَّا قريب. وعليه، أقول: إنْ نحن بقينا هنا، فإنَّ أجلنا آتٍ لا محالة، أما إنْ غادرنا فقد ننجو وقد نموت. ولذلك، فقد عقدت العزم على الرحيل.

-**توماس**: سترحل، ولكن إلى أين المسير؟ وماذا بوسعك أنْ تفعل؟ أنا أرغب، مثلك، بالرحيل لو كنت أعلم وجهة أقصدها. ولكنْ، ليس لدينا معارف ولا أصدقاء، ولدنا هنا وعلينا أنْ نموت هنا.

- **جون**: انظرْ يا **توم**، إنَّ المملكة بأكملها موطني، مثلها كمثل هذه المدينة. أمَّا حديثك هذا فهو يبدو وكأنك تخبرني أنَّ من المتوجِّب عليَّ أنْ أبقى في بيتي حتى لو التهمتهُ النيران، أيْ: قولك إن عليَّ ألا أخرج من المدينة التي وُلدت فيها، حين ينتشر فيها الطاعون. أنا ولدت في إنجلترا، يا توم، وأمتلك الحقَّ بالعيش فيها إنْ استطعت سبيلاً لذلك.

- **توماس**: غير أنَّك تدرك أنَّ أي متشرِّد يمكن أنْ يُقبض عليه، حسب القوانين الإنجليزية، فإنه يُرْسَل من جديد إلى مكان إقامته الأصلي...!!

- **جون**: يظنُّون أنَّي مُتشرِّد؟ إنَّ كل ما أريده هو الارتحال، تبعاً لظروفي المشروعة.

- **توماس**: ولكنْ، أي ظروف مشروعة التي يمكن الزعم بأنَّنا نرتحل لأجلها، أو بالأحرى نهيم بموجبها؟ إنَّ الشرطة لنْ ينطلي عليها هذا الكلام.

- **جون**: أليس الفرار للنجاة بحياتنا سبباً مشروعاً؟ ألا يدرك الجميع أنَّ هذا الأمر حقيقي؟ لا يمكن لأحدٍ أنْ يقول إنَّنا نختلق ذلك.

- **توماس**: لكنْ، لنفترض أنَّهم أَذنوا لنا بالمرور، إلى أينَ سنذهب؟

- جون: إلى أي مكان، لننجو بحياتنا، سيكون لدينا ما يكفي من الوقت لنتدبَّر ذلك عندما نصبح خارج البلدة. وما إنْ أصبح خارج هذا المكان الرهيب، فلنْ أُعنى إلى أين يكون المسير.

- **توماس**: لا بُدَّ أنْ يقودنا هذا إلى ما لا تُحمَد عقباه. ولا أدري كيف أفكِّر في الأمر.

- **جون**: حسناً، يا توم. فكِّر بالأمر قليلاً.

حدث هذا في مطلع تموز تقريباً. وعلى الرغم مِن كون الوباء قد انتقل إلى الأجزاء الغربية والشمالية مِن البلدة، فإنَّ «**وابِنْغْ**»، كلها، كما لاحظت مِن قبل، فضلاً عن «**ريد ريف**» و«**رات ديف**» و«**لايم هاوس**» و«**بوب لار**»، ولأقلْ باختصار: «**دِتْفورد**» و«**غرينيتش**»، وجانبي النهر بكاملهما من «**هيرميتاج**»، ومِن المنطقة المقابلة له، نزولاً إلى منطقة «**بلاك وول**»، كانت خالية بالكامل من الطاعون، فلم يمُت أي شخص بسبب الطاعون من أبرشيَّة «**ستبني**» كلها، ولا أي شخص من الجانب الجنوبي لطريق «**وايت تشابل**». لا، ولا أي وفاة في أي

أبرشيَّة. ومع ذلك، فإنَّ القائمة الأسبوعية في هذا الأسبوع ارتفعت لتصل إلى ألفٍ وستٍّ وفيات (1006).

كان هذا قبل أسبوعين مِن التقاء الأَخَوَيْن مرَّة أخرى، وكانت الحال، حينها، قد تغيَّرت قليلاً، فقد تفاقم الوباء وارتفعت أعداد الوفيات بصورة كبيرة، إذْ بلغت قائمةُ الوفيات أَلْفَيْن وسبعمئة وخمساً وثمانين (2785). وظلَّ يتعاظم بصورة كبيرة، على الرغم من أنَّ المناطق على جانبي النهر بقيت في وضع جيِّد. لكنْ، بدأت تُسجَّل بعض الوفيات في «**رد ريف**»، ونحو خمس وفيات أو ست في طريق «**رات كليف**» العمومي، وذلك عندما جاء صانعُ الأشرعة عند أخيه جون، على جناح السرعة والخوف، لأنَّه كان قد أُنْذر بإخلاء سكنه، وأنَّ لديه أسبوعاً فقط ليتدبَّر نفسه. ولم يكن أخوه جون أحسن حالاً منه، لأنه أُخرج من مسكنه واضطرَّ أن يتوسَّل ربَّ عمله؛ صاحب مصنع البسكويت، كي يقيم في كوخ خارجي تابع للمشغل حيث كان يضطجع على القشِّ، الذي غُطِّي ببعض أشولة البسكويت (أو أشولة الخبز كما كانت تدعى). وكان يلتحفُ ببعضها الآخر بعد أنْ يضطجع. وقد عزما آنذاك، (حين ألفَيا أنَّ الأعمال جميعها قد توقَّفت، وما مِن عمل أو أجر يتحصَّل عليه المرء) على استنفاد وسعهما للخروج من قبضة الوباء المريع. ولمَّا كانا مقتصدين في عيشهما بقدر ما يستطيعان، فإنَّهما سيحاولان العيش على ما كان لديهما إلى أنْ ينفد، والعمل للحصول على المزيد إنْ استطاعا التحصُّل على عمل في أي مكان، مهما كانت طبيعته ومهما صغر شأنه.

وبينما كانا يسعيان لوضع قرارهما موضع التنفيذ، اتفق للرجل الثالث، الذي كان على معرفة وثيقة بصانع الأشرعة، أنْ سمع بالخطَّة، فاستأذنَ أنْ يكون رفيقهما في الرحلة، وهكذا فقد شرع ثلاثتهم بالتجهز والشروع في الرحلة.

وتبيَّن أنَّه لم يكن لديهم القدر ذاته من النقود. ولكنْ، إذا نحَّيْنا أمر عَرَجِهِ جانباً فمِن غير المتوقع أنْ يحصل صانع الأشرعة، الذي كان لديه القدر الأكبر من المال، على عوائد ماليَّة من عمله في الأرياف. لذلك رضي بأنْ يُوضع جميع ما لدى كل واحد منهم في كيس واحد، على أنْ يضاف أي مبلغ يتحصَّل عليه أي منهم، دون تذمُّر، إلى الكيس المشترك، بصرف النظر عمَّا يُحصِّله كثر أو قلَّ.

وقد ارتأوا أنْ يحملوا معهم أقلَّ قدرٍ مِن المتاع، لأنَّهم قرَّروا في البداية السفر سيراً على الأقدام، وأنْ يسلكوا طريقاً بعيدة وطويلة علَّهم، إنْ أمكن ذلك، يكونون في أمان وسلام. وقد عقدوا مشاوراتٍ عدَّة فيما بينهم، قبل أنْ يتَّفقوا على الطريق التي يتعين عليهم السير فيها، وكان من الصعب جداً الاتفاقُ على هذا الأمر؛ فقد أطلَّ صباح اليوم الذي انطلقوا فيه دون أنْ يُجمعوا أمرهم في

هذا الشأن، إلى أنْ أدلى الملاح بفكرة حسمت الأمر، وذلك حين قال: أوّلاً: إنَّ الطقس حارٌّ جداً، وعليه فإنَّي أفضِّل أن يكون مسيرنا شمالاً فلا تسفع الشمسُ وجوهنا، وتضربُ صدورَنا، وحتى لا تسخن أبداننا ونختنق، وأضاف: «ولقد أُخبرت أن من الأحسن ألا ترتفع حرارة دمائنا أكثر مِن الحدِّ الطبيعي في مثل هذا الوقت. ومَن يدري؟ فقد يكون الهواء نفسه موبوءاً. وأردف قائلاً: هذا أولاً، أمَّا ثانياً، فإني أُحبِّذ المسير في طريق تكون مُعاكسة لاتجاه الريح، فإذا ما هبَّت لدى انطلاقنا، فإنَّنا نتجنَّب بذلك، أنْ يضرب هواء المدينة الموبوء ظهورنا في أثناء مسيرنا. وجرى التوافق على هذيْن التحذيرين إلا في حالة واحدة، وهي ألا تكون الرياح جنوبيَّة عندما ينطلقون شمالاً.

وما لبث أنْ أدلى **جون** الخبَّاز، الذي عمل جُندياً في السابق، برأيه قائلاً: لا أحدَ منَّا يتوقَّع أنْ يحصل على أي مأوى على الطريق، وسيكون مِن المتعسِّر النوم في العراء. وعلى الرغم مِن أنَّ الطقس دافئ، فقد يكون رطباً وبليلاً بفعل الندى. كما أنَّ لدينا سبباً مضاعفاً للعناية بصحَّتنا في مثل هذا الوقت. وأضاف: لذلك، يا أخي توم، لـمَّا كنتَ صانع أشرعة، فإنَّك تستطيع، بسهولة، أنْ تصنع لنا خيمة صغيرة، وسأتولَّى أنا أمر تَنصيبها كلَّ ليلة، وطيِّها بعد ذلك، ولا حاجة بنا، إذَّاك، لأنزال [25] إنجلترا جميعها، وإذا كانت لدينا خيمة جيِّدة فوق رؤوسنا فسنكون على ما يرام.

بيدَ أن النجَّار عارض ذلك، وأخبرَهم أنْ يتركوا الأمر له، فهو سيتولَّى بناء بيتٍ لهم في كل ليلةٍ بفأسه ومِطرَقته. وعلى الرغم مِن عدم امتلاكه أدواتٍ سوى هاتين الأخيرتين، فإنَّ ذلك البيت سيُرْضيهم تماماً، ويكون على مثال الخيمة في جودته. فتجادل الجنديُّ والنجَّار حول تلك النقطة بعضَ الوقت، لكنَّ الجندي فاز باعتماد خيار الخيمة في آخر المطاف. وكان الاعتراض الوحيد مُتعلِّقاً باضطرارهم إلى حمل الخيمة معهم، ما يزيد مِن ثقل متاعهم، واستتباعاً مَشَقَّتهم، ولاسيَّما أنَّ الطقس حارٌّ. لكنَّ صانع الأشرعة كانت لديه بقيَّة مِن حَظٍّ يسَّرت الأمر، فربُّ عمله، الذي كان له مشغل لصنع الحبال فضلاً عن الأشرعة، امتلك حصاناً صغيراً وهزيلاً لا نفع له في ذلك الوقت. ولـمَّا كان ربُّ العمل راغباً في مساعدة هؤلاء الرجال الطيِّبين الثلاثة، فقد وهبهم الحصان لاستخدامه في حمل أمتعتهم. وإذ عمل صانع الأشرعة لديه ثلاثةَ أيام قبل أنْ يغادر، فقد أعطاه ربُّ العمل شراعاً علوياً ومُهترئاً بصورة ما، لكنه جيِّد بما يكفي لصنع خيمة جيِّدة. وقد أراهم الجنديُّ كيفيَّة تَشْكيلِها، وسرعان ما قاموا، بناءً على توجيهاته، بتنصيبها بعد أنْ أسندوها بالأعمدة أو العصيِّ. وهكذا، فقد تجهَّزوا بمستلزمات الرحلة، أيْ ثلاثة رجال، وخيمة، وحصان، فضلاً عن البندقية، إذ أبى الجنديُّ أنْ يسير بغير سلاح؛ فهو من الآن، كما أخبرهم، ليس خبَّازاً وإنما جنديٌّ من فرقة الخيَّالة.

وكان النجَّار قد اصطحب معه حقيبة عدَّة صغيرة، مِنْ شأنها أنْ تكون نافعة إنْ اتفق له وحصل على عمل في رحلته تلك حتى يتعيَّش هو ورفاقه. وهكذا، فقد وضعوا ما كان معهم مِنْ مالٍ في كيسٍ واحد، وشرعوا في رحلتهم.

ويبدو أنَّ الريح، في الصباح الذي انطلقوا فيه، كانت تهبُّ من الشمال الغربي إلى الغرب، وذلك بحسب الملاح الذي استعان ببوصلته الصغيرة التي يحملها في جيبه. وعليه، فقد توجَّهوا، أو بالأحرى قرَّروا أنْ يتجهوا، إلى الشمال الغربي. لكنْ اعترضتهم، إثر ذلك، صعوبة في طريقهم، إذْ إنَّهم انطلقوا مِن الجهة الخلفيَّة لـ«**وابِنْغْ**»، بالقرب مِن «**هيرميتاج**». ولـمَّا كان الوباء قد استشرى حينئذ، ولاسيَّما في الجزء الشمالي من المدينة، مثلما كانت عليه الحال في أبرشيَّتي: «**شوردتش**»، و«**كربل غيت**»، فإنَّهم رأوا أنَّ مِن الأسلم لهم ألا يقتربوا مِن تلك الأجزاء، فعمدوا إلى التوجه شرقاً عبر طريق «**راد كليف**» (Radcliff) العمومي، وصولاً إلى تقاطع «**راد كليف**»، ثم السير من هناك مع الإبقاء على كنيسة «**ستبني**» عن شمالهم، وذلك لخشيتهم الصعود من تقاطع «**راد كليف**» إلى «**مايل إند**»، حيث سيكون عليهم، ساعتئذٍ المرور بمحاذاة المقبرة. وفضلاً عن ذلك، فالرياح التي بَدَتْ أنها تهبُّ، أساساً، مِن الغرب، كانت تهبُّ مباشرة، مِن ذلك الجزء من المدينة حيثُ الطاعون مُستَشرٍ. ولهذا، أقولُ: إنَّهم عمدوا إلى القيام بانعطافة طويلة، واتجهوا إلى «**بوب لآر**» و«**بروملي**»، واصلين إلى الطريق عند «**باو**». وكان من المتعيِّن أنْ تستوقفهم نقطة المراقبة القائمة عند جسر «**باو**» وتستجوبهم. لكنَّهم حين عبروا الطريق إلى زقاق ضيق يتحوَّل عند الحد الأقصى لبلدة «**باو**» إلى «**أولد فورد**»، تجنَّبوا أي استجواب، وغذُّوا في السير إلى «**أولد فورد**»، ولم يكن أفراد الشرطة، المنتشرون في كل مكان، يُشدِّدون فيما يبدو على منع الناس من العبور، بقدر ما كانوا يتشدَّدون في منعهم من الإيواء إلى البلدات التي يعبرونها، وذلك بسبب تقرير ورد مُؤخَّراً. وفي واقع الأمر، لم يكن ذلك بعيد الاحتمال، ومُؤدَّى التقرير أنَّ فقراء لندن كانوا في كَرْبٍ وجوع بسببٍ افتقارهم إلى العمل، واستصحاباً افتقارهم لما يقيمون به أَوَدَهم. وعليه، فإنَّهم حملوا السلاح وأحدثوا اضطرابات، وهم قادمون إلى البلدات المحيطة بهم لنهب الطعام. وأريد أنْ أقول: إنَّ ذلك كله كان إشاعة، ومن طلائع السعد أنَّها لم تكن أكثر من ذلك. بيد أنَّها لم تكن بعيدة من أنْ تغدو حقيقة واقعة كما جرى الاعتقاد، فما هي غير بضعة أسابيع حتى غدا الفقراء بائسين جداً مِن الأوضاع الكارثيَّة التي كانوا يقاسونها، ما جعل من المتعسِّر منعهم من الخروج إلى البلدات المحيطة، وإتلاف كل ما تقع عليه أيديهم. وكان ما أعاقهم عن ذلك هو الوباء نفسه الذي كان يضرب بشدَّة، وفشا فيهم إلى درجة أنَّه جعلهم يذهبون إلى قبورهم آلافاً مؤلَّفة، عوض أن يذهبوا إلى الحقول أُلوفاً من الغوغاء. ففي الأجزاء القريبة مِن أبرشيَّات «**سانت سيبولتشر**»، و«**كلاركن وِل**»، و«**كربل**

غيت»، و«**بشوبس غيت**»، و«**شوردتش**»؛ تلك الأماكن التي بدأ الغوغاء فيها يمثلون تهديداً ، كان الوباء قد استشرى على نحو مُريع، إلى درجة أنَّه توفِّي هناك في تلك الأبرشيَّات القليلة في ذلك الوقت، وقبل أنْ يصل الوباء إلى ذروته، ما لا يقلُّ عن خمسة آلاف وثلاثمئة وواحد وستين (5361) شخصاً في الأسابيع الثلاثة الأولى مِن شهر آب، حين كانت الأجزاء القريبة مِن «**وابِنْغْ**» و«**راد كليف**» و«**روذر هيث**» (Rotherhith)، في ذلك الوقت نفسه، بالكاد متأثِّرة بالوباء، أو تأثَّرت به بصورة طفيفة جداً. ولأقلْ بكلمة واحدة، كما أسلفت من قبل: إنَّ للإدارة الجيِّدة التي اضطلع بها السيد العمدة، صُحبة القضاة، كبيرَ الأثر في منع غضب الناس ويأسهم منْ الانفجار والتحوُّل إلى حالة من الهرج والمرج. وبوجيز العبارة، منع ذلك الفقراء مِن نهب الأثرياء. أقول: على الرغم منْ أنَّ هذه الإدارة فعلت الكثير، فإنَّ عربات الموتى فعلت أكثر من ذلك. فكما قلت من قبل، لقد مات في الأبرشيَّات الخمس وحدها أزيد مِن خمسة آلاف (5000) في غضون عشرين يوماً. وهكذا، لربَّما أصيب ثلاثة أضعاف هذا الرقم بالطاعون هناك إبان تلك الفترة، ذلك أنَّ بعض هؤلاء كان يشفى، لكنَّ أعداداً غفيرة سقطت مريضة وخرَّت صريعة بعد ذلك. وعلاوة عليه؛ لا بُدَّ أنَّه مازال بإمكاني القول: إذا كانت قوائم الوفيات أعلنت أنَّ خمسة آلاف (5000) ماتوا مطعونين، فإني اعتقدتُ دائماً أنَّ العدد الصحيح قريبٌ من ضعف الرقم المذكور. فلا مجال للاعتقاد أنَّ العدد الذي قدَّمته كان صحيحاً، أو أنَّ الأمر كان مُتعلِّقاً بأنَّ القائمين على الأمر كانوا في حالةٍ من الارتباك، كما رأيت ذلك بنفسي، ما جَعَلَهُمْ غيرَ قادرين بأي حال من الأحوال على القيام بتعداد صحيح.

لكنْ، لأعد إلى رحَّالتي. فقد جرى هنا في «**أولد فورد**» التدقيق في أمرِهم، وإذْ بدا على هيأتهم أنَّهم قادمون مِن الريف لا المدينة، فقد تلقوا معاملة ليَّنة من الشرطة، إلى درجة أنَّهم تبادلوا معهم أطراف الحديث، وسمحوا لهم بالدخول إلى المقرِّ حيث يوجد مُفتِّش الشرطة وحرَّاسه، بل قُدِّم لهم الماء وبعض الزاد، ما منحهم النشاط والشجاعة. وخطر بِبالِهم، إذَّاكَ أنْ يقولوا، حين يجري استجوابهم بعد ذلك، إنَّهم قادمون مِن «**إسكس**» لا من لندن.

وقد قدَّم لهم مُفتِّش الشرطة في «**أولد فورد**»خدمة لتعزيز هذه الحيلة، وذلك حين منحهم شهادة أنَّهم قدموا من «**إسكس**»، عبر تلك القرية، وأنَّهم لم يكونوا مُقيمين في لندن. وعلى الرغم مِن عدم صحَّة ذلك من حيث التصور السائد لمدينة لندن، فإنَّه كان صحيحاً بالمعنى الحرفي، إذ إنَّ «**وابِنْغْ**» و«**راد كليف**» ليستا جزءاً مِن لندن ولا مما يحيط بها من مُتصرِّفيات. كانت هذه الشهادة الموجهة إلى الشرطي التالي، الذي كان في «**هومرتان**»، وهي إحدى القرى الصغيرة التابعة لأبرشيَّة «**هاكني**»، مفيدةً جداً لهم، بحيث لمْ تضمن لهم عبوراً سلساً هناك فقط، وإنَّما كانت بمثابة شهادة صحيَّة كاملة مِن قاضي

الصلح الذي منحها بناء على طلب الشرطيِّ دون أدنى تعقيد أو صعوبة، ومِن ثمَّ فإنَّهم استطاعوا المرور عبر بلدة «**هاكني**» الطويلة والمقسمة (لأنها كانت تقع حينها في عدة قرى صغيرة منفصلة ومتباعدة عن بعضها)، وواصلوا رحلتهم حتى وصلوا إلى الطريق الشمالي الرئيس عند قمة تلِّ «**ستامفورد**».

وقد بدأوا، في ذلك الوقت، يشعرون بالإعياء، ولهذا قرَّروا، لدى بلوغهم الشارع الخلفيَّ مِن «**هاكني**» وقبل انفتاحه على الطريق الرئيسيَّة المذكورة، أنْ ينصبوا الخيمة ويخيِّموا للمرة الأولى في ليلتهم تلك. وينبغي أن أضيف أنهم حين ألفوا حظيرة، أو مبنى يشبه الحظيرة، فإنهم عمدوا بعد أنْ قاموا بتفتيشها تفتيشاً دقيقاً للتأكُّد مِن عدم وجود أحدٍ داخلها، أقول عمدوا إلى نصب خيمتهم هناك جاعلين بابها من جهة الحظيرة. وقد فعلوا ذلك أيضاً، لأنَّ الرياح كانت تهبُّ بقوة تلك الليلة، وكانوا غير معتادين على هذا النوع من السُّكنى، فضلاً عن عدم تمرُّسهم في التعامل مع خيمتهم. وقد خَلَدوا، إثر ذلك، إلى النوم، ودخلوا في سُبات عميق. لكنَّ النجَّار؛ الرجل الصارم والرصين والممتعض من نومهم على هذا النحو اللامبالي في ليلتهم الأولى، لم يعرف إلى النوم سبيلاً، وقرَّر، بعد أنْ استلقى وحاول النوم دون فائدة، أنْ يخرج من الخيمة، ويأخذ البندقية بيده ويحرس رفاقه كجندي. وهكذا، راح يسير جيئة وذهاباً أمام الحظيرة، لأنَّها كانت مُقامة في الحقل المجاور للطريق، ولكنْ ضمن السياج. ولم يمض وقت طويل على خفارته حتى سمع جلبةً تُشير إلى أنَّ هناك أناساً قادمين، وبدا أنَّ عددهم كبير، وأنهم قادمون، كما أعتقد، نحو الحظيرة. ولم يقم، في تلك اللحظة، بإيقاظ رفاقه، لكنْ بعد مضي دقائق، وارتفاع الأصوات أكثر وأكثر، ناداه صانع البسكويت، وسأله عمَّا يجري، وما لبث أن هبَّ خارجاً هو الآخر. أما ثالثهم؛ صانع الأشرعة الأعرج الذي بلغ منه التعب مبلغاً، فقد بقي في سُباته داخل الخيمة.

وقد حصل ما توقَّعوه، فقد كان الأشخاص الذين سمعوا لغطهم يتقدمون مباشرة نحو الحظيرة. وحينها صاح أحد رحَّالتنا مُتحدِّياً، كما لو كان جندياً يقوم بالخفارة، «مَنْ هناك؟».

لم يُجبْ أولئك الأشخاص في الحال، لكنَّ واحداً منهم قال مُتحدثاً إلى شخصٍ آخر وراءه: وا أسفاه، يا لشقوتنا، لقد خاب أملنا تماماً، ها هنا بعض الناس الذين سبقونا إلى الحظيرة واستولوا عليها...!!

وقد توقَّف هؤلاء جميعهم بأثر من ذلك، وكأنما استولت عليهم المفاجأة. وقد كانوا، فيما يبدو، ثلاثة عشر شخصاً بمجموعهم الكلي، وكان من بينهم بعض النسوة، وقد انخرطوا في مشاورات فيما بينهم عمَّا يتوجب عليهم فعله، وما

لبث أن اكتشف رحَّالتنا، لدى سماع هؤلاء، أنَّهم مثلهم، مِن أغمار الناس، ومِن المكروبين الذين يبحثون عن مَأوى ومُلتَجَأ آمِن. وفضلاً عن ذلك، لا ينبغي لرحَّالتنا الخشية مِن أنَّ هؤلاء المكروبين جاؤوا لأذيتهم؛ ذلك أنَّهم حال سماعهم لعبارة: من هناك؟ استطاع رحَّالتنا سماع إحدى النساء تقول، كما لو أنَّها فزعة: «لا تقتربوا منهم، فما يُدرينا، لعلَّهم مصابون بالطاعون. وحين قال أحد الرجال: دعونا نتحدث إليهم فقط، ردَّت النساء: لا تفعلوا بأي حالٍ من الأحوال، لقد نجحنا في الفرار إلى هنا قاطعين كل هذه المسافة بفضل من الله، فلا تجعلونا ننزلق إلى التهلكة الآن، نتوسَّل إليكم.

وقد استنتج رحَّالتنا من هذا القول أنَّهم أناس طيِّبون ورزينون، وأنَّهم هاجروا من موطنهم طلباً للنجاة بأنفسهم فيما يبدو. ولأنَّ حالهم ذاك طمأنهم، فقد قال جون لرفيقه النجَّار:

- «دعنا نبثُّ الطمأنينة في نفوسهم أيضاً قدر ما نستطي**ع**»، ولذلك ناداهم قائلاً:

- اسمعوا أيها السادة الطيِّبون، لقد فهمنا من كلامكم أنكم فارُّون من العدوِّ المريع ذاته الذي ولَّينا منه هاربين، فلا تجزعوا منا، فنحن مجرَّد ثلاثة رجال مساكين. وإذا كنتم مُعافيين من الوباء فلنْ يَسوؤكُم منَّا شيء. نحن لسنا في الحظيرة، وإنَّما بحذائها، حيث نَنْصِب خيمتنا التي سنزيلها كُرمى لكم. فبمقدورنا أنْ نَنْصِبها ثانية في مكان آخر. وما إنْ انتهى مِن قوله حتى دارت مُحاورة بين النجَّار الذي كان اسمه رتشارد، وواحد من رجالهم الذي قيل إنَّ اسمه كان **فورد**.

- **فورد**: وهل تؤكِّدون لنا أنكم مُعافون جميعاً.

- **رِتشارد**: أجل، ليس هذا وحسب، فنحن معنيُّون بأنْ نعلمكم بذلك حتى لا تشعروا بالضيق، أو تعتقدوا أنَّكم في خطر. ولكنْ، كما ترون، ليس لدينا رغبة بتعريضكم لأي خطر. ولذلك، فإنِّي أخبركم أنَّنا لم نستخدم الحظيرة لأي غرض كان. وعليه، فإنَّنا سننتقل بعيداً بحيث تكونون في أمان، ونحن كذلك.

- **فورد**: هذا لُطف منكم وكرمٌ كبير. ولكنْ، إنْ كان لدينا سببٌ كاف للاعتقاد أنَّكم معافون وسليمون من المرض، فلِم نجعلكم تزيلون خيمتكم بعد أنْ استقرت أموركم في مُلتَجَئِكم، بعد أنْ آويتم، ربَّما، إلى مهاجعكم للراحة...؟! وعليه، فإنَّنا سنأوي إلى الحظيرة، إنْ سمحتم، لنريح أنفسنا قليلاً. وما مِنْ داعٍ للتسبُّب بإزعاجكم.

- **رِتشارد**: حسناً، ولكنَّكم أكثر منا عدداً، وآمل أنْ تؤكِّدوا لنا أنَّكم جميعاً مُعافون أيضاً، فالخطر منكم علينا كبير، كما هو كبير منا عليكم.

- **فورد**: سبحان الله...!! كيف نجا بعض الناس، على الرغم مِنْ قلَّتهم؟! ولا ندري ما سيكون نصيبنا، لكنَّ الربَّ حفظنا حتى اللحظة من الوباء.

- **رتشارد**: مِن أي جزء مِن البلدة أتيتم؟ وهل وصل الوباء إلى الأماكن التي كنتم تقيمون بها؟

- **فورد**: آه، يا سيدي. أجل وَصَلنا على نحو مُريع وفظيع، وإلا لَـما ولَّيْنا الأدبار على النحو الذي فعلناه، ولكنَّا نعتقد أنَّ فئة قليلة بقيت على قيد الحياة.

- **رتشارد**: مِنْ أي جزء أو منطقة أنتم؟

- **فورد**: غالبنا مِنْ أبرشيَّة «**كربل غيت**»، واثنان أو ثلاثة فقط مِن أبرشية « **كْليرْ كِنْوِلْ**»، لكنْ مِن الجانب المجاور.

- **رتشارد**: لِمَ لَمْ تُولُّوا هاربين في وقت أبكر من ذلك؟

- **فورد**: لقد غادرنا بيوتنا منذ وقت طويل. وبقينا سوياً بقدر ما نستطيع عند الجهة المجاورة لبلدة «**إزلنغتون**»، حيث سُمِحَ لنا أنْ نقيم في منزل قديم غير مأهول. وكان لدينا بعضُ الفُرُش والحاجات الضروريَّة التي أحضرناها معنا مِن جملة متاعنا. غير أنَّ الوباء نزل بـ «**إزلنغتون**» أيضاً. وانتقلت العدوى إلى المنزل الملاصق لمكان إقامتنا المتواضع، وجرى إغلاقُه. وهرعنا إلى هنا وقد استحوذ علينا الفزع.

- **رتشارد**: وأي طريق ستسلكون؟

- **فورد**: إلى حيث يأخذنا مصيرنا، لا ندري إلى أين، لكنَّ الربَّ يُرشد مَنْ يتضرَّعون إِليه.

وقد كفُّوا عن الحديث بعد ذلك، لكنَّهم وصلوا، جميعاً، إلى الحظيرة ودخلوها مُتجشِّمين بعض الصعوبة. وقد كانت خاوية إلا مِن القشِّ، لكنَّها امتلأت بهم تقريباً، واستطاعوا تدبُّر مكان لهم فيها ما أمكنهم ذلك، وأخلدوا إلى الراحة. بيد أنَّ رحَّالتنا لاحظوا أنَّهم جميعاً انخرطوا في الصلاة التي قادها شيخ كبير،

وهو أبٌ لإحدى النساء فيما يبدو، سائلين الربَّ بركته وسَدادَه قبل أن يغطّوا في نومهم.

وما لبث أنْ طلع الفجر في ذلك الوقت من السنة. وإذْ تولَّى رِتشارد النجَّار الخفارة في القسم الأوَّل من الليل، فإنَّ جون الجندي أراحه وتولَّى المهمة عند الفجر. وقد بدءا يألفان بعضهما بعضاً. وعندما غادرت المجموعة التي باتت في الحظيرة «**إزلنغتون**» بدا أنَّهم ينوون التوجه شمالاً، ويوغلون في سيرهم بعيداً حتى «**هاي غيت**»، ولكنْ، جرى توقيفهم عند «**هولو واي**»، ولم يسمح لهم بالمرور. لذلك فإنَّهم عبروا الجبال والتلال باتجاه الشرق وصولاً إلى «**النهر المركَّب**»[26].

وهكذا، لـمَّا تجنَّبوا البلدات والمدن، فقد تركوا وراءهم «**هورنزي**» على شمالهم و«**نيو إنجتون**» على يمينهم، وصولاً إلى الطريق الرئيسية من ذلك الجانب لـ«**ستامفورهِل**»، تماماً كما فعل الرحالة الثلاثة على الجانب الآخر.

وخطر ببالهم، بعد ذلك، أنْ يعبروا النهر إلى المستنقعات، والمضي قدماً إلى غابة «**إِبِنْغْ**»؛ حيث أملوا أنْ يُسْمح لهم بالراحة. ويبدو أنَّهم لم يكونوا فقراء، أو لم يكونوا، على أقلِّ تقدير، فقراء إلى درجة الحاجة وتكفُّف الناس، فقد كان لديهم ما يُقيم أَوَدَهم لشهرين أو ثلاثة، أيْ أنَّه لدى انقضاء هذه المدَّة، يكون الطقس البارد، كما قالوا، قد قضى على الوباء، أو على الأقل، أنَّ هذا الأخير قد انحسر، لأنَّه لم يتبقَّ هناك العديد من الناس الأحياء كي يصابوا بالطاعون.

وقد شابه مصير رحَّالتنا الثلاثة مصير هؤلاء، سوى أنَّهم كانوا مُجهَّزين للترحال بصورة أفضل، وعزموا على المضي قُدُماً. وقد كانوا في البدء، لا يرتؤون الابتعاد أكثر مِن مسيرة يوم، بحيث يكون بمقدورهم تلقِّي إخباريَّات كل يومين أو ثلاثة حول سير الأمور في لندن. وفي هذا الوقت بالذات، ألفى رحالتنا أنفسهم في خِضَمِّ مُعضلة غير متوقَّعة، وهي تتعلق بحصانهم. فلمَّا كان الحصان وسيلتهم لحمل أمتعتهم، فقد كانوا مجبرين على أنْ يسلكوا الطريق العامة. في حين شقَّت المجموعة الأخرى طريقها عبر الحقول أو الطرقات، سواء توافرت هذه الطرقات على ممرَّات سالكة أو لمْ تتوافر، أو طرق نافذةٍ أو غير نافذةٍ بيُسْر، فكانوا يسيرون كما يحلو لهم. فضلاً عن ذلك، لم يكنْ بهؤلاء أي حاجة للمرور بأي بلدة، أو الاقتراب مِن أخرى، اللهمَّ إلا مِن أجل شراء تلك الأشياء التي تقع في نطاق الضرورة القصوى.

وفي الحقيقة، لقد واجهوا فيما خصَّ هذه المسألة صعوبة كبيرة، وكانت في صالح رحَّالتنا. لكن رحَّالتنا الثلاثة كانوا مضطرين إلى السير على الطريق

العامة، وإلّا فإنَّهم سيضطرُّون إلى تخريب ما يعترضهم، وتعريض الريف لكثيرٍ من الضرر، وذلك بتخريب الأسْيِجَة والبوابات لعبور الحقول المسيَّجة. وقد كرهوا فعل ذلك ونأوا بأنفسهم عنه قدر استطاعتهم. ومهما يكنْ مِن أمر، فقد كانت لدى رحَّالتنا رغبة شديدة بالالتحاق بالمجموعة الأخرى ومشاركتهم في مصيرهم. فقاموا، ببعض النقاشات قبل أن يعمدوا إلى تنحية خطَّتهم الأولى التي كانت تستهدف السير شمالاً، وقرَّروا اتِّباع سير المجموعة الأخرى إلى «**إسكس**». وهكذا، فإنَّهم نهضوا صباحاً وقاموا بطيِّ خيمتهم وجعلوا متاعهم على حصانهم، وانطلقوا في سفارهم سوياً.

ولقد واجهتهم بعض الصعوبة في ركوب قارب عند ضفَّة النهر، ذلك أنَّ النوتيَّ ارتاب في أمرهم. ولكنْ، بعد أنْ فاوضوه قليلاً عن بُعد، رَضِيَ النوتيُّ أنْ يجلب قاربه إلى مكان بعيد بصورة ما عن نقطة المعبر المعتادة، ويتركه هناك ليأتوا ويأخذوه. وهكذا، بعد أنْ صعِدوا إلى متنه، أبلغهم أين يرسوه حين ينتهون مِن عبور النهر حتى يأتي بقاربه الثاني ويأخذه مِن جديد. لكنَّه لمْ يَفعل، فيما يبدو، لمدة تزيد على ثمانية أيام. وما إنْ أعطوا النوتيَّ النقود مُقدَّماً، حتى جلب لهم بعض المؤن والشراب ووضعه في القارب، لكنْ، كما أسلفت، بعد أنْ استلم النقود مُقدَّماً. غير أنَّ رحَّالتنا حينها، كانوا حائرين ولا يدرون ما يصنعون حيال صعوبة إدخال الحصان إلى القارب بسبب صغر حجم الأخير الذي لا يتناسب مع حجم الحصان. وفي آخر الأمر، عجزوا عن فعل ذلك، فعمدوا إلى إنزال الأمتعة عن ظهر الحصان وجعلوه يقطع النهر سِباحَةً.

وارتحلوا، بعد أنْ عبروا النهر، تجاه الغابة، حتى إذا أتوا «**والثام ستو**» أَبَى أهلُها أنْ يدخلوهم البلدة، بصورة مشابهة لما كانت عليه الحال في كل مكان. وأبقاهم مُفتِّشو الشرطة وأفرادها على مَبْعَدَة، وتحدثوا إليهم مِن مسافة آمنة. وقد قصَّ رحالتنا، صحبة رفقائهم من المجموعة الأخرى، القصَّة ذاتها التي رَوَوْها عن أنفسهم من قبل. غير أنَّ الشرطة لم تُصدِّق كلمة ممَّا قالوه، وعلَّلوا ذلك بأنَّ مجموعتين أو ثلاثاً قَدِمَت قَبْلَهم من تلك الطريق، وقدَّموا مزاعم مشابهة، لكنهم نقلوا العدوى للعديد من الناس في البلدات والمدن التي مرُّوا بها. ولم ينتفعوا من الريف بعد ذلك (وكان ذلك أمراً عادلاً ويستحقُّونه). فقد هلك، عند «**برنشوود**» أو قريباً منها، العديدُ منهم في الحقول؛ إمَّا بالطاعون، وإما بسبب الحاجة الماسَّة، أو الكرب الذي يعسُر وصفه.

وكان هذا، بِحقٍّ، سبباً قوياً يُفسِّر لِمَ تعيَّن على سكان «**والثام ستو**» أنْ يكونوا حذرين جداً، ولِم تَوَجَّب عليهم أنْ يُقرِّروا عدم استقبال أي أحدٍ إلا إذا حقَّق شرط السلامة الصحيَّة. ولكنْ، كما قال لهم رِتشارد النجَّار وواحدٌ من رجال

المجموعة الأخرى اللذَان تداولا معهم، لم يكن هناك مِن سبب لإغلاق الطرقات، ومنع الناس مِن العبور مِن خلال المدينة. فهؤلاء الناس لم يطلبوا منهم إلا الإذن بالمرور عبر الطريق العامة. وإذا كان هناك مِن أهل البلدة مَن تُداخله خشية مِن مرور هؤلاء العابرين، فما عليه إلا أنْ يُؤْوي إلى بيته ويُغلق عليه بابه. أما العابرون فلنْ يصدر عنهم مكروه أو معروف، وإنَّما سيمضون إلى سبيلهم. وقد بقي رجال الشرطة، ومَن معهم مِن الحراس، على عِنادهم بعد أنْ أَبَوا أنْ يستمعوا لصوت العقل. ولم يُلقوا آذاناً صاغية أو يأبهوا لكل ما قيل. وعليه، رَجع الرجلان اللذان تفاوضا معهم إلى رفقائهم للتشاور حول ما يتعين القيام به. وقد كان ذلك مُؤسفاً عامَّة، وظلُّوا، لفترة من الوقت، لا يدرون ما يصنعون. لكنْ، في نهاية المطاف، تفكَّر جون؛ الجندي وصانع البسكويت، في الأمر قليلاً ثم قال: تعالوا، ودعوا بقيَّة المداولات لي. ولم يكدْ يظهرْ حتى كلف رِتشارد؛ النجَّار، بالعمل على قَطع بعضِ جذوع الشجر وتشكيلها على هيئة بنادق بقدر ما يستطيع. وما هو غير وقت قصير حتى كان لديه خمس بنادق أو ستٌّ حسنة الصنع بصورة ما، بحيث لا يمكنُ تمييزها عن بعد. وفيما يتعلَّق بقفل البندقية فقد طلب إليهم أن يجعلوا قطعة قماش أو خِرَقاً مثل تلك التي كانت بحوزتهم، وذلك كما يفعل الجنود في الطقس الماطر، للحفاظ على أقفال قطع أسلحتهم من الصدأ. أمَّا ما تبقَّى من جسم البنادق الخشبيَّة فقد جرى تمويهُه بالطين أو الصلصال حيث اتَّفق لهم العثور عليه. وقد جرى ذلك كله، والبقيَّة يجلسون تحت الأشجار، حسب تعليماته، مُقسَّمين إلى مجموعتين أو ثلاث؛ إذ أشعلت كل مجموعة ناراً على مَبعدة من الأخرى، ثم تقدَّم بنفسه، رفقة رجلين أو ثلاثة، ونصبوا خيمة على إحدى الطرق غير بعيد عن الحاجز الذي أقامه رجال البلدة، أيْ في مرمى بصر هؤلاء الأخيرين. وأقام **جون** حارساً قريباً منها، وأعطي الحارس البندقيَّة الحقيقيَّة الوحيدة التي كانت لديهم. وأخذ يذرع المكان جيئة وذهاباً حاملاً بندقيته على كتفه، أي على نحو تُمكِّن أهل البلدة مِن رؤيته ورفاقه. كما عمد **جون** إلى ربط الحصان ببوابة السياج القريب جداً، وجلب بعض الأعواد الجافة وجعلها في حُزمة، ثم أشعل ناراً على الجانب الآخر من الخيمة بحيث يكون بمقدور أهل البلدة رؤية النار والدخان المتصاعد، ولكنْ، لا يمكنهم رؤية ماذا كانوا يفعلون حولها. وقد نظر أهل البلدة إليهم بعناية بالغة ولفترة طويلة، وممَّا استطاعوا أنْ يتبيَّنوه، ما كان بمقدورهم إلا أنْ يعتقدوا أنَّهم مجموعة كبيرة العدد. وقد بدأ أهل البلدة يشعرون بالضيق، بسبب مُكوثهم حيثُ هُم وعدم ابتعادهم. ليس هذا فحسب، وإنما تفاقَم ضيقُهم حين أدركوا أنَّ لدى هؤلاء أحصنة وأسلحة، ذلك أنَّهم شاهدوا حصاناً واحداً وبندقيَّة واحدة عند الخيمة، وشاهدوا آخرين منهم يتجوَلون في أنحاء الحقل في المنطقة الداخليَّة من السياج على جانب الطريق وهم يحملون، كما تَهيَّأ لهم، بنادِقَهم على أكتافهم. ولعلِّي أقول إنَّه لدى رؤية أهل البِلدة لذلِك، رُبَّما اعتقدوا، أيها القارئ، مثلي أنَّهم استنفروا

واستشعروا خوفاً شديداً. وقد توجَّهوا، فيما يبدو، إلى قاضي الصلح لمعرفة ما الذي يتعين عليهم فعله. أمَّا ما نصحهم به فهذا ما لا أدريه. ولكنْ، حين آذنت الشمس بالمغيب نادوا مِن عند الحاجز، على مَبْعدة كما حصل مِن قبل، على **الشرطيِّ** الذي كان يذرع المكان عند الخيمة.

- «ما الذي تريدونه»، قال **جون** [27].

- «ما شأنكم، ما الذي تنوون فعله؟»، صرخ **الشرطيُّ**.

- «أنْ نفعله؟!»، أجاب جون، «ما الذي تريدون منَّا أنْ نفعله»؟

- **الشرطيُّ**: لِمَ لا ترحلون؟ ما الذي يبقيكم هناك؟

- **جون:** لماذا توقفونا على الطريق «الملكية»، وتتجرَّأون على عدم السماح لنا بمواصلة طريقنا؟!

- **الشرطيُّ**: لسنا مُلزمين بإعلامكم عن أسبابنا. ومع ذلك، فقد أعلمناكم أنَّ الوباء هو السبب.

- **جون:** لقد أخبرناكم أنَّنا جميعاً سليمون ومُعافون، ولم نكنْ ملزمين بالنزول عند رغبتكم والإفصاح عن ذلك. وعلى الرغم مِن ذلك، فإنكم تتجرَّأون على إيقافنا ومنعنا مِن السير على الطريق العامَّة...!!

- **الشرطي:** إنَّنا نمتلك الحقَّ بايقافكم، ضَناً بسلامتنا التي تُحتِّم علينا ذلك. فضلاً عن ذلك، هذه ليست الطريق «الملكية»، إنها طريق «**مَكْس**». فكما ترون هناك بوَّابة، وإذا سمحنا للناس بالمرور فإنَّنا نفرض عليهم رسماً لقاء ذلك.

- **جون:** ونحنُ لدينا الحقُّ بالسعي لضمان سلامتنا مثلكم تماماً، وكما ترون فإنَّنا فارُّون للنجاة بأنفسنا، وممَّا ينافي الدين المسيحي والعدالة أنْ تمنعونا مِن ذلك.

- **الشرطي:** بإمكانكم العودة مِن حيث أتيتم؛ نحن لا نمنعكم مِن ذلك.

- **جون:** كلا، إنَّ ما يمنعنا مِن فعل ذلك لهو عدوٌّ أقوى منكم، وإلا لما كنَّا تجشَّمْنا عناء المجيء إلى هنا.

- **الشرطي:** حسناً؛ بإمكانكم أنْ تقصدوا أي طريق أخرى، إذنْ.

- **جون:** لا، وألفُ لا. أَظنُّ أنكِ ترى بأمِّ عينيْك أنَّنا قادرون على إبعادكم مِن هنا، أنتم وأهالي أبرشيَّتكم جميعاً، ثم اقتحام بلدتكم ذاتها متى شئنا. ولكنْ، لـمَّا أوقفتمونا هنا، فنحن راضون، وقد خيَّمنا هنا كما ترون، وهنا سنُقيم. ونتمنَّى عليكم أنْ تزودونا بالمؤونة.

- **الشرطي:** نحن نزودُّكم؟!

- **جون:** فيمَ استغرابك، لا أظنُّكم تريدون لنا الموت جوعاً. ولـمَّا أوقفتمونا هنا، بات مِن اللازم عليكم أن تمدُّونا بأسباب البقاء.

- **الشرطي**: إنْ اعتمدتم على إعاشتنا، فلنْ تكونوا في حال جيِّدة.

- **جون:** إذا بَخلتم وقَتَّرْتُم علينا، فإنَّنا سنحصل لأنفسنا حِصَصاً أفضل.

- **الشرطي:** لا، إنَّكم لنْ تجرؤوا على مهاجمتنا بالقوَّة وتتقاسموا معنا المكان، أليس كذلك؟

- **جون:** نحن لم نأت على ذكر العنف بعد. فلِمَ يبدو عليكم أنَّكم تدفعونا إلى ذلك دفعاً؟! إنَّي جنديٌّ عتيد، ولنْ أموت جوعاً، وإذا اعتقدتُم أنَّكم ستجبرونا على العودة طلباً للمؤونة، فقد جانَبَكُم الصوابُ.

- **الشرطي:** حسناً بما أنَّكم تهدِّدوننا، فإنَّنا سنلجأ إلى أقصى درجات القوَّة لمواجهتكم، كما أنَّ لديَّ أوامر بإثارة المقاطعة كلها ضدَّكم.

- **جون:** أنتُم مَن يَتهدَّدُنا، لا نحن. وبما أنَّكم تبغون الشرَّ فلا تلوموننا إنْ لم نُعطكم الوقت الكافي للتجهُّز له؛ إذْ سنبدأ زحفنا نحوكم خلال لحظات معدودات [28].

- **الشرطي:** ما الذي تُطالبون به؟

- **جون:** في المقام الأول، لا نريد منكم شيئاً إلا أنْ تسمحوا لنا بالمرور عبر البلدة، وعليكم ألا تتسبَّبوا بأي أذى لأي منا، ونحن سنلتزم بعدم التسبُّب بأي أذى أو خسارة لكم. لسنا لصوصاً، وإنَّما ناسٌ مساكين عصفت بهم المحنة، فعمدوا إلى الفرار مِن وَباءٍ مُريعٍ في لندن يُهلكُ آلاف الأرواح أسبوعياً. ونحن مُستغربون بشدَّة كيف تأتَّى لكم أنْ تكونوا بمثل هذه القسوة والفظاظة.

- **الشرطي:** غريزة البقاء تُجبرنا على ذلك.

- **جون:** كيف ذاك، كيف تخونون عواطفكم في مثل هذه الحال من البلاء...؟!

- **الشرطي:** حسناً، إنْ كنتم ستجتازون الحقول التي على جهة الشمال، وخلف تلك الجهة مِن البلدة، فسأسعى إلى جعل البوابات تُفْتَحُ لكم.

- **جون:** إنَّ سائسي الخيل الذين معنا لا يستطيعون المرور مع كل هذا المتاع الذي تحمله الأحصنة [29]، عبر تلك الطريق. فضلاً عن كونها لا تؤدِّي إلى الطريق التي نودُّ أنْ نسلكها، ولماذا تجبرونا على التخلي عن الطريق العامة؟ وثمَّة أمرٌ آخر، لقد أبقيتمونا طوال اليوم دون أي تموين، سوى تلك الموادِّ التي أحضرناها معنا. أعتقد أنَّ عليكم إرسال بعض المؤونة وإغاثتنا.

- **الشرطي:** إنْ سلكتم طريقاً آخر، فسنرسلُ لكم بعض المؤن.

- **جون:** إنَّ سلوكنا أي طريق أخرى سيضطرُّ بلدات المقاطعة جميعها إلى إغلاق جميع الطرق دوننا.

- **الشرطي:** إنْ زوَّدتكم البلدات بحاجتكم من الطعام، فأي ضائقة ستحلُّ بكم، ولاسيَّما أنَّي أرى لديكم خياماً، فلا حاجة لكم، إذن، لما يُؤويكم؟!

- **جون:** حسناً، كم سترسلون إلينا من المؤن؟

- **الشرطي:** كم عددكم؟

- **جون:** كلا، نحن لا نطلب ما يكفي لجميع مَنْ لدينا. إننا نتوزَّع في ثلاث مجموعات، فإنْ أرسلت لنا خبزاً يكفي عشرين رجلاً ونحو ست نساء أو سبع، لمدة ثلاثة أيام، وأرَيْتنا الطريق عبر الحقل الذي تتحدَّث عنه، فإنَّا لا نرغب في أن نتسبَّب لأهالي أبرشيَّتكم بأي خوف، سنغادر من طريق خارجيَّة رداً لجميل صُنعكم فينا، على الرغم مِن أنَّنا سالمون مِن العدوى مثلكم.

- **الشرطي:** وهل ستؤكِّد لنا أنَّ مَنْ تبقى معك مِن الناس لنْ يتسببَّوا لنا بأي بلبلة؟

- **جون:** لا ريْب، لا ريْب، يمكنك الاعتماد علينا.

- **الشرطي:** يجب أنْ تلزم نفسك أيضاً بأنْ يبقى مَن معك على مَبعدة خطوة من المكان الذي سنزوِّدك فيه بالمؤن.

- **جون:** ألتزم بما اشترطتَ، لنْ يصدُر عنَّا ما تخشاه.

- وبناءً على ذلك أرسلوا إلى المكان عشرين رغيفاً وثلاث قطعٍ كبيرةٍ من اللحم البقري الجيِّد أو أربعاً، وفتحوا بعض البوابات التي عبرت منها المجموعات الثلاث، لكنْ، لم يكن لدى أي من الأهالي الشجاعة الكافية للنظر إليهم ورؤيتهم وهم يُغادرون. ولو نظروا لما كان بمقدورهم أنْ يتبيَّنوا قلَّة عديد هؤلاء، وذلك بسبب هبوط الظلام.

كان هذا مِن حُسن تدبير **جون** الجنديِّ. لكنَّ هذا أطلق حالةً مِن الفَزع في عموم الريف إلى درجة أنَّه حتى لو كان عديدُهم، فعلياً، مائتين أو ثلاثَمائة، إذنْ لقام الريفُ بأجمعه ضدَّهم ولَألْقوهم في السجن، أو لربَّما سحقوا رؤوسهم.

وما لبثوا أنْ أدركوا فداحة الأمر، فقد التقوا، إثر ذلك وعلى امتداد يومين، غيرَ مجموعةٍ مِن الخيَّالة والمشاة تتعقَّب ثلاث مجموعات من الرجال المسلَّحين ببنادق المسكيت كما قالوا. وأضافوا أنَّ تلك المجموعات انطلقت مِن لندن، وأفرادها يحملون الطاعون، وقد نشروا الطاعون في أرجاء الريف، بل ونهبوه...!!

وإذْ أدركوا عواقب فعلتهم، فإنَّهم ما لبثوا أنْ استشعروا الخطر الذي كان يُحدق بهم. وعليه، فقد قرَّروا الأخذ بنصيحة الجندي الخبير؛ جون، وذلك بتقسيم أنفسهم مرَّة أخرى. فذهب **جون** مع رفيقيه والحصان، كما لو كانوا متجهين صوب «**والثام**»، وانقسم الآخرون إلى مجموعتين، واتَّجهتا نحو «**إِبِنْغْ**»، بعد أن احتفظ كل فرد مِن كلتا المجموعتين بمسافة تفصله عن رفقائه قليلاً.

وفي الليلة الأولى، نزلوا جميعاً في الغابة، ليس بعيداً عن بعضهم بعضاً، لكنَّهم لم ينصبوا الخيمة؛ مغبَّة أن يكتشفهم أحد. من ناحية أخرى، ذهب رِتشارد للعمل مع بَلطته وفأسه، وقطع بعض الأغصان من الأشجار، وبنى ثلاثَ خيامٍ أو أكواخٍ، حيث أقاموا جميعاً بأقصى راحة يمكن أنْ يتوقَّعوها.

لقد أمَّنت لهم المؤن التي ابتاعوها من «**والثام ستو**» خدمة وافرة تلك الليلة. أما بالنسبة إلى اليوم التالي، فقد تركوا أمره للعناية الإلهية، وسارت أمورهم على أحسن ما يرام بفعل التدابير الحكيمة للجندي المُتمرِّس فجعلوه قائداً

عليهم بطيب خاطر، إذْ يبدو أنَّ تدبيره الأول كان جيِّداً جداً. وقد أخبرهم أنَّهم الآن قد ابتعدوا مسافة كافية مِن لندن؛ ما يعني أنَّهم ليسوا معتمدين على الريف فيما يحتاجونه مِن الأشياء. وبناء عليه، يتعين عليهم ألا يلتقطوا العدوى مِن الريف، ولا أنْ يتسبَّبوا للريف بالعدوى، ويتعين عليهم أنْ يقتصدوا قدر استطاعتهم لقلَّة ما في حوزتهم مِن المال. إذْ لم يكن يرغب البتَّة في مُقارفة أي صورة من صور العنف مع أهل الريف، فقد آلى عليهم أنْ يتفهَّموا وضعهم بين هؤلاء بأقصى ما يستطيعون. وقد نزلوا تحت تعليماته والتزموا أوامره، فتركوا أكواخهم الثلاثة قائمة وغادروا في اليوم التالي إلى «**إِبِنْغْ**».

أما «**القائد جون**»، كما غدوا يدعونه الآن، وزميلاه المسافران بعد أن نحَّيا جانباً تصميمهما الخاصَّ بالذهاب إلى «**والثام**»، فقد ذهبوا جميعاً معاً إلى «**إِبِنْغْ**» أيضاً.

عندما اقتربوا من «**إِبِنْغْ**» توقَّفوا، وتَخَيَّروا مكاناً مناسباً في الغابة غير الكثيفة، ليس قريباً جداً من الطريق العامة، ولكنْ ليس بعيداً عنها، في الجانب الشمالي، تحت مجموعة صغيرة من أشجار بولارد المنخفضة، حيث نصبوا مخيَّمهم الصغير، الذي يتألَّف من ثلاث خيام كبيرة أو أكواخ مصنوعة من الأعمدة الخشبيَّة، التي تولَّى نجارُهم، ومَن انضمَّ إليه كمساعد، أمْرَ قطعها وتثبيتها في الأرض بصورة دائريَّة، ثم عمدوا إلى ربط أطرافها العليا المستدقَّة معاً، وأحاطوا جوانبها بحيث تُربط الأطراف الصغيرة جميعُها معاً، في الأعلى، وتُكثَّف الجوانب بأغصان الأشجار والشجيرات، بحيث تكون متلاصقةً تماماً ودافئة. بالإضافة إلى ذلك، كانت لديهم خيمة صغيرة حيث ترقد النساء بمفردهنَّ، وكوخ لإيواء الحصان.

وقد صادف اليوم التالي، أو الذي يليه، «**يوم السوق**» في «**إِبِنْغْ**»، وعندها ذهب **القائد جون** وأحد الرجال الآخرين إلى السوق واشتريا بعض المؤن، أيْ: الخبز، وقليلاً من لحم الضأن، ولحم البقر. وذهبت امرأتان وحدهما، وكأنهما لا تنتميان إلى البقيَّة، واشترتا المزيد من المؤن، في حين أخذ **جون** الحصان مع الحقيبة، التي حمل النجَّار أدواته فيها، ونقل المؤن إلى حيث يقيمون. أما النجَّار فقد ذهب إلى العمل، وصنع لهم مقاعد وكراسي ليجلسوا عليها، وما يشبه طاولة الطعام، وذلك بمقدار ما أتاحه الخشب الذي توفَّر عليه.

لم يشعر أحد بوجودهم مدة يومين أو ثلاثة، ولكنْ بعد ذلك، هُرع جَمعٌ غفيرٌ من الناس من البلدة للنظر إليهم، وأخطر الريف أجمعه بوجودهم. وبدا الناس في البداية وَجِلين من الاقتراب منهم، ومِن ناحية أخرى، عمد بعضهم إلى تحذير الناس من الاختلاط بهم، لأنَّ ثمة شائعة تفيدُ بأنَّ الطاعون قد حلَّ في

«**والثام**»، وأنه نَزل في «**إِبِنْغْ**» منذ يومين أو ثلاثة أيامٍ. لذلك، صرخ **جون** عليهم طالباً منهم ألا يأتوا إليهم، لأنَّه، كما يقول: نحن جميعاً ها هنا، أناسٌ أصحَّاء لم يَمْسسنا سوء، وسليمون من الطاعون. لا نريدكم أنْ تجلبو الطاعون إلينا، ولا أنْ تزعموا بأنَّنا جلبناه لكم.

بعد ذلك، جاءهم مسؤولو الأبرشيَّة وتحدَّثوا إليهم من مسافة بعيدة، وأرادوا أنْ يتعرَّفوا عليهم، مُتسائلين بأي حقٍّ أتوا وتجرَّأوا على التخييم في ذلك المكان. فأجاب **جون** بصراحة شديدة: أنَّهم كانوا فقراء بائسين من لندن، ممَّن توقَّعوا الكرب الذي كانوا بالغيه، إذا انتشر الطاعون في المدينة، ففرُّوا في الوقت المناسب هرباً بحياتهم، وليس لديهم أي معارف أو أقرباء ليسافروا إليهم، فنزلوا في محَطَّتهم الأولى في بلدة «**إزلنغتون**»، ثم رحلوا عنها حال وصول الطاعون إليها. ولأنَّهم افترضوا أنَّ سكان «**إِبِنْغْ**» ربما سيرفضون قدومهم إلى بلدتهم، فقد نصبوا الخيام في الحقل المفتوح على النحو الذي ترون، وفي الغابة، مُتأهِّبين لتجشُّم مَشاقِّ مثل هذا المسكن المُوحش كافَّة، عِوض أنْ يفكر أي شخصٍ أو يخشى مِن أنْ يتعرَّض للأذى بسببهم.

في البداية تحدَّث معهم أهالي «**إِبِنْغْ**» بفظاظةٍ، وأخبروهم بأنَّه يتحتَّم عليهم الجلاء؛ فما هذا المكان بمحلِّ إقامة لهم. وأضافوا قائلين: إنَّ هؤلاء النازحين زعموا أنَّهم سليمون موفورو الصحة، لكنَّهم قد يكونون مصابين بالطاعون دون أنْ يدروا بذلك البتَّة. ولعلهم ينقلون العدوى إلى الريف أجمعه. ولنْ يسمحوا لهم، إذاك، بالبقاء في المكان.

وقد جادلهم **جون** بهدوء بالغ لفترة طويلة، وقال لهم: إنَّ أهالي «**إِبِنْغْ**» وأهالي الريف المحيط بها اعتاشوا جميعاً على لندن، فقد كانوا يبيعون فيها غِلال أراضيهم، ويتحصَّلون على إيراداتهم لقاء مزروعاتهم. وعليه، فإنَّ التعامل بفظاظةٍ مع أهل لندن، أو مع أي مِن هؤلاء الذين أكسبوهم كثيراً مِن المال، يُعدُّ أمراً قاسياً. وسيتذكَّره أهل لندن بكثير من الاشمئزاز في قادم الأيام، وسيُشيعون في الأخبار كم كان أهل الريف همجيين، وغير مضيافين، وقساة في تعاملهم مع اللندنيين عندما لجأوا إليهم فارِّين من وجهِ أفظع عدُوٍّ في العالم. ليس هذا وحسب، فمنْ شأن هذه الفظاظة أنْ تجعل أي رجلٍ ينتسبُ إلى «**إِبِنْغْ**» مكروهاً في أرجاء لندن جميعها، وأنْ تحمل الرعاع على رجمهم بالحجارة في وسط الشارع، كلما قَدِموا إلى السوق، وأضاف **جون** أنَّ أهل «**إِبِنْغْ**» ليسوا في مأمن من الإصابة بالطاعون، مثلما حلَّ بـ «**والثام**» كما سمع. ومن شأن أهل الريف أنْ يعتقدوا أنَّه لأمر بالغ الفظاظة إنْ أحدٌ منهم فرَّ خوفاً قبل أنْ يلتقط العدوى، ثم يُصار إلى حرمانه مِن حريَّة النزول في العراء.

وعاد رجال «**إِبِنْغ**» ليبلغوهم، أنَّه قد سبق لهؤلاء النازحين، في الواقع، أنْ أخبروهم أنَّهم سليمون وخالون من العدوى، ولكنَّ هذا لا يشكل ضمانة لديهم، فقد تمَّ الإبلاغ عن وجود مجموعة كبيرة من رعاع الناس في «**والثام ستو**»، مِمَّن قدَّموا مثل هذه المزاعم بأنهم سليمون، لكنَّهم هدَّدوا بنهب البلدة، وعبورها غصْباً، سواء أَذِنَتْ لهم سلطات الأبرشيَّة أو لَم تأذنْ. وقد قيل إنَّ عددهم بلغ قرابة المئتين، وكانت لديهم أسلحة وخيام مثل جنود «**الأراضي المنخفضة**» (هولندا)، وأنَّهم انتزعوا المؤن مِن البلدة عبر تهديدهم بإنفاذ قانون حقِّ الجنود في مقاسمة المدنيين مَعايِشَهُم، وإظهار أسلحتهم، والتحدُّث بلغة الجنود. وكان العديد منهم، كما قيل، قد ذهبوا بعيداً نحو «**رومفورد**» و«**برنت وود**»، وأنَّهم حملوا العدوى للريف، وانتشر الطاعون في هاتين المدينتين الكبيرتين، حتى بات الناس لا يجرؤون على الذهاب إلى السوق هناك كالمعتاد، ومِن المحتمل جداً أنَّ هؤلاء الذين يفترشون الحقول كانوا جزءاً مِن هذه المجموعة، وإذا كان الأمر كذلك، فإنَّهم يستحقُّون أنْ يتمَّ إرسالهم إلى سجنِ المقاطعة، ويُحْجزوا إلى أنْ يُسدِّدوا ديونهم تعويضاً عن الدمار الذي أحدثوه، وعن الإرهاب والذعر اللذين عرَّضوا الريف لهما.

أجاب **جون** أنَّ ما فعله الآخرون لا علاقة لهم به، وأكَّد أنَّهم جميعاً مجموعة واحدة، وعددهم لم يكن قط أكبر ممَّا كانوا عليه حين رأوهم في ذلك الوقت؛ (الأمر الذي كان دقيقاً للغاية) فلقد غادروا في مجموعتين منفصلتين، لكنهم عادوا ليلتقوا على الطريق، بسببٍ مِنْ تشابه أحوالهم. وهم على استعداد لتقديم أي معلومات شخصيَّة لأيٍ من الراغبين بذلك، وتقديم أسمائهم وأماكن إقامتهم، كي يتمَّ استدعاؤهم ومحاسبتهم عن أي خراب ربما تسببوا به.
وأضاف **جون:** لعلَّ الريفين يرون، كذلك، أنَّ الهاربين من جحيم طاعون لندن قانعون بالعيش في أحوال شديدة الشظف، وأنَّ كل ما يريدونه هو مساحة صغيرة تكون مُتنفَّسهم في الغابة حيث الجو الصحي، ولولا ذلك ما أقاموا فيها، ولَعَمدوا إلى تفكيك خيامهم فور وُجْدانِهم إياها خلاف ذلك.

لكنْ، قال الريفيُّون، لدينا ما يكفينا من مسؤوليات تُجاه الفقراء القابعين بَيْن ظهرانينا، وعلينا ألا نُفاقم مِن عددها. ونفترض أنَّه ليس بمقدوركم أنْ تمنحونا أي ضمان بألا تكونوا عبئاً على أبرشيَّتنا والأهالي القاطنين فيها، فضلاً عن كونكم لا تستطيعون أن تضمنوا بأنَّكم لستم مصدراً للعدوى.

أوه.. اسمع يا صديقي، قال جون، ثمَّ أردف: فيما يتعلق بكوننا عبئاً عليكم، فإنَّا نرجو ألا نكون كذلك؛ وإنْ كنتم ستُنجدوننا بالمؤن الضرورية، فسنكون لكم مِن الشاكرين. ولـمَّا كنَّا جميعاً لا نعتاش على الصدقة عندما كنَّا في مَوطننا،

فسنُلزم أنفسنا بردِّ ما أجزَيتم كاملاً إذا قدَّر الله لنا أنْ نعود إلى عوائلنا ومنازلنا آمنين، وإذا قدَّر أنْ يردَّ العافية إلى أهل لندن.

أمَّا ما يتعلق بموتنا هنا، فنؤكِّد لكم أنَّه إذا مات أي منا، فنحنُ الباقين على قيد الحياة سندفنُهم، دون أنْ تَتحمَّلوا أي نفقة، ما لم نهلك أجمعين، ومِن ثَمَّ، لنْ يتمكَّن آخرُ امرئٍ مِنْ أنْ يدفن نفسه؛ ما سيَضعكم إزاء تلك النفقة الوحيدة، التي وفق قناعتي، سيتركُ هذا المتوفَّى الأخير ما يكفي وراءه كيْ يجزيكم على فعلكم.

مِن ناحية أخرى، يقول جون، إذا قُمتم بإسكات أصوات الرحمة الباطنيَّة جميعها، ولمْ تنجدونا على الإطلاق، فلنْ نبتزَّ أي شيء بالعنف، أو نسرقَ مِنْ أي شخصٍ. ولكنْ، عندما يفنى القليل الذي في حوزتنا، إنْ هَلَكنا عوَزاً، فإنَّها مشيئةُ اللهِ.

لقد مارست عقلانيَّة **جون** وَرِقَّةُ حديثه مع أبناء البلدة فعلَها، فانصرفوا عنهم. وعلى الرغم مِن أنَّهم لم يمنحوا موافقتهم على بقاء هؤلاء المساكين، فإنَّهم لمْ يَتَحَرَّشوا بهم، وبقي هؤلاء الأخيرون لثلاثة أيام أو أربعة دون أي إزعاج. وقد أقاموا، إبَّان ذلك، علاقة عن بُعد مع مؤسَّسة غذائيَّة تجاريَّة في الضواحي الخارجية للبلدة، حيث اتصلوا بهم عن بُعدٍ لجلب ما يرغبون به مِن بعض الحاجيَّات التي تكفَّل رجال المؤسسة باحضارها ووضعها على مسافة ما، وكانت المجموعة المقيمة في الحقول تدفع لقاء ذلك بأمانةٍ بالغة.

كان شُبَّان البلدة، في الأثناء يقتربون منهم كثيراً، وسَيَقِفون وينظرون إليهم، وعمدوا أحياناً إلى محادثتهم مع الإبقاء على مسافة فاصلة بينهم. وأقاموا القُدَّاس جماعة، وسمعوا وهم يتلون بعض آيات سفر المزامير.

بدأت هذه الأمور، مع السلوك الهادئ المُسالم، في استجلاب انطباعٍ حَسَنٍ حيالَهم، وبدأ الناس يُشفقون عليهم ويُثْنون عليهم في أحاديثهم، وكانت عاقبةُ ذلك أنْ أرسل إليهم رجلٌ نبيلٌ، يعيش في الجوار، عَربةً صغيرةً مع اثنتي عشرة حُزمة أو رَبْطة مِن القشِّ، في لَيلةٍ مَطيرةٍ شديدة الرطوبة، ليرقدوا عليها، ولتغطية أكواخهم وسُقُفِها بالقشِّ وإبقائها جافَّة، وأرسلَ لهم قسُّ الأبرشيَّة، الذي يقطن غير بعيد، نحو بوشلين [30] من القمح ونصف بوشل مِن البازلاء البيضاء، مِنْ غير أنْ يعرف ما فعله الرجل النبيل.

وبلا ريب، لقد أعربوا عنْ بالغ شكرهم لجهود الإغاثة، وبخاصَّة أنَّ القشَّ كان نجدةً كبيرة لهم، لأنَّ النجَّار العبقريَّ صنع لهم حواضِنَ خشبيَّة للاستلقاء فيها

مثل المعالف، وملأها بأوراق الأشجار، وأشياء أمكنهم الحصول عليها، وقطّع قماش خيمتهم بأكمله ليتَّخذ منه أغطية، ومع ذلك ظلَّ فراشُهم رطباً، وصلباً، وغير صحيٍّ حتى جاء هذا القشُّ الذي كان لهم مثل أَسِرَّة الريش، وقد كان احتفاؤهم بها، كما قال جون، أَشَدَّ مِن احتفائهم بأَسِرَّة الريش في الأحوال العاديَّة.

وقد بادر هذا النبيل وذلك القسُّ، على هذا النحو، وقدَّما مثالاً على العمل الخيريِّ تُجاه أبناء السبيل، وسَرعان ما تَبِعَهما آخرون، وكان هؤلاء المساكين يتلقَّون كل يوم بعض الإحسان أو غيره مِن الناس، ولكنْ، بشكل رئيسيٍّ مِن النبلاء الذين قطنوا في الريف المحيط بالبلدة؛ فأرسل بعضُهم الكراسي، والمقاعد، والطاولات، وأغراضاً منزليَّة، حالَ إرسال إشعارٍ بما يريدون. وأرسلَ بعضٌ آخر بطانياتٍ وبُسُطاً وأغطيةً وبعضَ الأواني الفخَّارية وبعضَ أدوات المطبخ لإعداد الطعام.

وإذْ بعث ذلك الفعلُ الحميد الهمَّة في نفس النجَّار، فقد ابتنى مُتَوَفِّزاً بهذا العُرْف الكريم، في غضون أيام قليلة، سقيفةً كبيرة أو منزلاً ذا عوارض خشبيَّة، وسَقفٍ مُستوٍ وأرضيَّةٍ مُرتفعةٍ، حيث استقرُّوا ناعمين بالدفء، لأنَّ الطقس بدأ يغدو رطباً وبارداً في مطلع أيلول. لكنَّ هذا المنزل، الذي دُعِّم بالقشِّ، وغَدَتْ جوانبُه -كما سَقْفُه- سميكةً جداً، قد توقَّى البرد وأبقاه خارجاً على نحوٍ مُحْكَم. وصنعَ النجَّار أيضاً جداراً طينياً في أحد جوانب المنزل، وجعل داخل هذا الجدار مدخنة. في حين صنع آخرون منهم، بقدرٍ كبير من المشقَّة والآلام، قِمعاً للمدخنة لِصَرْف الدخان إلى الخارج.

وقد عاشوا، هنا، على نحوٍ مريح، وإنْ لم يَخْلُ مِن الخشونة، حتى مطلع أيلول، عندما وردت إليهم أخبار تسوء السامعين، سيَّان في كارثيَّتها صحَّتُها أو كذبُها، ومَفادُها أنَّ الطاعون، الذي كان شديد الضراوة في «**والثام** آبي» مِن جهة، وفي «**رومفورد**» و«**برنت وود**» من الجهة الأخرى، قد وصل أيضاً إلى «**إِبِنْغْ**»، و«**وودفورد**»، ومعظم البلدات الواقعة في الغابة التي، كما قالوا، سقطت في عداد المناطق الموبوءة، بشكل رئيسي بسبب الباعة الجائلين وأمثالهم من الأشخاص الذين تنقَّلوا ببضاعتهم التموينيَّة بين لندن والريف.

إذا كان هذا الخبر صحيحاً، فإنه يُمثِّل تناقُضاً بَيِّناً مع ذلك التقرير الذي انتشر بعد ذلك في جميع أنحاء إنجلترا. ولكنْ، كما قلتُ، لا يمكنني تأكيد ذلك، بناء على معلوماتي الخاصة، ومؤدَّاها أنَّ أهل السوق الذين كانوا يحملون المؤن إلى المدينة لم يمسسهم الطاعون، أو لم يحملوه معهم وهم عائدون إلى الريف. وقد أُكِّد لي أنَّ كلا الأمرين خاطئان.

قد يُفسَّر الأمر بأنَّ هؤلاء الباعة قد نجوا بصورة تفوق حدودَ التوقّع، دون أن يبلغ ذلك حدود المعجزة. فقد قصد العديدُ منهم لندن، وعادوا دون أن يمسَّهم الطاعون؛ ما مثَّل حافزاً للمساكين مِن أهل لندن. إذْ كان مِن المؤكد أنْ تعصفَ بهم يدُ الـمَنون لو لَم تُكتب النجاة، غَيْرَ مرَّة وبصورة مُدْهشة، لِـمَنْ كانوا يجلبون الطاعون، أو لنقل: لقد نجوا على نحو غير متوقَّع، ولكنْ بصورة معقولة.

لكن هؤلاء النازحين الجدد إلى الحقول أخذوا، حينئذ، يقلقون على نحو مُؤثِّر، لأنَّ البلدات التي تُحيط بهم موبوءة بالفعل، وبدأ الواحد منهم يحذَر مِن الآخر حذراً شديداً، ولا يأتمنه في الذهاب خارج المكان وجَلْب ما يحتاجُه، كما يريدون. وعليه، فقد وقعوا في كَربٍ عظيم. فمُذَّاك، ما عاد لديهم سوى القليل، أو لا شيء سوى ما جاد به عليهم أعيان الريف في البلدة. ولكنْ، ما بعثَ فيهم الأملَ مِن جديد أنَّ بقيَّة أعيان الريف، الذين لم يرسلوا لهم شيئاً مِن قبل، بدأوا يسمعون بهم ويمدُّونهم بالمعونات، فأرسل لهم أحدُ الأعيان خنزيراً كبيراً، أيْ «خنزيراً سميناً»، وأرسل آخر خروفَيْن، في حين أرسل ثالثٌ عِجْلاً. وبإيجاز، كان لديهم ما يكفي مِن اللحوم، وأحياناً توفَّر لديهم الجبن والحليب، وما شاكَلَهما، لكنَّهم كانوا في عوز بشكل رئيسيٍّ لصناعة الخبز، لأنَّه عندما أرسل لهم الوجهاء القمح لم يكن لديهم مكان لخَبزه أو طحنه؛ ما جعلهم يأكلون أوَّل بوشل (مكيال) مِن القمح جرى إرساله، وكان حِنْطَة جافَّة، مثلَ الإسرائيليين القدماء، دونما طَحْنٍ أو خَبْز.

وقَدْ، توصَّلوا، آخر الأمر، إلى وسيلة لنقل القمح إلى طاحونةٍ هوائيَّة بالقرب مِن «**وودفورد**»، حيث طُحن؛ وبعد ذلك، حفر خبَّاز البسكويت حُفْرة عميقة في منطقة جافَّة، فيما يشبه الفرن، بحيث يخْبز فيها الأرغفة بصورة مقبولة. وهكذا، أصبحوا في وضع يَسمح لهم بالعيش دون أي مساعدة أو إمداداتٍ مِن البلدات الأخرى. وحَسناً فعلوا، لأنَّ البلاد جميعَها باتت بعد فترة وجيزة مُصابة بالطاعون. وقيل إنَّ زهاء مئة وعشرين (120) شخصاً هلكوا بالطاعون في القرى القريبة منهم، وكان ذلك مُفزعاً لهم.

وقد عقدوا مُشاوراتٍ جديدةً فيما بينهم بصدد هذه الأخبار، وما عادت هناك خشية لدى أي بلدة من أنْ يستقرَّ هؤلاء بالقرب منها؛ فقد ترك العديدُ من العائلات الأفقر مَنازلَهم وبنوا أكواخاً على النحو ذاته الذي فَعَلَه هؤلاء. لكنَّ الذين جَلَوا، قد أُصيبوا بالمرض حتى في أكواخِهم أو خِيَمِهم. وكان سببُ ذلك واضحاً، أيْ ليس لأنَّهم رحلوا إلى العراء، ولكنْ، لأنَّهم تأخَّروا في ذلك، فلم يرحلوا قبل أنْ يَختلطوا دون تحفُّظ بغيرهم مِن الجيران، فحلَّ الطاعون بهم، أو (كما يمكن أنْ يقال) بينَ بَعضهم. وهكذا، نقلوا الطاعون أنَّى ارتحلوا، وهذا

هو السبب الأوَّل. أمَّا السبب الثاني، فلأنَّهم لم يكونوا حَريصينَ بما فيه الكفاية، بعدَ جلائِهم بأمانٍ عَنْ البلدات، على عدم الرجوع مرَّة أخرى والاختلاط بالمرضى مِن النَّاس.

ومهما كان السبب، فعندما بدأ رحَّالتنا يدركون أنَّ الطاعون لم يتَقَوْقَع في البلدات فحسب، وإنما حلَّ في الخيام والأكواخ في الغابة القريبة منهم. حينها، لم يداخلهم الجزع فحسب، وإنما شرعوا بالتفكير في تفكيك مُخيَّمهم وإزالته، لأنَّهم لو بَقوا، لباتوا في خَطرٍ بَيِّنٍ على حياتهم.

لا ريب في أنَّهم قد نُكبوا، لـمَّا اضطرُّوا إلى مغادرة المكان الذي استُقبلوا فيه بلُطف، وحيثُ عوملوا بقدرٍ كبيرٍ مِن الإنسانيَّة والإحسان، لكنَّ الحاجة وصدوف الحياة التي جعلتهم يرتحلون ويبتعدون، كل هذه المسافة، ظلَّت تلازمهم، فرأوا ضرورة الخروج. وقد سيطرت تلك المصادفة، دون أنْ يتمكَّنوا مِنْ رؤية أي مخرج. ومع ذلك، فكَّر **جون** في علاجٍ لمحنتهم الحاليَّة، أيْ أنَّه سيُعلِمُ أوَّلاً ذلك الرجل المحترم الذي كان الـمُتبرِّعَ الرئيسيَّ لهم، بالكَرْب الذي يرزحون فيه، وأنَّه يلتمسُ مُساعدته ونُصحه.

شجَّعهم النبيل الطيِّب الـمُحسن على ترك المكان، خشيةَ أنْ يُغلَقَ دونهم أي مُلتجأ، بسبب استشراء الطاعون. لكنَّه واجه صعوبة كبيرة في توجيههم إلى المكان الذي ينبغي أنْ يفرُّوا إليه. وأخيراً، سأله **جون** هل سيَمنحهم شهاداتٍ صحيَّة (كونه قاضي صلح) إلى قُضاة آخرين، قد يصادفونهم في طريقهم بحيث لا يكون الرفض مَصيرَهم بعد أنْ مضى على مُفارقتهم لندن أمدٌ بعيد، وذلك بغض النظر عمَّا قُدِّر لهم. ولقَدْ منحهم سيادة القاضي هذه الشهادات دون إبطاء، ومُذَّاك باتوا أحراراً في السفر حيثُما يشاؤون.

وفقاً لذلك، حازوا شهادة صحيَّة كاملة، تشير إلى أنَّهم قد أقاموا في قرية في مقاطعة «**إسكس**» فترةً طويلة، حيث فُحصوا ودُقِّق في وضعهم الصحِّي على نحوٍ كافٍ، بعد أن حُجِروا عَن أي اختلاطٍ بغيرهم مدة تزيد على أربعين (40) يوماً، دون أنْ تظهر عليهم أي أعراضٍ للمرض. وعليه، تمَّ التوصُّل إلى أنَّهم أشخاص سليمون على نحوٍ أكيد، وبمقدورهم أنْ يتمتعوا بالأمان في أي مكان، وما جلاؤهم أخيراً إلا فِرارٌ من الطاعون الذي حلَّ في هذه البلدة، لا لوجود أي إشارة للعدوى لديهم أو لدى مَنْ ينتمي إليهم.

بهذه الشهادة جَلَوا عن البلدة، بتثاقُل شديد الوطأة. وبسبب نزوع **جون** إلى عدم الارتحال بعيداً عن موطنهم (في لندن)، فقد ارتحلوا نحو الأهوار على جانب «**والثام**». لكنهم عثروا، هناك، على رجل يعملُ قَيِّماً على السَّد أو البوابة

النهريَّة التي أقيمت، لرفع مستوى المياه من أجل المراكب التي تذهب صعوداً ونزولاً أدنى النهر، وقد أرعبهم بالقصص المفزعة عن الطاعون الذي استشرى في جميع البلدات الواقعة على النهر، وبالقرب منه، إلى جانب «**ميدلسكس**» و«**هيرتفورد شاير**»؛ ما يعني في «**والثام**»، و«**والثام-كروس**» (Waltham-Cross)، و«**إنْفيلد**» (Enfield) و«**وير**» (Ware)، وجميع البلدات القابعة على الطريق، بحيث كانوا يخشون السير في تلك الطريق. لقد أرعبهم، مع أنَّه يبدو قد دلَّس عليهم، لأنَّ ما رواه لم يكن صحيحاً حقاً.

على الرغم من ذلك، أرعبتهم تلك الروايات، وعزموا على الانتقال عبر الغابة نحو «**رَمْفورد**» و«**برنت وود**». لكنَّهم سمعوا أنَّ عدداً مِن الأشخاص قد فرُّوا مِن لندن سالكين هذه الطريق، وأقاموا في الغابة التي تُدعى «**هينالت فورِسْت**» (Henalt Forest)، واصلين قريباً من «**رَمْفورد**». وإذْ لم تتوافر لديهم مُؤن للإقامة، فقد عاشوا أحوالاً بائسة وقاسية في الغابات والحقول تفوق الوصف، لشُحِّ المساعدات الإغاثيَّة. حتى إنهم باتوا، كما قيل، يائسين للغاية لما عانوه مِن شدائد، فتسبَّبوا بالعديد من أحداث العنف في المقاطعة، كالسرقة والنهب، وقتل الماشية، وما شابه ذلك، في حين استجدى الإغاثة آخرون، بَنَوا أكواخاً وزرائب على جانب الطريق، بإلحاحٍ مُنفِّر لدى الأبواب، ما تأتَّى عنه اضطرابٌ في المقاطعة، فاضطرَّت إلى اعتقال بعضهم.

وقد أعطاهم هذا، في المقام الأول، إشارة أنَّ ما تلقوْه من لُطف التعامل مِن بلدة «**إِبِنْغْ**» سيستحيل، يقيناً، إلى غلظة وصدود مِن ناحية. ومِن ناحية أخرى، سيجري استجوابهم أنَّى حلُّوا، وسيكونون مُعرَّضين لخطر تلقِّي العنف من المترحِّلين أمثالهم.

وقَدْ عاد قائدُهم جون، بالإنابة عنهم جميعاً، وتَبعاً لهذه الاعتبارات كلها، إلى صديقهم العزيز وفاعِل الخير الذي أحسنَ إليهم مِن قبل، وعَرض قضيَّتهم عليه بصورة حقيقيَّة، طالباً نصيحته بأدبٍ جمٍّ، فنَصحهم بلطفٍ أنْ يستعيدوا مساكنهم القديمة مرَّة أخرى، فإنْ لم يرغبوا فعليهم أنْ يبتعدوا قليلاً عَن الطريق، ووجَّههم إلى مكان يُناسبهم. ونظراً إلى رغبتهم الأكيدة في أنْ يُؤيهم منزلٌ عوضاً عن الأكواخ في ذلك الوقت من العام، فقد أوغلوا أكثرَ صَوْبَ «**مِكِلْمِسْ**» (Michaelmas)، فوجدوا منزلاً قديماً مُتضعْضعاً، كان في السابق كوخاً صغيراً أو مسكناً صغيراً، لكنَّه باتَ حينها في حالة مُزْرية وغير صالحٍ للسكن تقريباً. وقد وافق صاحب المزرعة التي يقوم بها المسكن أن يفيدوا منه بقدر ما يستطيعون.

شرعَ النجَّار العبقريُّ والبقيَّة أجمعون، بالعمل في المسكن وفق توجيهاته، وفي غضون أيام قليلةٍ جعله قادراً على إيوائهم جميعاً في أثناء الأحوال الجويَّة الصعبة. وقد حوى المسكن مدخنةً وفُرناً قديمين، كانا تحت الأنقاض، ومع ذلك، جعلوهما مُناسبين للاستخدام. وإذْ رفعوا مُلحقات المسكن والسقائف والعوارض الخشبيَّة في كل جانب، بات المنزل قادراً على استيعابهم أجمعين.

لقد احتاجوا بشكل أساسيٍّ إلى الألواح، في صُنع النوافذ البابيَّة، والأرضيَّات والأبواب والعديد مِن الأشياء الأخرى. ولكنْ، نظراً إلى توصية النبيل المحسن التي مَنحها إياهم كما أسلفنا مِن قبل، تيسَّرت مُعاملاتهم في الريف. وفوق كل ذلك، بات مِن المعروف أنَّهم جميعاً سليمون وبصحَّة جيِّدة؛ ما جعل الجميع يُبادرون إلى إعانتهم بما يمكنهم توفيره.

لقد خيَّموا هنا، أجمعين، وللأبد، وقرَّروا ألا جلاء بعد الآن. لقد رأوا بوضوح مدى الخطر الرهيب، الذي يتهدَّد أي شخصٍ يأتي مِن لندن إلى تلك المقاطعة، في كل مكان، وألا رجاء أنْ يحظوا بأي قبول في أي مكان، إلا بأقصى قدرٍ مِن الصعوبة. وفي أدنى تقدير، لنْ يجدوا حَفاوة الاستقبال وحُسن العون الوديَّ على النحو الذي ألْفوه هنا.

وعلى الرغم مِن تلقِّيهم مُساعدةً كبيرةً وتشجيعاً مِن وُجهاء الريف، والنَّاس مِنْ حولهم، فإنَّهم واجهوا صُعوبات جمَّة، فبرودة الطقس ورُطوبته قد ازدادت في شهرَيْ تشرين أوَّل وتشرين ثاني، بما لم يعتادوا على مُواجهته مِن قبل؛ بحيثُ أُصيبوا بالبرد في أطرافهم، وبأمراضٍ أخرى، لكنَّهم لم يُصابوا بالطاعون مُطلقاً. وهكذا، عادوا، في شهر كانون أوَّل، إلى بيوتهم في المدينة مرَّة أخرى.

أوردُ هذه القصَّة بصورة عامَّة وعلى نحوٍ أساسيٍّ، لتقديم رواية عمَّا حدث للأعداد الضخمة من الأشخاص الذين ظهروا على الفور في المدينة، بمجرد أنْ خفَّت حدَّة المرض، لأنَّ عدداً كبيراً ممَّن امتلكوا القدرة وملاذاتٍ في الريف لجأوا، كما أسفلت، إلى بيوتهم الريفيَّة. وكذلك، عندما بلغت ضراوة الطاعون حدَّها الأقصى، مثلما أشرت، هرب الأشخاص البسطاء مِمَّن لا أصدقاء لديهم، إلى أرجاء الريف جميعها، حيث يمكنهم أنْ يحصلوا على مأوى، في حين فرَّ الأغنياء كذلك طلباً للنجاة، ومثلهم أولئك البؤساء الذين أعوزهم المال إعوازاً شديداً. ولقد بلغ الأغنياء، في هروبهم، أبعد الحدود لقدرتهم على إعالة أنفسهم بأنفسهم، لكنَّ أولئك الذين كانوا في فقر مُدقع واجهوا، كما أسلفت، مصاعب جمَّة، ودُفعوا، في كثير من الأحيان، بحكم الضرورة المُلحة إلى التخفيف من وطأة معاناتهم على حساب الريفيِّين، فاشتدَّ عليهم هؤلاء الأخيرون. ولقد تقبَّلوهم أحياناً، مع أنَّهم نادراً ما كانوا يعرفون كيف سيتعاملون معهم، وكانوا

دائماً بالغي التردُّد في مُعاقبتهم، لكنَّهم علاوةً على ذلك أجبروهم، في غالب الأحيان، على الترحُّل مِن مكان إلى آخر، حتى اضطرَّ بعضهم للعودة مرَّة أخرى إلى لندن.

منذ معرفتي بقصَّة **جون** وأخيه هذه، استفسرت ووجدتُ، أنَّ هناك عدداً كبيراً من الفقراء البائسين، كما أسلفت، فرُّوا إلى الريف بشتى السُّبُل، وبعضهم حصل على أكواخٍ صغيرة أو حظائر ومَبان خارجيَّة للعيش فيها، حيث كان بمقدورهم تلقِّي مُعاملة رحيمة في الريف، وبخاصَّة عندما تتوافر لديهم رواية مُرضية عن رحيلهم، ولاسيَّما إذا لم يأتوا مِن لندن متأخِّرين جداً. لكنَّ آخرين، وهم في أعداد كبيرة، بَنوا لأنفسهم أكواخاً، مُبتعدين عن الطرق، باتجاه الحقول والغابات، وعاشوا كما النُّساك في الحُفر والكهوف، أو أي مكان مناسب يجدونه، حيث عانوا، يقيناً، مِن تطرُّف شديد. ومِن ذلك، حين أُجبر العديد منهم على العودة إلى المدينة مرَّة أُخرى مهما بلغ الخطر. وقَدْ جرى العثور على تلك الأكواخ الصغيرة في كثيرٍ مِن الأحيان فارغة، وكان سكَّان الريف يفترضون أنَّ ساكنيها قد ماتوا فيها بالطاعون، فلم يقتربوا منهم خوفاً، إلا بعد انقضاء فترة طويلة. وليس من المستبعد في بعض الأحيان أنْ يموت بعض التعساء في مُنْعَزَلهم التامِّ وقد غاب مَن يُعينهم، أو في هروبهم، كما هي الحال في إحدى الخِيم أو الأكواخ، حيث عُثِرَ على رجل ميِّت، وقد حُفِرَت الكلمات التالية بسكِّينه على بوَّابة حقلٍ بجواره بأحرُفٍ غير مُتساوية، ويُستَخلص منها ربَّما أنَّ الرجل الآخر قد هرب، أو أنَّ أحدهم مات أولاً، فدفنه الآخر قدر استطاعته:

يا حبيبي!

نحن، كلانا سنموت

يا ويلنا، يا ويلنا

لقد قدَّمتُ، فيما سبق، رواية لما ألْفَيتُه مِنْ حالٍ أسفلَ النهر، بين النوتيَّة، وكيف ترسو السفن في عرض النهر، كما يطلق عليه، في صفوف أو خطوط، يتحاذى فيها الجزء الخلفي من السفن، نزولاً من البِركة الصغيرة وعلى مَدِّ بَصَري. ولقد قيل لي إنَّها ترسو بالطريقة نفسها أسفل النهر تماماً، بمستوى انخفاض «**جريفْسِنْد**» (Gravesend)، وبعضُها يرسو أبعد منها، بل في الأرجاء كافَّةً، وبالأحرى: في أي مكانٍ تستطيع أنْ تبحر فيه بأمان تبعاً لحال الرياح والطقس. ولم أسمع قَطُّ أنَّ الطاعون وصل إلى أي مِن الأشخاص القابعين على متن تلك السفن، باستثناء ما كان يرسو منها في البِركة، أو أبعد مِن ذلك

وصولاً إلى «**دِبْفورد ريتْش**» (Deptford Reach)، مع أنَّ الناس اعتادوا الذهاب عبر الساحل إلى البلدات والقرى الريفيَّة ومنازل المزارعين لشراء المؤن الطازجة، والدواجن، والخنازير، والعجول، وما يُشابهُها، والتزوُّدِ بها.

وبالمثل، ألفيتُ النوتيَّة في النهر فوق الجسر، قد اجتهدوا للابتعاد أعلى النهر قَدْرَ استطاعتهم، وجعل العديد منهم عائلاتهم بأكملها، في قواربهم المُغطَّاة بالأشرعة والأقمشة المستعملة (أو الـ«**بالة**»، كما يدعونها)، والمفروشة بالقشِّ، حيث يُقيمون. وقد ألفيتُهم يرسون، هكذا، طوال الوقت بالقرب مِن الشاطئ في الأهوار، وبعضُهم نَصبَ خياماً صغيرةً مِن أشرعة القوارب، يرقدون داخلها على الساحل نهاراً، ويبيتون في قواربهم ليلاً. وبهذا النسق، مثلما سمعت، كان جانِبا النهر مُترابطيْن مع القوارب والناس، طالما توافر لديهم أي شيء للعيش عليه، أو يمكنهم الحصول عليه من الريف. وبالتأكيد، كان الريفيُّون كما الوُجهاء وغيرهم، في هذه المناسبات وفي جميع المناسبات الأخرى، يُبادرون إلى نجدتهم، لكنَّهم لم يكونوا قطُّ مُستعدِّين لاستقبالهم في بلداتهم ومنازلهم، وهو سلوكٌ لا يُمكننا لومُهم عليه.

ثَمَّةَ مُواطنٌ تَعِسٌ، تَناهى إليَّ أمرُه، حلَّ الطاعون في بيته على نَحْوٍ مُريع، حتى تُوِيَتْ زوجتُه وجميع أبنائه، ولم يبق سواه واثْنان مِن خدمه، مع امرأة عجوز وثيقة القرابة به كانت تَولَّتْ تمريضَ مَن ماتوا قَدرَ استطاعتها.

وآوى هذا الرجل البائس إلى قرية بالقرب من البلدة، لكنَّها ليست ضمن مسؤوليَّتها الإداريَّة ولا تدخل ضمن قائمة وفياتها، وقد وجد منزلاً فارغاً هناك، فاستفسر عن المالك واكتراه. وبعد أيام قليلة حصل على عَربة وحمَّلها بالبضائع، وحملها إلى المنزل.

عارض أهلُ القرية إدخاله العربة إلى القرية، ولكنْ ببعض الجدل والمغالبة، دخل الرجال الذين قادوا العربة عبر الشارع إلى باب المنزل، وهناك اعترضَهم الشرطي مرَّة أخرى، ولم يسمح لهم بإحضارها.

لكنَّ الرجل عمد إلى إِنزال حمولة العربة ووضعها عند الباب، ثم صرف العربة، ما اضطرَّ الشرطة إلى جلبه أمام قاضي الصلح، أو بالأحرى أمره رجالها بالذهاب إلى القاضي وامتثل للأمر. وقد طالبه الأخير بإحضار العربة ونقل الحمولة إلى خارج القرية، فرفض الامتثال لطلبه. فأمر القاضي الشرطيَّ بمطاردة سائقي العربة وإعادتهم، وإكراههم على إعادة تحميل البضائع ونقلها إلى وجهةٍ أخرى، أو وضعها في المخازن ريثما تَرِدُ أوامرُ إضافيَّة. وإذا لم يتمكنوا مِن العثور عليهم، ولم يُوافق الرجل على أخذ الحمولة بعيداً، فعليهم

أنْ يعمدوا إلى جَذْبها بخُطّافات مِن باب المنزل وإحراقها في الشارع، ما أجبرَ الرجل البائس المكروب على التخلُّص مِن الحمولة، مع الصراخ والعويل الـمُفجع على مآلاتِ حالته المُضنية، ولكنْ دون جدوى، فقد أرغمت الرغبة في البقاء والحفاظ على الذات الناس على هذه القسوة التي ما كانوا ليُمارسوها لولا ذلك.

وسواء أعاش أم مات، فليس بمقدوري أنْ أعرف عن هذا الرجل البائس شيئاً، سوى خبر إصابته بالطاعون آنذاك. ولرُبَّما فَبْرَك الناسُ ذلك لتبرير قسوتهم حياله. لكنْ، لَيسَ مِن المستبعد، أن يكون هو أو ما جلبه مِن بضائع، أو كلاهما، مَصدراً للعدوى، فقد كانت عائلته بأكملها قد ماتت بالطاعون، قبل فترة وجيزة.

أعلم أنَّ سكان البلدات المجاورة للندن قد جرى لَومُهم لقسوتهم على الفقراء الذين فرُّوا مِن العدوى في مِحنتهم، وحدثت أشياء كثيرة قاسية جداً، كما يتَّضح ممَّا قيل. لكنْ، لا يسعُني إلا أنْ أقول أيضاً: إنَّه حيثما كان هناك مَجال للإحسان ومساعدة الناس، دون أنْ يترتَّب على ذلك خَطرٌ واضح يتهدَّدهم، كانوا على استعداد كافٍ لمساعدتهم ونجدتهم. ولكنْ، بما أنَّ كل بلدة كانت في الواقع تقضي في دعواها، فإنَّ الفقراء الذين هربوا إلى الخارج، وهم في أقصى حدود محنتهم، غالباً ما تعرَّضوا إلى سوء المعاملة، وأوصدت دونهم بوابات القرى، وقد تسبَّب هذا بهتافات وصَيْحات لا حصر لها ضدَّ البلدات الريفيَّة، وجعل الصخب شائعاً إلى حدٍّ بعيد.

وبعدُ، سواء زاد الصخب أو قلَّ، وعلى الرغم مِن حَذَرِهم، وبصورة قلَّت أو كثرت، فما مِن بلدةٍ، مهما تضاءلت شهرتها، تقع في مُحيط دائرة يبلغ قُطرُها عشرة أميالٍ (أو أعتقد عشرين ميلاً) من المدينة، إلا وحلَّ فيها الطاعون بشراسة تتفاوت مِن بلدةٍ إلى أخرى، لكنَّها شهدت جميعاً وفيات بسببه. ولقد سمعت إحصاءاتٍ عن العديد منها، وفق ما احتُسب على النحو التالي:

قوائم البلدات والقرى في محيط لندن، وأعداد الوفيات في كل منها

المكان	الوفيات	المكان	الوفيات	المكان	الوفيات

في إنفيلد	32	هيرتفورد	90	برينت وود	70
في هورنسي	58	**وير**	160	رومفورد	109
في نيوينجتون	17	هودسدون	30	باركينغ أبت.	200
في توتنهام	42	والثام أب.	23	برانفورد	432
في إدمونتون	19	إبينج	26	كينغستون	122
في بارنت وهادلي	43	دِتْفورد	623	ستانيس	82
في سانت ألبانس	121	غرينيتش	231	تْشيرْتْسي	18
في واتفورد	45	لوسوم	85	وندسور	103
في أوكس بْرِدج	117	كرودون	61		
المجموع	494	المجموع	1329	المجموع	1136

الجدول الحادي عشر

وثمَّة أمرٌ آخر قد يجعل أهل الريف أشدَّ صرامةً في تعاملهم مع سكان المدينة، والفقراء على نحوٍ خاصٍّ، وهو ما أشرتُ إليه مِن قبل، أي أنَّه كان هناك نزوعٌ بَيِّنٌ أو انحرافٌ شرِّير، لدى المُصابين، لنقل العدوى للآخرين.

وقَدْ جرت آنذاك نقاشاتٌ واسعة بين أطبائنا حول السبب، فعزا بعضهم ذلك إلى طبيعة المرض، وأنَّه يَدمغُ كل مَن يقع في إساره بنوع مِن الغضب والكراهية ضدَّ بني جنسه، كما لو كان هناك خُبْثٌ في الطاعون لا ينحصرُ في نشره العدوى فقط، وإنما في طبيعة الإنسان ذاتها؛ إذ تُحيلُه بإرادة شرِّيرة، أو عين شرِّيرة، إلى حالة الكلب المسعور الذي على الرغم مِن كونه ألطف مخلوق قبل أنْ يُصاب بالمرض، فإنه سيقفز بعد ذلك ليعضَّ أي شخصٍ يقترب منه، حتى أولئك الذين كان يحرسهم مِن قبل.

قام آخرون بتصنيف هذا السلوك في خانة فساد الطبيعة الإنسانيَّة التي لا تستطيع تحمُّل أنْ ترى نفسها أشدَّ بُؤساً مِن الآخرين مِن بني جنسها، وأنَّ لديها نوعاً مِن الرغبة اللاإرادية في أنْ تجعل الرجال جميعاً غير سُعداء، أو في ظرف سيئ، على النحو الذي تجده في ذاتها.

في حين يرى آخرون أنَّه لا يزيد على كونه نوعاً مِن اليأس الذي يجعلهم غيرَ مُدركينَ لما فَعلوه، واستتباعاً فإنَّهم لا يأبهون بسلامة أي شخص بالقرب منهم، بل لا ينشغلون بسلامتهم الخاصة. وفي الواقع، عندما يصل الأشخاص إلى حالةٍ مِن التخلِّي عن أنفسهم، ولا يهتمُّون بالسلامة، أو الخطر الذي يَتَهَدَّدهم، لا ينبغي أنْ نعجبَ كثيراً عندما نراهُم مُهملين فيما يتعلَّق بسلامة الآخرين.

لكنِّني اخترتُ أنْ أُعطي هذا الجدل السَّاخن مُنعطفاً مُختلفاً تماماً، وأجيبَ عليه أو أحلَّ عُقدة كل شيءٍ فيه بالقول: إنَّني لا أُسلِّمُ بحقيقة ما تقدَّمَ مِن تحليلات. وعلى العكس مِن ذلك، أقول: إنَّ الأمرَ ليس كذلك حقاً، لكنَّه يتعلق بشكوى عامَّة رفعها سكانُ القُرى النائية ضدَّ سكان المدينة لتسويغ ما فعلوا، أو على الأقلِّ، إعْذارهم فيما صدر عنهم مِن سلوكات قاسية ومُؤْذية سَرتْ في أحاديث الناس. ويمكن أنْ يُقال إنَّ كلا الجانبين قد آذى الآخر، أي أنَّ المواطنين يضغطون على الريفيِّين لاستقبال النازحين عن المدينة، وتوفير المأوى لهم في وقت الشدَّة، ويشتكون، وهم حاملون للطاعون مِن قَسوة سكان الريف وظُلمهم، لرفضهم إيواء النازحين إليهم، وإجبارهم على العودة مرَّة أخرى، مع أحمالهم وأُسَرِهم. أما الريفيُّون، الذين ألفوا أنفسهم إزاء واقع مفروض يقتحم فيه المواطنون بلداتهم بغضِّ النظر عن مُوافقتهم أو رفضهم، فيشكون مِن سكان المدينة لكونهم عندما أصيبوا، لم يكونوا مُهملين تجاه الآخرين فحسب، وإنما توافرت الرغبة لديهم بنقل العدوى إليهم. ولم يكن أي

من الأمرين صحيحاَ حقّاَ، أي تبعاَ للوصوفات المبالِغة التي وُصف بها كلا الفريقين.

ومن الصحيح، ما يمكن أنْ يقال في هذا السياق عَن الإنذارات المُتكرِّرة التي أخطر الريف بها، والخاصة بعزم الناس في لندن على النزوح عنها ودخول الريف عُنوة، لا طلباً للنجدة فحسب، وإنما للنهب والسرقة أيضاً. وقيل أيضاً إنهم ركضوا، وهم هائمون على وجوههم في الطُرُقات، وعلامات الطاعون باديةٌ عليهم، بلا أدنى سيطرة على سلوكاتهم، وأُشيع كذلك أنَّ السلطات لم تُعنَ بإغلاق مَنازل المصابين، ولم يُحْجَر المرضى للحُؤولِ دون تسبُّبِهم بنقل العدوى للآخرين. بينما، مِن أجل إنصاف أهل لندن، ينبغي القول إنَّهم لَم يمارسوا مثل هذه الأشياء قطُّ، باستثناء حالاتٍ بأعيانها كالتي ذكرت، فضلاً عمَّا شابهها مِن حالات. ومِن ناحية أخرى، أُديرَ كل شيءٍ بعناية شديدةٍ، وقد روقِبَ هذا النظام المميَّز في المدينة بأكملها كما في الضواحي، بعناية كل من: السيِّد العمدة وأعضاء المجلس البلدي، وقضاة الصُّلح، والقَيِّمين على الكنيسة، وغيرهم في الأجزاء الخارجية. ولعلَّ ذلك يُكرِّس لندن نَموذجاً لمدن العالم جمعاء، مِن حيث الحكم الرشيد والتنظيم المميَّز الذي روعِيَ في كل مَكان، حتى إبَّان العدوى الأشدَّ ضراوةً، وعندما كان الناس في أقصى الفزع والمحنة. لكنَّ هذا ممَّا سأفْرِدُ الحديثَ عنه.

وثمَّة شيء واحد يجب أنْ نسجِّله ممَّا يُدانُ به أساساً لحكمة القضاة، وينبغي ذكره تشريفاً لهم، وأعني الإشراف المنظم الذي استخدموه في العمل الضخم والصعب، المُتمثِّل بإغلاق المنازل. وإنْ يكن من الصحيح القول، كما ذكرت، أنَّ إغلاق المنازل شكَّل موضوع سخط واسع، ويمكنني واقعياً أنْ أقولَ إنَّه الموضوع الوحيد الذي أثار السخَطَ بين الناس في ذلك الوقت، لأنَّ حَجْرَ المُعافى في المنزل ذاته مع المريض عُدَّ فِعلاً فظيعاً للغاية، وكان جُؤار شكاوى الأشخاص المحجورين على نحو تامٍّ مؤلماً كثيراً، وقد وصل إلى الشوارع وكان في بعض الأحيان يُثير سخط السامع، وإنْ استدعى الشفقة في غالب الأحيان. إذْ لم يكن لديهم أي وسيلة للتحدُّث مع أي مِنْ أصدقائهم سوى نوافذ منازلهم، حيث كانوا يَبُثُّون مثل هذا العويل المثير للشفقة الذي يستثير قلوب مَن يتحدَّثون معهم، مثلما يستثير قلوب العابرين في الشوارع ممَّن أصغوا إلى قصصهم.

ولـمَّا كانت تلك الشكايات في كثير من الأحيان توبيخاً لقسوة الحرَّاس على أبواب منازلهم، وأحياناً، تنديداً بغطرستهم، فقد كان الأخيرون يردُّون بوقاحة، وأحياناً يكونون على استعدادٍ لإهانة مَنْ في الشارع مِمَّن يتحادثون مع العائلات

المحجورة. ولهذا السبب، أو لِسُقْمِ معاملتهم لتلك العائلات، أعتقدُ أنَّ سبعةً مِن الحُرَّاس أو ثمانيةً في أماكن عِدَّة قد قُتلوا.

لا أعرف إذا ما كان ينبغي عليَّ القول إنَّهم قُتِلوا جُرْماً أم لا، لأنَّني لا أملك صلاحية الولوج في صُلب قضايا معيَّنة. من الصحيح أنَّ الحراس كانوا يزاولون واجِبَهم، ويُمارسون العمل في المكان الذي وُضعوا فيه بسُلطةٍ قانونيَّة، ومِن الصحيح أنَّ قتل أي مُوظَّفٍ قانونيٍّ عامٍّ خلال تأدية واجبه، يُطلَقُ عليه دائماً بلغة القانون: جريمة، ولكنْ، بما أنَّهم لمْ يُفَوَّضوا بموجب تعليمات القاضي، أو مِن قِبل إلسلطة التي تصرَّفوا بموجبها ليكونوا مُؤذين أو مُتَعَسِّفين تجاه الأشخاص الذين أوكل إليهم أمر مُراقبتهم، أو أي شخصٍ اهتمَّ لأمر الأشخاص المحجورين، لذلكِ بمقدور المرء أنْ يقول إنَّهم كانوا يتصرفون مِن تِلقاء أنفسهم، لا تنفيذاً لأوامر إداريَّة، وإنَّهم تَصَرَّفوا كأشخاص عاديين، لا كمُستخدمين. واستصحاباً، فإذا جلبوا الأذى إلى أنفسهم عبر مثل هذا السلوك غير المناسب، فقد جنوا على أنفسهم. وبالفعل، لقد حَظوا بغَيرِ قليلٍ مِن اللعنات الساخطة، سواء أكانوا يستحقُّونَها أم لا، حتى إنَّه مهما أصابهم فلن تجد أحَداً يُشْفقُ عليهم، وكان كل شخص مُستعداً للقول: إنَّه يستحقُّ ذلك، مَهما أصابه...!! ولا أتذكر أنَّ أي شخصٍ عوقِبَ، على الأقل إلى أي درجة جسيمة، بسبب ما فعل للحراس الذين كانوا يحرُسون منزله.

لقد أتيت، فيما سبق، على ذكر الحيل المتنوعة للهروب والخروج من المنازل المغلقة أو المشموعة؛ تلك الحيل التي خُدع بها الحراس وفرَّ إِثْرَها مَن كان محجوراً في المنازل. وعليه، لنْ أستفيض في ذلك. لكنِّي أقول: إنَّ القُضاة مارسوا التنظيم والتخفيف عَن الأُسَر في العديد مِن المناسبات ذاتِ الصلة بقضية إغلاق المنازل، ولاسيما في حالة نقل المرضى أو السماح بإجلائِهم مِنْ هذه المنازل، حالما يكون هؤلاء المرضى على استعداد للانتقال إمَّاً إلى مَشفى الأمراض الوبائية، وإما إلى أي مكان آخر. وفي بعض الأحيان، مُنِحَ الأشخاص المُعافون في الأُسرة الإذن بالانتقال مِن المنزل المغلق، بناء على معلومات تفيد بأنَّهم أصحاء، على أنْ يَحْجُروا أنْفُسَهُم في تلك المنازل التي ذهبوا إليها، طالما طُلب مِنْهم ذلك.

وإنَّ اهتمام القُضاة بتزويد تلك العائلات الفقيرة التي كانت مُصابة؛ أقول: إنَّ تزويدهم بالضرورات، والدواء كما الطعام، كان رائعاً للغاية، ولم يكتفوا فيه بإصدار الأوامر اللازمة للضباط المُعَيَّنين، لكنَّ أعضاء المجلس المحلي، بحضورهم الشخصي وعلى ظهور الخيل، كانوا كثيراً ما يتَّجهون إلى مثل هذه المنازل، ويُسائلون السكان وهم يُطلُّون مِن نوافذهم، إذا ما جرى تقديم الخدمات لهم كما يتوجب أم لا؟ وإذا ما كانوا يريدون أي شيء ضروريٍّ، وإذا

ما كانت الشرطة توصل رسائلهم باستمرار، وهل أحضرت لهم الأشياء التي يريدونها أم لا؟ فإنْ ردُّوا بالإيجاب، مَضى كل شيء على ما يرام، أما إذا اشتكوا مِن سوء الإمداد، وأنَّ الشرطة لم تُؤدِّ واجبها، أو لم تُعاملهم بطريقة مدنيَّة، فإنَّها (أي الشرطة) تُعْزَلُ بصورة عامَّة، وتُستَبْدلُ بغيرها.

صحيحٌ أنَّ مثل هذه الشكوى قد تكون مُجْحِفَةً، فإنْ كان لدى الشرطيِّ بُرهانٌ ليستخدمه في إقناع القاضي أنَّه كان على حقٍّ، وأنَّ الناس قد آذوه، فإنه سيستمرُّ في عمله، ويوبِّخونهم. بيد أن هذا الإجراء لا يمكن أنْ يقدِّم تحقيقاً استقصائياً حقيقياً، لأنَّه يتعذَّر سماعُ أطراف النزاع في الشارع، ومن النوافذ، على نحوٍ مُلائم، كما كانت عليه الحال في ذلك الوقت. لذلك، اختارَ القُضاة عُموماً مُحاباةَ الناس، وعَزلَ الشرطيِّ، كونه يبدو الخيار الأقلَّ خطأً وعواقبهُ أقلَّ سوءاً. وحتى لو لحق الحارس أذى، فيمكنهم إصلاح الأمر بسهولة؛ بمنحه عملاً آخر مِنْ جِنْس وَظيفته. ولكنْ، إذا أُصيبت الأسرة، فلا سبيل لإرضائها، ولرُبَّما لا يُمكن إصلاح الضرر، حالما يتَعلَّق بحياة أفرادها.

وقد حدثت مجموعةٌ مُتنوِّعة وكبيرة من هذه الحالات بين الحرس والفقراء المحجورين مراراً وتكراراً، بالإضافة إلى تلك الحالات التي ذكرتُها سابقاً عن الهروب. ففي بعض الأحيان كان الحَرَس غائبين، وأحياناً في حالة سُكْر، وفي حالاتٍ أخرى نائمين عندما يحتاجُهم الناس، ولمْ يُفلِت مثلُ هؤلاء قطُّ مِن العقاب الشديد الذي استحقُّوه فعلاً.

ولكنْ، بعد كل ما حدث أو أَمكنَ القيام به في هذه الحالات، صاحَبَت إغلاقَ المنازل، حيث حُصِرَ مَنْ كانوا على ما يرام مع أولئك المرضى، عوائقُ جمَّة، وبعضُها كان مأساوياً للغاية، وتستحقُّ التفكير بها إن توافر المجال لذلك، لكنَّه إجراء مُعتمد بموجب القانون، وارتآه الجمهور مُناسباً، ومادامت «المصلحة العامَّة» هي الغاية التي يُسعى إلى بلوغها بصورة أساسيَّة، فإذَّاك، ينبغي وضع جميع المضارِّ الخاصة التي حدثت طوال فترة تطبيق ذلك القانون في خانة تلك المصلحة.

ومِن المشكوك فيه حتى يومنا هذا، إذا ما كان إغلاق المنازل قد أسهم في العموم بأي شيءٍ لوقف العدوى. وفي الواقع، لا يمكنني القول إنَّه فعل؛ فلا وجود لشيء يمكن أنْ يجري بضراوةٍ وغضبٍ أكثر ممَّا أحدثه الطاعون في ذروته القُصوى، على الرغم مِن إغلاق المنازل الموبوءة على نَحو دقيق وفعَّال قدر الإمكان. ومِن البديهي أنَّه إذا حُجِرَ جميعُ الأشخاص المُصابين فِعلياً، فلا يُمكن أنْ يُصاب أي شخصٍ سليم، لكونهم بعيدين عَنه. بيد أنَّ الحالة كانت خلاف ذلك (وسأتطرَّق إليها هنا) بإيجاز، أيْ أنَّ العدوى انتشرت بصورة غير

محسوسة، ومِن جانب مرضى لم تظهر عليهم علامات المرض، ولا يعرفون مَن نقل إليهم العدوى، ولا إلى مَن نقلوها.

لقد جرى إغلاقُ مَنزلٍ في أبرشيَّة «**وايت تشابل**» بسبب خادمةٍ مُصابةٍ واحدة، لم يظهر عليها سوى البقع، دون أن يبرُز على جسدها أي انتفاخات، وتَعافَت. ومع ذلك، لم يَتَمتَّع ساكنو المنزل بأي حريَّة للتحرُّك، ولا حتى استنشاق الهواء العليل، أو ممارسة الرياضة، طيلة أربعين يوماً. وقد ألقى انعدام التنفس في الهواء الطلق، والخوف، والغضب، والغيظ، والمَرارات الأخرى كلها، ممَّا يُصاحبُ مثل هذا الإجراء الضارِّ؛ ألقى بربَّة المنزل في إسار الحُمَّى. وإذ دخل زُوَّارٌ إلى المنزل، فإنَّهم أعلنوا أنَّه الطاعون، مع أنَّ الأطباء نَفوا أنْ يكون كذلك. وعلى الرغم مِن هذا، اضطُرَّت العائلة إلى بدء الحجر الصحِّي مِنْ جديد، وفقاً لتقرير الزائر أو مُفتِّش الصحة، مع أنَّ الحجر الصحيَّ السابق لم يتبقَّ على فترة انتهائه سوى أيامٍ مَعْدودات.

لقد أكمَدَها ذلك وملأها بالغضب والحزن، وكما حدث في الحجر السابق، حُصر أفرادها مُجدَّداً وعلى نحو شديد في غرفة واحدة. وفضلاً عن ذلك، فقد أمرضَ نقصُ الأكسجين والحاجةُ إلى الهواء النقيِّ معظمَ أفراد الأسرة بهذا المرض أو ذاك. وأصيبوا، بصفة أساسيَّة، بمرض **الإسقربوط**، ما خلا واحداً منهم أصيب بمغصٍ حادٍّ. وبعد فترات طويلة مِن حَجرهم، أتى بعض الزائرين لتفتيش الأشخاص المرضى، على أمل الإفراج عنهم، فجلبوا المرض معهم، وأصابوا جميع مَنْ في البيت. ومات هؤلاء جميعُهم أو جلُّهم، لا مِن الطاعون الذي ظُنَّ بأنَّهم كانوا يحملونه، وإنما مِن الطاعون الذي جلبه هؤلاء الناس الذين توجب أنْ يكونوا حريصين على حمايتهم منه. وكان هذا النسق في العدوى مَشهداً مُتكرِّراً، وغدا بالفعل أحدَ أسوأ عَواقبِ إغلاق المنازل.

عانَيْتُ في هذا الوقت مِنْ بعض البلاء الذي انصبَّ عليَّ، والذي كنت في البداية مَنكوباً للغاية به، وأربكني بشدَّة، مع أنَّه لم يُعرِّضني لأي كارثة. فقد عُيِّنْتُ مُفتِّشاً للصحَّة في المنطقة التي كنت أقطنها، وذلك مِن قبل عضو في المجلس المحلي لـ «**بورت سوكين وارد**»، وكانت لدينا أبرشيَّة واسعة، فيها ما لا يقلُّ عن ثمانية عشر مُفتِّشاً، وهكذا دُعينا بموجب «الأمر» (الصادر عن السيِّد العمدة)، في حين أطلق علينا الناس اسم: «**الزوَّار**».

وسعيتُ بكل ما أوتيت مِنْ قُوَّة لأستعفي مِن هذا العمل، واستخدمت العديد مِن الحجج مع نائب المجلس المحلي لأُعفى مِن التكليف. وقد أشرتُ بخاصَّةٍ إلى أنَّني كنتُ ضدَّ إغلاق المنازل على الإطلاق، وسيكون من الصعب جداً إلزامي، أنْ أكون أداة في عمل مُخالف لرأيي فضلاً عن اعتقادي أنَّ ذلك لنْ

يفضي إلى الغاية المرجوَّة. لكنَّ أقصى ما استحصلت عليه أنَّه لـمَّا كان النظام يقضي على مَن يعينه السيِّد العمدة من المُفتِّشين البقاء في موقعه مدة شهرين، فقد أذِن لي أنْ أبقى في هذه المهمة ثلاثة أسابيع فقط، وذلك شريطة أنْ أجلب بديلاً ذا كفاءة لإتمام بقية المدَّة نيابةً عني. ولأقلْ بوجازة، لم يمثِّل ذلك صنيعاً، أو خدمة جُلَّى لي، فقد كان من الصعب أنْ تعثر على رجل مناسب يقبل بهذا العمل.

ومِن الصحيح القول إنَّ إغلاقَ المنازل كان له أثر إيجابيٌّ واحد، وقد أدركت أهميَّته. وأعني أنَّ الإغلاقَ حَجَزَ الأشخاصَ المطعونين. ولولا ذلك لغدا هؤلاء مَجلبةً للضرر والخطر لدى جَرْيهم في الشوارع، وهم حاملون للطاعون، عندما يُصابون بالهذيان بطريقةٍ مُرعبةٍ للغاية. وكان مِن شأنهم أنْ يفعلوا ذلك. وبالفعل، لقد مارسوا ذلك كثيراً في بداية تفشِّي الطاعون، إلى أنْ جرى حَجْرهم. ليس هذا وحسب، فقد كان الناس غير متحفِّظين البتَّة، ومُنفتحين للغاية، حتى إنَّ الفقراء تجوَّلوا متوسلين عند أبواب الناس، وقائلين إنَّهم مصابون بالطاعون، ويتسوَّلون المال أو الخِرَق من أجل قُروحهم، أو كليهما، أو أي شيءٍ يَعِنُّ للطبيعة الهذيانيَّة طلبه.

واتَّفق أنَّ سيدة نبيلة تعيسة الحظ، كانت زوجة لرجل ثريٍّ، قد قُتلت (إنْ صحَّت القصة)، مِن قِبل أحد هذه المخلوقات، في جادَّة «**ألدرس غيت**»، قريباً منها. وكان ذلك الشخص في سَوْرة مِن الجنون والهذيان الظاهر، رافعاً عَقيرَته بالغناء، وهو يسير في الشارع. وقد اعتقد الناس أنَّه مخمور فحسب، لكنَّه صرَّح عن نفسه بأنَّه مطعون، وكان صادقاً فيما بدا.

ولـمَّا التقى هذا المخلوق بتلك السيِّدة هَمَّ بتقبيلها. وإذْ فزعت منه لكونه رجلاً فظاً على نحو ظاهر، فقد جرت هرباً مُبتعدة عنه. لكنَّ الشارع كان خالياً من المارَّة، ولم يكن ثمَّة شخص قريب بصورة كافية ليساعدها. وعندما أدركت أنَّه سيدركها استدارت، وضربته بقوَّة، بحيث دفعته إلى الوراء لكونه ضعيفاً.

ولكنْ، لسوء حظِّها، تمسَّك بها لقربها الشديد منه، ثم سحبها أرضاً. واعتلاها ثم قبَّلها بعد أنْ تمكَّن منها. لكنَّ الأسوأ مِنْ ذلك كله، حَدَث لمَّا فَرَغَ منها، إذْ أخبرَها أنَّه مُصابٌ بالطاعون، فَلِمَ لا تصاب به مثله؟

لقد كانت فزعة على نحوٍ كافٍ، مِن قبل، ولاسيَّما أنَّها حُبلى. لكنْ، حالما سمعته يقول إنَّه مُصابٌ بالطاعون، صرخت وسقطت مغشياً عليها، أو أنَّها أُصيبت بنوبةٍ تعافت منها قليلاً، لكنَّها قتلتْها في غضون أيامٍ معدودات. ولم أسمع قطُّ إذا ما كانت أُصيبت بالطاعون أمْ لا.

وجاء مطعون آخر، وطرق باب منزلٍ لمواطن، كان يعرفه جيِّداَ، فسمح له الخادم بالدخول. وحالما قيل له إنَّ سيد المنزل في الطابق الأعلى، صعِد مُسرعاً، ودخل الغرفة على العائلة، حيث كان أفرادها بأكملهم يتناولون العشاء. وبدأوا بالنهوض، وقد علا وجوههم بعض الاستغراب قبل أنْ يستَجْلوا الأمر، لكنَّه دعاهم إلى الجلوس دون أنْ يُبْدوا حِراكاً، وأعلمهم أنَّه ما جاء إلا مُودعاً، فسألوه:

لماذا، أيها السَيِّد «......»، إلى أين أنت ذاهب؟

- «ذاهب»؟! يقول الزائر، «لقد أُصبتُ بالمرض، وسأموتُ غداً ليلاً»...!!

ومِن السهل تصديق ذلك، على الرغم مِن صعوبة وصف الذعر الذي خيَّم عليهم جميعاً. خافت النساء وبنات الرجل اللائي كُنَّ مُجرد فتيات صغيرات، تقريباً حتى الموت، ونهضنَ. واحدة تركض هاربة من أحد الأبواب، وأخرى من بابٍ غيرِه. وهبط بعضُهنَّ إلى الدور السفلي في حين صعِدت الأخريات إلى الدور العلويِّ، وكُنَّ يَسعَيْنَ إلى التجمُّع قدر المستطاع، وأَغلَقنَ على أنفسهنَّ أبوابَ غُرَفِهِنَّ، ثم شَرعنَ بالصراخ مِن النافذة طلباً للنجدة، كما لو كُنَّ في هَلَعٍ أذهلهنَّ عن عقولهنَّ.

أما ربُّ المنزل، فبدا رابِط الجأش أكثر منهنَّ، وإنْ كانوا جميعاً مَرعوبين ومُثارين. وإذْ غدا مُنفعلاً فقد فَكَّر في أنْ يقبض عليه بيديه، ويُلقي به أسفل السلالم، مَقوداً بشغفه. لكنَّه لـمَّا فكَّر، بعد ذلك، قليلاً في الحالة الصحيَّة للزائر والخطر المتأتِّي عن لمسه، استحوذ الرعب على عقله، فوقف ساكناً مثل شخص ذاهل. وفي الأثناء، كان الزائر البائس رازحاً تحت وطأة الطاعون، في دماغه كما في جسده، ساكناً في وقفته مثل أي مذاهل عن نفسه. ولقد استدار أخيراً، ثم قال للزائر، بكل ما يستطيع المرء أنْ يتخيَّله مِن هدوء وسكينة:

- أهذا شأنكم جميعاً...؟! هل ضقتم بي كلكم؟ حسناً، سأعود إلى المنزل وأموتُ هناك...!!

- وهكذا، نزل الدرج مِن فَوره. ونزل الخادم، الذي سمح له بالدخول، في إثره يحمل شمعةً، لكنه خَشِيَ أنْ يجتازه ويفتحَ الباب. لذلك وقف على الدرج ليرقُبَ ما سيَفعل. فذهب الزائر وفتح الباب، وخرج صافقاً الباب مِن خلفه.

لقد مرَّ بعضُ الوقت قبل أنْ تتعافى العائلة مِن الخوف. ولكنْ، نظراً إلى عدم وجود عواقب سيِّئة، فقد أتيحت لهم الفرصة منذ ذلك الحين للتحدُّث عن هذه

الحادثة (كُنْ على يقين من ذلك)، بِرِضى كبير.

ومع أنَّ الزائر المطعون قد ولَّى، فإنَّهم احتاجوا بعض الوقت، لا بل كما سمعتُ، أياماً عدَّة قبل أنْ يتخلَّصوا من حالة الهرج التي لحقت بهم. ولم يصعدوا وينزلوا من المنزل وهم ينعَمون بالأمان، حتى أحرقوا مجموعة كبيرة ومتنوعة مِن الأبخرة والعطور في الحُجُرات جميعها، وغمروها بدخان القار والبارود والكبريت، كلاً على حِدة. ليس هذا وحسب، فقد غسلوا ملابسهم، وقاموا بغير ذلك مِن إجراءات التعقيم.

أما الرجل البائس، فلا أذكرُ هل بقي على قيد الحياة أم قضى مطعوناً.

مِن المؤكد أنَّه إذا لم يُحجز المرضى بإغلاق المنازل، فإنَّ الجموع، التي بلغت الحُمَّى لديها ذُروَتَها وهي في حالة من الهذيان والذهول، كانت ستتراكض باستمرار في الشوارع. بل قد فعل عديدٌ منهم ذلك، فعلاً، وقارفوا أشكال العنف جميعها معَ مَن التقوهم، كما لو كانوا كلاباً مسعورةً تندفع لتعضَّ أي شخصٍ تُقابله. ولا يمكنني أنْ أشكَّ في أنَّ أحد تلك المخلوقات المريضة قد عضَّ، في نوبة مِن نوبات المرض، أي عابر أو عابرة، فيغدوا هؤلاء، وأعني الذين تعرَّضوا للعض على نحو شديد، أقول: يغدون، يقيناً، مُصابين بعدوى الطاعون على نحو لا براء منه؛ مثلهم كمثل مَن أُصيب مِن قبل وبَدَتْ عليه علامات الطاعون.

سمعت عن إنسان مطعون قد انفضَّ عن سريره مُرتدياً قميصه، بفعل التباريح والآلام التي تسبَّبت بها الدمامل؛ والتي تبدَّى ثلاثة منها على جسده. وانتعل حذاءه وذهب ليرتدي معطفه، لكنَّ الممرضة حاولت أن تقاومه وتنتزع المعطف منه، فألقى بها إلى أسفل، وداسَها، وركض هابطاً الدرج إلى الشارع مباشرة نحو نهر التايمز في قميصه، وركضت الممرضة خلفه، ونادت الحارس لإيقافه، ولكنه ارتعب منه وخاف أن يمسَّه فلم يعترض سبيله. وركض الرجل هابطاً درج «**سْتِلْ يارد**» (Stillyard)، وألقى قميصه بعيداً، وانغمس في نهر التايمز. ولـمَّا كان سبَّاحاً ماهراً، فقد عبر النهر، وكان المدُّ قادماً، كما يُسمُّونه، أي كان يجري باتجاه الغرب، فلم ينزل إلى اليابسة حتى بلغ درج «**فالكون**». فلم يجد أياً من الناس هناك، إذ كانت ليلاً. فعدا في أنحاء الشوارع هناك، عارياً كما كان، فترة طويلة. وعندما كانت المياه في ذلك الوقت في أوج ارتفاعها، انغمس في النهر مرَّة أخرى، وسبح عائداً إلى «**ستل يارد**»، ثم خرج منه إلى الضفَّة، وركض في الشوارع مرَّة أخرى إلى منزله، حيث طرق الباب، وصعد السلالم ودخل إلى سريره مرَّة أخرى. وقد أسهمت هذه التجربة العنيفة، إلى حدٍّ بعيد، في علاجه مِن الطاعون، ما يعني أنَّ الحركة العنيفة لذراعيه ورجليه

امتدَّت إلى جسده، حيث تتركّز الدمامل التي يعاني منها؛ تحت إبطيْه ومَغْبَنَيْه. وتسبَّبت الحركات بإنْضاجها ومِن ثمَّ انفجارها، فضلاً عن أنَّ برد الماء خفَّف مِن شدَّة الحُمَّى في دمه.

يتبقَّى عليَّ أنْ أضيف أنَّي لا أسرد هذه القصة، فضلاً عن القصص الأُخرى، بوصفها حقيقة في إطار معرفتي الخاصة فأقطع، إذَّاك، بصحتها. ولاسيَّما حقيقة الرجل الذي تعافى بالمغامرة الباهظة، التي أعترف أنَّني لا أعتقد إطلاقاً بأنَّها مُمكنة، لكنَّها قد تفيد في تأكيد أنَّ العديد مِن الأشياء اليائسة حدثت مراراً وتكراراً حين وقع الناس المُبْتَلَوْن في حالة هذيانيَّة وهلوسيَّة، كما أنها تؤكِّد أنَّ مِن شأن هذه السلوكات الهذيانيَّة أنْ تحدث بصورة لا يأتي عليها إحصاء، لو لم يكن هؤلاء الناس مَحبوسين داخل المنازل التي أغلقتها السلطات. وهذا ما أعده الإنجاز الأفضل، إنْ لم يكن الإنجاز الجيِّد الوحيد، الذي جرى بهذه الطريقة القاسية.

من ناحية أخرى، كانت الشكايات وصيحاتُ التذمُّر مريرةً للغاية ضدَّ الشيء نفسه.

وكانت الصرخات المثيرة للشفقة تخترق قلوب المارَّة؛ تلك الصرخات التي كانت تصدر عن الأشخاص المصابين الذين ذهلوا عن عقولهم بسبب ضراوة، أو حرارة دمائهم، وكانوا إما مَحجورين أو ربَّما مُقيَّدين في أسِرَّتِهم وكراسيهم حتى لا يتسبَّبوا لأنفسهم بالأذى. وهكذا، فقد كانوا يطلقون صرخات مريعة بسبب حبسهم وعدم السماح لهم بالموت طُلقاء، بحسب تعبيرهم، وعلى النحو الذي اعتادوا عليه من قبل.

كان مشهد المطعونين المتراكضين في الشوارع مُريعاً للغاية، وقد بذل القضاةُ قصارى جهدهم للحؤول دونه. لكنْ، لـمَّاجرتْ مثل هذه المحاولات في الليل عموماً، وعلى نحوٍ مُفاجئ دائماً، لم يكن بمقدور الشرطة أنْ توجد باستمرار لمنعها. وحتى عندما يخرج أي منهم في وَضَحِ النهار، لا تُعنى الشرطة المُختصَّة بالتعرَّض لهم. فحالما تبلغُ إصاباتهم الذروة في حدَّتها تغدو العدوى أشدَّ مِن المعتاد لديهم، وآنَئذٍ يُصبحُ لمسُهُم مِن أخطر الأفعال التي يُمكن الإقدامُ عليها.

مِن ناحية أخرى، كان هؤلاء يعدون ويعدون، غير مُدركين ما يَفْعلون، فيسقطون هلكى، أو حتى تستنزف أرواحهم. فلا يلبثون، إذَّاك، سوى نصف ساعة أو ساعة قبل أن يلفظوا أنفاسهم. وكان مِن أكثر الأمور إثارة للشفقة ما

يحدث حين يؤوبون إلى رُشدهم في نصف الساعة تلك، أو الساعة، لـمَّا يُطلقون أشدَّ الصرخات ألماً وحزناً لدى شعورهم بالحال التي مُنوا بها.

جرى هذا كثيراً قبل تنفيذ أمر إغلاق المنازل على نحو صارم، لأنَّ الحرس في البداية لم يكونوا شديدين وصارمين، كما غدوا بعد ذلك، في إبقاء الناس في الداخل؛ ما يعني: قبل إنْ يُعاقَبوا؛ أعني بعضُهم، بشدَّة على إهمالهم، وإخفاقهم في أداء واجبهم، وتَرْكِهم مَن كانوا في رعايتهم يُفلتون، أو التستُّر على أمر سفرهم إلى الخارج، سواء أكانوا مرضى أم مُعافيين.

ولكنْ، لـمَّا رأوا أنَّ الموظفين الذين عُيِّنوا لفحص سلوكهم، عازمون على جعلهم يقومون بواجبهم، وإلا عوقبوا على الإهمال، باتوا أكثر انضباطاً، وحُجز الناس على نحو صارم؛ الأمر الذي تَلَقَّوْهُ باستياءٍ شديد، وتحمَّلوه على مضض، بحيث يصعب وصفُ سخطهم. ولكنْ، كان لذلك ضرورةٌ مُطلقةٌ، ينبغي الإقرار بها، ما لم يُبادَر بإدخال بعض الضوابط الأخرى عليها، في الوقت المناسب، وقد فات الأوان لذلك.

لو لَم يَجْرِ حَجْرُ أولئك المرضى خاصَّة، على النحو الذي أسلفناه، لكانت لندن أكثر الأماكن رُعباً في العالم. ولكانَ عددُ مَن مات من المطعونين في الشوارع، بحسب تقديري، يُقارِبُ عديدَ مَنْ ماتوا في منازلهم. ولـمَّا كان الطاعون في ذروته، فإنَّه أفضى بالمطعونين، عامَّتهم، إلى حالةٍ مِن الهذيان، وحالما يكونون كذلك، يتَعذَّر حَتماً إقناعُهم بالبقاء في أسرَّتِهم، إلا بالقوَّة. والعديد مِمَّن حُجِروا دونما تقييد، ألْقوا بأنفسهم مِن النوافذ، حين اكتشفوا أنَّهم لنْ يحصلوا على إذنٍ للخروج مِن أبواب منازلهم.

لقد نتج عن عدم اختلاط الناس بعضهم ببعض، في هذا الوقت مِن جائحة الطاعون، استحالة أنْ نجد أي امرئ على علمٍ بجميع الحالات الاستثنائيَّة التي حدثت في عائلات مختلفة. وعلى وجه الخصوص، أعتقد أنَّه لم يُعرفْ قطُّ، حتى يومنا هذا، عددُ الأشخاص الذين غرقوا في نهر التايمز، وهم في هذيانهم، وفي النهر الذي ينبع من الأهوار بالقرب من «**هاكني**» (Hackney)، الذي نسمِّيه عُموماً نهر «**وير**» (Ware) أو نهر «**هاكني**». أمَّا بالنسبة إلى تلك الأعداد التي وردت في قائمة الوفيات الأسبوعية، فقد كانت قليلةً بالفعل، كما لنْ يُعرَف أيهم غرِق قَصْداً وأيهم غرِق عَرَضاً. لكنَّني أعتقد أنَّي لربَّما أُقدِّر عدد هؤلاء الذين أغرقوا أنفسهم حقاً في تلك السنة، مِمَّن يقعون في نطاق معرفتي، بأكثرَ ممَّا جرى تسجيله في قوائم الموتى جميعِها (مِمَّن هَلكوا غَرَقاً)، لأنَّ العديد مِن الجُثث لم يُعثَر عليها مُطلقاً، مِمَّن عُرِف أنَّهم فُقِدوا على هذا النحو؛ وما شابه ذلك مِن طرائق تدمير الذات الأخرى. وثَمَّة رجلٌ أيضاً، في جادة

«**وايت كروس**» (Whitecross) أو بالقرب منه، أحرَق نفسَه في سريره حتى الموت. وفي حين قال بعضُ الناس إنه الفاعل، قال آخرون إنَّ الممرضة التي اعتنت به قد غدرت به فأحرقته. لكنَّهم اتفقوا جميعاً أنَّه كان مُصاباً بالطاعون.

وكان من تدابير العناية الإلهيَّة الرحيمة، التي تأمَّلت فيها كثيراً آنذاك، أنَّه لم تندلع أي حرائق، أو لم تشتعل حرائق كبيرة على الأقلِّ في المدينة، خلال تلك السنة. ولولا ذلك، لكان الأمر مُروِّعاً للغاية. ولو حصل ذلك، فإمَّا أنْ يكون الناس قد تركوها مِن غير إخماد، وإما أنهم اجتمعوا معاً في حشود وأفواج كبيرة، غير مكترثين بخطر العدوى، ودونما خشية من المنازل التي دخلوا إليها، أو البضائع التي تعاملوا معها، أو الأشخاص، أو الناس الذين خالطوهم. ولكنْ، باستثناء ما حدث في أبرشيَّة «**كريبل غيت**»، وثنتان أو ثلاث من الحرائق الصغيرة التي اندلعت، وتم إخمادها مؤخَّراً، لم تحدث، هناك، أي كارثة من هذا النوع في العام بأكمله. وقد أُخْبِرْنا قصَّة منزلٍ في مكان يُسمَّى «**سوان آلي**» (Swan-Alley)، يمرُّ من شارع «**غوسْوِل**» (Goswell) بالقرب من نهاية «**أولد ستريت**» (Oldstreet) إلى شارع «**سانت جون**» (St. John)، أنَّ عائلةً أصيبت هناك، بطريقة مُرعبة إلى درجة أنَّ كل فردٍ من قاطني المنزل هلك. وكان آخِرُ مَن مات منهم طريحَ الأرض، وكما يُفترض، فقد اضطجعتْ هناك لتموت مُقابل الموقدة. ويبدو أنَّها سقطت لكونها مِن الخشب، ونشبت النار في الألواح والعوارض التي تسندها، وامتدت النار قريباً من جُثَّة المرأة لكنَّها لم تبلُغْها (على الرغم مِن أن هذه الأخيرة لم تكن ترتدي سوى قميص). وإذْ خمدت النار مِن تلقاء ذاتها، فإنَّها لم تحرق بقيَّة المنزل على الرغم مِن أنَّه مصنوع مِن الخشب الخفيف، لأنَّه كان منزلاً خشبياً بسيطاً (مَكْسواً بالأشجار) ...!! ما مدى صحَّة هذا، لا أستطيع أن أحدِّد. لكنَّ المدينة ستُعاني بشدَّة في العام الموالي مِن حريق، بيد أنها ما عانَتْ هذا العام إلا القليل جداً من تلك الكارثة.

وفي واقع الأمر، فيما يتَّصل بالحالات الهذيانيَّة التي زجَّت برَحاء الطاعون الناس في أتونها، وما ذكرته عن أشكال الجنون التي علَّمت سلوكهم حين كانوا وحدهم، فضلاً عمَّا صدر عنهم من سلوكات يائسة، أقول: كان من المستغرب جداً أن هذا الشكل من المصائب بات قليلاً.

لقد سُئلتُ كثيراً، ولا يمكنني القول، إنَّي عرفت يوماً كيف أُقدِّم إجابة مباشرة:

كيف حدث أنْ ظهر العديدُ من المُصابين، خارج المنازل في الشوارع، وفي الوقت نفسه، جرى تفتيشُ المنازل الموبوءة بيقظة شديدة، وجرى إغلاقُها جميعاً، وحراستُها على نحوٍ مُشدَّد، على النحو الذي كانت عليه الحال؟

أقرُّ أنَّي لا أعرفُ أي إجابة عن هذا السؤال، ما لم تكن الإجابة على النحو التالي:

كان من المستحيل في مدينة كبيرة ومُكتظة بالسكان مثل هذه، اكتشاف كل المنازل التي أصيبت بالعدوى بمجرد حدوثها، أو إغلاقها كلها، كي تتسنى للناس حُرية التجوال في الشوارع، أنَّى يشاؤون، ما لم يكن معروفاً أنهم ينتمون إلى هذه المنازل الموبوءة.

ومِن الصحيح، استناداً إلى ما قاله العديد مِن الأطباء لسيِّدي العُمدة، القول: إنَّ ضراوة العدوى كانت في ذُروتها في أوقاتٍ بأعيانها، وكان الناس يمرضون بسرعة كبيرة، ويموتون سريعاً، إلى درجة أنَّ من المستحيل، بل من العبث أن يُحقَّق فيمَن كان مريضاً ومَن كان مُعافى، أو إغلاق منازلهم بدقَّة مُتناهية، كما تَطلَّب الأمر. وذلك عندما تكون معظم المنازل في شارع بأكمله موبوءة، وعندما يصاب أفراد العائلة جميعهم في بعض المنازل. ليس هذا وحسب، فقد كان هناك ما هو أسوأ من ذلك؛ ففي الوقت الذي عُرِف فيه عَن إصابة المنازل بالعدوى، كان مُعظم المصابين قد هلكوا، في حين هرب الباقون خوفاً من الإغلاق. وهكذا، بدا من العبث أنْ يُعلن عن تلك المنازل أنها موبوءة ويُصار إلى إغلاقها، بعد أنْ تكون العدوى قد ألحقت الدمار وغادرتها، وقبل أنْ يُعرَفَ حقّاً، أنَّ الأسرة قد أُصيبت بأي حالٍ من الأحوال.

قد يغدو هذا كافياً لإقناع أي إنسانٍ عاقلٍ، أنَّه لـمَّا كان في غير وسع القضاة، أو لأي طرائق أو سياسة بشريَّة، القدرة على منع انتشار العدوى، فإنَّ إجراء إغلاق المنازل هذا لم يكن على الإطلاق كافياً لبلوغ هذه الغاية. وفي الواقع، يبدو أنه لا يحتوي على أي شكل من أشكال المصلحة العامَّة، يتناسب مع شدَّة المعاناة التي تسبَّب بها لعائلاتٍ حُجِرَت بصورة تامَّة. وبقدر ما كنت مُوظَّفاً من جانب السلطات في إدارة هذا الإجراء التعسُّفي، فقد حظيت بغير مناسبة لأتبيَّن أنَّه قاصر عن تحقيق الغاية المنشودة.

فعلى سبيل المثال، عندما عُيِّنتُ زائراً أو مُفتِّشاً للاستعلام عن أحوال العديد من العائلات المصابة، نادراً ما أتينا إلى أي منزل أُصيبَ ساكنوه بالطاعون على نحوٍ بيِّن، إلا وألفينا بعض أفراد العائلة قد تملَّصوا وغادروا. سيستاء القضاة من هذا، ويتَّهمون المُفتِّشين بالتقصير في استقصائهم أو مُراقبتهم، مع أنَّ المنازل قد أُصيبت بالطاعون، بهذه السيرورة، قبل فترة طويلة من لحظة اكتشافها.

وعلى الرغم من أنَّني انتُدبت لهذا المنصب المحفوف بالمخاطر لنصف ما قُرِّر من الفترة البالغة شهرين، فإنها كانت فترة طويلة بما يكفي كي أستيقن أنَّنا عاجزون عن استجلاء حقيقة الوضع الصحيِّ لأي عائلة، إنْ قنعنا بمجرَّد الاستفسار عند باب المنزل أو لدى الجيران. وفيما خصَّ الولوج إلى أي منزل للتفتيش، فهذا أمرٌ ما كان لأي سلطة أنْ تسعى إلى فرضه على السكان، أو لأي مواطن أنْ يضطلع به، لأنَّ مِنْ شأنه تعريضَنا لخطر الإصابة بالطاعون فالهلاك به، وتدمير عائلاتنا كما أنفُسِنا، وما كان، كذلك، لأي مواطن نزيه، مِمَّن قد يُعتَمدُ عليه، أنْ يمكث في المدينة، إنْ بات عُرْضَةً لمثل هذه الخطورة.

ولـمَّا كان الاستعلام مِن الجيران، أو استنطاق العائلة المعنيَّة هما السبيلين الوحيدين للوقوف على حقيقة الوضع الصحِّي، وهذا ما لا نستطيع الاعتماد عليه على نحوٍ وافٍ، فإنَّ حالة عدم اليقين، بشأن هذه المسألة، ستبقى على النحو السالف ذكره.

صحيح أنَّ أرباب العائلات كانوا ملزمين وفق القانون، بتقديم إخطار للمُفتِّش بالمكان الذي يوجد فيه أي شخص مريض في منزله، في غضون ساعتين من اكتشافه، (أيْ لدى ظهور علامات العدوى على جسده) لكنَّهم وجدوا طرائق عديدة للتهرُّب من هذا القانون، وتبرير إهمالهم، إلى درجة أنَّهم نادراً ما بعثوا إشعاراً بذلك، قبل أن يتَّخذوا ما يلزَم لهروب مَن في المنزل جميعهم، مِمَّن عقدوا النية على الهروب سواء أكانوا مرضى أو سليمين. ومادام الأمر كذلك، فمن السهل أنْ نرى، أنَّ إغلاق المنازل لم يكن وسيلة يمكن الاعتماد عليها، بما هي طريقة ناجعة لوضع حَدٍّ لانتشار العدوى، لأنَّ العديد من هؤلاء، كما قلت في موضع آخر، قد خرجوا من تلك المنازل الموبوءة، وهم في حقيقة الأمر مصابون بالطاعون، مع أنهم لرُبَّما يعتقدون حقاً أنَّهم سليمون. وكان بعضٌ ممَّن ذرعوا الشوارع حتى سقطوا صرعى، لا لأنَّهم صُعقوا فجأة بالطاعون، شأنَ الرصاصةِ حين تَقتلُ صَعْقاً، وإنما لأنَّ الطاعون كان بالفعل في دمائهم قبل ذلك بوقت طويل. وهكذا، كانت أعضاؤهم الحيوية تُفتَرَسُ سِراً، ولم تَبرُزْ علاماتُ الطاعون إلا حين استولى على القلب بقُوَّة فتَّاكة، فهلك المريضُ في لحظة، شأنه كشأن الإغماء المفاجئ، أو السكتة الدماغيَّة.

أعلمُ أنَّ بعض الناس، حتى مِن أطبائنا، اعتقدوا، لبعض الوقت، أنَّ هؤلاء الأشخاص الذين ماتوا في الشوارع، ما افْتُرِسوا إلا لـمَّا سقطوا هَلكى، كما لو أنَّهم مُسُّوا بصعقةٍ مِن السماء، مثلما يُصْرع الرجال بومضةٍ من البرق، لكنَّهم وجدوا سبباً لتغيير رأيهم بعد ذلك، لأنَّ أجساد هؤلاء حين فُحِصَت بعد موتها، عُثر فيها على بعض علامات الطاعون أو غيرها من الأدلة الواضحة على وجوده فيهم فترةً أطول ممَّا كانوا يتوقَّعون.

كان هذا هو السبب، كثيراً من الأحيانِ كما أسلفتُ، في أنَّنا نحنُ المُفتِّشين لم نتمكَّن من الوقوف على لحظة دخول المرض إلى منزلٍ ما، إلا بعد فوات الأوان على إغلاقه، وأحياناً قبل هلاك مَن بقيَ في المنزل أجمعين. ففي «**بيتيكوت-لاين**» (Petticoat-Lane)، انتقلت العدوى إلى منزلين معاً، وأصيب العديد من الأشخاص، لكنَّ الطاعون كان كامناً على نحوٍ تامٍّ، ولـمَّا يُدرِك المُفتِّش، الذي كان جاراً لي، أمر تفشِّي الطاعون في المنزلين إلا ريثما وصله إشعارٌ بأنَّ قاطنيهما جميعاً باتوا صرعى، وأنَّ على عربات الدفن أنْ تَقْطُر جُثَثهم بعيداً. وقد تدبَّر رَبَّا العائلتين إجراءاتهما، وحَزَبا أمورَهما، فما إنْ حلَّ المُفتّش في الحي، حتى ظهرا بالعموم واحداً تلو الآخر، وأجابا؛ أيْ كذب كل منهما عن حقيقة الوضع الصحِّي في المنزل الآخر، أو حَملا بَعضاً مِن ناس الحي على أن يزعُموا أنَّ مَن يقطن في كلا المنزلين جميعاً ينعمون بصحَّة جيِّدة، أو أنَّهم لا يدرون عن ذلك، حتى أحال الموتُ سرَّهما أمراً يستحيلُ كتمانه بعد الآن...!! فقد استُقدمت عربات الموتى ليلاً للمنزلين كليهما، وغدا الأمر معلناً. ولكنْ، لـمَّا أمر المُفتِّش الشرطيَّ بإغلاق المنزلين، ما كان فيهما سوى ثلاثة أشخاص، اثنين في منزل واحد، وواحد في الآخر يُحتَضر للتوِّ، ومُمرِّضة في كل بيت. فاعترفتا بأنَّهم قد دفنوا خمسةً مِن قبل، وأنَّ الوباء حلَّ في المنزلين قبل تسعة أيام أو عشرة، وأنَّ مَن تبقَّى مِن العائلتين، اللتين كانتا وافرتي العدد، قد فرُّوا، وكان بعضُ هؤلاء مريضاً، وبعضهم مُعافى، وبعضُهم لا يُعرَف أمرُ صحَّته مِنْ مرضه.

وحدث الأمر ذاته في منزل آخر في الزقاق ذاته. أُصيبت عائلةُ رجل بالطاعون، لكنَّه كان غير راغب بإغلاق منزله على الإطلاق. وعندما تعذَّر عليه إخفاء ذلك، أغلق منزله بنفسه؛ ما يعني أنَّه وضع الصليب الأحمر الكبير على باب منزله وكتب تحته: «اللهُمَّ ارْحَمْنا». وهكذا، ضلَّل المُفتِّش الذي افترض أنَّ منزله أُغلق مِن الشرطي، بأمرٍ من المُفتِّش الآخر، لأنَّه جرى تخصيص مُفتِّشيْن في كل منطقة أو دائرة. وبهذه الطريقة، امتلك حرية مغادرة منزله والعودة إليه مرَّة أخرى، والخروج منه كما يشاء، على الرغم من الطاعون الذي حلَّ فيه، حتى اكتُشفت مكيدته بعد حين. وبعد ذلك، تملَّص (من الحجر) وهرب، مُصطحباً مَن ينعمُ بأمارات الصحة مِنْ خدمه وعائلته. وبذا، لم يُحجروا على الإطلاق.

نظراً إلى ما أسلفتُه مِن أسباب، وعَطفاً على هذه التدابير والحِيل، صار منعُ انتشار العدوى عبرَ إغلاق المنازل، غاية من الصعب، إنْ لم يكن من المستحيل، تحقيقها، ما لم يعتقد الناس أنَّ إغلاق منازلهم إجراءٌ لا أذى فيه، وما لم يكونوا على استعداد تامٍّ لتنفيذه؛ ما يتطلب تقديمهم إشعاراً بإصابتهم على نحوٍ وافٍ وأمينٍ، إلى القضاة، ما إنْ يكتشفوا ذلك بأنفسهم. لكنْ، لـمَّا

كان ذلك أمراَ مُستبعداَ، ولـمَّا كان من غير المتوقع دخول المُفتِّشين، مثلما أسلفت، إلى المنازل الموبوءة للزيارة والتفتيش، فإنَّ إيجابيات إغلاق المنازل جميعها سيتمُّ هزيمتها، ولن يُغلَق سوى نزر يسير من المنازل في الوقت المناسب. تُستثنى من ذلك منازل الفقراء، ممَّن لا طاقة لهم بإخفاء ذلك، وبعض الناس ممَّن سيفضحُ أمرَهم الرعبُ والهلعُ بسبب ما أصابهم.

لقد نجحت بصرف نفسي من العمل الخطير الذي انخرطت فيه، ما إنْ جلبت رجلاً آخر تحصَّلت على موافقته لقاء القليل من المال. وهكذا، بدلاً من الخدمة المقرَّرة لشهرين، لم أخدم سوى ثلاثة أسابيع، وقد كانت فترة طويلة أيضاً، باعتبار أنَّها كانت في شهر آب، لـمَّا بدأ الطاعون ببلوغ أعلى درجات عنفوانه في أقصى المدينة حيث أقيم.

ولم أُحْجِمْ خلال أدائي هذا العمل، عن الجهر برأيي بين جيراني حِيال حَجر الناس في منازلهم التي وقَفْنا بجلاء تامٍّ على ما انطوت عليه من إجراءات قاسية. وعلى الرغم مِن أنَّها كانت مأساوية في حدِّ ذاتها، فقد جرى الاعتراض عليها، أيضاً، لأنها لم تُحقِّق الغاية المتوخَّاة منها، كما قلتُ، فالمصابون ما زالوا، يوماً تلو آخر، يذرعون الشوارع...!! وكان رأينا الموحَّد أنَّ طريقة عزل الأصحاء عن المرضى، إنْ حلَّ الوباء في منزلٍ ما، ستكون أكثر منطقيةً لاعتبارات عديدة. وذلك بعدم الإبقاء على أي شخصٍ بمعيَّة المرضى، ما لم يلتمس أي من الأصحَّاء البقاء مع المرضى، فضلاً عن تصريحه برغبته في أنْ يُحجَر معهم.

وقد اقتصرت خطَّتنا، في عزل الأصحَّاء عن المرضى، على المنازل الموبوءة. فضلاً عن أنَّ حَجْر المرضى لم يعنِ حبسهم. وما كان لأؤلئك الذين حُجروا ولم يتزحزحوا من مكانهم أن يشكوا ما داموا ينعمون بإدراكهم، وبملكة الحكم السليم.

أمَّا حينما يدخلون في حالة الهذيان والخفَّة، فآنئذٍ سيصرخون مِن قسوة الحَجْر.

ولكنْ، بُغية ترحيل الأصحَّاء، حرصاً على مصالحهم الخاصة، اعتقدنا أنَّ من المنطقيِّ والمنصف، للغاية، أن يجري عزلهم عن المرضى. ومن أجل سلامة الأشخاص الآخرين، مِمَّن تخلو منازلهم مِن الوباء، يجب أنْ يُعزل الأصحاء الذين جرى نقلهم بعيداً عن المرضى، لفترة من الوقت، حتى نتبيَّن أمر سلامتهم، لئَلا ينقلوا العدوى إلى غيرهم، واعتقدنا أنَّ عشرين يوماً أو ثلاثين كافية لذلك.

وممَّا لا شكّ فيه، إذا جرى توفير المنازل، وخُصِّصت لأولئك الأصحاء كي يقضوا فترة هذا الحجر الجزئي، فلن يكون ثمة سبب قوي للاعتقاد أنَّ الحجر أضرَّ بهم، كما هي الحال في حجرهم سوياً مع المطعونين حيث يقطنون.

ومن الجدير بالملاحظة، في هذا السياق، أن الجنازات بعد أنْ أضحت عديدةً للغاية، تعذَّر على الناس قرع أجراس الكنيسة، أو الرثاء، أو الانتحاب، أو لبس السواد، حداداً على بعضهم، كما فعلوا من قبل، أو حتى صُنع التوابيت لمن ماتوا. فقد بدا أنَّ ضراوة الطاعون، بمرور الوقت، قد ازدادت بشدَّة، إلى درجة أن السلطات، ولنضع ذلك بإيجاز، لم تُغلق أي منزل على الإطلاق؛ إذ تبدَّى على نحوٍ وافٍ، أنَّ هذه الأشكال الوقائية جميعها كانت بلا جدوى، وأنَّ الطاعون تفشى من تلقاء ذاته، وبضراوة لا تُقاوم، بحيث كان كالنار التي انتشرت، في العام التالي، ونَشَبَت بضراوة مشابهة، على الرغم مما بذله المواطنون اليائسون من جهد لإخمادها. وكذلك، في الطاعون، لمَّا بلغ ذروة ضراوته تسمَّر الناس في أماكنهم وقد نظر بعضهم إلى بعض، مستسلمين لليأس. وبدت أحياء بأكملها وقد أقفرت من الناس، لا كما لو أنها أغلقت فحسب، وإنما كما لو جرى إفراغها من سكانها. وتُرِكت الأبواب مُشرعة، في حين عبثت الرياح بالنوافذ في البيوت المهجورة.

وبإيجاز، بدأ الناس ينقادون إلى مخاوفهم، ويعتقدون أنَّ التعليمات والطرائق جميعها كانت عبثاً، ولا أمل مُمكنٌ، في شيء، سوى الفناء الشامل...!! بيد أنه في أوج هذا القنوط السائد، كان ممَّا أبهج الربَّ أنْ يؤيدنا برحمته، فتضعف حدَّة العدوى، بصورة مفاجئة مثلما كانت بدايتها مفاجئة، وقد جلَّى الربُّ ذلك بُرهاناً ساطعاً على عنايته الإلهية، رفقة الأسباب الفاعلة إن لم يكن دون هذه الأخيرة، كما سأشير إلى ذلك في موضعه.

لكنْ، مايزال يتعين عليَّ أنْ أتحدَّث عن الطاعون لمَّا كان في أَوجِه، مُسْتَعِراً إلى حدود الدمار، والناس في أفظع حالة من الذعر، بل القنوط، مثلما أسلفتُ. ويعسر على المرء أن يُصدِّق، في حمَّى هذه الفترة الشديدة من الوباء، الحدود المفرطة التي بلغتها انفعالات الرجال. وقد كان هذا الجانب مؤثراً مثل غيره من المشاهد المؤثرة في هذا الطور من أطوار الوباء؛ إذ ما الذي يمكن أن يترك أثراً في نفس رجل بكامل قواه العقلية، وما الذي يمكن أن يترك آثاراً عميقة في الروح، مثل رؤية رجل شبه عارٍ خارجاً من منزله، أو ربَّما من سريره إلى «**هارو أليه**»؛ ذلك التقاطع المزدحم الذي تلتقي فيه مجموعة من الزقاقات والساحات والمجازات عند سوق الجزارين في «**وايت تشابل**»، أقول، ما الذي يمكن أن يكون أشدَّ تأثيراً، من رؤية هذا الرجل المسكين يخرج إلى الشارع المفتوح، ليركض راقصاً ومغنِّياً، ويؤدِّي ألف

إيماءة غريبة، ومن ورائه خمس نساء أو ست وأطفال يلحقون به، باكين ومُتَوَسِّلينَ إليه، بِحَقِّ الربِّ أن يعودَ، ومُسْتَجدينَ العون من الآخرين لإعادته، ولكنْ دون جَدوى. فلا أحد يجرؤ على أنْ يضع يده عليه، أو يقترب منه.

كان هذا المشهد الأشدَّ إيلاماً وحَزَناً بالنسبة إلي، أنا الذي عايَنْتُ كل شيء من نافذتي الخاصة. فطوال هذا الوقت، كما لاحظتُ، كان الرجل المنكوب البائس حتى تلك اللحظة في أقصى درجات الألم، بسببٍ من وجود دُمَّلين في جسده، تعذَّر فثْؤهما أو استخراجُ القيح منهما، كما ذكر الناس. ولكنْ، حين عمد الجرَّاحون إلى دهنها بموادَّ كاوية قوية، متأمِّلين، فيما يبدو، زوالها، فإنها أحرقت جسده كما لو كانت مكواة ساخنة. ولا يمكنني وصف ما حدث لهذا الرجل المسكين، لكنّني أعتقد أنَّه ظلَّ يطوف هائماً على وجهه، بتلك الطريقة، حتى خرَّ صريعاً.

لا عجب أنَّ مظهر المدينة نفسها كان مُرعباً، فالجمع المعتاد الكبير من الناس في الشوارع، الذي ينحدر من أقصى مدينتنا، قد انعدم تقريباً. ولم يجرِ إغلاق المركز التجاري والمالي بالتأكيد، لكنَّه لم يعد مُكتظاً كسابق عهده. أما النيران التي أشعلت لغايات الحدِّ من الطاعون، فقد أخمدتها الأمطار الهاطلة بغزارة وسرعة شديدتين، لبضعة أيام تقريباً. لكنْ، لم يقتصر الأمر عند هذا الحدِّ، فقد أصرَّ بعض الأطباء على أنَّها ليست عديمة النفع فحسب، وإنما مُضرَّة بصحَّة الناس؛ الأمر الذي خلق لَغَطاً كبيراً حولها، ورُفعت شكوى للعمدة بخصوصها.

مِن ناحية أخرى، عارضهم آخرون من الحقل نفسه، وكانوا أطبَّاء مرموقين كذلك، وقدَّموا أسبابهم التي تثبت أهمية الحرائق ونفعها الأكيد في تهدئة عنفوان الطاعون. لا أستطيع أنْ أعرضَ وصفاً كاملاً لحجج الطرفين، وما أتذكره فحسب، أنَّهم أثاروا اعتراضات تافهة للغاية في مُحاورة بعضهم، وانحاز بعضهم إلى الحرائق، موجِباً ألا تُصنع إلا من الخشب لا الفحم، ومِنْ أنواع مُعيَّنة مِن الخشب أيضاً، مثل خشب «**التنوب**» على وجه الخصوص، أو خشب «**الأرز**»، بسبب قوَّة ما تنتجه من أبخرة التربنتين. وانحاز آخرون إلى الفحم لا الخشب، بسبب الكبريت **والبيتومين** [31]، في حين كان لغيرهم رأيٌ مُخالفٌ لكلا الرأيين. وبناء على الحوار، أمر السيد العمدة بعدم إشعال المزيد من الحرائق، للاعتبار التالي؛ أنَّ الطاعون كان ضارياً إلى درجة أنهم رأوا بوضوح تحديه الوسائل كلها، التي عمدوا إلى مواجهته بها. وعوضاً عن ذلك، فيبدو أنها تزيد من شراسته بدل أن تخمده أو تخفف من استشرائه. لكنَّ دهشة القضاة هذه، كانت نابعة من الإخفاق في إنفاذ أي وسيلة تُؤْتي ثِمارَها في مُواجهة الطاعون، فهي لم تصدر عن عدم الرغبة في تعريض أنفسهم للخطر، أو الاضطلاع بالأعمال وتحمُّل تَبعاتِها، لأنَّنا نُقرُّ إنصافاً لهم أنَّهم لم يَجْتَنِبوا ما

يتسبَّب بإيلامهم أو يُهدد حياتهم. ولكنْ لا شيء يحقق الغاية، فالعدوى احتدمت، وبات الناس الآن على وَجَلٍ وفي ذُعرٍ بالغَيْن على نحو استثنائيٍّ. وعليه، فإنهم رفعوا، إنْ جاز التعبير، راية الاستسلام. وكما أسلفتُ، أسلموا أنفسهم إلى حالةٍ من اليأس.

لكنْ، دعوني أوضح هنا، أنَّي حين أقول إنَّ الناس قد استسلموا لليأس، فلا أقصد ما يدعوه الناس اليأس الديني، أو اليأس من حياة الخلود في العالم الآخر، وإنما أعني اليأس مِن قدرتهم على اجتناب الإصابة، أو العيش خارج دائرة الطاعون، الذي رأوا أنَّه مُستَعِرٌ للغاية وبقوَّة لا تُواجَه على الإطلاق، ذلك أنَّ قلَّة مِن الناس، في الواقع، مِمَّن أصابهم الطاعون في أوج ضراوته، شهري آب وأيلول، قد تمكَّنوا من النجاة. وهو أمر استثنائي للغاية، على النقيض ممَّا كان عليه الوضع في حزيران وتموز ومطلع أب، عندما أصيب العديد من الناس كما لاحظتُ، واستمرَّ ذلك أياماً عدَّة، وعقب ذلك انحسر، بعد أنْ كان السمُّ قد سرى في دمائهم زمناً طويلاً. لكنْ، الآن، وعلى العكس من ذلك، فإنَّ معظم مَن أصيبوا خلال الأسبوعين الأخيرين في آب، وفي الأسابيع الثلاثة الأولى من أيلول، ماتوا عموماً في غضون يومين أو ثلاثة أيام على أبعد تقدير، وكثيرٌ منهم هلكوا في اليوم نفسه الذي التقطوا فيه العدوى؛ سواء أكان ذلك في «**أيام الكلاب**» المعروفة بشدة الحرِّ، أو كما زعم المنجِّمون لدينا للتعبير عن أنفسهم، أنَّ لـ«**نجم الكلب**» (Dog-Star) تأثيراً خبيثاً، أو أنَّ الأمر يتعلق بأولئك جميعاً مِمّن حملوا بذور العدوى مِن قبل، وتركوها تصل إلى مرحلة النضج في ذلك الوقت، لا أعرف مُطلقاً. ولكنْ، ورد، في هذا الوقت، أنَّ أكثر من ثلاثة آلاف (3000) شخصٍ ماتوا في ليلة واحدة. ويزعم الذين جعلونا نعتقد أنَّهم راقبوا ذلك عن كثبٍ أنَّ هؤلاء جميعاً ماتوا في غضون ساعتين، أي بين الساعة الواحدة والثالثة صباحاً.

وفيما يتعلق بموت الناس فجأة، في هذا الوقت أكثر من ذي قبل، كانت هناك حالات لا حصر لها من مثيل ذلك، ويمكنني تسمية العديد منها في الحي الذي أقطن فيه. ثمة عائلة خارج منطقة الحانات، تقطن غير بعيدٍ عني. كان أفرادها، البالغ عددهم عشرة، ينعمون جميعاً بالصحة، حتى يوم الإثنين، فيما يبدو. وقد أصيبت إحدى الخادمات وأحد المتدربين بالمرض، وتوفِّيا صباح اليوم التالي. ولمَّا أصيب المتدرِّب الآخر وطفلان، هلك أحدهم مساء اليوم ذاته، والآخران يوم الأربعاء. وبإيجاز، ومع انتصاف نهار السبت، هلك كلٌّ مِن: ربِّ الأسرة، وربَّة البيت، وأربعة أطفال، وأربعة خدم. فخلا المنزل تماماً، سوى من امرأة عجوز قَدِمَت لتضطلع بأمر البضائع التي تعود إلى شقيق ربِّ الأسرة الذي يقطن غير بعيد، وينعم بالصحة.

وقد هُجر العديد من المنازل إثر ذلك، وحُمل ناسُها بعيداً بعدَ أنْ هلكوا أجمعين، وخصوصاً في زقاق بعيد، يقع على الجانب نفسه وراء منطقة الحانات، ويمتدُّ باتجاه الشاخصة التي تحمل اسمي: موسى و هارون؛ حيث كان هناك العديد من المنازل المتلاصقة، وقيل إنه لم يبق فيها شخص واحد على قيد الحياة. وبعضُ هؤلاء، ممَّنْ كانوا آخر الهالكين في العديد من هذه المنازل، قد تُركوا فترة طويلة جداً قبل أن يُخْرَجوا للدفن. لم يكن السبب، كما كتب بعض الناس مُجانفين الصواب تماماً، أنَّ أعداد الأحياء لم تكن كافية لدفن الموتى، وإنما مُعدَّلَ الوفيات كان كبيراً للغاية في الفناء أو الزقاق، ولم يتبقَّ أي امرئ ليُخطر حفَّاري القبور أو القندلفتيَّة أنَّ ثمة جثثاً ينبغي دفنها. كما قيل، ولا أعلم مدى وثوقية ذلك، إنَّ بعض هذه الجثث كان متحلِّلاً للغاية، ومتعفِّناً بشدَّة، إلى درجة أنَّها حُملت بصعوبة. ولمَّا تعذَّر على العربات أن تجتاز بوابة الزقاق، القائمة عند الطريق العامَّة، كانت مهمة إحضار تلك الجثث أصعب. لكنِّي لست مُتأكِّداً من عدد الجثث التي تُركت، وإني على يقين أنَّ الأمور لا تحدث، عادةً، على هذا النحو.

ومثلما دُفعَ الناس، تبعاً لما ذكرتُ، إلى حالة اليأس من الحياة والاستسلام، كذلك كان لهذه الحالة بخاصَّةٍ تأثير غريب فيما بيننا امتدَّ ثلاثة أسابيع أو أربعة؛ أعني أنَّه جعل الناس جسورين ومغامرين، فما عادوا يحاذرون الاختلاط بغيرهم، أو يُغلقون الأبواب على أنفسهم دون العالم، بل ذهبوا إلى أي مكانٍ واقتحموا كل سبيل، وخالط بعضهم بعضاً. وكان من شأن أحدهم أن يقول للآخر: لنْ أسألك عن حالك، أو أجيبَ سؤالكَ عن حالي، فمِن المؤكَّد أن كأس الموت دائرة على الجميع...!! فلا يهم ساعتئذٍ مَن كانوا مرضى أو أصحَّاء. وعليه، كانوا يمضون، غير مكترثين، إلى أي مكان أو أي رفقة.

وكما أنَّها جلبت الناس إلى اللقاءات العامَّة، فقد كان مِن المذهل أنْ ترى كيف جعلتهم يأتون أفواجاً إلى الكنائس، وما اكترثوا، بعد الآن، بِمَنْ يجلس قريباً منهم أو بعيداً عنهم، ولا أبِهوا بأي روائح كريهة صافحت وجوههم، أو الحالة التي بدا عليها الناس، بل كانوا يرون أنفسهم جيشاً من الجثث الهامدة. فأمُّوا الكنائس دون أدنى قدر من الحذر، وتجمَّعوا معاً، كما لو أنَّ حياتهم كانت بلا شأن، مقارنة بالعمل الذي أتوا إليه هناك. وبالتأكيد، فإنَّ الحماسة التي أظهروها بمجيئهم، والجدية والتأثر اللذين أظهروهما بإصغائهم لما استمعوا إليه، أظهرت القيمة العليا التي سيمحضُها الناس جميعهم لعبادة الله، وذلك إذا اعتقدوا أنَّ كل يوم يختلفون فيه إلى الكنيسة سيكون آخر عهدهم بالدنيا.

وكانت لها آثار غريبة أخرى، لأنها أزالت أشكال الإجحاف والتحيُّز الطائفي جميعها، فضلاً عن الارتياب تجاه الشخص الذي يصعد المنبر لأداء الخطبة،

عندما يأتون إلى الكنائس، في حين عمد آخرون منهم، ممَّن أعوزتهُم الشجاعة على احتمال ذلك، إلى الرحيل إلى الريف حالَ عثروا على وسائلٍ للهروب. ولـمَّا كانت بعض كنائس الأبرشيَّات آنذاك شاغرة ومهجورة تماماً، لم يتردَّد الناس في تقبُّل مثل هؤلاء المنشقِّين الإصلاحيين الذين كانوا قد حُرموا سابقاً من رزقهم بحكم قانون البرلمان المسمَّى: «**قانون التبعيَّة**»، الخاص بممارسة التبشير في الكنائس. ولم يجد مبشرو الكنيسة، في هذه الحالة، أي صعوبة في قبول مساعدتهم، حتى إن العديد من أولئك الذين دُعوا بـ «**الوعاظ الصامتين**»، قد فتحوا أفواههم في هذه الجائحة، وراحوا يعظون الناس علناً.

ولعلنا هنا نلاحظ، وآمل ألا تُجانف تلك الملاحظة الصواب، أن رؤية الموت وهو يحوِّم في غير مفترق لا بدَّ أنْ يوفق، دون إبطاء، بين الرجال ذوي المبادئ والنوايا الحسنة. ليس هذا وحسب، فما اعتدنا عليه من حياة الدعَة والأمان، وإلقائنا هذه المبادئ وراءنا، هو ما جعل انقساماتنا المحتدمة، والكراهية القارَّة، وانقطاع الإحسان، وغياب الوحدة المسيحية، تظل قائمة وفاعلة بيننا حتى الآن. وإنَّ من شأن عامٍ آخر من الوباء، أن يرأب صدوع هذه الاختلافات جميعها، كما مِن شأن اللقاءٍ بالموت، أو الأمراض المسبِّبة للموت، أنْ تُطهر قلوبنا من الأحقاد، وتُحرِّرنا من العداوات، وتجعلنا ننظر بعيون مختلفة عن تلك التي كنا ننظر بها من قبل. وهكذا، كما تصالح الأشخاص الذين كانوا تابعين للكنيسة الأمِّ، في هذا الوقت، مع أمر السماح للمنشقِّين بوعظهم، كذا الأمر بالنسبة إلى منشقِّين انقطعوا عن كنيسة إنجلترا، بأثرٍ من تعصُّبٍ غير اعتياديٍّ، فقد باتوا الآن راضين عن القدوم إلى كنائسهم في الأبرشيَّات، والمشاركة في العبادة التي أُنكِرت عليهم مِن قبل. ولكنْ، مع انحسار ضراوة الطاعون، عادت تلك الخلافات كلها، مرَّة أخرى، إلى مجراها غير المرغوب فيه، وإلى المسار الذي سارت فيه من قبل.

وإني لأذكر ذلك للتاريخ لا لشيء آخر، فلا نيَّة لديَّ للدخول في محاججات تهدف إلى تحفيز أي من الطرفين أو كليهما، كي يتطاوعا بإحسان. ولا أتخيَّل أنَّ خطاباً مثل هذا يُمكنُ أنْ يكون مُناسباً أو ناجحاً، إذ يبدو أنَّ الفجوات تتَّسع، والفتق يتجه إلى ما يعسُر معه رتقه. ومَن أكونُ لأحسَبَ أنِّي قادر على التأثير في طرفٍ أو آخر؟! فأرغبَ في أنْ أكرِّر تلك الحقيقة مرَّة أخرى:

إنَّ الموت سيُصلح ذات بيننا، ففي العالم الآخر سيجعلنا الموت إخوة من جديد. أما في السماء، حيث كما آمل سنأتي من شتَّى الملل والنحل، فإننا لن نجد تعصُّباً أو تحيُّزاً. وإذَّاك، لا تكون سوى الوحدة في المبادئ والآراء. فلماذا نتأبَّى على السير، يداً بيد، إلى حيث يتَّحد القلب واليد، دونما أدنى تردُّد، وبأكبر قَدْرٍ مِن التناغم والمودَّة...؟! أقول: لماذا لا نستطيع أن نفعل ذلك؟! وهنا، لا

أستطيع أنْ أقول أي شيء لأي أحد، ولا أنْ أضيف المزيد، غير أنَّه لا يبقى إلا الرثاء لحالنا.

بإمكاني أنْ أسهب في وصف الأحداث المفزعة لذلك الزمن العصيب فترةً طويلة، وأن أستمر في وصف السلوكات الأشد اشتطاطاً وترويعاً التي تسبَّب بها ذهول المرضى عن عقولهم، وكيف غدت الشوارع حينئذ أشد امتلاءً بالمشاهد المُرعبة، وكيف صار بعض أفراد العائلة الواحدة مصدر ذعرٍ لبعضهم الآخر. ولكنْ، بعد أن أخبرتك عن الرجل الذي حين ألفى نفسه مُقيَّداً في سريره، وعاجزاً عن إنقاذ نفسه، أضرم النار في السرير بشمعته التي كانت لتعاسته في متناول يده، فأحرق نفسه. وكيف أنَّ آخر، مدفوعاً بالعذاب الذي لا يطاق تَحَمُّله، رقص وغنَّى عارياً في الشوارع، ذاهلاً عن نفسه، فما عاد يميز النشوة من الألم. أقول: بعد أن أتيت على ذكر هذه الأمور، هل تبقى زيادة لمستزيد؟! ما الذي يمكن قوله للقارئ، لرسم صورة حية عن بؤس تلك الأوقات، أو منحه فكرةً أكثر اكتمالاً عن مِحنةٍ تعدَّدت وجوهُها؟

ينبغي أنْ أقرَّ بأنَّ هذا الزمن كان مُفزعاً، وأنَّ عزمي بدأ يخور أحياناً، فما عُدتُ أتوقَّر على الشجاعة، التي كنت أحظى بها بادئ الأمر. وبينما قادت شدَّة البلاء الناس خارج منازلهم، فقد قادتني إلى بيتي. وإذا استثنيت جولتي القصيرة في كل من «**بلاك وول**» (Blackwall) و«**غرينيتش**» (Greenwich)، كما ذكرت، التي كانت نزهة، فقلَّما غادرت منزلي لاحقاً، كما فعلت لقرابة أسبوعين من قبل. ولقد ذكرت سابقاً، أنَّني ندمت غير مرة لأنني غامرت بالبقاء في المدينة، ولم أرحل مع أخي وعائلته، ولكنَّ أوان ذلك قد فات. وبعد أن انعزلت وبقيت داخل المنزل فترةً طويلة، قبل أن يقودني نفاد صبري إلى الخارج، استدعوني، مثلما ذكرت، إلى ذلك العمل الشنيع والخطير، ما اقتضى خروجي مرَّة أخرى. ولكنْ، لمَّا انتهت فترة عملي، ومازال الطاعون في ذروة استشرائه، فقد انعزلت مرة أخرى، وواصلت إغلاق منزلي عشرةً أو اثنَي عشرَ يوماً أخرى. وقد شَخُصَت، خلال تلك الفترة، العديد من المشاهد المُحزنة في مرمى بصري، عبر نوافذ منزلي، وفي شارعنا حيثُ نقيم. ويبرز من تلك المشاهد ذلك المشهد في زقاق «**هارو أليه**» (Harrow-alley)، عندما رقص وغنى ذلك المخلوق البائس في نوبة هيجانه، والعديد غيرُه ممَّن وجدوا هناك. ونادراً ما انقضى يومٌ أو ليلة، إلا وحدث أمرٌ كئيب أو آخر في نهاية ذلك المجاز الضيِّق الذي يعجُّ بالفقراء ممَّن ينضوي معظمُهم في فئة الجزارين أو العمالة التي تعتمد على مهنة الجزارة.

كانت أفواج وحشود، معظمها من النساء، تندفع في بعض الأحيان من هذا الزقاق، مُحْدثة جلبةً مُروِّعة، هي مزيج من الزعيق، والصراخ، والتنادي، الذي

لم نتبين منه شيئاَ.

وكان من عادة عربة الموتى أن تغدو واقفة، في حُلكة الهزيع الأوسط من الليل، عند نهاية ذلك الزقاق، لأنَّها إذا دخلته سيصعب عليها الانعطاف فيه لتعود، ولأنها لا تستطيع التقدم سوى بضعة أمتار. أقول، كانت تقف لاستلام جثث الموتى. ولمَّا كانت مقبرة الكنيسة قريبة جداً، فإنها لا تكاد تختفي بالكامل، حتى تعود مرة أخرى. ومن المتعذِّر على المرء وصف أفظع الصرخات والضوضاء التي كان يُصدرها الفقراء لدى إخراج جثث أطفالهم وأصدقائهم إلى عربة الموتى. ونظراً إلى عديدهم، يحسب المرء أنهم لم يتركوا أحداً خلفهم، أو أنَّ عديد من قطن في ذلك الزقاق كافٍ ليملأ مدينة صغيرة. وقد كان بعضهم يصرخ مرَّات عديدة: حدثت جريمة، وأحياناً أخرى: هناك حريق. ولكنْ، من السهل أنْ يدرك المرء أنَّ ذلك كله، ناتج عن الحالات الهذيانيَّة والأوجاع التي ألمَّت بالمكروبين والمَطعونين.

وأعتقد أنَّ الأمر كان على هذا النحو في كل مكان آنذاك، مِن حيث ضراوة الطاعون التي امتدَّت إلى ستة أسابيع أو سبعة، وبدرجة تتجاوز ما وصفتُ من قبل. حتى إنه بلغ حداً جعل الناس يبادرون إلى كسر قواعد ذلك النظام المميَّز الذي أطنَبْتُ في الحديث عنه، بالنيابة عن القضاة. وبالتحديد، عدم إخراج جثث الموتى إلى الشوارع، أو دفنها في وَضَحِ النهار. أما الآن، فقد اقتضت الضرورة، في حُمَّى الوباء هذه، تحمُّل ما لم نَعْتَدْ حدوثَه لفترة قصيرة.

لا أستطيع أن أتغاضى، هنا، عن أمر بعينه. وأعتقد أنَّه كان أمراً فائقاً، وبدا على أقلِّ تقدير، أنَّه علامة مائزة على حضور العدالة الإلهية، وأعني أنَّ المتنبِّئين، والمنجِّمين، والعرَّافين، والمداوين الدجَّالين، والمشعوذين ومَنْ في حكمهم؛ وقرَّاء الطالع، ومُعَبِّري الأحلام، ومَن شابههم من الناس أجمعين، قد هلكوا وتلاشوا، ولم يُعثَر على أي منهم. أنا، حقاً، لعلى يقين أنَّ العديد منهم قد هلك إبَّان الجائحة، وذلك بسبب مُغامرتهم في البقاء طمعاً بتحقيق ثروات كبيرة. ومن دون شكٍّ، كانت مكاسبهم كبيرة للغاية فترةً من الزمن؛ بأثرٍ من جنون الناس وحمقهم. لكنَّهم الآن صامتون، ورحل العديد منهم إلى منزله الأبدي، غيرَ قادرين على التنبُّؤ بمصيرهم، أو قراءة طوالعهم...!! وكان بعض الناس حاسماً إلى درجة القول إنَّهم جميعاً سقطوا صرعى. ولا أجرؤ على تأكيد ذلك، لكنِّني أستطيع أنْ أؤكِّد أنَّي لم أسمعْ قَطُّ عن واحدٍ منهم ظَهَرَ بعد انتهاء الجائحة.

لكنْ، بالعودة إلى مُلاحظاتي الخاصة، خلال هذه الفترة المروِّعة مِن الجائحة، فلقد وصلتُ الآن، كما أوردتُ، إلى شهر أيلول الذي كان أقسى أيلول، فيما

أحسب، عرفته لندن على الإطلاق، فعبر الإحصائيات التي رأيتُها لفترات الطاعون السابقة التي وقعت جميعها في لندن، لم تحدُث واحدةٌ كهذه؛ ذلك أن الرقم الوارد في قوائم الموتى الأسبوعية يبلغ ما يقرُب مِن أربعينَ ألف (40000) وفاةٍ، في الفترة ما بين 22 آب، إلى 26 أيلول، أيْ في خمسة أسابيع فحسب...!! وتفصيل القوائم على النحو التالي:

أعداد الموتى خلال خمسة أسابيع (ذروة الطاعون)

التاريخ		الأعداد
من	إلى	
22 آب	29 آب	7496
29 آب	7 أيلول	8252
7 ايلول	12 أيلول	7690
12 أيلول	19 أيلول	8297
19 أيلول	26 أيلول	6460
المجموع		38195

الجدول الثاني عشر

كان هذا رقماً مُذهلاً في حدِّ ذاته. ولكنْ إذا أضفتُ الأسباب التي جعلتني أعتقد أن هذه الإحصائية يشوبها ما يشوبها من نقص، فلنْ تتردَّد، مثلي، في الاعتقاد أنَّ أكثر من عشرة آلاف قد توفِّي أسبوعياً، خلال تلك الأسابيع جميعها، أسبوعاً تلو آخر، وتوفِّي عدد مقارب في عدَّة أسابيع سبقت هذه الأخيرة، وكذا الأمر في التي لحقتها.

وقد اضطربت أحوالُ الناس، آنذاك، وبخاصَّة داخل المدينة، على نحوٍ يتعذَّر وصفُه، فقد كان الرعب عظيماً إلى درجة أنَّ شجاعة مَنْ تَعيَّن عليهم حملُ الموتى بدأت في خذلانهم. لا، بل مات العديد منهم، على الرغم من إصابتهم بالمرض مِن قبل، وتعافيهم منه. وسقط بعضُهم عندما كانوا يحملون الجثث على جانب الحفرة، وهم يتهيَّؤون لإلقائها فيها. وكان مدى هذا الاضطراب في المدينة أكبر، فقد غرَّهم الأمل بالنجاة، واعتقدوا أنَّ مرارة الموت قد ولَّت. وحدث أنَّ إحدى العربات، كما أخبرونا، وهي تتَّجه صعوداً نحو «**شوردتش**»، قد خَلَت من السائقين، أو أن هؤلاء الخيرين تركوا رجلاً واحداً ليقودها، ومات في الشارع، فواصلت الخيولُ سَيرها، وأطاحت بالعربة، وطرحت جثث الموتى أرضاً، فأُلقي بعضُها هنا، وبعضها الآخر هناك، بصورة مُريعة، في حين عُثر على عربة أخرى يبدو كأنَّها وقعت في الحفرة العظيمة في حقول «**فينسبري**»، فقد قضى السائق صريعاً، أو أنَّه غادر وتركها. وكانت الخيول تجري بالقرب منها، فسقطت العربة جاذبة الخيول معها إلى داخل الحفرة أيضاً. وقد أشير إلى أنَّ السائق قد أُلقِيَ به فيها، وأنَّ العربة سقطت عليه، بدلالة أنَّ سوطه قد لوحظ في حُفرة بين الجثث. لكنَّ هذا، فيما أحسب، ممَّا يتعذَّر تأكيده.

وقد وُجدت عربات الموتى في أبرشيَّتنا، «**ألد غيت**»، مرَّات عدَّة، كما سمعتُ، واقفةً لدى بوابة مقبرة الكنيسة، وهي ملأى بجثث الموتى، بلا قارع للجرس أو سائق أو أي شخص آخر معها. وظلت هويَّة الموتى غُفْلاً، في هذه الحالة كما في غيرها، لأنَّ الجثث كانت تُدلَّى بالحبال؛ إذ يجري إنزالها من الشرفات ومن النوافذ لتُوضَعَ في العربة. وكان حَمَلةُ الجُثث، في أحيان أُخرى، هم مَن يضطلعون بإخراجها وحملها إلى العربة، فضلاً عن آخرين. ومثلما اعترف هؤلاء، فإنهم لم يعبأوا بإحصاء أعداد الموتى.

وهكذا، فقد باتت يقظة القاضي، حينئذ، في مواجهة أقسى اختبار. وينبغي الإقرار بتعذُّر إمكانية الإحاطة بتلك البيانات، بصورة وافية في هذه المناسبة أيضاً. وكان ثمَّة أمران تعيَّن على القضاة أنْ يراعوهما دون إهمال في المدينة أو الضواحي، مهما تكلفوا لذلك من أكلافٍ وجهد.

أولهما: المؤن التي كانت تتوافر دائماً بكامل تنوُّعِها، كما لم يتضخَّم السعر كثيراً، بما يستحقُّ ذكره.

وثانيهما: الجُثث التي لم توجد من غير دفن أو بغير غطاء. وإذا سار أحدهم من أحد أطراف المدينة إلى الطرف الآخر، فلنْ يلحظ أي جنازة أو علامة على وجودها في وَضَح النهار، خلا فترة قصيرة، كما أسلفتُ، في الأسابيع الثلاثة الأولى من أيلول.

ربما يصعب تصديق هذا البند الأخير عندما تُقرأ بعض التقارير التي نشرَها آخرون منذ ذلك الحين، إذ يزعمون فيها أنَّ الموتى ظلُّوا مِن غَير دفن، وهو ما أقطع بِبُطلانه. فلو حدث ذلك في أي من الأمكنة، لكان حَرِياً أنْ يحدُث في المنازل التي رحل الأحياء مِن ساكنيها عمَّن هلك فيها، بعد أنْ عثروا على وسائل للهروب، كما لاحظتُ، وحيث لم يُخطَر القَيِّمون على الأمر بأي إشعار بخصوصها.

إنَّ ما ذُكر، في القضيَّة التي بين أيدينا بكليَّته، لا قيمةَ له، لأنَّي مُسْتَيقنٌ مِن حُكمي فيها، لمَّا كنتُ قد عملت مُفتِّشاً يُشرف على هذا الأمر لبُرهة في الأبرشيَّة حيث أقطنُ، إذ نالها مِن الدمار الضخم ما حاق بغيرها، بالنظر إلى عديد مَنْ يقطُن فيها. أقولُ: إنِّي لعلى يقين مِن أنَّه لم تترك أي جُثة بغير دفنٍ في كل مكان، ما يعني أنَّ ذلك لم يحدث في حدود معرفة المسؤولين عن هذا الأمر، ولا لنقصٍ في عدد مَنْ أوكل إليهم حمل الموتى، أو عدد من عُهد إليهم بدفن الجثث.

وما أوردته كافٍ في سياق هذه القضية، ذلك أنَّ مَنْ ثوى، لربَّما، في بُيوتٍ أو كُهوفٍ، مِن نَحو ما حدث في زقاق «**موسى وهارون**»، فلا اعتبار له، لأنَّهم لا ريب دُفنوا حالما عُثِرَ عليهم.

وفيما خصَّ المادة الأولى (مِن مُستلَّة قرارات العمدة)، وبالتحديد ما تعلَّق منها بالمؤن، مِن حيث ندرتُها أو تضخُّم أسعارها، فعلى الرغم ممَّا ذكرته في شأنها مِن قبل، فإني سأتحدَّث عنها مرَّة أخرى، ومع ذلك ينبغي أنْ ألاحظ هنا أنَّه:

(1) لم يُرفَعْ سعرُ الخبز كثيراً مُنذ بدايات العام، (أي) في الأسبوع الأول من شهر آذار. فقد بلغ وزنُ رغيف القمح، ذي البنس الواحد، عشرَ أونصات ونصفاً، وفي ذروة الجائحة، قُرِّر أنْ يقتصرَ الوزنُ على تسع أوقياتٍ ونصف، وليس أقلَّ مِن ذلك على الإطلاق، ولفترة مُحدَّدة مِن الزمن. وفي بداية تشرين الثاني،

إبتاع الناسُ (بالبنس الواحد) عشرَ أونصاتٍ ونصفاً مرَّة أخرى. وهو أمرٌ، فيما أحسبُ، ممَّا لم يُسمَع عن حدوثه في أي مدينة إبَّان أي جائحةٍ مُروِّعةٍ مِنْ قبل.

(2) لم يطرأ هناك (وهو ممَّا كنت أعجب له كثيراً) أي نقص في الخبازين أو الأفران التي ظلَّت مفتوحة لتزويد الناس بالخبز. ولكنْ، زعمت بعض العائلات أنَّ خادماتها كُنَّ يقصدن الأفران بعجينهنَّ ليُخْبَز، وفق مجرى العادة آنذاك. وفي بعض الأحيان، كُنَّ يعُدْنَ إلى المنزل وهنَّ يحملنَ المرض، أيْ الطاعون.

لم يتوافر هناك، طوال هذه الفترة المُروِّعة كما أسلفتُ مِن قبل، سِوى مَشفَيَيْن من مشافي الأمراض الوبائية: يقع المشفى الأوَّل في الحقول، وراء «**أولد ستريت**»، والمشفى الثاني في «**وستمنستر**». ولم يُكره أي امرئ على الحجر في أي منهما. وفي الواقع، لم يستدع الأمر حدوث أي إكراه لوجود الآلاف من الفقراء المنكوبين، ممَّن لا يتوافر لديهم ما يُعينهم أو يريحهم، وكانوا لا يجدون ما يقيتهم إلا ما يتحصَّلون عليه من صدقة. وعليه، سيكون هؤلاء البؤساء سُعداء لو نقلوا إلى المشفيين المذكورين كي يُعتنى بهم. وكان هذا هو العوار الوحيد، مثلما أعتقد، في الإدارة العامة للمدينة، بالنظر إلى أنه لم يُسمَح بإحضار أي شخص إلى مشفى الأمراض الوبائية، إلا باستيفاء المال أو ضمانٍ بدفعه، إمَّا لدى استقبالهم وإما خلال علاجهم وإخراجهم، لأنَّ عديداً منهم قد أعيدوا إلى بيوتهم مرة أخرى وهم ينعمون بالصحة. وعُيِّن أطباء مهرة في تلك الأماكن. وعليه، فقد تعافى كثير من المرضى هناك، وهو ما سأعرِّج عليه لاحقاً.

كانت الفئة الرئيسية مِن الناس الذين أرسلوا إلى هناك هم الخدم الذين أُصيبوا بالطاعون خلال ذهابهم في المأموريَّات لجلب الاحتياجات الضرورية لتلك العائلات التي يعيشون معها. وفي هذه الحالة، كانوا يُنقلون للحفاظ على سلامة مَن تبقَّى في البيت. وقد جرى الاعتناء بهم جيِّداً طوال فترة الجائحة، إذ لم يُدفَنْ مِن نُزلاء مشفى «**لندن**» سوى مئة وستةٍ وخمسين (156)، ومئةٍ وتسعة وخمسين (159) من نُزلاء مشفى «**وستمنستر**».

حين أقول إنه كان من المتوجِّب تخصيص المزيدِ مِن مشافي الأمراض الوبائية، فإنَّي لا أقصد، البتَّة، إكراه الناس جميعهم على الدخول إليها. فلو تمَّ إلغاءُ إجراء إغلاق المنازل، وسارع المرضى إلى مُغادرة مَساكنهم والذهاب إلى مشافي الأمراض الوبائية، كما اقتَرَح بعضهم، لَغدا الوضعُ الوبائيُّ بِلا شكٍّ، آنذاكَ كما لاحقاً، أسوأَ بكثيرٍ ممَّا كانَ عليه. إنَّ نقل المرضى كانَ مِن المُمكن أنْ يكون بمثابةِ نشرِ المرضِ إلى حدٍّ بعيد، عوضاً عنْ كَبحِه، لأنَّ عملية النقل لنْ تُخْلي المنزل مِن الطاعون، حيثُ كان يعيشُ المصاب؛ يعني هذا أن بقيَّة

العائلةِ التي تُرِكت حُرَّةً في تَنَقُّلاتها ستنشرُ المرضَ بينَ الآخرين. فضلاً عن أنِ الطرائق التي تبنَّتها العائلات في بيوتها الخاصة، التي أمكن استخدامُها عالمياً لإخفاء الطاعون وإخفاء الأشخاص الذين يعانون من المرض، كان من شأنها أن تؤدي في بعض الأحيان إلى إصابة عائلة كاملة قبل أنْ يكون من الممكن لأي زائر أو مُفتِّش أنْ يدرك ذلك. ومن ناحية أخرى، فإنَّ الأعداد المهولة، التي يمكن أنْ تغدو مريضة في وقت ما، كانت ستتجاوز أي قدرة لدى مشافي الأمراض الوبائية لاستقبالها، أو قدرة السلطات المعنيَّة على اكتشافها ونقلها.

كان هذا مدروساً بعناية في تلك الأيام، ولطالما سمعتُهم يتحدَّثون عنه. لقد انتظر القضاة الكثير من العمل، لحثِّ الناس وإلزامهم بإغلاق منازلهم، ولاسيَّما أنَّ العديد من المحجورين توسَّل طرائق عديدة لخداع الحرس والفرار من منازلهم، كما أسلفتُ.

غير أنَّ هذه الصعوبة أظهرت أن توسُّل الطريقة الأخرى، أي نقل المرضى إلى المشافي، سيثبت عدم جدواه، فما كان بإمكان السلطات إجبار المرضى على مُغادرة أسرَّتهم ومساكنهم.

وما كان في مُكنَةِ مُوظَّفي سيِّدي العمدة القيام بهذه المهمة التي تستدعي جيشاً من الموظفين للاضطلاع بها.

فضلاً عن أنَّ الناس سيدخلون في سَوْرَة غضبٍ ويأسٍ تدفعهم إلى قتل الموظفين الذين يسعون للتدخُّل في شؤون الناس أو أطفالهم وأقربائهم، مهما كانت عواقبُ ذلك. وهكذا، فإنهم سيُدخلون الناس، الذين كانوا أصلاً أسيري حالةٍ من الاضطراب والذهول لا يمكنُ تخيُّلها، في حالةٍ من الجنون الكامل، غير أنَّ القضاة ألْفَوا، لاعتباراتٍ عديدة، أنَّ مِن المناسب أخذهم باللين والرأفة لا بالعنف والإرهاب، مِن نحو سحبِ المرضى مِن منازلهم، أو إجبارِهم على نقلِ أنفُسِهم.

يقودني هذا، مُجدداً، للإشارة إلى الوقت الذي حلَّ الطاعون فيه أوَّل مرة، أي عندما أضحى من المؤكد تحوُّله إلى جائحةٍ ستنتشر في البلدة بأكملها. وكما أسلفت، حالما دقَّت النُّخبة ناقوسَ الخطر، أولاً، وشرَعت في النُّزوح خارج المدينة. وكما عاينتُ في الموضع المشار إليه سابقاً، كان الوصف دقيقاً أنَّ حشود الناس غدت ضخمة للغاية، وأن عربات الخيول وعربات النقل الضخمة والصغيرة ذات الأعداد الكبيرة، كانت تقود الناس وتقطُرُهم بعيداً، فبدا وكأنَّ المدينة قاطبةً هي التي كانت تهرب بعيداً. ولو جرى استصدار أي قانون من القوانين المفزعة آنذاك، ولاسيَّما إنْ انطوى على زعمٍ بصرف الناس

وإخراجهم، إنْ لم يُبادروا إلى إخراج أنفسهم؛ فإنَّ من شأن ذلك أنْ يُفضي بالمدينة وضواحيها إلى الحالة القصوى من الاضطراب.

لكنَّ القضاة بادروا إلى طمأنة الناس بحكمة، عبر وضعهم قوائم تنظيمية ملائمة للغاية، للسيطرة على النظام في الشوارع، وجعل كل شيء مُتاحاً لجميع الطبقات قدر الإمكان.

في المقام الأول، توصل السيِّد العمدة ومُفوَّضو الشرطة، وأعضاء المجلس البلدي، وأعضاء محدَّدون من مجلس العموم أو مفوَّضوهم، إلى تعميم عمدوا إلى نشره، يقضي بعدم مغادرتهم المدينة كي يبقوا متاحين دائماً للحفاظ على النظام وتحقيقاً للعدالة أنَّى وأيانَ دعت الحاجة إلى ذلك، فضلاً عن توزيع الصدقة العامة على الفقراء. وباختصار، للاضطلاع بأقصى طاقتهم بما تُمليه عليهم واجباتُهم التي طوَّقت ثقةُ المواطنين أعناقَهم بها.

وعملاً بذلك التعميم ومُقتضياته، بادر السيِّد العمدة ومفوَّضو الشرطة، وآخرون مِمَّن تستدعي الحاجة وجودهم، إلى عقد اجتماعاتٍ يوميَّة، بشكل أو آخر، لاتخاذ ما يرتؤونه ضرورياً منْ ترتيبات تكفَل أمن المواطنين وأمانهم. وعلى الرغم منْ تعامُلهم مع النَّاس بما أمكنَ من الرِّقة والرحمة، فإنهم عاقبوا المحتالين بأصنافهم المفترضة كافة، كاللصوص، ومُقتحمي المنازل، وناهبي الموتى أو المرضى، حسب ما تقتضيه الأصول والأعراف القانونية التي نشرها السيِّد العمدة وأعضاء المجلس البلدي، عبر العديد من الإعلانات القانونية الرادعة.

كما تم إلزام جميع رجال الشرطة وحرَّاس الكنيسة بالبقاء في المدينة وإلا تعرضوا لعقوبات صارمة، ناهيك عن تفويض ذواتِ القدرة والكفاءة من مُدبرات المنازل المعتمدات من أعضاء مجلس النواب أو مجلس العموم في المنطقة، ومَنْ ينبغي أن يتكفَّلوا بتحقيق الأمن، فضلاً عن رجال الأمن البُدلاء المتأهِّبين حال ارتفاع معدلات الوفاة بين رجال الشرطة.

تكفَّلت سلسلة القرارات والإجراءات بعودة الرشد إلى عقول المواطنين، وبخاصة في بداية حالة الهلع، عندما سرت الأقاويل عن فرار شامل، إلى درجة أن المدينة كانت ستتعرض لخطر النزوح الكلي لساكنيها باستثناء الفقراء، كما ستتعرَّض لخطر السلب والنهب من قبل الحشود. ولم يُقصِّر القضاة في أداء الدور المنوط بهم بالجرأة التي وعدوا بها. أما السيِّد العمدة ومفوضو الشرطة، فقد وُجدوا باستمرار في الشوارع والأماكن الأخطر. وعلى الرغم من أنهم حاذروا من احتشاد عددٍ كبيرٍ من الناس حولهم، فإنهم في الحالات

الطارئة لم يحرموا الناس من الوصول إليهم، والاستماع بصبر إلى جميع الشكاوى. وقد بُني للسيِّد العمدة رواقٌ منخفض في قاعته، حيث وقف بعيداً عن الحشد لدى تلقِّي أي شكوى؛ حفاظاً على سلامته، وعملاً بأعلى تدابير السلامة الممكنة.

وبالمثل، فإن موظفين مختارين، يوصفون بكبار موظفي السيِّد العمدة ويقومون بواجباتهم ونوباتهم، على أهبة الاستعداد، فما إنْ يمرض أي منهم أو يُصاب، كما حدث بالفعل لبعضهم، حتى يُبادَر إلى توظيف آخرين على الفور، لملء أماكنهم والاضطلاع بأدوارهم، ريثما يجري التحقُّق مِنْ نجاة مَنْ غاب أو موته، في حين زاول مفوضو الشرطة وأعضاءُ المجلس البلدي عملهم في مراكزهم وأجنحتهم العديدة، التي عُيِّنوا فيها، بحيث يأتمرُ سلك الشرطة، الضبَّاط والرُّقباء، بأوامر الأعضاء المختارين مِنْ أعضاء المجلس البلدي لضمان تحقيق العدالة دونما إعاقة.

وفي المشهد المكاني التالي، نَرصُد آليات الرَّقابة للتحقُّق من حريَّة الأسواق التجاريَّة، على نحوٍ خاصّ؛ إذ يجولُ العمدة أو أحد مُفوَّضي الشرطة، أو كلاهما، على صهوة الخيل في الأسواق كل يوم من أيام العمل، وذلك للتحقُّق من سرَيان التدابير والإجراءات، والتيقن من أنَّ منْ يتَّجرون من أهل الريف يحظون بأشكال التشجيع والحرية الممكنة في قدومهم وذهابهم، وللحؤول دون حدوث أي مُضايَقَةٍ أو هَلَعٍ قد يُنفِّرانهم من تَكرار القدوم إلى المدينة لعرض سلعهم.

وقد خُصَّ الخبَّازون بمراسيمَ خاصة، بحيث ينصاعُ رئيس نقابة الخبازين، رفقة المجلس النقابي، إلى توجيهات سيِّدي العمدة، عبر المراسيم التنظيمية الإجرائيَّة التي تشمل مواصفاتٍ خاصة بوزن الخبز الخاضع للرقابة (وفق ما يحدِّده سيِّدي العمدة أسبوعياً)، وكذا فقد ألزم جميع الخبازين بفتح أفرانهم طوال أيام الأسبوع تحت طائلة سحب امتيازات المواطَنة الحُرَّة في مدينة لندن. وبهذه التدابير المرعيَّة، بقي الخبز مُتوافراً ورَخيصاً كالمعتاد، كما أسلفت، والـمُؤن لم تَنقُصْ من الأسواق، إلى درجةٍ أثارت عجبي في كثير من الأحيان. ولطالما انتقدتُ ذاتي لتحفُّظي الـمُفرط وحذري الشديد من مغادرة البيت، في حين كان سُكَّان الريف يعمرون السوق بحريَّة وجرأة، كما لو أنَّ سُبل العدوى في المدينة أو مخاطر الإصابة بها قد انعدمت.

في الواقع، كان أهمُّ ما أثار الإعجاب في أداء القضاة المذكورين أن الشوارع بقيت نظيفةً باستمرار وخالية من أي مسببٍ للخوف، أو الجثث، أو أي شيء غير لائق أو كريه، ما لم يسقطْ أي شخصٍ فجأة أو يمُت على قارعة الطريق،

كما أسلفت، إذ تُغطى الجثث عموماً بقماش ما أو بأي بطانية، أو تنقل إلى مقبرة الكنيسة ما إن يهبط الليل.

كانت الأعمال الضرورية كافة التي رافَقها الرُّعبُ، فضلاً عمَّا تحمله في أطوائها من وحشة وخطورة، تُمارَس تحت جانحة الظلام، من نحو: نقل جثث المطعونين، أو دفنها، أو حرق الملابس الملوَّثة بالوباء. ولوحظ أن جميع الجثث التي أُلقيت في الحفر الكبيرة في العديد من مقابر الكنائس أو أماكن الدفن، قد جرى نقلها في الليل، وكان كل شيء يُطمَر بالتراب ويغلق قبل بزوغ الشمس.

لذلك، لم تتوافر أدنى إشارة إلى أي كارثة أو فاجعةٍ يمكن رؤيتها أو سماعها في واضحة النهار، باستثناء ما لا بُدَّ من ملاحظته من الشوارع الخالية، وأحياناً ما يصدرُ عن نوافذ بعض المنازل والمحلات التجارية المغلقة، من نحيب المفجوعين بموتاهم وعويلهم.

فضلاً عن أن صمت الشوارع الخالية في المدينة قد خيَّم بدرجة أعلى في أطرافها الخارجية، عدا فترة زمنية واحدة، عندما نزل الطاعون شرقيَّ المدينة وانتشر في جميع أرجائها، كما بيَّنت آنفاً. لقد كان بالفعل تصريفاً تجلَّت فيه العناية الإلهية، حيث بدأ الطاعون في أحد أطراف المدينة أولاً (كما لوحظ بشكل عام)، ما أدَّى إلى انتقاله بشكل تدريجي نحو أجزاء أخرى. وما كاد يجيء في هذا الاتجاه، أو باتجاه الشرق، حتى انقضت ضراوته في الجزء الغربي من البلدة. وهكذا، فما إنْ يأتي في اتجاه ما، حتى ينحسر في اتجاه آخَر. وعلى سبيل المثال، بدأ الوباء في «**سانت جايلز**» ونهاية «**وِسْتْ مِنْسْتَر**» في المدينة، وبلغ أوج انتشاره في أرجاء ذلك الجزء بحلول منتصف تموز، أيْ في: «**سانت جايلز-إنْ-ذي-فيلْدز**»، و«**سانْتْ أندروز**»، و«**هلبورن**»، و«**سانْتْ كليمونت دينْز**»، و«**سانْتْ مارتينز-إن-ذي-فيلدز**»، وَ«**وِسْتْ مِنْسْتَر**».

وفي أواخر تموز، انخفضت وتيرة الوباء في دائرة تلك الأبرشيَّات، وقدم إلى الشرق وانتشر بضراوة في مناطق: «**كربل غيت**»، و«**سانت سيبولتشرزْ**»، و«**سانْتْ جيمسزْ**»، و«**كلاركن وِل**»، و«**سانْتْ بْرايْد**»، و«**آلْدَرْزْ غيت**». وبينما كان انتشار الوباء ضارياً في عموم هذه الأبرشيَّات، لم تتأثر المدينة وجميع أبرشيَّات الجانب الجنوبي من النهر وعموم: «**ستبني**»، و«**وايت تشابل**»، و«**ألد غيت**»، و«**وابِنْغْ**»، و«**رات كليف**»، إلا قليلاً بحيث زاول الناس أعمالهم باطمئنان، وواصلوا أعمالهم التجارية، وفتحوا متاجرهم، وتواصلوا بحريَّة في أرجاء المدينة جميعها، وفي الضواحي الشرقية والشماليَّة الشرقية، وفي «**ساوثْ وورْك**»، كما لو كنَّا بمنأى عن الطاعون.

وحتى عندما غدت الضواحي الشماليَّة والشماليَّة الغربيَّة مصابة بالكامل، أيْ: «**كربل غيت**»، و«**كلاِركن وِل**»، و«**بشوبس غيت**»، و«**شوردتش**»، كان البلاء في بقيَّة المناطق، نوعاً ما، مُحْتَمَلاً. وعلى سبيل المثال، بلغت قائمة الوفيات بسبب الأمراض جميعها، من 25 تموز إلى 1 آب، على النحو التالي:

قائمة الوفيات (باختلاف مُسبّباتها) «من 25 تموز إلى 1 آب»

الأعداد	المناطق
554	سانت جايلز، كربل غيت
250	سانت سيبولتشرزْ
103	كلاركن وِل
116	بشوبس غيت
110	شوردتش
127	أبرشيَّة ستبني
92	ألْدْ غيت
104	وايت تشابل
228	في الأبرشيَّات السبع والتسعين كافة داخل الأسوار

205 في الأبرشيَّات الثمانية على جانب «**ساوْثْ وورك**»

1889 المجموع

الجدول الثالث عشر

لذا، وباختصار، تُوفِّي في ذلك الأسبوع، في أبرشيتيْ: «**كريبلْ غيت**» و«**سانت سيبولتشر**»، أكثر ممَّن مات في جميع أنحاء المدينة وجميع الضواحي الشرقية وجميع أبرشيات «**ساوث وورك**» مجتمعة، بثمان وأربعين ضحية[32]، ما أدَّى إلى استمرار السمعة الجيدة حيال الوضع الصحِّي للمدينة في عموم أرجاء إنجلترا، وبخاصَّة في المقاطعات والأسواق المجاورة، ويُعزى ذلك إلى استمرار توافر المؤن بصورة أساسية لفترة أطول بكثير من استمرار الوضع الصحِّي الجيِّد نفسه؛ فعندما خرج الريفيُّون إلى الشوارع من ناحية «**شوردتش**» و«**بشوبس غيت**»، أو من جهة «**أولد ستريت**» و«**سميثْ فيلْد**»، رأوا الشوارع الخارجية خاليةً والمنازل والمحلات التجارية مغلقة، في حين سار القليل من المارَّة من ذوي النشاط وسط الشوارع. ولكن عندما وصلوا داخل المدينة، بدت الأمور على نحوٍ أفضل، فقد كانت الأسواق والمحلات التجارية مفتوحة، والناس يتجوَّلون في الشوارع كالمعتاد، ولكن بوتيرة أقل. واستمرَّت هذه الحال حتى آخر شهر آب وبداية شهر أيلول.

وواقعياً، بدأت الوحشة بعدئذ تدبُّ في أوصال المدينة الشاحبة، فالمتاجر تنغلقُ، والشوارع تُقفر، عدا الشارع الرئيسي، فقد دعت ضرورات الحياة الناس إلى الخروج، بالفعل، في مناسبات عديدة، إذْ يوجد الكثير من الناس هناك في منتصف النهار. ولكن، تندرُ رؤية المارَّة في الصباح والمساء، حتى في الشارع الرئيسي، وينسحب هذا على شارعيْ «**كورنهيل**» و«**تشيبسايدْ**». هذه الملاحظات الخاصة بي جرى تأكيدها بقوة عبر قوائم الوفيات الأسبوعية لتلك الأسابيع، وهي حصيلة تتسم بالإشكاليَّة، طالما حرصوا على احترام رغبة الأبرشيَّات، خلال قيامها بالحسابات. ولقد نوَّهت إلى ذلك، وأؤكد بحساباتٍ تستند إلى حقائق لا شك فيها، سأوردها وفق ما سيأتي لاحقاً. وعليه، جاءت

الحصيلة الأسبوعية، التي تبرهن على هذا الانخفاض في مدافن الجانب الغربي والشمالي من المدينة، على النحو الآتي:

قائمة الوفيات الأسبوعيَّة - (12-19) أيلول

الأعداد	المناطق
456	سانت جايلز، كرِيِلْ غيت
140	سانت جايلز إنْ ذي فيلدْزْ
77	كلاركن وِل
214	سانت سيبولتشرزْ
183	سانْتْ ليونارد، شوردتش
716	أبرشيَّة ستبني
623	ألْدْ غيت
532	وايت تشابل
1493	في الأبرشيَّات السبع والتسعين كافة داخل الأسوار

1636 في الأبرشيَّات الثماني على جانب «**ساوث وورك**»

6070(1) المجموع

الجدول الرابع عشر

(1) ورد المجموع لدى ديفو: 6060. (المترجم)

لقد طرأ هنا تغيُّر غريب في الأوضاع بالفعل، وكان تغيُّراً مُحزناً. ولو استمرتْ وتيرتُه شهرين إضافيين، لما بقي على قيد الحياة إلا عدد قليل. لكنَّ التدبير الإلهي، فيما أحسب، تدخَّل بعنايته، فقد تحسَّنت الحال تحسُّناً كبيراً في المناطق الغربية والشماليَّة التي فتك بها الوباء أوَّل الأمر، كما تظهر الأرقام. وهكذا، فبينما توارى الناس في بيوتهم هنا، برزوا إلى الشوارع هناك، وتحسَّنت الأحوال في الأسبوع أو الأسبوعين التاليين بوتيرة أعلى، بما يمنح الأمل للقسم الآخر من المدينة، على نحو يبدو قصدياً. فمثلاً:

ما بين (19-26) أيلول:

قائمة الوفيات الأسبوعيّة - (19-26) أيلول

الأعداد المناطق

277 سانت جايلز، كربل غيت

119	سانت جايلز إنْ ذي فيلدْزْ
76	كلاركن وِل
193	سانت سيبولتشرزْ
146	سانْتْ ليونارد، شوردتش
616	أبرشيَّة ستبني
496	ألْدْ غيت
346	وايت تشابل
1268	في الأبرشيَّات السبع والتسعين كافة داخل الأسوار
1390	في الأبرشيَّات الثماني على جانب «**ساوث وورك**»
4927(2)	المجموع

الجدول الخامس عشر

وما بين (26 أيلول - 3 تشرين أول):

قائمة الوفيات الأسبوعيّة - (26 أيلول - 3 تشرين أول)

الأعداد	المناطق
196	سانت جايلز، كريبِلْ غيت
95	سانت جايلز إنْ ذي فيلدْزْ
48	كلاركن وِل
137	سانت سيبولتشرزْ
128	سانْتْ ليونارد، شوردتش
674	أبرشيَّة ستبني
372	ألْدْ غيت
328	وايت تشابل
1149	في الأبرشيَّات السبع والتسعين كافة داخل الأسوار
1201	في الأبرشيَّات الثماني على جانب «**ساوث وورك**»
4382	المجموع

الجدول السادس عشر

والآن اكتمل البؤس في المدينة والأجزاء الشرقية والجنوبية المشار إليها، لأن النسبة الغالبة من الوفيات، كما تظهر الأرقام، تتركَّز في تلك المناطق، أيْ: المدينة، والأبرشيَّات الثماني فوق النهر، فضلاً عن أبرشيَّات: «**ألد غيت**»، و«**وايت تشابل**»، و«**ستبني**»؛ وكان هذا هو الوقت الذي ارتفعت فيه حصيلة الضحايا بشكل هائل كما بيَّنْتُ آنفاً، وتوفي ثمانية آلاف أو تسعة أسبوعياً حسب الأرقام الرسمية، في حين أعتقد أن الأرقام الحقيقية تفوق ذلك وتبلغ عشرة آلاف أو اثني عشر ألفاً في الأسبوع؛ ذلك أني أعتقد جازماً أنه لم يكن بمقدورهم احتساب الأرقام، على نحوٍ دقيق، للأسباب التي سبق أن أوردتها من قبل.

ليس هذا وحسب، فأحد الأطباء البارزين في ذلك الوقت، نشر باللاتينية تقريراً عن تلك الفترة، ومن ملاحظاته أنه قد توفي في أسبوع واحد اثنا عشر ألف 12000 شخص، كما توفي، على نحو استثنائي، أربعة آلاف (4000) في ليلة واحدة، وإنْ كُنت لا أذكر ليلة بعينها هلك فيها خلقٌ كثير على نحو ما ذكر التقرير. ومع ذلك، ما وثَّقَهُ في تقريره يؤكد ما وصفتُه أعلاه من حالة عدم اليقين بشأن حصيلة الوفيات، وما إلى ذلك، ممَّا سأورده لاحقاً.

واسمحوا لي، هنا، أن أستطرد لأعود مجدداً إلى ما قد يبدو تكراراً للظروف، لوصف الحالة البائسة للمدينة نفسها، والمناطق التي كنت أقطن فيها، في تلك الفترة على نحو خاص.

كانت المدينة والأجزاء الأخرى المشار إليها ملأى بالناس إلى حدٍّ كبير، على الرغم من الأعداد الكبيرة من الأشخاص الذين انتقلوا إلى الريف، ولربَّما أشد اكتظاظاً، ما يُعزى إلى وجود اعتقادٍ راسخ قديم لدى عامة الناس يتمثَّل في أنَّ الطاعون لن يحلَّ في المدينة ولا في «**ساوْث وورك**»، ولا في «**وابِنْغْ**» أو «**راتكليف**» على الإطلاق. لا بل بلغت درجة ثقة الناس، في مناعة تلك المناطق من الوباء، حداً دفع العديدين تبعاً لهذا الاعتبار، إلى النزوح من الضواحي الغربية والشمالية نحو الضواحي الشرقية والجنوبية طلباً للنجاة. وأعتقد يقيناً أنَّ ما حدث كان مدعاة إلى إصابتهم بالطاعون هناك، ولربَّما بوتيرة أسرع.

هنا، أيضاً، ينبغي أنْ أترك ملاحظة أخرى تسترشدُ بها الأجيال القادمة، تتعلق بطريقة عدوى الناس بعضهم لبعض، وبالأخص ذلك النوع الذي يتسبَّب به الأصحَّاء؛ فالمرضى، الذين جرت مُعايَنتُهم، ليسوا فقط من يتسبَّبون بالعدوى. وكي أُفسِّر ما سبق أقول: أعني بالمرضى مَنْ جرى اكتشاف إصابتهم بالمرض، والتزموا البقاء في أسرَّتهم، أو كانوا يَتعاطون العلاج، أو أصيبوا بانتفاخات وتفشَّت فيهم أورام خبيثة، وما شابه ذلك. وكان بمقدور الجميع أن يحذر من هؤلاء، سواء لزموا أسرَّتهم أو كانوا في حالةٍ لا يمكن إخفاؤها.

أمَّا ما أعنيه بالأصحَّاء، هنا، فمَنْ تلقوا العدوى، وفعلتْ فعلها بهم، وسَرَتْ في دمائهم، دون أن تبدو علامات الإصابة على مُحيَّاهم، حتى وإنْ لمْ يَلمَسوا ذلك بأنفسهم، كما حدث للكثيرين، ولعدة أيام. وهؤلاء نفثوا الموت في كل مكان، ونثروه على كل مَنْ اقترب منهم، حتى إن ملابسهم ذاتها احتفظت بالعدوى، وكانت أيديهم تنقل العدوى إلى الأشياء التي لامَستْها، وبخاصَّة إذا كانت دافئة ومُتعرِّقة، وكانوا في العادة أكثر عُرضة للتعرُّق من غيرهم. لقد أصبح الآن من المستحيل التعرُّف إلى هؤلاء الذين كانوا أحياناً يجهلون أنهم حاملون للمرض، كما نوَّهْت. وهؤلاء هم الناس الذين لطالما سقطوا وأُغمي عليهم في الشوارع. وفي كثير من الأحيان، كانوا يذرعونَ الشَّوارع إلى آخرها، ثم يتعرَّقون فجأة، ويُصابون بالدُّوار، فيجلسون عند عتبة أي باب ويموتون. وكان يحدث، حين يلحظ بعض هؤلاء ما بهم، أنْ يستجمعوا قوتهم لبلوغ عتبات منازلهم، ولعلهم يتمكنون، في أوقات أخرى، من ولوج بيوتهم والموت من ساعتهم. وفي بعض الحالات، كانوا يتجوَّلون حتى تبدو عليهم الأمارات الحقيقية للمرض، دون أن يدركوا ذلك، فيموتون في غضون ساعة أو ساعتين بعد عودتهم إلى المنزل، لكنهم كانوا أصحاء طوال وجودهم خارج المنزل. هؤلاء هم الأشخاص الخطرون، وهؤلاء بخاصَّة مَنْ ينبغي على الأصحاء أنْ يخشوهم. ولكنْ، مِنْ ناحية أخرى، كان مِن المستحيل أنْ يجري التعرُّف إليهم.

وهذا هو السبب في استحالة منع انتشار الطاعون، لدى نزوله بالمدينة، حتى لو اتخذت أقصى درجات اليقظة البشرية، بمعنى أن من المستحيل تمييز المصابين من الأصحَّاء، أو الرُّكون إلى إمكانية اكتشافِ المصابين انتقالَ العدوى إليهم مِن تلقاء أنفسهم. فقد كنت أعرف رجلاً، بقي يخالط رفقاءه في لندن، طوال موسم الطاعون عام 1665، وحرص أينما انتقل على اصطحاب ترياق أو شراب يُبقيه بالقرب منه، ليتناوله فور شعوره بأي خطر، وكان لديه حدسٌ خاصٌّ يتعرَّف به على الخطر أو يُنذِر منه، بما لم أجده لدى أي ممَّن التقيتُهم سابقاً أو لاحقاً.

إلى أي مدى يمكن الاعتماد على ذلك؟ لا أدري. لكنَّ الذي أدريه وأودُّ قوله هنا أن لديه جرحاً في ساقه، وحينما يختلط بأي إنسان مصاب، وتبدأ العدوى تؤثر فيه، فإنه يزعم أنَّ بإمكانه إدراك ذلك بتلك الإشارة، أيْ أنَّ الجرح الذي في ساقه سيؤلمه، وسيبدو عليه الشحوب والبياض. لذلك، ما إنْ يبدو جرحه شاحباً، حتى يتعين عليه الانصراف، أو يعالج نفسه بتناول شرابه الذي كان يصطحبه دائماً لهذه الغاية. ويبدو حينها أنَّ جرحه قد آلمه عدَّة مرات، عندما كان في صحبة من يعتقدون أنهم أصحَّاء، ومَنْ بَدا بعضهم لبعض كذلك، لكنَّه سينهضُ تواً ويقولُ علناً: «أصدقائي، ثمَّة في الغرفة مَن أُصيب بالوباء»، ومن ثمَّ سينفضُّ الجمع على الفور.

لقد مثَّل هذا، في الحقيقة، نذيراً أميناً صالحاً لجميع الناس بأنَّ الطاعون لا يمكن تجنُّبه، في بلدة مصابة، ممَّن يُخالطون الناس كيفما اتَّفق، فالنَّاس لا يُصابون بالعدوى إلا وهم يجهلونَ ذلك، وهم بالمثل ينقلون العدوى للآخرين؛ كونهم يجهلون، هم أنفسهم، إصابتهم بها. وفي هذه الحالة، لنْ يوقف عزلُ الأصحَّاء أو فصلُ المرضى انتشارَ العدوى، إلا إذا كان بإمكانهم العودة زمنياً إلى الوراء، وعزل كل أولئك الذين خالَطَهُم المرضى، حتى قبل أنْ يكتشفوا إصابَتَهم بالمرض، ولا أحدَ يعرف المدى الأجدى زمنياً للعودة إلى الوراء، أو أين يتوقَّف؛ لأنَّه، ربَّما، لا أحدَ يعرفُ متى أصيبَ وأينَ، ولا يدري كيفَ أو ممَّن تلقَّى العدوى.

وهذا هو السبب، الذي حمل عدداً لا بأس به من الناس على الحديث عن فساد الهواء وحمله للوباء، بحيث تنعدم الجدوى من توخِّي الحذر خشية تلقِّي العدوى ممَّن يختلطون بهم، كونها تنتشر في الهواء. لقد عاينتهم في حالة من الإثارة والهيجان والاستهجان لهذا السبب، إذْ يعجب مَنْ تملَّكتْه الحيرة منهم قائلاً: «لم أقترب قط من أي جثَّة مصابة بالعدوى»، «لم أختلطْ إلا مع الأصحاء المعافيين في أبدانهم، ومع ذلك، أُصبتُ بالعدوى»...! ويقول آخر، ملتفتاً إلى الجانب الديني من الموضوع: «إنَّي لعلى يقين أنَّ السماء قد أنزلت بي الوباء». ومرَّة أخرى، يصرخ الأول: «لم أقتربْ مِنْ أي وباء أو أي مُصاب؛ إنَّي لعلى يقين أنَّ السببَ كامنٌ في الهواء. إنَّنا عندما نتنفس نستنشقُ الموت...!! ولذا، فهي مشيئة الله، ولا جدوى مِنْ مقاومة القدر». هذه الأفكار الراسخة أسهمت في انخفاض وتيرة الحذر من الإصابة لدى الكثيرين، ممَّن كانوا أكثرَ تشدُّداً حِيالَه، فغَدوا أقلَّ حذراً بمرور الوقت، وعندما بلغت العدوى ذروتها، عمَّا كانوا عليه في البداية، ثمَّ بنوع من النزعة القدريَّة التركية، سيقولون: إذا كانت إصابتي بالعدوى مدعاةً لرضى الله وقَدراً ربانياً، سيستوي آنئذٍ فعل الخروج من البيت بفعل البقاء فيه؛ إذ لا مجال للهروب من القدر. وعليه، غادروا بيوتهم بكل جرأة، ولم يحذروا حتى من الدخول إلى المنازل المصابة والاختلاط بالرفقاء

المصابين، وزاروا المرضى الذين أنهكهم المرض. وباختصار، لقد استلقوا في الأسرة مع زوجاتهم أو أقربائهم المصابين بالعدوى. وماذا كانت النتيجة؟ لم تكن سوى ما كانت عليه في تركيا، ونظيرها من البلدان حيث يمارس الناس الأفعال ذاتها، أي الإصابة بالعدوى أيضاً، والموت بالمئات والآلاف.

سأنأى بنفسي عن التقليل من الخشية منْ حُكم الله وجلال العناية الإلهية، بحيث ينبغي أن يبقى ذلك حاضراً دائماً في أذهاننا في مثل هذه الحوادث. فبِلا ريب، كانت العدوى ذاتُها عقاباً ربانياً للمدينة أو البلد أو الأمَّة حيث انتشرت، ورسولَ انتقامه، ونداءً قوياً لتلك الأمة أو البلد أو المدينة كي تتضرَّعَ إلى الله وتتوب إليه، وفقاً لما قرَّره سِفرُ إرميا (الإصحاح الثامن عشر. 7، 8): «**تارة أتكلمُ على أُمَّةٍ وعلى مَملكةٍ بالقلع والهدم والإهلاك. فترجعُ تلكَ الأمةُ التي تكلمتُ عليها عنْ شَرِّها فأندمُ عن الشَّرِّ الذي قَصَدتُ أنْ أصنَعه بها**»[33]. والآن، لإيقاظ الانطباعات المستحقَّة للخشية من الله في عقول الرجال في مثل هذه الحوادث بدلاً من التبخيس بها، دوَّنْتُ هذه الملاحظات في السجل (يوميات الطاعون).

وبناء عليه، أُؤكِّد أنَّي لا أستدعي حالَ أي إنسانٍ لأعزو أو أجعل ما ألمَّ بالناس علامةً مباشرةً على المشيئة الإلهيَّة، أو توظيفاً لتوجُّهاتها، بل على العكس مِن ذلك، فثمَّة العديد مِن حالات النجاة الرائعة لبعض الأشخاص من العدوى، وحالاتٍ مِن التعافي لبعض المصابين، التي اتَّسمتْ بالعاطفيَّة المذهلة وتجلَّت العناية الإلهيَّة فيها بشكل نموذجيٍّ فريدٍ وفق ما أشاروا إليه، كما أُصنِّف نجاتي مِن العدوى ذاتِها في خانة الـمُعجزات، وأُوثِّقها بعظيم الشكر لله.

ولكنْ، عندما أتحدث عنْ الطاعون على أنَّه وباءٌ ينجمُ عنْ أسبابٍ طبيعيَّة، ينبغي أنْ نتأمَّلَ تكاثُرَه كما لو تمَّ بالفعل عبرَ وسائل طبيعيَّة، لا أنْ نحكُمَ، بأي حالٍ من الأحوال، على جَوهرِ وجوده ونَسبةُ لأسباب ومُسبِّباتٍ بشريَّة، لأنَّ القدرة الإلهية شكلت مُخطَّط الطبيعة بأكمله، وجعلت لها سُنناً تتبعُ الطبيعةُ أسبابَها. وهكذا، ارتأتْ القدرةُ الإلهيَّة ذاتُها، رحمةً أو عذاباً، أنْ تتجلى سيرورةُ أفعالها في البشر وفقاً للأسباب والمُسبِّبات، بحيث يغدو الأخذ بتلك الأسباب والمُسبِّبات الطبيعيَّة سَبباً في نَيْل الرِّضا الإلهي، ولله مطلق الحَقِّ في خَرقِ تلك السُّنن الطبيعيَّة، على نَحوٍ مُعجزٍ، متى شاء.

الآن، وبما يخصُّ الإصابة، يبدو جَلياً غيابُ ما يستدعي أي فعلٍ ربَّاني ظاهرٍ خارقٍ للسنن الكونيَّة، لكنَّ المسار الطبيعي للأشياء يبدو بشكل جليٍّ مُسلَّحاً بالسُّنن الكونية، وقادراً بتدبير رباني كما جرت العادة على مُجابهة جميع النتائج الناجمة عن العدوى (بوصفها سبباً). ومن بين هذه الأسباب وتلك النتائج، ذلك

الانتقال السري للعدوى، غير المحسوس والحتمي الذي يُعدُّ أكثر مِنْ كافٍ لتنفيذ الانتقام الإلهيِّ الرهيب، دونَ عَزْوِه لما هو خارق ومُعجز.

هذا ما كانت عليه طبيعة الاختراق الخطيرة للمرض في حدِّ ذاتها، فالعدوى التُقِطَت بشكل غير محسوس، ما جعل الأمان مُتعذِّراً حتى مع اتخاذ أعلى التدابير، طالما وجِدْنا في دائرة الوباء. لكنْ، يجب أنْ يُسمح لي بالاعتقاد -وهو اعتقادٌ تتوافَّر لَدَيَّ العديدُ مِن الأمثلة الجديدة في ذاكرتي لترسيخه، إلى درجةٍ يعسُرُ فيما أعتقد على أي شخص التصدِّي لحجيَّتها- أقولُ: يجب أنْ يُسمَح لي بالاعتقاد ألا أحَدَ في هذه الأمَّة، بأكملها على الإطلاق، قد التقط هذا المرض أو تلك العدوى إلا بطريقة عادية، إمَّا بالعدوى المباشرة مِن شخصٍ ما، وإما من ملابسه، وإما بلـَمْس شخصٍ أُصيبَ بالعدوى مِن قبل، وإما باستنشاق النتانة المنبعثة مِنْ بدنه.

وتعزز الطريقة التي بدأت بها العدوى في لندن ذلك الاعتقاد أيضاً، أيْ من خلال البضائع التي تم جلبها من هولندا ومن المشرق العربي. وقد تمثَّل أوَّلُ اختراقٍ للعدوى في شارع «**لونغ آكر**» وسط لندن، حيث جرى نقل هذه السلع وفتحها أول مرة. وقد وقع انتشاره، على نحوٍ جليٍّ، من ذلك المسكن إلى مساكن أخرى، عبر مخالطتهم للمُصابين بالمرض دون توخِّي أسباب الحيطة والحذر، ومن خلال إصابة موظفي الأبرشيَّة، مِمَّنْ أوكل إليهم تولِّي أمر الجثث وما إلى ذلك.

وتتبدَّى هذه مُعطياتٍ بارزةً تسنُد هذه النقطة التأسيسيَّة العظيمة، أيْ أنَّها تواصلت وانتقلت من شخص إلى آخر، ومن منزل إلى منزل (وفق المسار الطبيعي للأسباب والمسبِّبات)، لا خلاف ذلك. لقد توفِّي في أوَّل منزل أصيب بالعدوى أربعةُ أشخاص. وإحدى الجارات كانت قد سمعت بمرض رَبَّة ذلك المنزل، فزارَتْها وعادت إلى بيتها لتنقل العدوى لعائلتها، فماتت هي ومَنْ يَقطنُ في ذلك البيت. كما قيل إنَّ أَحَدَ القُسُس، الذي استُدعي للصلاة مع أوَّل مريضٍ في المنزل الثاني، قد التقط العدوى من ساعته، ومات رفقة عددٍ من الأفراد في منزله. وقد أخذ الأطبَّاء المرض، إثر ذلك، على محمل الجدِّ؛ ذلك أنهم لم يتخيَّلوا في البداية أنَّ الأمر يتعلق بجائحة عامَّة. لكنَّ الأطبَّاء الذين أُرسلوا تباعاً لفحص الجثث، أكَّدوا للناس أن المرض ليس أكثر أو أقلَّ مِن الطاعون، بمُسْتَصْحَباتِه المرعبة كلها، وأنه يهدِّد بتحوُّله إلى وباء عالمي، واستِتْباعاً، وكما قد يُفترض، أُصيبَ السوادُ الأعظمُ من الناس، فعلاً، بالعدوى بمجرد مخالَطَتِهم المرضى أو مَنْ أُصيبوا بالوباء، وأضحى مِن المتعذِّر وضعُ حدٍّ لانتشاره.

وهنا، توافق رأيُ الأطباء مع ما لاحظته بعد ذلك مِنْ انتشار الخطر على نحوٍ غير محسوس ويصعب إدراكه، لأنَّ المرضى لا يتسبَّبون بالعدوى إلا لمن أَزِفَ منهم أو خالطهم؛ غير أنَّ ذلك الرجل الذي قد تلقَّى العدوى بلا ريب دون أنْ يدرك ذلك، وَجال في غَيْرِ مكانٍ كشخص سليم، قد ينشر الطاعون لدى آلاف الأشخاص، كما سينشُرُه هؤلاء، بدورهم، وبالنسبة ذاتها، لدى أعدادٍ أكبر بكثير، دونما إدراك لا مِمَّنْ يتسببُ بالعدوى ولا مَنْ تُصيبُه، ورُبَّما تأخَّر ظهور أعراض الطاعون على هؤلاء أياماً عديدة بعد ذلك.

فعلى سبيل المثال، لم يدر في خَلَدِ العديد من الأشخاص، في فترة هذه الجائحة مُطلقاً، أنهم مصابون حتى اكتشفوا ما لا يوصف من مفاجأة كانت تتربَّص بهم، أي حالما ظهرت عليهم أماراتُ المرض وعلاماته. وعقب ذلك، نادراً ما عاشوا ستَّ ساعات. أما بالنسبة إلى هذه البقع التي أطلقوا عليها العلامات، فقد كانت في الحقيقة بُقعاً من **الغرغرينا** أو اللحم الميت بدت للعيان على شكل نتوءات صغيرة مثل بنسٍ فضِّيٍّ صغير، وصلبة كجسأة [34] أو مثل قرن. وهكذا، ما إن يستفحل المرض إلى هذا الحدِّ حتى يُمسي الموت أكيداً. وعلاوة على ذلك، كما ذَكَرْتُ، لم يدركوا شيئاً عن إصابتهم، كما لم يستشعروا ما بهم مِنْ علَّة، حتى برزت علامات الموت تلك على أجسادهم.

ولكنْ، ينبغي، على الجميع، التسليم بأنهم أصيبوا بالعدوى، بدرجة كبيرة مِن قبل، ولبثوا على ذلك حيناً أو بعض حين، وكذا كانت زفراتُ أفواههم، كما العرق الراشح من أجسادهم، وملابسهم، سبباً في انتشار العدوى طوال تلك الفترة، ما تسبَّب بإصابة عدد كبير من الحالات حُفِرَتْ وقائعها في ذاكرة الأطباء، بصورةٍ أقوى مما استقرَّ في ذاكرتي، لكنَّ نَزْراً منها جاء في نطاق ما رأيتُ وسمعتُ، وسأوردُ فيما يلي بعضاً منها.

ثمَّة مواطن عاش مُعافى دون بلاء حتى شهر أيلول، لما بلغ منحنى انتشار الطاعون في المدينة ذروة لا عهد لها به من قبل، وكان في أوج ابتهاجه، وتَبجُّحه (فيما أحسب)، لدى حديثه عن مستوى الأمان الذي يتفيَّأ وارف ظلاله، مُعبِّراً عن بالغ حذره من الطاعون، ومُفرطاً في وصف مراعاته الأساليب الوقائية نحو إقصاء نفسه عن أي مُصاب.

فحذَّره مواطن آخر من جيرانه، ذات يوم، مخاطباً: لا تُفرط في الثقة يا سيِّد «...»؛ فمن العسير أن نَميزَ المريض مِنْ غيره، لأننا نرى الرجال، حيناً ما، وهم أحياء يتمتعون بالعافية ظاهرياً، ونراهم بعدها بساعة، وهم صرعى لا حَراك لهم.

فأجاب الأول: «هذا صحيح»؛ ذلك أنَّه لم يكن مُتيقناً من سلامته إلى حدِّ العجرفة.

لكنه نجا بنفسه إلى ذلك الحين، والناس، كما ذكرت آنفاً، خاصَّة في المدينة، غدوا غير مكترثين حيال تلك النتيجة (أي أنَّ الحذرَ يعصمُ المرء مِن التقاط العدوى).

وعقَّب مؤكِّداً: لا ريب في ذلك، لا أعتقدُ أنَّي في أمانٍ تامٍّ، لكنني آمل ألا أكون في صحبة أي شخص قد يشكِّل خطراً صحياً.

فتساءل جارُه مُسْتَنْكِراً: كلا...!! ألم توجَدْ، قبل ليلتين، في حانة «**بَلْ هِدْ**» (Bull Head)، في شارع «**غريسْ تْشيرْتشْ**» (Gracechurch)، بصحبة السيِّد «...»؟!

فأجاب الأول: بلى، كنت هناك. ولكنْ، لم يكن هناك مِن سبب يدعونا إلى الاعتقاد أنَّ أياً من الموجودين يُمثِّل خطراً.

لم يُعقِّبْ جارُه على إجابته، غيرَ راغبٍ في مفاجأته، لكنَّ هذا جعل الرجل أَشدَّ فضولاً. وإذْ انسحب جاره إلى الوراء فإنَّ صبره أخذ ينفد، وامتاز غيظاً، فصرخ فيه بصوت مرتفع: فيمَ سؤالُك، لم يَمُتْ الرجل، أليس كذلك؟!

حينئذٍ، لاذَ جارُه بالصَّمْت، شاخصاً ببصره إلى الأعلى مُتمْتماً دونما صوت، فشَحُبَتْ ملامحُ المواطن الأول، ولم يزدْ على أنْ قال: إنْ كان ذلك على هذه الصورة، فأنا ميِّتٌ لا محالة.

وعاد إلى المنزل من فوره، وأرسل إلى صيدلانيٍّ بجواره ليعطيه عقاراً واقِياً، لأنَّ علاماتِ المرض لمَّا تَظهرْ عليه بعدُ. لكنَّ الصيْدلانيَّ، بعد أنْ كشف عن صدر الرجل أطلق تنهيدةً، واكتفى بالقول: «سل الله العافية يا سيِّدي».

وما هي غير سُويعات حتى هلك الرجل.

والآن، ليأت أحدهم ويحكم، استناداً إلى مثل هذه الحالة، إنْ كانت القوائم القضائية، مثل الحجر على المصاب أو ترحيله، كفيلة بإيقاف الوباء الذي ينتقل مِن شخصٍ إلى آخر، على الرغم مِن شعورهم بأنهم مُعافون تماماً، ولا يُحسُّون بأيٍ مِن أعراضه، وذلك لعدَّة أيام.

وقد يبدو مناسباً أنْ نتساءل عن فترة كمون بذور المرض [35] قبل أن تعلن عن نفسها بشكل فتَّاك، وما الفترة التي يغدو بها المصابون ناقلين للعدوى لمن

يخالطونهم دون أن تظهر عليهم أمارات المرض؟

لا أعتقد أنَّ قدرة الأطباء، المشهود لهم بالخبرة، تفوق قدرتي على الإجابة بشكل مباشر عن هذا السؤال، فقد يلاحظ المراقب العادي أمراً يتجاوز مُلاحظاتهم.

ويبدو للمتأمِّل في معتقد الأطباء حول العالم أنَّ الطاعون قد يكمن في الأرواح أو في الأوعية الدموية لفترة طويلة جداً؛ وإلا لماذا يفرضون الحجر الصحي على القادمين إلى موانئهم ومعابرهم الحدودية من الأماكن المشتبه بانتشاره فيها؟ قد يعتقد المرء أن فترة الأربعين يوماً تبدو طويلة جداً كي تكافح الطبيعة عدواً مثل هذا، دون أن تَقهَرَه أو تُذعِنَ له...!!

لكنني أستبعد، وفق مراقبتي لطبيعة انتشار المرض، أنْ تمتد فترةُ كمونه وعدواه استصحاباً، فوق خمسة عشر يوماً أو ستة عشر على أبعد تقدير. ووفق هذه النتيجة، عندما كان يتم إغلاق منزل في المدينة حال وفاة أي شخص بالطاعون، دون أن تظهر علامات انتقال المرض إلى أي فرد آخر من تلك العائلة طوال ستة عشر أو ثمانية عشر يوماً، لم يجرِ التعامل بصرامة معهم، بل كان يُغَضُّ الطرف عن مغادرتهم المنزل سراً. ولاحقاً، ما كان الناسُ يشعرون بالرُّعب مِن مخالطتهم وإنْ بشكل نسبيٍّ، بل كانوا يعتقدون أنهم قد باتوا أشدَّ مناعةً، لأنهم لم يكونوا ضعفاء عندما حلَّ العدوُّ في منزلهم. لكننا وَقَفْنا، في بعض الأحيان، على حالاتٍ مِن الإصابة كَمُنت أعراضُها لفترة أطول.

على أرضيَّة هذه الملاحظات جميعها، ينبغي أنْ أعلن رأيي، وأنْ أتركه كوصفة وقائية، ومفاده أنَّ أفضل تدبير وقائيٍّ ضدَّ الطاعون هو الجري بعيداً عنه، على الرغم من أنَّ العناية الربَّانية قادت سلوكي على نحوٍ مُغاير. أعلم أنَّ الناس يصبِّرون أنفسهم بالقول إنَّ الله قادر على أنْ يحفظنا آمنين حتى في عين الخطر، وإنه قادرٌ على قهرنا حين نعتقد النجاة منه، ما أبقى الآلاف في البلدة ممَّن حُمِلتْ أجسادُهم بالعربات لتستقر في هُوَّة عميقة. أمَّا مَنْ فرُّوا مِن الخطر، فقد سلموا مِن الكارثة، أو على الأقل يُحتمل أنهم نجوا.

وحيثما تعامل الناس مع هذا التدبير الوقائي الأولي، كما ينبغي لدى حدوث أي جائحة مستقبليَّة مُطابقة أو مُشابهة، سيجدون أنفسهم حسب قناعتي الجازمة إزاء تدابير مختلفة تماماً في إدارة الأزمة الإنسانيَّة، عما اتخذ عام 1665، كما ستختلف أيضاً عن أي تدابير عالمية سمعت عن اتخاذها آنذاك.

ولأقل بوجيز العبارة، سيفكرون في عزل الناس في مجموعات صغيرة، والمباعدة بينهم في بعض الأوقات، وذلك لمنع تكرار مثل هذه الجائحة التي

تشكل بالفعل خطراً داهماً، حال احتشاد عدد كبير من الناس، فحالما يحتشد مليون شخص، كما حدث من قبل، فلا مناصَ ساعتَئذٍ من حدوث المأساة كرَّةً أخرى.

والطاعون، مثل حريق كبير، ستلتهم ألسنته منازل عدَّة حال اندلاعه فيها، لكنه سيكتفي بالتهام منزل واحد إذا شبَّ في منزل منفرد. أما إذا اندلع في بلدة من ذوات الأبنية الملتصقة أو في مدينة واستعرت نارُه، فسرعان ما سيصبُّ جام غضبه ليعصف بما يطاله عصفاً.

يمكنني أن أقترح العديد من الخطط على حكومة هذه المدينة، حال وقوعها في قبضة عدوٍّ مشابه للطاعون (لا قدر الله)؛ تلك الخطط التي من شأن المدينة أن تتخفَّف بها من النسبة العظمى من الأشخاص الخطرين الذين ينتمون إليها من قبيل: المتسوِّلين، والجوعى، والعمال الفقراء، عامَّة، وأولئك الذين يصحُّ وصفهم في حالة الحجر الصحي بالأفواه التي لا يُرتجى منها نفع ولا عون بصفة خاصَّة، ممَّن يتعين التخلص منهم بحكمة وبما يحقِّق مصلحتهم الخاصة. وتقضي الخطط بأنْ يُخلي السكان الأغنياء أنفسهم وخدمهم وأولادهم من المدينة، بحيث تفرغُ المدينة وما يجاورها من مناطق، تماماً، وتقتصر على ما نسبته عُشْرُ السُّكان لكبحِ جِماحِ المرض.

لكنْ، لنفترض أنَّ عدد مَن بقي من السكان بلغ الخُمس لا العُشر، أي أنَّ مائتين وخمسين ألف شخص مكثوا في المدينة: فإن حاصر المرض مَن تبقَّى من السكان، سيتمتعون بمساحات سكنية واسعة، ما يجعلهم أكثر استعداداً للدفاع عن أنفسهم ضد العدوى، وأقلَّ عرضة لتأثيراته، ممَّا لو كان العدد الأصلي من السكان يعيشون بالقرب من بعضهم في مدينة واحدة أصغر من لندن، مثل **دبلن** أو **أمستردام** أو ما شابه.

ومن الصحيح أنَّ مئاتٍ بل آلافاً من العائلات قد هربت من هذا الطاعون الأخير، ولكن عدداً لا بأس به تلبَّث طويلاً قبل أن يغادر، وتتبدَّى الكارثة في أنَّ المصابين منهم لم يموتوا فقط إبَّان فرارهم، وإنما نقلوا العدوى للأرياف التي فرُّوا إليها، ولِـمَن لجأ إليها مِن المدن الأخرى أملاً بالنجاة، ما جعل الحليم حيراناً، فقد استحال ما كان سبباً في النجاة من الطاعون إلى سبيل حتميٍّ لانتشاره، وذلك أكَّد ما قد كنت ألمحت إليه سابقاً، ولكن يتعين علي التوسُّع فيه هنا: فقد ظلَّ الرجال الذين بدوا أصحاء يذرعون الأمكنة بعد أن التقطت أعضاؤهم الحيويَّة العدوى لعدَّة أيام، مدفوعين بإحباطهم من عدم النجاة. وقد مثَّلوا، طوال ذلك الوقت، خطراً على الآخرين. وهذا يثبت ما قلته آنفاً؛ ذلك أن هؤلاء الناس نقلو العدوى لكل بلدة مرُّوا بها، وللعوائل التي وجدوا بينها. وقد

تأدَّى عن ذلك اجتياح الوباء غالب المدن الكبرى في **إنجلترا** بصورة تقلّ أو تكثر. فكان من عادة الناس القول: ذلك اللندنيُّ أو ذاك من جلب لنا المرض.

وفي سياق حديثي عن هؤلاء الناس الخطرين فعلاً، لا ينبغي أن أغض الطرف عن افتراضي بأنهم يجهلون تماماً حقيقة ظروفهم الخاصة بإصابتهم بالعدوى؛ فلو كانوا يعرفون تلك الحقيقة، سيغدون نوعاً من القتلة عن عمدٍ وقصد حال اختلاطهم بالأشخاص الأصحاء، وسيدحض ذلك افتراضي المشار إليه أعلاه، أي أنهم كانوا يجهلون تماماً حقيقة مرضهم. وبناء عليه، سيكونون قد أقدموا على نشره بلا تردُّد. وأعتقد أن هذا الطرح جاء، على نحو ما، ممَّا ذكرته آنفاً عن اختلاط المرضى بالأصحاء، وآمل أن يكون هذا الرأي وهماً مُختَلقاً.

أُقرُّ بعدم كفاية حالةٍ واحدةٍ في إثبات فرضية أو فكرة عامة، ولكنْ، بإمكاني إيراد أسماء العديد من الأشخاص من المعروفين لدى بعض الأحياء من جيرانهم وأُسرهم، حتى اللحظة، ممَّن مثَّلوا نقيض ذلك الطرح إلى أبعد الحدود. فثمَّة رجل مطعون، كان ربَّ أسرة في الحي الذي أقطنه، اعتقد أنَّ العدوى قد انتقلت إليه من عامل فقير كان يعمل لديه. ولمَّا ذهب إلى منزل هذا الأخير لرؤيته أو تكليفه بعمل، راودته هواجس المرض حتى عندما وقف على باب العامل الفقير، إلا أنه لم يتحقَّق من أماراتها بشكل جليٍّ، لكنها أعلنت عن نفسها في اليوم التالي، واستحوذت عليه بشدة، ما تسبَّب بمبادرته الفورية بأن يُحمل إلى مبنى خارجيٍّ يقع في فناء منزله، حيث توجد غرفة فوق ورشة عمل (كان الرجل نحَّاساً). فاستلقى هناك، حتى مات، ولم يقمْ برعايته أي من جيرانه، بل تولَّت أمره ممرضة أجنبيَّة، ولم يسمح لزوجته وأطفاله وحتى خدمه بمخاطرة القدوم إلى غرفته، خشية أن يصابوا بالعدوى، سوى أنه أرسل إليهم بركاته وصلواته من خلال الممرضة التي تحدثت معهم عن بعد؛ وذلك كله مخافة أن ينقل إليهم الطاعون، فقد كان مُدركا أنه بقدر ما يبقون بعيدين، فلن تمسهم العدوى.

وهنا ينبغي أنْ ألاحظ أيضاً أنَّ تأثير الطاعون يتباين بتباين الظروف، شأنه في ذلك، في اعتقادي، شأن جميع الأمراض المعدية. فمنها ما يقهر المصاب أو يسحقه فوراً، ويتعلق الأمر هنا بالحمَّى العنيفة، والتقيُّؤات، والصداع الذي لا يُحتمل، وآلام الظهر، حتى الهذيان والهيجان المصاحبين لتلك الآلام، في حين يعاني آخرون من دمامل وأورام في الرقبة أو الفخذ أو الإبطين التي تتسبَّب لهم بآلام وتباريح شديدة قبل أن تنفثئ. وقد لاحظت إصابة آخرين بصمت، إذ افترست الحمَّى معنوياتهم خُلسةً، دون أن يروا سوى القليل من آثارها حتى غُشِيَ عليهم، وأصيبوا بإغماءات، فماتوا دون ألم.

لست على دراية كافية بالطبِّ لأتعمَّق في الأسباب والطبيعة الخاصة لهذه الأعراض المتباينة الناجمة عن الطاعون ذاته، فضلاً عن تباين دورات تأثيره في العديد من الأجساد. وليس من شأني هنا أن أسجل الملاحظات التي وثَّقتها بالفعل، لأن الأطباء أنفسهم اضطلعوا بهذا الجزء بصورة أشد فاعلية مما يمكنني القيام به، ولأنَّ رأيي قد يختلف في بعض الأمور عن رأيهم. وأنا إنما أروي ما أعرفه، أو سمعته، أو ارتأيته حيال حالات خاصَّة، وما يندرج في دائرة نظري، فضلاً عن الطبيعة المختلفة للعدوى كما تبدَّت في الحالات الخاصة التي تحدثت عنها. ولكنْ، يمكن الاستدراك على ما سبق، أيضاً، بالقول: على الرغم من أنَّ النوع الأول من هذه الحالات التي أعلنت عن نفسها بالعلامات الظاهرة كانت الأسوأ بالنسبة إلى المصابين من ناحية الألم -أعني تلك التي ظهر فيها الحمَّى والقيء والصداع والآلام والدمامل، لأنَّهم توفُّوا بهذه الطريقة المروعة- فإنَّ النوع الثاني أسوأ حالة، لأن كثيراً من المصابين، في النوع الأول، تعافوا من المرض، وبخاصة إذا انفقأت الدمامل. أما النوع الثاني، فقد كان وعداً بموت لا فكاك منه؛ فلا علاج له، ولا عون فيه يُرتجى، ولا شيء يعْقُبُه سوى الموت. وكذا، فهو النوع الأسوأ أيضاً بالنسبة إلى الآخرين، ذلك أنَّه، كما أسلفنا، ينتقل سراً دون أن يدركه الآخرون ولا حتى المصابون به أنفسهم، فينتقل الموت لمن يختلط بالمصاب، ويخترق السمُّ الذي ينسلُّ إلى دمهم بطريقة يستحيل وصفها أو تصورُّها بالفعل.

إنَّ انتقال العدوى (من سقيم إلى سليم)، دون إدراك أي منهما ذلك، كان بَيِّناً في النوعين المذكورين من حالات العدوى بالمرض التي تكرَّر حدوثها في ذلك الوقت، وليس ثمَّة شخص يعيش في لندن إبان جائحة الطاعون لم يعرف العديد من الحالات التي تُمثِّل كلا النوعين.

(1) اختلط الآباء والأمهات، كما لو أنهم في حالة جيدة، ومازالوا على اعتقادهم أنهم كذلك، حتى أصيبوا بالعدوى فباتوا سبباً في دمار أسرهم بأكملها، وهو ما كان بمقدورهم تفاديه لو أدركوا حقيقة مرضهم وما يشكلونه، بأنفسهم، من خطر على الآخرين. وقد تناهت إليَّ قصة إحدى العائلات التي أصيب فيها الأب بالعدوى، وبدأت أعراض الطاعون تظهر على بعض أفرادها قبل أن يجدها الأب في جسده. غير أن البحث الدقيق كشف حقيقة إصابته المُسبقة بالعدوى، وما إنْ اكتشف أنَّ عائلته قد تسمَّمت بسببه، حتى ذهل عن نفسه، وحاول أن يزهق نفسه بكلتا يديه، ولكنَّ مَن قام على رعايته حال بينه وبين ذلك، ومات في غضون أيام قليلة.

(2) أمَّا الحالة النمطيَّة الثانية، فتتمثَّل في أنَّ العديد من الناس بدوا في صحة جيِّدة وفقاً لتقديرهم الخاص، أو عبر الملاحظة الحثيثة التي مارسوها على

أنفسهم، بقدر ما استطاعوا لعدَّة أيام، فلم يلحظوا سوى ضعف في الشهية للطعام، أو غثيان معويٍّ خفيف في بطونهم، حتى إنَّ بعض الذين تمتَّعوا منهم بشهية قويَّة بلغت درجة التوق الشديد إلى الطعام، بيد أنهم عانوا صداعاً خفيفاً، استدعوا الأطباء لمعرفة ما أَمْرَضَهم فوقعت المفاجأة الكبرى، حين وجدوا أنفسهم على حافة الموت؛ فعلامات الطاعون ظاهرة في أبدانهم، أو بلغ الطاعون منهم مبلغاً يتعذَّر معه الشفاء.

لقد بدا مُحزناً للغاية أنْ نتصوَّر كيف استحال مثل ذلك الشخص كائناً مدمِّراً قد يسير بين الناس طيلة أسبوع أو أسبوعين قبل ذلك، وكيف دمَّر من كان سيُعرِّض حياته للخطر لإنقاذهم، وكيف نفث الموت من فمه في وجوههم، وربما طبع الموت في قبلاته الرقيقة لأطفاله لدى احتضانه إياهم.

ومع ذلك، جرى الأمر على النحو الذي وصفنا، وتكرَّر أحياناً كثيرة، ويمكنني أن أسرد العديد من الحالات الخاصة التي تدعم ذلك. فإن كانت الكارثة تضرب بيد خفيَّة، وإذا كان السهم يطير على هذا النحو الخفي، ولا يمكن اكتشافه، فما الغرض من جميع مخططات حجر المرضى أو ترحيلهم؟!

هذه المخططات لن تغدو ذات جدوى إلا على من تظهر علامات المرض أو العدوى عليهم، في حين يكمن في الوقت ذاته، فيما بينهم، آلاف الأشخاص الذين يبدون بخير، لكنهم على هيأتهم تلك، إنما يحملون الموت لمن يلتقونهم كافَّة.

وقد حيَّر هذا الأمر الأطباء في كثير من الأحيان، وبخاصة الصيادلة والجرَّاحون الذين جهلوا كيفية تمييز المرضى من الأصحاء. لقد اعترفوا جميعاً أنَّ الأمر كان كذلك حقاً، وأنَّ الطاعون سرى في دماء العديد من الناس، وافترس أرواحهم، ولم يكونوا أنفسهم سوى جثث منتنة تسير على الأرض، أنفاسُها تنشر العدوى، وعَرَقُها سمٌّ زُعاف. ومع ذلك، تبدو عليهم سيماء العافية كما الأصحاء، حتى إنَّهم لم يكتشفوا مرضهم بأنفسهم؛ أقول: لقد أقرُّوا جميعاً بأنَّ هذا جِدٌّ صحيح وفق المعطيات الواقعية، لكنهم عجزوا عن اقتراح أي آليَّة ناجعة في التشخيص.

كان صديقي الدكتور **هيث** يعتقد أنَّ للمصاب بالطاعون رائحة كريهة تميزه، بيد أنه استدرك بعد ذلك قائلاً: مَن ذا الذي يتطوَّع ليشمَّ تلك الرائحة رغبةً في الاستعلام؟! فلمعرفة ذلك، عليه أن يستدخل رائحة الطاعون النتنة في دماغه، بُغيةَ تمييز الرائحة...!!

لقد سمعت أنَّ آخرين زعموا إمكانية تمييزه بجعل المصابين ينفثون أنفاسهم على قطعة من الزجاج، بحيث تتكثَّف؛ ما قد يتيح رؤية مخلوقات حيَّة عبر مجهر، تبدو غريبة ووحشية ومخيفة الشكل كالتنانين والثعابين والأفاعي والشياطين، على نحو مروع للنظر. لكني أشكك كثيراً في صحته، إذ لم تكن لدينا مجاهر في ذلك الوقت، فيما أذكر، لإجراء تلك التجربة بواسطتها.

ويعتقد عالم آخر، أيضاً، أنَّ زفرةً من فم المصاب بالطاعون سوف تُسمِّم طائراً وتقتله على الفور؛ لا أقصد طائراً صغيراً فقط وإنما الديك أو الدجاجة، وأنها إذا لم تقتل هذا الأخير على الفور، فستتسبَّب في إصابته بمرض «**الروبي**» [36]، كما يُسمُّونه. وعلاوة على ذلك، أنَّى وضع الدجاج بَيْضاً، فسيكون كله فاسداً عفناً.

لكنِّي لم أعهد تجارب سابقة تدعم هذه الآراء أو تؤكِّدها، ولا سمعت أنَّ آخرين قد اطلعوا على أي تجارب من هذا القبيل. لذا، أورد هذه الآراء مثلما اطلعت عليها، مشفوعةً بهذه الملاحظة، ومؤدَّاها اعتقادي أنَّ احتمالات صدق هذه الآراء قوية للغاية من وجهة نظر واضعيها.

واقترح نفرٌ آخر أنَّ على هؤلاء الأشخاص أن يزفروا بقوَّة في الماء الدافئ، بحيث تتولد رغوة غير عادية فيه، أو على عدد من المواد الأخرى، وبخاصة المواد اللزجة، مثلاً، التي تتَّسم بقدرتها على تلقِّي الرغوة وحملها.

غير أني، أستنتج، من مُجملِ ما سبق، أنَّ طبيعة هذه العدوى تستعصي على الاكتشاف تقريباً، أو حتى على كبح انتقالها من شخص إلى آخر، مهما بلغت مهارة الإنسان أو براعته.

وفي الحقيقة، ثمة إشكالية واحدة لم أتمكن قط من تجنُّبها أو تجاوزها تماماً حتى اللحظة. وما أعرفه، أنَّ الغموض الكامن فيها يصعب فضُّه إلا بطريقة واحدة، وهذا تفصيل تلك الإشكالية: إن أوّلَ شخص مات بالطاعون كان في الـ 20 من كانون الأول، أو قُرابته، عامَ 1664م، في شارع «**لونغ آكر**» أو ما حوله، حيث قيل إن أول مطعون تلقى العدوى من رزمة حرير مستورد من هولندا فتحت أوَّل مرَّة في ذلك المنزل.

ولكنْ، لم نسمع بعد ذلك عن وفاة أي شخص بالطاعون، أو عن انتشار الطاعون في ذلك المكان، حتى الـ 9 من شباط، أي بعد سبعة أسابيع تقريباً؛ إذ دُفن شخص آخر من غير نزلاء ذلك المنزل (قضى بالطاعون)، ثم جرى التكتم

على تلك الحادثة. وبالنسبة إلى الجمهور، سُيِّرت الأمور بسلاسة مثالية فترة طويلة؛ فقد خلت القائمة الأسبوعية لضحايا الطاعون من أي أسماء جديدة حتى الـ 22 من نيسان، عندما دُفن اثنان آخران، ليسا من المنزل نفسه، وإنما من الشارع ذاته. وفيما أذكر، كان خارج المنزل المجاور للأول. حدث هذا بعد قرابة تسعة أسابيع. وبعد ذلك، لـم يمض أكثر من أسبوعين، حتى اجتاحت العدوى شوارع عدة، وانتشرت في غير اتجاه.

وهنا، يبرز السؤال على هذا النحو:

أين توضَّعت بذور العدوى كل هذا الوقت؟!

كيف توقفت طيلة تلك الفترة، ثم استمرت دونما توقُّف؟!

إمَّا أنَّ الطاعون لم ينتشر على الفور عن طريق العدوى من جسم إلى آخر، أو أنه انتشر كذلك بالفعل، لكنَّ جسد المصاب كان قادراً على احتمال العدوى دون أن تظهر أعراضُها لأيام، بل أسابيع عديدة؛ تتجاوز حتى فترة الحجر الصحي (40 يوماً)، أي ستِّين يوماً أو أكثر «**سْوازُنْتين**» (Soixantine).

وبلا شكٍّ، كان موسم الشتاء، آنذاك شديد البرودة، استمر فيه الصقيع ثلاثة أشهر، كما لاحظت في البداية، ومثلما هو معروف جيداً لدى الكثيرين ممَّن عايشوا تلك الأجواء ومازالوا أحياء حتى اللحظة؛ ما أسهم في كبح العدوى، حسب الأطباء. ولكن، بعد ذلك، على العلماء والمتخصصين أن يسمحوا لي بالقول إنه إذا كان المرض، وفقاً لاعتقادهم، قد تجمَّد فقط (كما قد أقول)، فإنَّه -بعدئذٍ- سيستأنف وتيرته المعتادة، مثلما يستأنف النهر المتجمِّد قوَّته عند الذوبان، في حين تقع فترة جمود العدوى، من شباط إلى نيسان، أي بعد انكسار طبقة الصقيع واعتدال الطقس ودفئه.

لكنِّي أعتقد بنجاعة طريقة أخرى، من وحي ذاكرتي، في تذليل عقبات تلك الإشكاليَّة كافة. ومفادها: لا بُدَّ من التشكيك في وثوقيِّة «الحقيقة» التي تدَّعي أنه لم يمت أحد في تلك الفترات الطويلة، أي من 20 كانون أوَّل إلى الـ 9 من شباط، ومن ذلك التاريخ إلى الـ 22 من نيسان؛ فالحقيقة لمَّا يُكشف النقاب عنها بعد.

تُعدُّ قوائم الضحايا الأسبوعية المؤشر الوحيد لدى أدعياء تلك الحقيقة، وهي مؤشِّر لا يحظى، لديَّ على الأقل، بموثوقيَّة كافية لدعم فرضيَّةٍ أو البَتِّ في

مسألة ذات أهميَّة مثل هذه، فلقد وقعت حالة تز**وير** في ذلك الوقت، تُمثل أرضيَّةً تستحق البناء عليها، مارس التلفيق فيها القائمون على الأبرشيَّة والباحثون والأشخاص المكلفون بإحصاء الضحايا وتوثيق حالاتهم، والأمراض التي ماتوا بسببها. إذ ساءَ الناسَ، في مُستهلِّ الجائحة، تسرُّب خبر إصابة منازلهم بالعدوى للجيران؛ ما دفعهم إلى منح الرِّشى، بُغية تز**وير** أسباب الوفاة، وتوثيقها في قوائم أخرى غير الطاعون. ولقد علمت أنَّ الممارسة ذاتها قد تكرَّرت في أماكن كثيرة، بل أعتقد أنها شملت جميع الأماكن التي حلَّ فيها الطاعون، كما سيتضح من الزيادة الهائلة للأعداد التي وثقت في القوائم الأسبوعية تحت بنود أخرى من الأوبئة والأسقام خلال فترة الوباء.

فعلى سبيل المثال، وفي شهري تموز وآب، حين اقترب الطاعون من أعلى ذروة له، كان من الطبيعي جداً أن يتراوح عدد المصابين بالأوبئة والأمراض المُعدية الأخرى (حُمَّى الكلاب، وحُمَّى الخيل..) غير الطاعون، بين ألف (1000) وألف ومائتين (1200)، لا أن يرتفع العدد إلى ما يقرب من خمسمائة مصاب أسبوعياً.

لا يعني ذلك أنَّ أعداد هؤلاء المرضى قد ازدادت بالفعل إلى هذه الدرجة، ولكنَّ العدد الأكبر من عائلات ومنازل «**المطعونين**» حقاً، قد تحصَّل على مُحاباة بتوثيق أسباب الوفاة في غير قوائم الطاعون، للحؤول دون إغلاق منازلهم. فمثلاً، مات بأمراض أخرى إلى جانب الطاعون أحد عشر ألفاً وسبعمئة واثنين (11702) من المرضى، خلال 10 أسابيع، وفق الآتي:

الأسابيع في الفترة ما بين (18 تموز - 26 أيلول)

الأعداد	الأسابيع	
	من	إلى
942	18 تموز	25 تموز
1004	25 تموز	1 آب

1213	1 آب	8 آب
1439	8 آب	15 آب
1331	15 آب	22 آب
1394	22 آب	29 آب
1264	29 آب	5 أيلول
1056	5 أيلول	12 أيلول
1132	13 أيلول	19 أيلول
927	19 أيلول	26 أيلول
11702	المجموع (خلال الأسابيع العشرة)	

الجدول السابع عشر

ليس ثمة شكٌّ، آنئذٍ، في أن القسم الأكبر من هؤلاء، أو قسماً كبيراً منهم، قد ماتوا بالطاعون، ولكن الموظفين (الذين أوكلت إليهم مهمة تمييز أسباب الوفاة) أُقنعوا بتصنيف أسباب الوفاة على النحو الوارد أعلاه. فقد أوردت بعض القوائم المتخصصة أعداد المطعونين التي جرى اكتشافها على النحو الآتي:

	الشهر	آب			
	الأسابيع	(1-8)	(9-15)	(16-22)	(23-29)
الأمراض	حُمَّى	314	353	348	383
	حُمَّى مُبقَّعة	174	190	166	165
	التُخمة/ السُّمنة (الإفراط في الطعام)	85	87	74	99
	أمراض الأسنان	90	113	111	133
	المجموع (الشهري)	663	743	699	780

الجدول الثامن عشر

	الشهر	أيلول			
	الأسابيع	(1-8)	(9-15)	(16-22)	(23-29)
الأمراض	حُمَّى	364	332	309	268

حُمَّى مُبقَّعة	157	97	101	65
التُخمة/ السُّمنة (الإفراط في الطعام)	68	45	49	36
أمراض الأسنان	138	128	121	112
المجموع (الشهري) (3)	727	602	580	481

الجدول التاسع عشر

وثمَّة العديد من القوائم الأخرى التي حملت نسباً مشابهة لأمراض أخرى، وهو أمر يسهل إدراكه إذا عددنا المقصد المذكور، أي التعمية على العدد الحقيقي لوفيات الطاعون. ومن تلك: الشيخوخة، والسُّل، والتقيؤ، والخرَّاج، والمغص المعوي، وما شابه ذلك، ممَّا لا يُشك في كون كثير من هؤلاء مصاباً بالطاعون. ولكن، لمَّا كان ذا أهمية قصوى لدى عائلات المطعونين عدم الإفصاح عن حقيقة إصابتهم بالعدوى، ما لم يتعذَّر ذلك، فقد اتخذوا التدابير المُتاحة جميعها لكتمان تلك الحقيقة، بحيث إذا حدثت وفاة في أي منزل منها، سيتولى الفاحصون أمرها، بمعيَّة مُفتِّشي الصحة، لتز**وير** سبب الوفاة وتصنيفها ضمن أوبئة أخرى (غير الطاعون).

وأعتقد أنَّ هذا ما يُفسر الفترة الطويلة التي امتدَّت، كما قلت، بين وفاة أوَّل شخص جرى تصنيفه في قوائم الموتى بالطاعون، وبين الوقت الذي انتشرت فيه العدوى علانية بشكل يستحيل إخفاؤه أو التعتيم عليه.

إلى جانب ذلك، بات من الجليِّ أن القوائم الأسبوعية نفسها، في ذلك الوقت، هي ما يكشف الحقيقة. فعندما اختفى أدنى ذكرٍ للطاعون، دون إيراد أي زيادة بعد أن جرى توثيق الإصابة به (أوَّل مرة)، كان من الواضح أن ثمة زيادة في أعداد المصابين بأوبئة أخرى في المناطق المتاخمة لمكان أول مطعون. فعلى سبيل المثال، وثقت إصابة ثمانية أو اثني عشر أو سبعة عشر مريضاً بالحمى المبقَّعة في الأسبوع، في حين لم توثق أي إصابة بالطاعون، أو جرى توثيق

عدد محدود منها؛ في حين جرى من قبل، في الأسابيع العادية (السابقة لظهور الطاعون)، تسجيل مريض واحد، أو ثلاثة، أو أربعة أسبوعياً بالحُمَّى المبقَّعة.

بالمثل، وكما لاحظت من قبل، ازدادت عمليات الدفن أسبوعياً، وبخاصة في تلك الأبرشيَّة والأبرشيَّات المجاورة أكثر من أي أبرشيَّة أخرى، على الرغم من عدم وجود أي طاعون. وبناءً على جميع ما سبق، نستنتج أن العدوى انتقلت، وأن سلسلة الإصابة بالطاعون لم تنقطع فعلياً، على الرغم ممَّا تبدَّى في ذلك الوقت من انقطاعها، واستئنافها مرَّة أخرى على نحو مفاجئ.

يُحتمل أيضاً أن العدوى قد تَبقَّت في أجزاء أخرى من الطرود نفسها للبضائع التي قَدِمَت في البداية، ولمَّا تُفتح بعدُ، أو فُتحت جزئياً، أو بقيت في ملابس الشخص المصاب الأول، لأنَّي لا أعتقد أن أي شخص تخطَّفته العدوى بدرجة قاتلة ومُهلكة لفترة تسعة أسابيع متصلة، يمكن أن يُعزِّز حالته الصحية أيضاً، بحيث لا تُكتشف حتى فيمَن يُخالطهم. ولكن، إذا كان الأمر كذلك، فإن الحجة أقوى لصالح ما أقوله: أي أن العدوى احتُجِزَت، في أجساد مَنْ أصيبوا بها، بصورة جيدة على ما يبدو، وجرى انتقالُها منهم إلى أولئك الذين يختلطون بهم، في حين تَوارَت العدوى وخَفِيَت عن هؤلاء وأولئك (أي المطعونين والمُنْعَدين).

عمَّت الفوضى، وسادت حالة من الارتباك، في ذلك الوقت، بناء على هذه الرواية نفسها. وما إن ساورت الناس حالة من القناعة أن العدوى قد انتقلت بتلك الطريقة المفاجئة، من أشخاص بدوا على ما يُرام، حتى بدأوا في الاحتراس والارتياب بكل مَن يقترب منهم.

فقد حدث مرَّة، في مقعد كنسي مليء بالمصلين داخل الكنيسة «**ألد غيت**»، في يوم من أيام العبادة؛ لعله السبت، أنْ توهَّمَت امرأة، فجأة، أنَّها اشتمت رائحة المرض، وتراءى لها، على الفور، أن الطاعون قابع في المقعد الكنسيِّ، فهمست بما داخَلها من اعتقاد أو استيهام إلى من تجلس بإزائها، ثمَّ قامت وغادرت المقعد الخشبي، فنقلت هذه، بدورها، ما استبدَّ بها من شكٍّ لمن تجلس بجوارها على الفور، ثم انتشر إلى اثنين أو ثلاثة من المقاعد المجاورة، فنهضوا وخرجوا من الكنيسة، ولا أحد يعرف مصدر استيائهم، أو مِمَّن استاؤوا..!!

وما لبث أن ملأ الناس أَفواههم بهذا المستحضر أو ذاك من تلك المستحضرات التي تصفها العجائز أو الأطباء لاتِّقاء العدوى التي تتسبَّب بها أنفاس الآخرين، من نحو الإرشاد الذي مارسته المرأة العجوز (لربَّما في مقصورة الكنيسة)، وربما بتوجيه من الأطباء درءاً لانتقال العدوى التي تتأتَّى من استنشاق أنفاس

الآخرين (المرضى)، إلى درجة أننا حين نتجه إلى الكنيسة، بصرف النظر عن عدد مَن فيها مِن مصلين، سيطالعك مزيج من الروائح عند المدخل أقوى بكثير ممَّا تعهده حال عيادتك الصيدلية أو متجر الأدوية. وربَّما كانت تلك المستحضرات أقلَّ نجاعة من الأدوية الموجودة في الصيدليات.

وبإيجاز، بدت الكنيسة بمختلف أرجائها صنواً لزجاجة روائح. فقد تضوَّعت بتنوُّعها في أحد أركان الكنيسة، وعبقت النكهات العطرية والبلسميَّة والأدوية والأعشاب بجناح آخر، في حين فاحت رائحة التوابل والمشروبات الروحيَّة في بعض الأرجاء، كل بحسب ما أعدَّ للنجاة من الطاعون.

ومع ذلك، لاحظتُ أنَّ الناس قد عزفوا عن الاحتشاد في الكنائس ودور العبادة على النحو الذي عهدوه من قبل، بعد أن استحوذ عليهم الاعتقاد أنَّ العدوى قد يحملها أشخاص تبدو عليهم علائم الصحة، كما أسلفت سابقاً، بل استيقنوا تلك (الحقيقة الطبية). وينبغي أنْ أسجِّل أنَّ مواطني لندن، ما جافوا الكنائس ولا امتنعوا بشكل تامٍّ عن عقد الصلوات، طوال فترة انتشار الطاعون الدبلي، ولم يَرْعَوِ الناسُ عن الخروج لممارسة الطقوس التعبُّدية العامة، إبَّان استفحال الطاعون في لندن على نحوٍ خاصٍّ، خلا بعض الأبرشيَّات، وحتى بعدَئذٍ، ما فَتِئتْ (وتيرة خروجهم للتعبُّد) كما المعتاد، إلى حدٍّ ما.

في الواقع، ما من شيء أشد غرابة ممَّا دأب عليه الناس من شجاعة في ممارسة الطقوس التعبُّدية العلنية لله، حتى في ذلك الوقت الذي لازمتهم فيه الخشية من مغادرة منازلهم لأي مناسبة أخرى. هذا ما اعتادوه قبل «**فترة القنوط**»، التي تحدثت عنها سلفاً؛ ما يمثل برهاناً على الازدحام السكاني في المدينة إبَّان الطاعون، على الرغم من الأعداد الكبيرة التي هُرعت إلى الريف عند الإنذار الأوَّل، وتلك التي هربت إلى الغابات لمَّا اجتاحتهم حالة غير مسبوقة من الهلع، فور اشتداد جائحة الطاعون على نحو استثنائي. ولهذا، لَشدَّ ما كانت دهشتنا لدى رؤية حشود الناس تتفاوج أيام السبت في الكنائس، ولاسيما في تلك الأنحاء من المدينة حيث خفتت وتيرة الطاعون، أو لمَّا يَسْتَشْرِ بعدُ ويبلغ ذروته. لكن هذا ما سأتحدث عنه مرة أخرى عما قريب. ولكن، قبل الخوض في ذلك، أعود في هذه الأثناء إلى الموضوع المتعلق بالعدوى ابتداء، قبل أن يتوصل الناس إلى المفاهيم الصحيحة حول الوباء ونقل العدوى إلى بعضهم.

اتسم أداء الناس بالحذر الشديد من المرضى فقط، أو ممَّن يضع قلنسوة على رأسه، أو يتوشَّح لفاعاً حول رقبته، وكانت هذه حال أولئك الذين انتفخت أورام الطاعون لديهم. وقد مثَّل ذلك رادعاً عن الاحتكاك بهم. ولكنْ، عندما كنَّا نرى

نبيلاً يرتدي ملابسه الأنيقة، وحِزامَه، وقفَّازاته في يده، مُعتمراً قبَّعته، وشعره ممشوط، لم تُخالجنا أدنى خشية منه. كما اختلط الناس ببعضهم بحريَّة، ولاسيَّما مع جيرانهم ومعارفهم.

ولكن، عندما أكَّد لنا الأطباء أنَّ الخطر مُتَأَتٍّ من الأصحاء كذلك، أيْ مَن تبدو عليهم علامات الصحة، وأنَّ أولئك الذين اعتقدوا بانعتاقهم (من إسار الطاعون) كانوا في أغلب الأحيان أشدَّهم فتكاً، وحالما غدت هذه حقيقة عامة لدى الناس كافة، واستشعروها، فضلاً عن وعيهم بأسبابها، أزعم آنئذٍ، أنَّ الناس قد اتخذوا أسباب الحيطة والحذر من الجميع، وعزل عدد كبير منهم أنفسهم عمَّن سواهم، خشية اختلاطهم خارج المنزل بأي من معارفهم على الإطلاق، وبما يحول دون اختلاطهم، في منازلهم، بأي شخص يُشْتَبَهُ بمُخالَطَتِه أي مطعون، أو باقترابه من المُصابين بحيث يكون في مدى زَفَراتِ أنفاسِهِم أو قادراً على أن يشتمَّ أي رائحة تنبعث من أفواههم. وعندما اضطروا إلى مخالطة الغرباء، كان لديهم -دائماً- في أفواههم وحول ملابسهم ما يقيهِم شرَّ العدوى ويَصُدُّها عنهم.

ينبغي الإقرار أنَّ الناس قد غدوا أقلَّ عُرضةً للخطر فور مراعاتهم هذه الاحتياطات، ولم تخترق العدوى منازل هؤلاء بتلك الشراسة التي مارستها من قبل فيما يماثلها من المنازل الأخرى، فباتتْ آلاف العائلات، بفضل تلك الاحتياطات، آمنة مطمئنة من غير أن ينقص ذلك مما يدين به الناس من واجب الشكر للعناية الإلهية التي تُطوِّق أعناق الجميع بأفضالها.

كان من المستحيل التغلُّب على ما استقر في عقول الفقراء من مُعتقدات بُغيَة تغييرها، فقد تأصَّل التهور والطيش في طبائعهم المُتْخَمةِ بالنواح والتفجُّع والنَّدْب، لدى انتقال العدوى إليهم بعدما أسرفوا في إهمال أنفسهم بجنون، حينما تمتَّعوا بصحَّة جيدة، فباتوا مُتهورين وعنيدين، ولم يأنفوا من مزاولة أي عمل فَوْرَ توافرِهِ، مهما اتَّسم بالخطورة، وإنْ انطوى على أعلى مستويات الخطورة في التقاط العدوى. وإذا جرى التحدُّث إليهم فسيكون جوابهم:

«ينبغي أن أثق بالله وحده. فإذا حانت ساعة وفاتي، فقد انقضى ما قُدِّرَ لي من عُمر، وتلك نهايتي المحتومة»، وما شابه ذلك.

أو تكون الإجابة على النحو التالي:

«لماذا؟ ما الذي ينبغي عليَّ فعله؟ ليس بمقدوري أن أموت جوعاً؛ فمن الممكن أن أموت جوعاً مثلما يمكن أن أموت مطعوناً.

لا عمل لديَّ. ماذا يمكنني أن أفعل؟ إما هذا العمل المتاح وإما التسوُّل...!!».

كانت هذه إجاباتهم، مهما تباينت طبيعة ما يُزاوِلونَه من أعمال نحو: دفن الموتى، أو جلب المرضى، أو حراسة المنازل الموبوءة، وكلها أعمال بالغة الخطورة. صحيح أنَّ الضرورات تُبيح المحظورات، وهي حُجة مُبرَّرَة ومُقنعة للغاية لا تُدانيها حُجَّة أخرى. لكنه غدا خطاباً سائداً على ألسنتهم مهما تباينت حدَّةُ الضرورات لديهم. وكان هذا السلوك المتهور للفقراء سبباً في استشراء الطاعون فيما بينهم بوتيرة مُرعبة وضراوةٍ انضافت إلى شقوة ظروفهم المعيشية القاسية، بحيث تكدَّست جُثَثُهم أكواماً؛ فليس بمقدوري أن أرى، فيما بينهم، مثقالَ ذرَّةٍ مِنْ حُسْنِ التدبير؛ أعني العمَّال الفقراء، وهم يتمتعون بصحة جيدة، ويتقاضون قدراً من المال يفوق ما تحصَّلوا عليه من قبل. ولكنهم يُبذِّرون ويبذخون بلا أدنى تقدير أو تفكير فيما تُخبئه لهم نوائب الأيام القادمة لا محالة؛ فما إن نزل بهم الطاعون حتى مَسَّتهُم البأساء والضرَّاء، فَتكدَّرت أحوالُهم، مرضاً وإملاقاً ونَقْصاً في الغذاء، وعوزاً في الصحة والدواء.

وكنت شاهداً، وفي غيرِ مُناسَبةٍ، على بُؤس الفقراء الذي وصفته سالفاً، وشهدت أحياناً أشكالاً من المساعدة الخيريَّة التي قدَّمها بعضُ المتديِّنين لمثل هؤلاء (البؤساء)، يومياً، من قبيل إرسالهم الإغاثة والإمدادات الغذائية والدوائيَّة وغيرها من أشكال العون والمساعدة، بما يتناسب مع تقديرهم لاحتياجات المُعوزين. وبحقٍّ، لقد أضحت تلك النَّزعة الإنسانيَّة آنذاك، دَيْناً يقتضي الإنصافُ إبرازَهُ والثناء عليه؛ فلم يقتصر الأمر على إرسال مبالغ كبيرة للسيِّد العُمدة وأعضاء المجلس المحلي فحسب، وإنما وصلتهم مبالغ طائلة وضخمة جداً من المال لإعانةِ مَن أصيبوا بالطاعون مِن الفقراء ودعمهم.

لكنَّ عدداً وافراً من الأغنياء، مِمَّنْ فضَّلوا كتمانَ أسمائهم، وزَّعوا يومياً مبالغَ مالية كبيرة لإغاثة الفقراء والملهوفين، وأرسلوا أشخاصاً للاستعلام والتحرِّي عن أحوالِ عائلاتٍ مكروبة أو مُبتَلاةٍ بالطاعون على نحوٍ خاصٍّ، فأنجدوهم؛ حتى إنَّ بعض السيِّدات الورعات، تقودُهنَّ الحماسةُ لعملِ الخير والثقةُ البالغةُ في حفظ الله لهنَّ، قُمن بتفانٍ في أداء العمل الخيريِّ العظيم، إلى درجة استعدادهنَّ للتجوال شخصياً بُغْيَةَ توزيع الصَّدقات على الفقراء، وحتى لعيادة العائلات البائسة، دونما خشية من هؤلاء المرضى وأولئك المصابين المعزولين في منازلهم، فضلاً عن تعيين مُمَرِّضات للعناية بمَنْ يحتاجها. وليس هذا فحسب، وإنما عُمد إلى إرسال الصيادلة والجرَّاحين إلى المصابين كي يزودهم الصيادلة بالأدوية واللواصق، في حين يُجري لهم الأطباء جراحة الدمامل وتضميدها أنَّى لزم الأمر. وقام هؤلاء النساء بمنح البركة للفقراء عبر الدَّعم المادي والتضرُّع إلى الله من أجلهم.

لنْ أدَّعي، كما فعل بعض الناس حينما زعموا أنَّ أياَ مِنْ أولئك المُحسنين لم يُعانِ من الوقوع تحت وَطأةِ الوباء نفسه، ولكني قد أقول: لم أسمع بأي سوء مسَّ هؤلاء، وما عَرَّجْتُ إلى ما أسهَبْتُ به (مِنْ وصفٍ لأولئك المحسنين) إلا تشجيعاً للآخرين إنْ تكرَّرت مِحنةٌ تشبهها، فَممَّا لا شكَّ فيه، أنَّ العطاء الذي يمَنَحُهُ المُحسنون للفقراء، إنما يجزيهم به الربُّ ما دام خالصاً لوجهه. وحُقَّ لأولئك الذين يُخاطرون بحياتهم، لإعانة الفقراء والسَّهر على راحتهم ومساعدتهم في أي كارثةٍ أو جائحةٍ مثل الطاعون، الأمل من الله أن يَحبُوَهم بعنايته ويتولاهُمْ برعايته، مادامو عوناً لعباده.

ولم يبلغ ذلك العمل الخيري درجة عالية وفائقة إلا في حالاتٍ معدودة، ولكنْ، (لأني لا أملك إلا أن أُسهِبَ في هذه المسألة)، أؤكد أنَّ إحسانَ الأغنياءِ وصدقاتِهم، في المدينة والضواحي والأرياف، قد بلغت شأواً عظيماً جداً إلى درجة تسمحُ بالوصف الحاسم الموجز التالي: أنَّ عدداً هائلاً من الفقراء كان مصيرهُم الحتميُّ أنْ تفترسَهُم الفاقةُ أو يحصُدَ أرواحَهُم الوباء لولا دعم الأغنياء وإعالتهم...!!

وعلى الرغم من عجزي المُطلق، واعتقادي الجازم بعجز الآخرين عن التوصُّل إلى معرفة كاملة بحجم ذلك الدعم، فإنَّني أعتقد أنَّ الدعم المالي لم يقتصرْ على بضعة آلاف من الجنيهات فحسب، وإنما تجاوز مئات الآلاف منها، كما سمعت ممَّن وصف نفسه بالمراقب النقديِّ لتلك المساعدات؛ بُغية إغاثة فقراء هذه المدينة البائسة المنكوبة، لا بل أكَّد لي أحدُ الأشخاص أنه تمكَّن من احتساب ما يزيد على مائة ألف جنيه في الأسبوع، تولَّى توزيعَها كل من: وكلاء الكنيسة (في العديد من مجالس الأبرشيَّة)؛ السيِّد العمدة وأعضاء المجلس المحلي (في الأحياء والمقاطعات العديدة)؛ أتباع المحكمة (في الأجزاء المنفصلة التي يقيمون فيها) بتوجيه خاص من المحكمة والقُضاة؛ علاوة على النساء الصالحات اللائي اضطلعن بمهمَّة توزيع الصَّدقات الخيريَّة الخاصة بأيديهنَّ، وفق ما أسلفت آنفاً. وقد استمرت وتيرة الدعم المتزامن لأسابيع عديدة.

أقر أنَّ هذا المبلغ كبير جداً. ولكنْ، إذا كان المبلغ الذي جرى توزيعُه لإغاثة الفقراء في أبرشيَّة «**كريبل غيت**» وحدها قد بلغ سبعة عشر ألفاً وثماني مئة (17800) جنيه في أسبوع واحد صحيحاً، وفقاً لتقرير (ماليٍّ) سمعت به وأعتقدُ بصدقِهِ، فقد لا يكون التقرير الآخر (الذي فصَّلناه) بعيد الاحتمال.

لقد شهدت مدينة لندن عدداً لا بأس به من المؤشرات الدالَّة على الخير المتأصل في قلوب الناس وصلاح أحوالهم؛ ما يستحقُّ التوثيق والثناء عليه.

وأعتقد جازماً أنَّ ضروب الدعم الخيري من أبرز تلك المؤشرات التي تكلؤها العناية الإلهية وتَسُرُّ الربَّ وتستوجب الإشادة بها؛ إذ كانت قلوب الناس، في جميع أنحاء المملكة، تهفو بإحسانٍ منقطع النظير للإسهام في تفريج كُرَبِ الفقراء في لندن وإغاثتهم، فتجلَّت عواقب ذلك الإحسان وتلك الإغاثة في عدة أوجه، لكنَّها تكللت في أبهى صورها بالحفاظ على أرواح الآلاف منهم، وإبْلالِهم من أسقامهم، والحؤول دون هلاكهم وفنائهم جوعاً.

ولما كنت منهمكاً في الحديث عَنْ لُطفِ التدبير (الربَّاني) والعناية الإلهيَّة في هذه الفترة من الكارثة، فلا يَسَعُني إلا أَنْ أُجدِّدَ الإشارةَ إليها، مع أنَّي، فعلياً، قد أطنَبْتُ في تَوصيفها غيرَ مرَّة، في سياق آخر. وأعني هنا الكيفيَّة التي انتشر بها الطاعون؛ كيفَ بَدأَ في أَحَدِ أطرافِ المدينةِ، وانتقل تدريجياً وببطء من جزء إلى آخر، كما سحابةٍ داكنةٍ تعبُرُ فوقَ رُؤوسِنا. فبينما تغطِّي مكاناً ما، تكون قد انسحبت مِنْ مكان آخر. وعليه، كانتْ مَوجَةُ الطاعون إبَّان هَيَجانِها من الغرب إلى الشرق، ما إنْ تَتَّجهَ إلى الأمامِ شَرْقاً، حتى تَنْحَسِرَ غَرْباً؛ أعني تلكَ الأجزاءِ من المدينة التي لمَّا يُهيْمِن الطاعون عليها بَعدُ، أو التي انحَسَرَ عَنها بَعدَ أنْ نالتْ نَصيبَها من غَضَبِهِ وَضَراوَةِ انتِقامِه، واستُبْقِيَتْ، إنْ جازَ القَول، كيما تُعينَ المناطِقَ الأخرى (المُسْتَعِرَة) وتُغيثها. ولو تزامَنَ تَفشِّي الطاعونِ في المدينة بأكمَلِها وضَواحيها، مُنْدلعاً في جميعِ الأماكنِ على حَدٍّ سَواء، كما حصل حين تفشى في بلاد أخرى، إذنْ لأباد الشعب برمته ولحصد عشرينَ ألفاً كل يوم، مِنْ نَحوِ صَنيعِهِ هُناكَ في نابولي كما يقولون، ولن يكونَ بمقدور النَّاس أنْ يتلقَّوا المساعدة أو يَمنحوها لغيرهم.

وتتوجَّب ملاحظة أن واقع الناس كان في ذروة بؤسه وقسوته عندما كان الطاعون في ذروة ضراوته وعنفوانه، وكان ما فيهم من ذعر عصياً على الوصف. لكنْ، حتى قبل أنْ يَدْهَمَ الطاعون ذلك المكان بقليل، أو عقب انْحسارِه بقليل، كانَ الناسُ خَلْقاً آخر، وليس بمقدوري إلا أنْ أقرَّ أنَّ ذلك الطبع البشري السَّائد كان حاضراً لدينا جميعاً في تلك الآناء؛ وأعني نسيان النجاة التي وهبت لهم عقب زوال الخطر. لكني سأتحدث عن هذه الجزئيَّة لاحقاً.

ولا يَسَعُنا هنا أن نغفل عن ملاحظة واقع الحالة التجارية خلال النكبة العامَّة، في شقَّيْها: الخارجيِّ والداخليِّ.

فيما يتعلق بالتجارة الخارجية، لا حاجة إلى قول الكثير، فجميع الدول التجارية في أوروبا كانت تحذَر منَّا؛ فلا ميناءَ في **فرنسا** أو **هولندا** أو **إسبانيا** أو **إيطاليا** يمنَحُ سُفُنَنا حَقَّ الدُّخول أو يتفاوض معنا. فلم نكن على وفاق مع هولندا، إذ

خُضْنا حَرْباً ضَروساً ضدَّها، ولكنْ مَنْ ينبري لمكافحة مثل هؤلاء الأعداء المُرعبين في الداخل، دونَما شَكٍّ، هُوَ في وضعٍ سيِّءٍ كيْ يخوض حرباً خارجيَّة.

وفقاً لذلك، توقف تجَّارُنا عن ممارسة التجارة (الخارجية) تماماً؛ فلا يمكن لسفنهم أن تُبحر إلى أي مكان، أيْ: لا ميناءَ يَسمحُ لها بأنْ ترسو به في الخارج، ومُنتجاتُهم وسِلعُهم -التي تُشكِّل العَصب الحيوي لازدهارنا- لا تتداوَلُها الأيدي خارج **إنجلترا**. كانوا خائفين من بضائعنا بقدرِ خَشْيتِهم منَّا. وبحقٍّ، لقد امتلكوا سبباً وجيهاً لذلك؛ فمنتوجاتُنا الصُّوفيَّة تلتقطُ العدوى وتكتنزها، شأنُها كشأن الأجسام البشرية، فإذا تولى تعبئَتَها أشخاصٌ مُصابون، فستلتقطُ المنتوجات العدوى، وتغدو خطرةً باللمس كما الخطر الناجم عنْ لمْسِ المُصاب بالطاعون.

وبناءً عليه، كانَ الإجراءُ المُتَّبع على الدوام، لدى وصول مركب أو سفينة إنجليزية إلى أي دولة أجنبية، يَستدعي فتحَ رُزَم البضائع وتَعْريضها للهواء الطَّلق في الأماكن المخصصة لذلك الغرض، إذا تسلَّموا البضائع على الشاطئ. وفيما يخصُّ بضائعَ لندن، فإنهم لم يَتَجشَّموا حتى عناء استقبالها في الميناء، ناهيك عن تفريغها وفقاً لأي شروط، وقد طُبِّقت هذه القيود إزاءَها في كل من **إسبانيا وإيطاليا** بشكل خاص. أما **تركيا** وجزر الأقواس [37]، كما دَرَجت على ألسنة النوتيَّة، وكذا الجزر التي تنتمي إلى **تركيا** وإلى **البندقيَّة**، فلم تكن إجراءاتها التجارية صارمة للغاية.

ولم تواجه حركة البضائع، في مبتدأ الأمر، أي عائقٍ أو عقبة على الإطلاق، ثم حَدَثَ أنْ اضطرَّت أربعُ سُفُنٍ كانت ترسو في النهر آنذاك إلى تعديل مسارها إلى تركيا، بعد أنْ حُمِّلَتْ بالبضائع لإيطاليا (**ليغورن ونابولي**) ومُنِعت من الدخول؛ كَوْنَها «**مُنْتَجاً محظوراً**»، كما يُطلَقون عليها. وفي **تركيا**، سُمِحَ لها بتفريغِ حُمولَتِها بحريَّة تامة ودون عناءٍ يُذْكَر، غير أنهم ألفوا لدى وصولهم أن بعض البضائع غير ملائمة للبيع في **تركيا**، في حين كان بعضها الآخر مُبتعثاً، في الأصل، لتُجَّارٍ في **ليغورن**. ولمَّا لم يكن لدى القباطنة الحقُّ أو أوامرِ للتصرُّف في البضاعة، فقد تسبَّب ذلك للتجار ببعض العقبات. لكنَّ هذا لم يكُن سوى ما تقتضيهِ الإجراءات الضروريَّة، وعقب إخطار التجار في **ليغورن ونابولي** بذلك، أُرْسِلوا مرَّة أخرى مِنْ هُناك لتولِّي أمر تلك البضائع المُصنَّعة خصِّيصى لموانئهم، واستعادة تلك البضائع غير المناسبة للبيع في أسواق **سميرنا والإسكندرون**، وذلك باستخدام سفنٍ أخرى غيرِ التي أبحرت على مَتْنِها.

ومع ذلك، كانت العوائقُ في **إسبانيا والبُرتغال** أشدَّ وأكبر؛ فقرارُ حَظْرِ رُسُوِّ سُفُنِنا في موانئ البلدين، وبخاصَّة تلك السُّفُن القادمة من لندن حالَ، لا

مَحالَة، دون تكبُّدِها عناءَ الإبحار إلى تلك الموانئ، ناهيكَ عن تفريغ حمولتها. وقد أورد تقريرٌ أَنَّ إحدى سفننا قد تَسلَّلتْ وأفرغتْ حُمولَتَها التي حوت بعضَ الرُّزَمِ من القماش الإنجليزي، والقُطن، ومَنسوجاتِ **كيرْسِيَسْ** (Kersyes) الصُّوفِيَّة، وما إلى ذلك من سِلَع. وقدأحرق الإسبانُ جميع السِّلع، وعاقبوا الرِّجال الذين تولَّوا إحضار هذه البضائع بالموت. أعتقد أنَّ بعض ما ورد في هذا التقرير كان دقيقاً، معَ أنَّني لا أملكُ أنْ أُؤكِّدُه، غَيرَ أنَّ احتمال حدوثه ليس مُسْتبعَداً على الإطلاق، نظراً إلى عِظَمِ الخَطرِ وجَسامَتِه، وضراوةِ العدوى في لندن وشَراسَتِها.

وسمعتُ، بالمثل، أنَّ بَعْضَ سُفُنِنا نقلت الطاعون إلى تلك البلدان، وبخاصة ميناء «**فارو**» في مملكة **الغارف**، التابعة لِمَلِك **البرتغال**، وأن العديد من الأشخاص قد ماتوا هناك، لكنَّه خَبَرٌ غير مؤكَّد.

من ناحية أخرى، وعلى الرغم من أن الإسبان والبرتغاليين كانوا بالغي الحذر من الاختلاط بنا، فمن المؤكد أن الطاعون، بانحصاره في مُستَهَلِّ انتشاره في طرف المدينة، التالي لـ«**ويست منستر**»، أتاحَ للجزء التجاري من المدينة، أيْ الضفَّة الشماليَّة للنهر، أنْ يبقى مُعافى تماماً، حتى مطلع تموز على الأقل، وكذلك السفن في النهر حتى مطلع آب، كما أوضحنا من قبل. فقد مات سبعة أشخاص فقط، حتى الفاتح من تموز، في المدينة بأكملها، في حين قضى ستون شخصاً بالطاعون في المناطق الإدارية، وشخص واحد في جميع أبرشيَّات «**ستبني**»، و«**ألد غيت**»، و«**وايت تشابيل**»، واثنان في أبرشيَّات «**ساوث وورك**» الثمانية. أما خارج **إنجلترا**، فقد عمد الناس إلى التعميم، لأنَّ الأخبار السيئة انتشرت في جميع أنحاء العالم أن مدينة **لندن** قد اجتاحها الطاعون، دون أدنى استفسار عن كيفية حدوث العدوى، أو في أي جزء من المدينة قد بدأ أو المناطق التي انتشر فيها.

علاوة على ذلك، وبعد أن بدأت العدوى في انتشارها، ازدادت وتَفَشَّتْ على نحو كبير وبتواتر سريع، وتنامت قوائمُ الضحايا بأعداد المصابين بصورة كبيرة وعلى نحو مفاجئ، بحيث لم يَعُد ثَمَّةَ معنى من تقليل أعدادها الحقيقيَّة، أو السعي إلى جعل الناس في الخارج يَحسبون أنَّ الحالَ أفضل ممَّا كانت عليه في الواقع؛ فما فَضَحَتْهُ قوائم الموتى الأسبوعية كان أكثر من كافٍ، وموت ألفين إلى ثلاثة آلاف أو أربعة أسبوعياً تكفَّل ببثِّ الصدمة والرُّعب في القطاع التجاريِّ في العالم أجمع. وحين غدا الأمر مروِّعاً في لندن ذاتها، إثر ذلك، فإنَّ العالم أجمع احترز منها.

قد يَحسَبُ بعضُهم، مُستَيْقِناً، أنَّ التقارير المتعلقة بالطاعون لم تفقد شيئاً من مِصداقيَّتها إبّان نقلها؛ فالطاعون في حدِّ ذاته كان رهيباً للغاية، والكرب الذي داهَمَ الناس قد بلغ مبلغاً عظيماً، كما أسلفت سابقاً. لكنَّ الشائعات كانت لها اليد العليا، ويجب ألا تساورنا الدهشة إذا ما رُوِي لأصدقائنا في الخارج -كما قيل للمندوبين الذين عملوا لدى أخي في **البرتغال وإيطاليا** تحديداً حيث كان يتاجر بشكل رئيس- أن قرابة عشرين ألفاً (20000) ماتوا في أسبوع واحد في **لندن** وحدها؛ بحيث جَثَمَتْ جثثُ الموتى أكداساً دونما دفن، فالأحياء لم تَعُد تكفي أعدادُهم لدفن الموتى ولا الأصحاء لرعاية المرضى، وكذا في عموم **المملكة** بأكملها، إذ غدا داءً عاماً لم يُسمع به من قبل في أجزاء العالم تلك، وبات من الصعب عليهم تصديقُنا عندما قدَّمنا لهم تقريراً يظهر حقيقة الأمر، ويكشف أنَّ الطاعون لم يَقْضِ سوى على عُشر الأحياء، وأنَّ المدينة احتفظت بخمسمئة ألف (500.000) نسمة، ممَّن سكنوها طوال الوقت.

وها هم الناس قد عادوا للسير في الشوارع مرة أخرى، وأولئك الذين فرُّوا منها قفلوا إليها راجعين، وعادت الازدحامات في الشوارع سيرتها الأولى، سوى أنَّ كل عائلة قد تفتقد مَنْ رحلَ من الأقرباء والجيران، وأمثالَهُمْ.

أؤكد مُجدَّداً أنه لم يعُدْ بمقدورهم تصديق مثل هذه الأمور. فإذا ما أُجريَ تحقيق الآن في **نابولي**، أو في مدن أخرى على ساحل **إيطاليا**، فَسَيُنْبِئونَك بانتشار عدوى مُروِّعة في لندن قبل سنوات عديدة، حيث مات، كما ورد آنفاً، عشرون ألفاً في غضون أسبوع؛ تماماً كما بلغنا في لندن أنَّ طاعوناً قد اجتاح مدينة **نابولي** عام 1656، توفِّي فيه عشرون ألف (20000) شخص في يوم واحد، وبتُّ على قناعة تامَّةٍ أنَّه كذب مَحْض.

لكنَّ هذه الأنباء المبالغ بها أضرَّت ضرراً كبيراً بتجارتنا، فضلاً عن كونها متعسِّفة ومؤذية، فقد مرت فترة طويلة، بعد انقضاء زمن الطاعون تماماً، قبل أن تتعافى تجارتنا في تلك الأرجاء من العالم، وحقق **الفلمنكيون والهولنديون**، على نحو مخصوص، مكاسب ومنافع كبيرة جداً جرَّاء ذلك، إذ احتكروا السوق كلها لأنفسهم، وبلغ بهم الأمر حدَّ شراء منتوجاتنا الصناعية في عدة أجزاء من **إنجلترا** حيث لا يوجد الطاعون، ونقلها إلى **هولندا وفلاندرز**، وتصديرها إلى **إسبانيا وإيطاليا** كما لو كانت من صنع أيديهم...!!

إلا أنَّهم ضُبطوا متلبِّسين في بعض الأحيان، واتخذت في حقهم إجراءاتٌ عقابيَّة، من نحو مصادرة بضائعهم وسُفُنِهم، لأنَّ منتوجاتنا الصناعيَّة، وبحقٍّ، كما مواطنينا مُلوَّثة بالعدوى، وخطورة انتقال العدوى كامنة فيها بمجرد لمسِها أو فَتحِها أو حتى استنشاق رائحتها. وعليه، لقد اقتحم هؤلاء الأشخاص دوائر

الخطر القاتل بإدارتهم تلك التجارة الخَفِيَّة، فأجْرَموا لا بنقلِ العدوى إلى مناطق أخرى في بلدهم فَحَسب، وإنما بتعميم دوائر العدوى أيضاً في جميع الدول التي تاجروا فيها بتلك البضائع، وهو فعلٌ ينبغي أنْ يَجْتَنِبَهُ مَنْ امتلك بقيَّة باقية من ضمير، بالنظر إلى عدد الأرواح التي قد تزهقُ بسببه.

ولنْ أحتملَ عبءَ اتِّهام هؤلاء الأشخاص بأي أذى مُطلَقٍ. ولكنْ، لا مَنْدوحَةَ لديَّ في إطلاق هذا الاتهام، بما يخصُّ ما حدث داخل حدود الوطن، سواء من سكَّان لندن أو بسبب الحركة التجارية التي اقتضت بالضرورة اختلاط التجار بجميع أصناف الناس في جميع الأرياف والبلدات الكبرى. وأُجدِّد تأكيدَ أهميةِ هذين السببين في انتشار الطاعون، في بواكير العدوى وعندما تفشَّت في جميع أرجاء **المملكة**، وعلى حدٍّ سواء، في لندن كما في جميع البلدات الكبرى، وبخاصة في البلدات الصناعية المُصدِّرة للبضائع تجارياً، وفي الموانئ. لذلك، اجتاح الوباء، عاجلاً أو آجلاً، جميع الأماكن الكبرى في **إنجلترا**، بشكل أو آخر، وانتشر في مملكة **إيرلندا** في بعض الأماكن، ولكنْ ليس على نحو شامل. أمَّا كيف جانَبَت العدوى سُكَّانَ اسكتلندا، فلم تُتَحْ لي الفُرصة للتقصِّي.

وتجدر الإشارة إلى أنَّه في الوقت الذي استمر فيه الطاعون في لندن بضراوة وعنف شديدين، حظيت الموانئ الخارجية، كما يطلق عليها، بتجارة واسعة جداً، ولاسيما مع البلدان المجاورة ومُستعمراتنا. فعلى سبيل المثال، تَولَّت مدنُ «**كولشيستر**» و«**يارموث**» و«**هولْ**»[38]، على هذا الجانب من إنجلترا، تصديرَ منتوجات البلدان المجاورة إلى: **هولندا**، و«**هامبورج**» لعدَّة أشهر بعد أنْ جرى إيقافُ التجارة، قطعياً، مع لندن. وبالمثل، كان لمدينتي «**بريستول**» و«**إكستر**»، مع ميناء «**بليموث**»، ميزة مماثلة **لإسبانيا**، **وجزر الكناري**، **وغينيا**، **وجزر الهند الغربية**، وبخاصة **إيرلندا**. ولكن عندما انتشر الطاعون في كل مكان، بعد أن كان محدوداً بمدينة **لندن**، بالغاً الذروة التي كان عليها في آب وأيلول، أصيبت كل هذه المدن والبلدات أو معظمها، إمَّا بالموجات الأولى للطاعون وإما بموجاته الأخيرة. وعليه، بدت التجارة كما لو كانت تواجه حظراً أو حصاراً عاماً، أو في حالة توقف تامٍّ، كما سأشير بشكل أوسع عندما أتحدَّث عن تجارتنا الوطنية.

وممَّا يستوجِبُ المُلاحظةَ بخصوص السُّفِن القادمة من الخارج، وهو ما لاحظهُ العديدُ من النَّاس حتماً، أنَّ بعض تلك السفن التي جابت جميع المرافئ العالمية منذ زمن طويل نسبياً، وتلك السفن التي أبحرت دون أن تعرف شيئاً عن العدوى، أو عن شدَّة فتْكِها على أقلِّ تقدير، قد عادت بكل جرأة، وأفرغتْ حُمولاتِها كما يتوجب، باستثناء شهرَيْ آب وأيلول، عندما تَمركزت بؤرةُ العدوى، كما يمكنني القول، أسْفلَ جسر «**لندن**»، ولم يجرؤْ أحدٌ على العمل

لفترة من الزمن. ولكنْ، خلال هذه الفترة التي امتدَّت إلى بضعة أسابيع، وصلتْ بعضُ تلكَ السفُن، التي كانت متجهة إلى أرض الوطن وبخاصَّة تلك التي لم تكن حُمولاتُها عُرْضَةً للتلف، إلى ميناء «**البركة**»[39]، ومكثت فيه فترة قصيرة، في حين وصل بعضُها الآخر إلى المياه العذبة من النهر، نزولاً حتى نهر «**ميدواي**»، حيث جرى العديد منها، وجَثَمَتْ سُفُنٌ أخرى في «**نور**»، و«**هوب**» أسفلَ «**غريفْسِنْد**». وهكذا، عاد حتى أواخر تشرين أوَّل أسطولٌ هائلٌ مِن السُّفُنِ إلى أرض الوطن، على نَحوٍ لم نَعهَدْهُ منذُ سنوات عديدة.

وقد تبقت تِجارتان خاصَّتان بواسطة النقل المائيِّ طوال فترة الإصابة، وذلك مع قَدْرٍ قليلٍ مِن الإعاقة أو دونها، ومثَّل ذلك انفراجاً في حال المنكوبين من فقراء المدينة، وكانتا: التجارة الساحلية الداخليَّة للذرة وتجارة «نيوكاسل» للفحم.

وجرت أولى عمليات تجارة الذرة، على نَحو خاصٍّ، بواسطة المراكب الصغيرة مِن ميناء «**هَلْ**» وأماكن أخرى في هامبر، حيث جُلِبت كميات كبيرة من الذرة من «**يورك شاير**» و«**لينكولن شاير**». وثانيها كان مِن «**لين**» في «**نورفولك**»، ومِن «**ويلز**» و«**بورنهام**»، ومِن «**يارموث**»، وكلها في المقاطعة نفسها، وثالثها كان مِن نهر «**ميدواي**»، ومِن «**ميلتون**» و«**فيفرشام**» و«**مارجيت**» و«**ساندويتش**»، وجميع الأماكن والموانئ الصغيرة الأخرى حول ساحل «**كينت**» و«**إسكس**».

وكانت تجارةُ الذرة والزبدة والجبن، القادمةُ من ساحل «**سوفولك**»، جيِّدة جداً، وقد حافظت هذه المراكب على مسارٍ تجاري ثابت ومستمر، ووَفَدَتْ دونما إعاقة إلى السوق التي مازالت معروفة باسم «**بير - كي**» (Bear-Key)، حيث زوَّدت المدينة بالذرة بوفرة عندما بدأ النقلُ البرِّي بالتلاشي، مع بواكير تفشِّي العدوى بين الناس، لمخالطتهم القادمين من مختلف الأماكن في البلاد.

و يُعْزى الفضل في ذلك إلى الحكمة والحنكة الإداريَّتين للسيِّد العُمدة الذي اتخذ التدابير الكافية لحماية الربابنة والبحارة من الخطر، لدى قدومهم، وذلك بالسماح لهم بتنزيل حمولاتهم من الذرة وبيعها في أي وقت قصدوا فيه السوق، وكان هذا بدوره أمراً نادراً إلى حدٍّ بعيد، والإيعاز إلى تجار الحبوب بتفريغ المراكب المحملة بالذرة وتسليمها على الفور، إذْ لا تتسنَّى لطاقم السفينة سوى فرص ضئيلة للخروج من سفنهم أو مراكبهم، فالأموال، على الدوام، كانت تُرسلُ إليهم على مَتْنِها، بعد أنْ تُوضعَ في دَلْوٍ من الخلِّ قبل حَملها.

أما التجارة الثانية، فكانت تجارة الفحم من **نيوكاسل** عبر «**تاين**» (Tyne) التي لولاها لذاقت المدينة الأمَرَّيْن. وتُعزى أهميتُها إلى الكميات الكبيرة من الفحم التي كانت تُحْرَقُ، لا في الشوارع وحدها، وإنما في المنازل الخاصة ولدى الأسر أيضاً، طوالَ فصل الصيف، وحتى عندما كان الطقس شديد الحرارة، وَفقاً لتوصيات الأطباء. ولقد عارَضَ بعضهم ذلك بالفعل، وأَصَرَّ على أنَّ الحفاظ على المنازل والغُرف ساخنةً هي وسيلةٌ لنشر الطاعون الذي كانَ اهْتياجاً واحْتِراراً في الدم. ومن المُتَعارَف عليه، أنَّ العَدوى تنتشرُ وتشتدُّ في الطقس الحارِّ وتنحسرُ وتَنْحَطُّ في البرد. وعليه، زَعَموا أنَّ جميع أنواع الحمَّى المُعدِية تغدو أسوأ بالحرارة، لأنَّ العدوى تتعزَّز وتزداد قُوَّةً وعُنفُواناً في الطقس الحار، وكأنَّ الحرارة هي الوسط الحيوي لانتشارها، في حين يُسَلِّمُ آخرون بأنَّ الحرارة في المناخ قد تنشر العدوى، حيث يملأ الطقسُ الحارُّ اللافِحُ الهواءَ بالهوامِّ القاتلة، ويُغَذِّي أعداداً وأنواعاً لا حصر لها من الكائنات السَّامة التي تتكاثرُ في طعامنا، وفي النباتات، وحتى في أجسامنا، عبر الرائحة النتنة التي يمكن أن تنتشر فيها العدوى، فضلاً عن أنَّ الحرارة في الهواء، أو حرارة الطقس، كما نُسمِّيها عادةً، تجعلُ الأجسامَ تسترخي وتَضعُف، فَتُنْهِكُ الأرواحَ وتُضْنيها، وتَفتحُ المَسامَّ، وتجعلُنا أكثرَ عُرضةً للإصابة بالعدوى، أو أي تأثير ضارٍّ، سواء أكان ذلك بالأبخرةِ الضارَّةِ أو بأي شيءٍ آخر (كامِنٍ) في الهواء.

ولكنَّ حرارةَ النارِ، وبخاصَّة تلك الناجمة عن احتراقِ الفَحم، التي واظبنا على إيقادها في منازلنا أو بالقرب منا، كانت لها آلية مختلفة تماماً؛ فالحرارة ليست من النوعِ ذاته، فهي سريعة وشديدة، لا تَنْزِعُ إلى تعزيزِ العدوى، بل تَلتَهِمُ وتُبَدِّدُ كل تلكَ الأَبْخِرَةِ المُضِرَّة التي يُفرزُها ذلك النوعُ الآخرُ من الحرارة الذي ينفثها ويتركها تتسرَّب في المكان عوض أن يبدِّدها ويحرقها.

وعلاوة على ذلك، زُعِم أنَّ الجُسَيْمات **الكبريتيّة والنَيْترِيَّة**، التي غالباً ما توجد في الفحم مع تلك المادة **البيتومينيَّة** التي تَحترقُ، تساعد كلها على تَطهيرِ الهواء وتنْقِيتِه من الجُسيمات الضارَّة عَبْرَ حَرْقِها وتَبديدها، فَتُصَيِّرُهُ صِحّياً وآمناً للتنفُّس.

سادَ الرأيُ الأخيرُ في ذلك الوقت، وأنا أَتَّفقُ معه، وذلك لِسببٍ وجيهٍ تَأَكَّد بتجربة المواطنين، فالعديد من المنازل التي دأَبَت على إذْكاء النيران في الغُرف، على نَحوٍ مُتواصِل، لم تُصَبْ بالعدوى على الإطلاق. وأضيفُ تجربتي الخاصة إلى حصيلة تجاربهم، فقد أبقتْ تلك المواقد بكفاءتها غُرَفَنا نقيَّة وصحيَّة، وأعتقدُ جازماً أنَّها كانت السبيلَ الأمثلَ في وقاية عائلاتِنا كلها على نَحوٍ غير مسبوق.

والآن، سأعود إلى ما نوَّهت إليه سابقاً للحديث عن تجارة الفَحم. ففي الحقيقة، لم نُجابِه أي صعوبة تُذكر في إبقاء هذه التجارة حُرَّة وبلا قيود، وعلى نحوٍ استثنائيٍّ إبَّان حربنا المُعلنة على الهولنديين في ذلك الوقت. لقد استولى القراصنة الهولنديون في البداية على عدد كبير من سُفُننا الناقلة للفحم، ما أجبر بقيَّة السفن على الحيطة والحذر، كما ألزمها بالإبحار في أساطيل مشتركة. ولكنْ، في غضون وقت قصير، باتَ هؤلاء القراصنة إمَّا خائفين من العدوان على سُفُننا واختطافِها، وإما أنَّ أسيادَهم، في الولايات التي يتبعون لها، قد أخذوا على أيديهم، خَشْيَةَ أن يكون الطاعون مُتفشياً في تلك السُّفُن، ما أتاح لنا أنْ نُحقِّق نجاحاً تجارياً وافراً...!!

ومن أجل أمْن هؤلاء التجار القادمين من الشمال، أَمَرَ سيدي العمدةُ سُفنَ الفحم بعدم الصعود إلى **البركة** (حوض السفن) فوق عدد معين، في الوقت ذاته، كما أمر الزوارق وغيرها من المراكب، التي يقوم بتجهيزها المتعاملون بتجارة الأخشاب (أيْ القيِّمون على المرفأ، وبائعو الفحم) بالنزول إلى مستوى «**ديبتروف**» و«**غرينيتش**»، حتى إنه أمر بعضها بالنزول أخفض من ذلك وإخراج الفحم من السفن.

ونقل آخرون كمياتٍ كبيرة من الفحم إلى أماكن بأعيانها، حيث أَمكنَ للسفن أنْ ترسو على الشاطئ بأعداد كبيرة، كما هي الحال في «**غرينيتش**»، **وبلاكوول**»، وأماكن أخرى، فكانت أكواماً ضخمة، تبدو كما لو كانت معروضة للبيع، ولكن بعد ذلك أُخرجت بعيداً عقب رحيل السفن التي نقلتها. وهكذا، عُزِلَ البحَّارة عن التواصُل مع ملَّاحي الشاطئ أو مُخالَطتِهم أو حتى مجرد الاقتراب منهم.

ورغم ذلك، فإنَّ كل هذا الحذر لم يَحُلْ بشكلٍ فاعلٍ دونَ انْسِلال العدوى إلى تجارة الفحم، أيْ بين السفُنُ التي خصصت لنقل الفحم، وقد هلك فيها العديد من البحارة (بالطاعون). والأسوأ من ذلك، أنَّهُم تسببوا بانتشاره في «**إيبسويتش**» و«**يارموث**» (في الشمال الشرقي من لندن)، و«**نيوكاسل أبون تاين**» (في أقصى شمال إنجلترا)، وأماكن أخرى على الساحل، وبخاصة «**نيوكاسل**» و«**سندرلاند**» (في الشمال الشرقي من إنجلترا)، فقد ارتحلَ على مَتْنِ سُفُنِهما عددٌ هائلٌ من الناس.

إنَّ إشعال الحرائق (في المواقد) العديدة، كما أَسلفتُ، استهلك بالفعل كميةً غيرَ مُعتادة من الفحم. وما إنْ توقَّف تدفُّقُ السفُنِ الناقلة للفحم مرَّة أو مرَّتين، سواء بسبب أحوال الطقس السيئة أو إعاقة الأعداء، لا أذكرُ على وَجهِ التحديد، حتى تضاعفَ سعرُ الفحمِ على نَحو مَهول، فوصل إلى أربعة **جنيهات**

إسترلينيَّة لكل **كالدر**. ولكنَّ سعرَهُ سرعانَ ما انخفض لدى استئنافِ قُدوم السفُن، وبعدها حازت مَمَراً أكثرَ حُريةً وأمناً، فَباتَ السِّعرُ معقولاً جداً طوال ذلك العام.

وبِحِسْبَتي الخاصة، لا بُدَّ أنَّ خزينة المدينة قد تكلفتْ لقاءَ إشعال النيران العامَّة، في هذه الأحوال نحو مئتي (200) **كالدرٍ** من الفحم أسبوعياً، وهي كميَّة لو استمرَّ استهلاكُها، لبلغَتْ بالفعل رَقماً مَهولاً. وإذ اعتقد الناس بضرورتها فإنهم لم يعمدوا إلى الضنِّ بها وتوفيرها. ولكنْ، ما إنْ انتقد بعض الأطباء هذه الممارسة، حتى انخفضَ عددُ أيام إشعالِ المواقدِ العامَّة دونَ الأربعةِ أيام أو الخمسة أسبوعياً. وقد أُمِرَ بإشعالها (في خمسةَ عشرَ مَوْضِعاً على الأقل)، وفق الآتي:

واحدٌ في الجمارك، وآخر في بوابة «**بيلينغ**»، و(ثالثٌ) في « **كوين هيث**»، و(رابعٌ) في «**ثري كرينس**»، و(خامسٌ) في «**بلاك فريرس**»، و(سادسٌ) عند بوابة «**بريدويل**»، و(سابعٌ) في مُنعطف شارع «**ليدنهل**» و«**جراشيرتش**»، و(ثامنٌ) في الشمال، و(تاسعٌ) عند البوابة الجنوبية لـ «**رويال إكسْ تْشانج**»، و(عاشرٌ) في «**غيلد هول**»، و(الحادي عشر) في بوابة «**بلاكويل**»، و(الثاني عشر) عند باب السيِّد العمدة في شارع «**سانْتْ هيلين**»، و(الثالث عشر) عند المدخل الغربي إلى «**سانْتْ بول**»، وأضف إلى ذلك واحداً عند مدخل «**كنيسة القوس**»[40] (الرابع عشر). ولا أتذكر تخصيص أي منها لدى بوابات المدينة، ولكنْ، خُصِّصَ واحدٌ عند سفح الجسر بجوار كنيسة «**سانْتْ ماغنوس**» (الخامس عشر).

وكما علمتُ، ناهضَ بعض الناس هذه التجربة (إشعال الحرائق) منذ ذلك الحين، فزعموا أنَّ عدد الضحايا من الناس قد ارتفع بتلك الحرائق. لكنَّني مُقتنع أنَّ مَنْ يدَّعي ذلك لا يملكُ أي دليل لإثباته، وليس بإمكاني تصديق زعمهم مهما تعدَّدت ذرائعُهم.

ويتبقَّى أن نسوق بعض الكلام نسلِّط فيه الضوء على أحوال تجارتنا الداخلية في إنجلترا خلال هذه الفترة الرهيبة، وبخاصَّة علاقتها بالمنتوجات الصناعيَّة والسلع التجاريَّة في لندن. ومما يَسْهُلُ تَمَثُّلهُ في أذهانِكم، في بواكير جائحة الطاعون، ذلك الخوف الشديد الذي شاع بين الناس، ما تسبب بشللٍ تجاريٍّ عام، خلا المؤن وضروريات الحياة، بل اخترقَ الشَّللُ دائرةَ التجارة المتعلقة بالحاجات الأساسية ذاتها، وذلك بسبب الجلاء الكبير للناس عن المدينة، فضلاً عن عدد مهول ممَّن أقعدَهم المرضُ، وآخرين فارقوا الحياة. وبذا، فإنَّ مؤشر

الاستهلاك نزل إلى ما نسبته الثلثان، إنْ لم يكن النصف، ممَّا كان عليه في الوضع الطبيعي.

وسَرَّ الربَّ، أنْ يمُنَّ علينا فيَرزُقَنا عاماً وفيراً بالحبوب والفاكهة، لا القَش أو العُشْب؛ ما جعلَ الخُبزَ رخيصاً، لوفرة الذرة. أما اللحم فَبيعَ بثمن بخسٍ لندرة العشب. لم تكن تلك الحال مع الزبدة والجبن إذ بيعا بسعر مرتفع للسبب ذاته، كما بيعَ التِّبْنُ في السُّوق وراء حاناتِ «**وايت تشابل**» مقابل أربعة جنيهات إسترلينيَّة لكل حُمولة. لكنَّ ذلك لم يؤثرْ على الفقراء؛ فقد توافرت كمياتٌ كبيرة جداً من الفاكهة بأنواعها كافة، كالتفاح والكُمَّثْرى والبَرْقوق والكَرَز والعِنَب، فكانت من أرخص الحاجيَّات بسبب قلَّة الشَّارين الناجمة عن قلة السُّكان؛ ما جعل الفقراء يُسرفون في الأكل بما يفوق حاجاتهم، وتسبَّب لهم هذا بالإسهال وتشنُّجات في الأمعاء، كما تسبَّب بالتُّخْمَة، وما شابه ذلك، الأمرُ الذي جعلهم أهدافاً سهلة في قبضة الطاعون.

لكنْ، في مَعرضِ حديثنا عن الشؤون التِّجارية، نُشيرُ أولاً، إلى إيقاف الصادرات الأجنبيَّة، أو على الأقل ما لحق بها من انقطاعات وصعوبات. وقد تبعَ ذلك، دونما أدنى شكٍّ، توقُّف عام في جميع المصنوعات التي أُنتجت لغايات التصدير. ولم يُرسَلْ سوى القليل من السلع التجارية، على الرغم من أنَّ التجار في الخارج كانوا يُلِحُّون، أحياناً، في طلبها، نظراً إلى إيقاف الممرات الملاحيَّة عامَّة، الأمر الذي حال دون دخول السفن الإنجليزية إلى الموانئ، كما فصَّلنا سلفاً.

وأدَّى هذا الأمر إلى إيقاف الصناعات المخصصة للتصدير في معظم أرجاء **إنجلترا**، عدا بعض الموانئ الخارجية التي ما لبثت أنْ توقَّفت أيضاً، بالتحاقها في ركبِ المصابين بالطاعون. وعلى الرغم من أنَّ تعطُّل الإنتاج الصناعي المعد للتصدير كان ملموساً في جميع أنحاء **إنجلترا**، فإنَّ الحدثَ الأسوأ منه كان أنَّ جميع التعاملات التجاريَّة ذات العلاقة بمواد الاستهلاك المحليِّ، وبخاصَّة تلك التي يتداولها أهل لندن، قد توقَّفت بتوقُّف التجارة الخارجية للمدينة.

وقد باتت جميع أنواع الحرف اليدوية في المدينة، وغيرها، من صناعيِّين وميكانيكيِّين، خارج نطاق العمل، كما أوردت سالفاً، ما أدَّى إلى تعطيل وطرد ما لا يُحصى من العمال المهرة والأيدي العاملة في المجالات كافة؛ ذلك أنَّه لم يجر صنع أي شيء داخلٍ في نطاق هذه الحرف ما عدا ما يقع في خانة الضرورة الملحَّة.

لقد أحالَتْ تلك التغيُّرات حشوداً غفيرة من العزَّاب في لندن دون أي دعم، كما العائلات التي تُعَوِّلُ في معيشتها على عمل أربابها، ما أعْقَبَهم بؤساً وشقاءً لم يعهدوه من قبل. وعليَّ أن أسطِّر، هنا، إقراراً بمأثرة مدينة لندن، وبما يغدو شهادةً ترفع ذكرها: أنَّ أولي الأمر والمُحسنين، قد وفَّروا مؤناً خيريَّة لآلاف عديدة من هؤلاء، ممَّن سقطوا مرضى ونُكبوا. لذلك، لربَّما بات من السلامة التأكيد أنَّه لم يهلكْ أحدٌ منهم، أو على الأقل، مِمَّنْ أُخْطِرَ أولوا الأمر بمآسيهِم.

وتسبَّب الركود الذي شهدته منتوجاتنا التجاريَّة المحليَّة بتعسُّرات أكبر في حياة الناس، لولا أنَّ أرباب العمل، من صُنّاعِ الملابس وغيرهم، قد استمروا في تصنيع سلعهم حتى استنفدوا وسعهم ومواردهم، وذلك لإبقاء الفقراء في العمل، واعتقاداً أنَّ الطلب على تجارتهم سيُستأنف، حالما تنخفضُ حدَّةُ المرض، فيعادل ذلك ما خسروه لدى تدهور تجارتهم. ولكنْ، بما أنَّ هذه الحالة تتعذَّر إلا على أرباب العمل الأغنياء، ولا يُشكِّل هؤلاء سوى نسبةٍ ضئيلةٍ، واجهت المنتوجات التجارية في إنجلترا فُصولاً من الجحيم، وكان لزاماً على الفقراء في جميع أرجاء إنجلترا أن يتذوَّقوا مرارة الحرمان الناجمة عن نكبة مدينة لندن وحدها.

ولا شكَّ في أن السنة التالية جاءت لتعوِّضهم ما خسروه وذلك، بنوع من المفارقة، عقب كارثة أخرى اجتاحت المدينة. وهكذا، فقد غرقت المدينةُ بكارثة الطاعون التي أضعفت البلاد وأفقرت البشر، وبكارثة أخرى (حريق لندن)، تُناظرها في الشدَّة، أثْرَت البلاد وعَوَّضَتْها؛ إذ إنَّ كمِّيَّةً لا حصر لها من أدوات المنزل، والملابس، وأشياء أخرى، بالإضافة إلى مخازن كاملة مليئة بالسلع والمنتوجات الصناعيَّة الوافدة من جميع أنحاء **إنجلترا** قد التهمتها ألسنةُ النيران في حريق لندن، في العام التالي لجائحة الطاعون.

إنَّ ما حققته الصناعة في جميع أنحاء البلاد، مِن سدٍّ للحاجات وتعويضٍ لما فُقد، لممَّا يصعب تصديقه...!! ولأقلْ باختصار: لقد استوعبت المصانع جميع الأيدي العاملة في البلاد، بل عجزت أعدادُها عن إشباع حاجة السوق، وقصرت عن تلبية ما يُطْلَب لسنوات عديدة.

إنَّ خُلُوَّ جميع الأسواق الخارجية من بضائعنا، نتيجة التوقُّف الناجم عن الطاعون، قبل السماح بالتداول المفتوح مرَّة أخرى، فضلاً عن حجم الطلب المحلِّي الهائل على السلع؛ كلا الأمرين تضافر في فتح كُوَّةٍ ومنفذ سريع لجميع أنواع البضائع، بحيث لم نشهد مثل هذه الحركة التجاريَّة في جميع أنحاء **إنجلترا** من قبل، على النحو الذي كانت عليه في السنوات السبع الأولى بعد الطاعون، وعقب حريق لندن.

يبقى ما تتوجب الإشارة إليه: ذلك الجانب الرحيم من هذه النازلة الرهيبة. ففي الأسبوع الأخير من شهر أيلول، بدأت ضراوةُ الطاعون وشراستُه بالانخفاض، بعد أن بلغ ذروته. وفي هذا السياق، سأستحضر ذكرى زيارة صديقي الدكتور هيث، قبل ذلك بأسبوع، عندما أخبرني بأنه مُتيقِّن من أنَّ شدة فتك الوباء ستأخذ بالانحدار في غضون أيام قلائل، لكنِّي حالما عايَنْت قائمة الوفيات ذلك الأسبوع، التي كانت الأعلى طوال العام، وبوتيرة لا تقلُّ عن ثمانية آلافٍ ومئتين وسبعٍ وتسعين (8297) وفاة، ناتجة عن الأمراض جميعها، حتى انتقدته بشدَّة، وسألتُه حينئذٍ متعجِّباً: كيف خَلُصْتَ لمثل هذا الحكم؟! بَيْدَ أنَّ إجابَتَهُ لم تكن تسعى صوبَ ما كنت أحسَبُها تتَّجه إليه، وابتدرني بالقول:

انظُرْ، يا هذا، وفقاً لأعداد المرضى والمُصابين بالعدوى في تلك الفترة، كان من المنتظر أن يبلغ عدد الوفيات عشرين ألف (20000) وفاة في الأسبوع الماضي، بدلاً من ثمانية آلاف (8000) ...!! إذنْ، لم تعد ضراوة الوباء وشدَّته كما كان قبل أسبوعين، حين كانت تقضي على ثمانية آلاف (8000) في غضون يومين إلى ثلاثة، أما الآن فإنَّها تستغرق ما لا يقلُّ عن ثمانية أيام إلى عشرة في ذلك. وإذا ما تطرَّقنا إلى نِسَب الشفاء، سنجدها لم تتعدَّ نسبة الخُمس فيما سبق، مقارنة باثنين من كل خمسة نخفق الآن في إشفائهم، وفقاً لمعاينتي الشخصيَّة. وَلْتُراقبْ بأمِّ عينك قائمة الوفيات الأسبوع القادم وهي آخذة بالهبوط والانحسار، فضلاً عن ارتفاع نسبة التعافي فوق الحالة المعتادة. فعلى الرغم من أن أعداداً مهولة، في الأرجاء جميعها، باتت الآن مصابة بالعدوى، إذ تُحْصى العديد من الإصابات يومياً، فإنَّ نسبة أعداد الموتى لنْ تكون مرتفعة كما في السابق، لأن ضراوةَ العدوى وغلواءَها قد بدأتا بالانحسار. وأضافَ أنَّه قد بدأ يأمل، بل ما يعدو كونه رجاءً أو تمنياً، أنَّ العدوى قد تجاوزتْ ذُروَةَ فَتْكِها، فما عادت كارثةً ولا جائحة.

وقد حدث ما استبصره. ففي الأسبوع التالي، الأخير من شهر أيلول مثلما سردتُ سابقاً، انخفضت نسبة الوفيات قُرابَة ألفين (2000).

وما لا ريب فيه، أنَّ وتيرة الطاعون ما تزالُ مُرتفعةً على نحوٍ مُخيف ومُرعب، فقد أوردَتْ قائمة الوفيات الأسبوعية وفاةَ ما لا يقلُّ عن ستة آلاف وأربعمئة وستين (6460) شخصاً في الأسبوع التالي، وخمسة آلاف وسبعمئة وعشرين (5720) وفاةً في الأسبوع الذي يليه. لكنَّ ملاحظة صديقي حول وتيرة انخفاضِ الأعدادِ ما تزال دقيقةً أيضاً، فهي تُبرز سُرعةً أعلى في وتيرة تعافي المصابين، وبأعداد تفوق ما كانت عليه من قبل. ولو كان الأمر خلاف ذلك، فما الحال التي كانت ستؤول إليها مدينة لندن؟! إذ أُصيبَ، تبعاً لصديقي، ما لا يقلُّ عن ستين ألفاً (60000) في ذلك الحين، فوافَتْ المَنِيَّةُ عشرين ألفاً وسبعَمئةٍ وسبعةً

وسبعين (20777) مُصاباً منهم، في حين تعافى ما يقرُب من أربعين ألف (40000) مصاب. ولو سلكت الأمور مجراها السابق لكان من المرجح أن يسقط منهم خمسون (50000) ألفاً في قوائم الموتى، على أقلِّ تقدير، وينضاف إليهم خمسون (50000) ألفاً في عداد المرضى. وبوجيز العبارة: لقد بدأت العدوى تنتقل إلى السُّكان عامَّة وكأنها قدر لا مناص منه. لكنَّ ما بدا ملاحظة من صديقي، غدا أوضح وأبرز في غضون أسابيع قليلة، مع استمرار انخفاض أعداد الضحايا أسبوعاً تلو آخر، وُصولاً لأحدِ الأسابيع في شهر تشرين أوَّل الذي انخفضت إحصائياته ألفاً وثماني مئةٍ وثلاثاً وأربعين (1843)، ليقتصر عدد ضحايا الطاعون فيه على ألفين وستمئةٍ وخمسٍ وستين (2665) [41]، في حين انخفض العدد ألفاً وأربعمئةٍ وثلاثَ عشرةَ (1413) في الأسبوع الذي تلاه. لكنْ، بدا جلياً أنَّ عدد المصابين كان كبيراً، لا بل أعلى من المعتاد، فسقط العديد الجَمُّ مَرْضى يوماً بعد يوم، غيرَ أنَّ خُبْثَ الطاعونِ قد خَبَتْ ضَراوَتُه وتقلمَّتْ أنيابُه، كما أسلفنا.

هذا ما ترسَّخَ في الطبع الاجتماعي في بلادنا [42]...!! وسواء أكان الأمر على النحو ذاته في شتى أقطاب العالم أم على النقيض منه، فليس بمقدوري ولا شأن يدفعُني للتحقُّق من طبيعته عالمياً، لكني قد عايَنْتُه هنا بوضوح بالغ؛ فحالما انتشرت موجةُ الذُّعرِ الأولى من العدوى، تجنَّب الناس الاختلاطَ فيما بينهم، ونأوا بأنفسهم عن منازل الآخرين، بل هجروا المدينة نفسها وبأعدادٍ لا تُحصى. لقد حاصَرَتْهُم، فيما أحسَبُ، دوائرُ الخوف، وأُلقي في قلوبهم الرُّعبُ بلا ضرورة تقتضيه. أمَّا حينئذ، وحالما انتشرت هذه النظرية، أي أنَّ الطاعون لم يعد فتاكاً كسابق عهده ولا مُهْلِكاً لمن يُصيبُه، إضافة إلى رؤيتهم العديد ممَّن قد تعافوا منه وعلى نحو يومي، فقد غدوا ج**سوري**ن بصورة طائشة، غير آبهين بأنفسهم ولا بالطاعون الذي لم يعد، بالنسبة إليهم، سوى حُمَّى عاديَّة لا أكثر. ولم يكتفوا فقط بالانخراط السافر مع من بَدَت عليهم عوارض المرض المعدية، مثل الأورام والدمامل المتقيِّحة، وإنما أكلوا وشربوا معهم، لا في منازلهم فحسب،وإنما كما قيل لي في غُرَفِهم ذاتها حيثُ يرقُدون طَرْحى المرض .

يقع هذا السلوك، فيما أرى، خارج أي دائرة للمنطق. ولقد لاحظ صديقي الدكتور هيث ما يسهُلُ اختبارُ صحَّتِه تجريبياً، أنَّ الطاعون كان مُعدياً كأي وقت مضى من قبل، إذ افترسَ المرضُ جموعاً غفيرةً، غير أنه زعم أنَّ العديد ممَّن مَرِضوا لم يموتوا. لكنِّي أرى الواقع الفعلي يؤكِد أنَّ عدداً كبيراً قد هلك بالطاعون، وأنه كان، في أحسن الأحوال مُرْعِباً بذاته، عدا عذابات القروح والتورُّمات، وخطر الموت الذي لم يُغادِرْ مُطلقاً دائرةَ بُؤْسهِ وضراوَتِهِ، وإنْ بصورة أقلَّ عما قبل. إنَّ جميع هذه الأمور، فضلاً عن حالةِ الإنهاك التي تفوق

جميع الحدود في مسيرة الشفاء العسيرة، والحالة الـمُنفِّرة للمرض، إلى جانب العديد من العوامل الأخرى، لَتُعَدُّ كافيةً لِرَدْع أي امرئٍ، من العيش والاختلاط الخطير مع المرضى، وأنْ تبقيه، في غالب أحواله على الأقل، حريصاً على تَجنُّب العدوى، كما فعل من قبل.

وثمَّة أمرٌ آخر جَعلَ مُجرَّدَ التقاط عدوى الطاعون مُرعِباً ومُخيفاً، وهو عملية الحرق الفظيعة باستخدام مواد كاوية كان الجرَّاحون يضعونها على الأورام المنتفخة بُغْيَةَ فَصْدِها، ومن دونها يبقى خطر الموت مُحْدِقاً مُتَرَبِّصاً حتى النهاية، إضافة إلى ما لا طاقة لاحتماله من آلام تلك الأورام المنتفخة، التي قد لا تُسبِّب حالةً من الهيجان والذهول على النحو الذي كانت عليه من قبل، لكنها زجَّت بفرائسها في أتونِ عذابٍ لا يوصَف. وقد تذمَّر أولئك الذين ابتُلوا بالمرض، مِمَّن كُتِبَت لهم النجاةُ من بَراثِنِه، من رُعونة مَن أخبروهم بانحسار خطورته أو انعدامها واستهتارهم، آسفين على طيشهم وحمقهم اللذين تسبَّبا بمجازفتهم في اقتحام دائرة المرض.

لم تتوقَّف هذه السلوكات الرعناء بين الناس عند هذا الحد، لأن العديد، مِمَّنْ تَخلَّوا عمَّا كانوا يحذرون منه، عانوا بشدَّة وما يزالون. وعلى الرغم من نجاة العديد ممَّن أصيبوا بالطاعون، فإن جموعاً غفيرة قد وافتهم المنية بسببه؛ فالمواظبة على هذا السلوك الأرعن انعكست سلباً على وتيرة انخفاض أعداد جنازات الموتى، التي غدت رغم ذلك أبطأ ممَّا كان متوقَّعاً. وحالما سَرَتْ هذه الفكرة بسرعة البرق عبر أرجاء المدينة، واستحوذت على عقول الناس، عقب حدوث أول انخفاض كبير في قوائم الموتى، وجدنا تغيُّراً في إحصائيات الأسبوعين التاليين، التي تراجعت فيهما نسبة الانخفاض، ما جعلني أعزو ذلك إلى انْسياقِ الناس وتهوُّرِهم في اقتحام مكامن الخطر، غير آبهين بتدابير السلامة والوقاية، أو الحذر الذي اعتادوه فيما مضى، يَحسَبُ كل امرئ منهم أنَّ مخالب الطاعون ستنأى عنه، ولَئِنْ وقعَ في قبضتها لَتُكْتَبَنَّ له النجاةُ لا محالة...!!

لم يألُ الأطباءُ جُهداً في مقاومة هذا المزاج الطائش، فأصدروا توجيهات مطبوعة، جرى توزيعُها في جميع أنحاء المدينة وضواحيها، نصحوا الناس فيها بالمحافظة على التدابير الوقائيَّة، واستخدام أقصى درجات الحذر في سلوكهم الاعتياديِّ. وعلى الرغم من انحسار الوباء، فإنَّهم عمدوا إلى ترويعهم من خطر انتكاسةٍ قد تنزل بالمدينة كلها، بما قد يغدو أشدَّ فتكاً وخطورة من الوباء الذي خَبِروه حتى الآن، مُدعِّمين آراءَهم تلك بالحجج والبراهين لشرح هذا الأمر وإثباته لهم، وهو ما يطول شرحه هنا.

لكنَّ تلك الجهود لم تثمر أي فائدة. فلقد استلبت الفرحة الأولى أحلام تلك الكائنات الجريئة من البشر، وأخذوا بسحر الرضا الناجم عن الانخفاض الأسبوعي الحادِّ في أعداد الضحايا، فاكتسبوا مناعةً حصينةً تعصمهم من أي صورة جديدة من صور الذعر، واستعصوا على جميع وسائل الإقناع؛ ذلك أنَّ مرارة الموت قد وَلَّتْ، فلا طائل يُرتجى من التحدُّث إليهم إلا بمقدار ما يُجدي الكلام مع الرياح الشرقية[43]، ففتحوا المتاجر والأسواق، وذَرَعوا الشوارعَ طولاً وعرضاً، ومارسوا الأعمال التجاريَّة، واختلطوا بأي عابر سبيل يسير باتجاههم، بذريعة العمل وبلا ذريعة، دون أن يستقصوا عن صحَّة مَن يلتقونهم، ودون خشية من أي خطر يستجلبه هؤلاء حتى لو علموا بمرضهم.

لقد كلف هذا السلوك المتهورُ الأَرْعَن فقدان العديد أرواحهم، مِمَّن حرصوا قبل ذلكَ، بحذرٍ وعناية بالغَيْن، على حَجْزِ أنفسهم وانعزالهم عن جميع الناس. وباتخاذهم تلك الإجراءات والاحتياطات إبَان ضراوة تلك العدوى وشِدَّةِ بأسِها، باتوا في كنف الربِّ وعنايته، فأمِنوا وعُصِمَتْ أرواحُهُم.

وما إنْ تعاظم هذا السلوك المتهور والأحمق للناس حتى لاحظه رجال الدين، في نهاية المطاف، فبيَّنوا لهم خطورته، ما أسهم في كبح جزئيٍّ لتلك السلوكات، فأصبحوا أكثر حذراً. لكنَّ الأثر الناجم عنها هو ما عجز المبشرون عن كبح جماحه؛ ذلك أنَّ الشائعة الأولى لم تنتشر في المدينة فحسب، وإنما في الريف أيضاً، وكان لها تأثير مماثل، فتوافد الناس، ممَّن سئموا ابتعادهم الطويل عن لندن، وتاقت نفوسهم إلى العودة إليها، وتقاطروا إلى المدينة، بلا خوف يأسرهم، ولا تكهُّنات تنذرهم فتَلجِمُهم. وممَّا أثار العجب رؤيتهم وهم يجوبون الشوارع وكأن الخطر قد زالتْ غُمَّتُهُ تماماً، على الرغم من استمرار تصاعد أعداد الوفيات الأسبوعية بوتيرة تتراوح بين ألف (1000) وألفٍ وثمانمئة (1800)، غير أنَّ الناس وفدوا إلى المدينة أفواجاً، واحتشدوا فيها، كما لو عمَّتْ فيها العافية، وخَلتْ من الأمراض والأسقام.

لقد كان عاقبةُ ذلك ارتفاعاً في قائمة الوفيات في الأسبوع الأول من شهر تشرين ثاني بأربعمئة (400) وفاة، وإذا ما صدَّقْتُ تقديرات الأطباء، فقد أصيب بالعدوى أكثر من ثلاثة آلاف (3000) في ذلك الأسبوع، غالبيتهم العظمى أيضاً من الوافدين الجدد.

وهذا **جون كوك**؛ وهو حلَّاق في أبرشيَّة «**سانتْ مارتن لو غراند**»، كان مثالاً بارزاً على العودة المتسرِّعة للناس في غضون انحسار الطاعون. غادر هذا المدعو **جون كوك** مدينة لندن مُصطحباً جميع عائلته، وأغلق بيته، وهام في البلاد، شأنه كشأن العديد من الناس. وقد جازف بالعودة إلى منزله إثر

انخفاض أعداد ضحايا الطاعون على نحو كبير في تشرين أوَّل، إذ بلغت تسعمئة وخمس (905) وفيات بالأمراض جميعها في أسبوع. وتَكوَّنَت أسرتُه حينَها من عشرة أشخاص: هو وزوجته، وخمسة أطفال، واثنين من المتدرِّبين، وخادمة. ولم يمض على عودته أكثر من أسبوع، حتى باشر في فتح صالونه مُواصِلاً عمله، لكنَّ العدوى كَشَّرَتْ عن أنيابِها وانْقضَّت على العائلة بأكملها، وما هي إلا خمسة أيام حتى أهْلَكَتْهُم جميعاً عدا الخادمة.

لكن رحمةَ الله كانت أوسعَ لبقيَّة الناس مما نحسبه بلغة الأسباب والمُسبِّبات. فشراسة الوباء قد انخفضت، وترافق ذلك مع حلول الشتاء على عجل، يصحبه هواءٌ رائقٌ صافٍ وباردٌ، مع موجات من الصقيع الحادِّ. وباتساع فُيوضات هذه الرحمة الإلهية، استعاد معظم المرضى عافيتهم، وباشَرَتْ الأوضاعُ الصحيَّة في المدينة بالتحسُّن والعودة إلى ما كانت عليه قبل الجائحة. وفي الواقع، بقيت بعض موجات العدوى نشطة حتى في شهر كانون أوَّل، عندما ارتفعت قائمة الوفيات بما يقارب المئة (100). لكنها ما لبثت أنْ خمدت بعد ذلك. وهكذا، في زمن وجيز، بدأت الأمور تعود إلى مجراها السابق. فكان من المثير رؤية المدينة في غمضة عين تكتظُّ بالسكان مرَّة أخرى، على نحو لا يُتيح للغريب ملاحظة الأعداد التي فُقدت بالجائحة، وعادت المساكن تمتلئ بقاطنيها، فلا تكاد ترى منزلاً خالياً، وإذا اتفق أنْ كان بعضها خالياً، فإنَّ هناك المستأجرين الموجودين بكثرة ليشغلوها.

كنت أودُّ القول، حالما رأيتُ للمدينة وجهاً جديداً، إنَّ طريقة حياة الناس، أيضاً، قد تزينت بمظهر جديد. وممَّا لا شك فيه أن هناك العديد ممَّن احتفظوا بإحساس صادق بخلاصهم، شاكرين يد القدر التي تولَّت، إلى حدٍّ بعيد، حمايَتَهُم في غَمْرَةٍ من الزمن المحفوف بالمخاطر. وسيكون من غير المقبول الحكمُ خلافَ ذلك على مدينةٍ مُكتظة بسكانٍ حافظوا على دينهم الآن مثلما حافظوا عليه في زمن الجائحة. وبعيداً عمَّا قد نقع عليه لدى بعض العائلات، وحالاتٍ من أوجُه القصور، فإنَّ منْ المتعيَّن الإقرار بأنَّ الممارسة العامة للناس بقيت كما كانت من قبل، خلا ما تلحظُهُ العينُ الفاحصة لبعض الفروق النادرة.

لقد اعتقد بعض الناس أنَّ الأمور سارت على نحو أسوأ، فالمنحنى الأخلاقيُّ لدى الناس، حسب هؤلاء، في انحدارٍ منذ ذلك الحين؛ إذ قست قلوبهم واخشوشنت طبائعهم بأثرٍ ممَّا كانوا فيه من خطر. فَهُمْ كالبحارة عقب أُفول العاصفة، باتوا أشدَّ ممَّا كانوا عليه، فساداً وحُمقاً، وأجرأ فيما يقارفوه من رذائل وانحرافات. لكنِّي لن أذهب هذا المذهب، إذ يقتضي الأمر مُجلَّداً كبيراً لتدوين التفاصيل المتعلقة بالمراحل التي استغرقتها الأمور في المدينة لتعود إلى سابق عهدها ومسارها الطبيعي.

والآن، تُبتلى **إنجلترا** في بعض أرجائها بذات الجائحة التي ذاقتها لندن من قبل؛ فمدينة «**نوريتش**»، و«**بيتربورو**»، و«**لينكولن**»، و«**كولشستر**»، وأماكن أخرى تحلُّ العدوى فيها، ما حدا بمشرعي لندن أن يَسنُّوا لسكان لندن بعض القواعد والتعليمات التي تنسجم مع الأوضاع الصحية في تلك المدن. وممَّا لا شكَّ فيه، لم يكن بمقدورنا منع سكان تلك المدن من القدوم إلى لندن، إذ يتعذَّر التعرف إليهم وتمييزهم، ما اضطرَّ اللورد ماير وأعضاء المجلس المحلي، بعد العديد من المشاورات، إلى إلغاء العمل بها. وكان أقصى ما استطاعوا فعله هو تحذير الناس من استضافة مَنْ يُعرف بأنه قد قدم من مثل هذه الأماكن الموبوءة، وأن يمتنعوا عن مخالطتهم.

ولربما أمكن لسكان لندن أن يتحدثوا إلى الهواء، فأنبأهم بأنهم قد باتوا الآن أحراراً من الطاعون...!! فتراهم زاهدين بالنصائح والإرشادات جميعها، ما يُتَرجِمُ اتكاءهم على المعتقد السائد أنَّ هواء لندن قد استعاد طبيعته وعافيته، فهو صِنْوٌ لمن أصابَه الجدري، إذ يعوِّل على اكتسابه مناعة تقيه مدى الحياة. الأمر الذي أحيا فكرة أنَّ العدوى تقطُن الهواء، نافيةً وجود انتقال للعدوى بين الأفراد، من المرضى المصابين إلى الأصحاء السليمين. ولقد سادت هذه الفكرة الغريبة بين الناس وراجت سوقها، حتى بلغ اليقين بها لديهم درجةَ أن يتجول الناس سوياً؛ المرضى رفقة الأصحاء، سواء بسواء، وأنْ يُقبلوا على بعضهم، بلا ضوابط ولا روادع. ولقد فاقوا بذلك «**المحمَّديِّين**» الذين استحوذ عليهم مبدأ الجبريَّة، ولم يُلقوا بالاً للعدوى قائلين: ليحدث ما يحدث، فهي مشيئة السماء [44]. فهؤلاء لم يكونوا أشدَّ تعنُّتاً من أهل لندن الذين قَدِموا أصحَّاء وفي أتمِّ العافية، عائدين إلى المدينة بعد أن امتلأوا بهواء الريف النقي كما ندعوه، فلم يتردَّدوا في ولوج المنازل والغرف ذاتها، حتى إنهم ولجوا إلى الأسرَّة نفسها التي يرقد عليها المصابون بالعدوى ممَّن لم يستردُّوا عافيتهم بعد.

وقد دفع بعض هؤلاء حياتهم ثمناً لتلك الجرأة المنفلتة، فضلاً عن أن عدداً لا حصر له مَرِض، وصار الأطباء يعملون أكثر من أي وقت مضى، سوى أنَّ عدداً أكبر من مرضاهم قد فارقتهم العدوى؛ أي أنهم تعافوا بشكل عام. وبات من المؤكد، حينئذ، أن عدد المصابين بالعدوى والمرضى أعلى من أي وقت سابق. وبالتأكيد، لم يهلك أكثر من ألف إلى ألف ومئتين (1000-1200) أسبوعياً، مقارنة بما عليه الحال عندما كان يموت خمسة آلاف أو ستة (5000 - 6000) في الأسبوع. وهكذا، فقد غدا الناس غير آبهين البتَّة بما يحيط بهم من خطر يتهدَّد صحتهم في ذلك الوقت، وغير مكترثين بإلقاء السمع أو قبول النصح ممَّن حذَّرهم حرصاً على سلامتهم.

وبعد أن رجع الناس إلى المدينة، كان من المستغرب لدى بحث هؤلاء عن أصدقائهم، أنَّ بعض العائلات قد مُحقت على بكرة أبيها فلا تجد لها أثراً، بل لم يُعثر على وارث أو مَن يحمل سند ملكية للقليل الذي خلَّفه أفرادها وراءهم. ويُعزى ذلك في مثل هذه الحالات إلى أنَّ ما وُجِدَ إمَّا اختُلِسَ وإما استوليَ عليه وتلاشى هنا وهناك.

وقَدْ قيل إنَّ الملك قد استولى على هذه الآثار المهجورة باعتباره وارث كل من لا وارث له، كما وُصِفَ لنا، وأعتقد أنَّ ذلك صحيح جزئياً، فالملك مَنح كل ما يقع في خانة «**الموهوب لله**»، للسيِّد العمدة والمجلس المحلي في لندن، ليُجْرى على الفقراء الذين تكاثرت أعدادهم. فممَّا ينبغي توثيقه، أنَّ دواعي إغاثة المعسرين وإعانتهم كانت إبَّان ضراوة الطاعون أعلى بكثير ممَّا أضحت عليه بعد أنْ انتهى كل شيء، إلا أنَّ محنة الفقراء الآن قد تفاقمت وتجاوزت ذُروةَ ما كانت عليه في ذلك الوقت؛ لأن جميع أبواب الإحسان الخيري العام قد أغلقت، فجفَّت جداولُه ونَضبتْ يَنابيعُه؛ إذ افترض الناس أنَّ المناسبة الرئيسية للإحسان قد انتهت، فتوقفت الأيادي البيضاء عن الإحسان، في حين كانت وطأة الأوضاع الاستثنائية تشتدُّ وتتعاظم، ومحنة الفقراء دونما شكٍّ تتفاقم.

ومع أنَّ المدينة استعادت عافيتها إلى حد كبير، فإنَّ التجارة الخارجية لم تنشط، كما امتنع الأجانب عن منح سفننا حقَّ الدخول إلى موانئهم فترةً طويلة. أما الهولنديُّون، فقد تفاقم سوء الفهم بين بلاطنا الملكي وبينهم فجأة، لتندلع حرب بين البلدين في العام السابق، نجم عنها انقطاع تجارتنا معهم برمَّتها. أما **إسبانيا والبرتغال وإيطاليا وبربري** [45]، إضافة إلى هامبورغ وجميع موانئ **بحر البلطيق**، فقد نأت بنفسها عنا حذراً فترةً طويلة، ولم تُستأنَف تجارتهم معنا طوال شهور عديدة.

حصدت العدوى حشوداً وفيرة، كما وثَّقتُ من قبل؛ ما دفع العديد من الأبرشيَّات، ما لم تكن جميع الأبرشيَّات الخارجية، إلى إنشاء مدافن جديدة، إلى جانب التي ذكرتها من قبل في «**بنهيل-فيلدز**». وبعض تلك المدافن التي استُعملت فيما بعد لا يزال قيد الاستخدام حتى يومنا هذا، في حين هُجِرَت مَدافنُ أخرى، أو حوِّلت (ويتعين عليَّ الاعتراف أنَّ ذلك يستدعي التأنيب والتوبيخ)، لأغراضٍ أخرى أو بُنِيَ عليها بعد ذلك، إذ انتشلت الجثث وبعثرت على نحو مُسيءٍ ومُشين، ونبشت مرة أخرى، حتى قبل أن يفنى اللحم عن العظم، وأزيلت كما الروث أو القمامة إلى أماكن أخرى...!! وبعض تلك المدافن التي أمكنني رَصْدُها، هي كما يلي:

(1) قطعة أرض خارج جادَّة «**جوسوِل**»، بالقرب من «**ماونت-ميل**»، حيث تقع بعض بقايا الخطوط أو التحصينات القديمة للمدينة. وقد دُفِن عدد كبير من الجثث فيها، على نحو غير قانوني، من جانب إبرشيَّات «**ألدرز غيت**»، و«**كليركن وِل**»، وحتى خارج المدينة. وهذه الأرض، كما عهدتها، أصبحت منذ ذلك الحين حديقة أعشاب طبّية [46]، وبعد ذلك جرى البناء عليها.

(2) قطعة أرض تقع فوق الخندق الأسود، كما أُطلِقَ عليه فيما بعد، عند نهاية «**هولواي لين**»، في أبرشيَّة «**شوردتش**». وقد خُصِّصت منذ تأسيسها حظيرَةً للخنازير، ولاستخدامات عاديَّة أخرى، لكنها ما عادت تستخدم بوصفها مقبرة.

(3) الطرف العلوي من «**هاند-آلي**»، في جادَّة «**بشوبس غيت**»، الذي كان آنذاك حقلاً أخضر، وجرى إلحاقُه بشكل خاص بأبرشيَّة «**بشوبس غيت**»، مع أنَّ العديد من عربات نقل الموتى القادمة من خارج المدينة قد جلبت موتاها إلى هناك أيضاً، وأخصُّ بالذكر أبرشيَّة «**سانت آل-هالوس**» الواقعة داخل جدران لندن. ولا يسعني أنْ أذكر هذا المكان دون كثير من الأسف، فلقد أصبح السير **روبرت كلايتون** مالكاً للأرض، فيما أذكر، بعد عامين أو ثلاثة من تَوقُّف الطاعون. وقد أورد تقرير، لم أتحقَّق من صحَّته، أنَّها وقعت في يد الملك لغياب الورثة، فكل مَن له حقٌّ فيها قضى عليه **الطاعون الدبلي**، فمنحها الملك **تشارلز الثاني** للسير **روبرت كلايتون**. ولكن، بغضِّ النظر عن الطريقة التي آلت بها مُلكيتها إليه، بات من المؤكد أن الأرض قد مُنحت ليُبنى عليها، أو أنَّها بُنِيَت بقرار منه. وكان أول ما بُني عليها منزل كبير وجميل، مايزال قائماً حتى اللحظة، ويقابل الشارع أو الطريق التي تعرف الآن بزقاق «**هاند-آلي**»، وقد كان واسعاً كما الشارع، على الرغم من تسميته زقاقاً. وجرى بناء المنازل، المتموضعة شمالاً في الصف نفسه بمحاذاة ذلك المنزل، على الأرض ذاتها حيث دُفِنَ الفقراءُ.

ونُبشت الجثثْ عند فتح الأرض لوضع أساسات البناء، وبدا بعضها ماثلاً للعيان، فَمُيزَت جماجمُ النساء بشعورهن الطويلة، في حين مُيِّز مَن لم تتحلَّل أجسادهم بعد على نحو تام، وتعالَت أصوات الناس استنكاراً لذلك الفعل، وأعلن بعضهم أن ذلك قد يتسبَّب بعودة الوباء مجدداً. فسارعوا، بعدها، إلى نقل رُفات العظام والجثث، فور استخراجها، إلى بقعة أخرى من الأرض نفسها، حيث ألقيت جميعاً في هُوَّةٍ عميقة، حفرت لهذه الغاية، ولا يميزها الآن سوى خُلُوِّها من البناء، بل غدت ممراً إلى منزل آخر في الطرف العلوي من زقاق روز، مقابل باب بيت الاجتماعات الذي بُني هناك بعد ذلك بسنوات

عديدة، وقد سُيِّجَت تلك الأرض دون بقية الممر، في مربع صغير حيث يرقد رفات ما يقرب من ألفي (2000) جثة حملتها عربات الموتى إلى مثواها الأخير في ذلك العام.

(4) فضلاً عن ذلك، ثمَّة بقعة من الأرض في «**مورفيلدز**»، تَمْثُلُ عبرَ الطريقِ الموصِلة للشارع الذي يُطلق عليه الآن: «**بيت لحم القديمة**»، وقد جرى توسيعُها غير مرَّة، وإنْ لم يجرِ ذلك دفعةً واحدة[47].

(5) اقتطعت أبرشيةُ «**ستبني**»، التي تمتدُّ من الجزء الشرقي من لندن إلى الشمال حتى حافة ساحة كنيسة «**شورديتش**»، بُقعةً من الأرض لدفن موتاها بالقرب من مقبرة الكنيسة المذكورة، ولهذا السبب دون غيره تُركت مفتوحة، ومنذ ذلك الحين، فيما أظن، ألحقت بِمقبرة الكنيسة ذاتها. وتوافر لديهم أيضاً مكانان آخران للدفن في «**سبيتل فيلدز**»، بوشر بالدفن في أحدهما منذ بناء الكنيسة الصغيرة أو المعبد، لتسهيل دفن موتى قاطني تلك الأبرشية العظيمة، في حين يقع المدفن الآخر في «**بيتيكوت-لين**».

كان هناك ما لا يقلُّ عن خمسة أراضٍ أخرى جرى تخصيصها لأبرشيَّة «**ستبني**» في ذلك الحين: واحدة حيث تنتصبُ الآن كنيسة أبرشيَّة «**سانت بولس شادويل**»، والأخرى حيث تنتصبُ كنيسة أبرشيَّة «**سانت جون**» في «**وابِنْغْ**» هذه الأيام، وكلتاهما لم تكونا قد حملتا أسماء الأبرشيَّات في ذلك الوقت، لكنهما كانتا تنتميان إلى أبرشيَّة «**ستبني**».

أستطيع تسمية العديد من الأراضي المخصَّصة للدفن في الأبرشيَّات، لكنَّ الأسماء التي أوردتُها تقع في حدود معرفتي الخاصة وهو ما يجعل تسجيلها، فيما أحسب، مفيداً. وعلى العموم، يمكن ملاحظة أنهم اضطرُّوا في مثل هذا الوقت العصيب إلى تخصيص أراضٍ جديدة للدفن في معظم الأبرشيَّات الخارجية، لاستيعاب تلك الأعداد الهائلة من الموتى الذين هلكوا في فترة زمنية وجيزة للغاية. ولكنْ، لِمَ جرى التفريط في عدم فصل تلك الأماكن عن الاستخدامات العادية كي يتسنَّى لرفات الموتى الرقود بسلام؟ هذا ما لا أدريه، ويتعين عليَّ أن أعترف أن ذلك التفريط قد كان مُشيناً. أما على مَن يقع اللوم، فلا علم لديَّ.

كان يجب أنْ أذكر أنَّ **الكويكرز** [48] كانت لديهم في ذلك الوقت أيضاً مقبرة منفصلة لاستخدامهم الخاص، ومازالوا يدفنون بها موتاهم، وكانت لديهم أيضاً

عربة موتى خاصَّة لجلب موتاهم من منازلهم. و**سليمان إيغل** الشهير، الذي، كما ذكرت من قبل، تنبَّأ بقدوم الطاعون بما هو قضاء إلهي، وكان يجري عارياً في الشوارع، مخبراً الناس أن الطاعون نزل بهم عقاباً بما كسبت أيديهم؛ سليمان هذا توفيت زوجته في اليوم التالي من الطاعون، وكانت أوَّل مَن نُقِل بعربة موتى الـ «**كويكرز**» إلى مدفنهم الجديد.

ولعلِّي قد حشدت في هذه الرواية العديد من الأحداث البارزة التي حدثت زمن الطاعون، ولاسيَّما ما جرى بين عمدة المدينة والعائلة الملكية التي كانت حينئذٍ في **أكسفورد**، فضلاً عن التعليمات التي كانت تَرد من وقت إلى آخر لتلزمنا بسلوكات معيَّنة في هذه المناسبة الحرجة. لكنَّ أفراد العائلة الملكيَّة لم يشغلوا أنفسهم سوى بالقليل، والقليل الذي عُنوا به يُصنَّفُ في خانة الأقل أهميَّة، بحيث لا ألمحُ، في أي دور اضطلعوا به، لحظةً تستحقُّ الذكر هُنا، باستثناء الإجراء الخاص بتعيين صيام شهريٍّ عن الطعام، وإرسال الصدقات الملكيَّة لإغاثة الفقراء، وقد ذكرتُ كلا الأمرين من قبل.

ولَشدَّ ما كانَ عظيماً ذلك اللوم، الذي أُلقي على أولئك الأطباء ممن تركوا مرضاهم في أثناء المرض، وقد عادوا حينها إلى المدينة مرَّة أخرى، دون أنْ يُعنى أي امرئ بتوظيفهم، بل نُعِتوا بـ «**الفارِّين**»[49]، ولطالما عُلقت قوائم الوفيات على أبوابهم، وكُتب عليها: «يوجد هنا طبيب للاستئجار»...!! حتى إنَّ العديد مِن هؤلاء الأطباء عَمِدوا إلى التوقُّف عن العمل، فترة من الوقت، ومراقبة الوضع حولهم، أو على الأقل تغيير مساكنهم، والإقامة في أماكن جديدة، ضمن بؤرة من المعارف الجدد. وكان الأمر مُشابهاً مع رجال الدين الذين بالغ الناس فعلياً في الإساءة إليهم، فكتبوا آياتٍ وتأمُّلاتٍ فاضِحةً عنهم، علَّقوها على باب الكنيسة: «هنا مِنبرٌ للاستئجار»، أو «للبيع»، في بعض الأحيان، وهو أسوأ...!!

لم تكنْ جائحة الطاعون آخرَ مَصائبنا، إذْ حالَ انتِهائِها، لَمْ تَنْقَشِعْ روحُ الفتنة والخلاف التي فَشَت بيننا، واستمرَّ أمر الافتراء والتشهير والتبكيت الذي كان قبل الجائحة، بِحَقٍّ، مُقلِقاً لِسلام الأمَّة. ولقد قيل إنَّها من رواسب العداوات القديمة التي أَوْلَجَتْنا مُؤخراً في الدم والفوضى. ولكنْ، بما أنَّ مرسوم العفو الصادر مُؤخَّراً جعل روح الشِّجار تغُطُّ في سُباتٍ عميق، فقد أوصَتْ الحكومة بالسلام، فيما بين الأفراد كما العائلات، في جميع المناسبات، وللأمَّة كلها.

لكنَّ ذلك لم يكن سهلَ المَنال، ولاسيَّما بعد انحسار موجة الطاعون عنْ لندن، فعندما يرى أي شخص الحالة سادت بين الناس وكيف كان يحنو كل منهم على الآخر، في ذلك الوقت، مُتعهدين بتقديم المزيد مِنْ أعمال الخير والإحسان في قابل الأيام، والعيش في تلاؤم دون مزيدٍ من التلاوم. أقول: إنَّ أي شخصٍ رآهم، آنذاك، كان يخالُ أنَّهم التقوا بروحٍ أخرى مغايرة، في نهاية المطاف.

ولكنَّي أقول: إنَّ ذلك لم يكُنْ سَهلَ المَنال؛ فالخلاف والعِراكُ ظلَّ قائماً، والكنيسة الأنجليكانيَّة والمشيخيَّة [50] كانتا متنافرتين؛ فما إن زال الطاعون حتى تقاعد المبشرون المنشقُّون [51] الذين عوضوا خواء المنابر ممَّن هجرها من الوُعَّاظ. وما كان المنشقون ليتوقَّعوا مَصيراً مُغايراً، فقد حمل كهنة الكنيسة عليهم وأرهقوهم عبر قوانينهم الجزائيَّة. وإنها لمفارقةٌ أنْ يتقبل الكهنة وعظ المنشقِّين إبَّان الوباء، وأن يضطهدوهم فور تماثُل الأولين للشفاء...!! فحتى نحن، أتباع الكنيسة الأنجليكانيَّة، كنا نَعُدُّها قسوةً، ولا نرتضيها بأي حالٍ من الأحوال.

لكنها السلطة، ولا طاقة لأي كلام نَسوقهُ في كبحها، ولا يُعذرنا سوى القول إنَّنا لم نقترف ذلك الفعل ولم نستجب له.

ومن ناحية أخرى، عاب الخارجون عن الكنيسة على كهنةِ الكنيسة ابتعادَهم، وتحلُّلهم مِنْ أعبائهم، وتخليهم عن الناس في محنتهم، حين كانوا في أمسِّ الحاجة إلى السلوى وما شابه ذلك. وهذا الانتقاد ما كان لنا أنْ نرتضيه بأي حال مِن الأحوال، لأنَّ الناس يتفاوتون في درجات إيمانهم وشجاعتهم، والكتاب المقدس يأمرنا بأن نحكم على الناس بالعدل والإحسان.

لَشدَّ ما كان الطاعون عدُواً شرساً مُسلَّحاً بأصنافٍ من الرعب، لا حصانَةَ لأي شخص تُمكِّنه من مواجهتها أو حتى تخطِّي آثار الصدمة التي تتسبَّب بها...!! ومما لا ريْب فيه، لقد فرَّ العديد من رجال الدين في ظروف مُواتية، طلباً للنجاة، لكنَّ من الصحيح أيضاً، أنَّ عدداً لا بأس به منهم قد بقي، فضلاً عن سقوط عددٍ كبير منهم بفاجعة الطاعون؛ ما صرفهم عن أداء واجبهم.

ومن الصحيح، أنَّ بعض الوعاظ من المنشقين، الذين تحوَّلوا إلى الكنيسة المشيخيَّة، قد بقوا، وأنَّ شجاعتهم تستحق الثناء والتقدير، لكنَّهم لم يكونوا بتلك الكثرة. ولا يمكن القول إنَّهم جميعاً قد بقوا وألا أحَدَ منهم لجأ إلى الريف، بأكثر ممَّا يمكن قوله عن رجال الكنيسة، بحيث يُزعمُ أنَّ جميعهم قد فرُّوا. فضلاً عن أنَّهم لم يغادروا دون أن يجعلوا مساعديهم من الخوارنة وغيرهم

يحلون في مواقعهم، سواء لتأدية الشعائر الضروريَّة أو عيادة المرضى، بقدر ما أمكن ذلك من الناحية العملية.

وبناء عليه، لعلَّ من الأحسن، عامَّة، أن تُنسب حصة من المعروف لكلا الطرفين، كما يتعين علينا الأخذ بالاعتبار أنَّ محنة عام ألفٍ وستمئة وخمسة وستين (1665) لا تُقارَن بها حوادث الدهر ولا عاديات الأيام، وأنَّ أعلى درجات الشجاعة قد تخون الرجال أحياناً في تلك الحالات النادرة. ولم أتحدَّث عن ذلك لأنَّي آثرتُ أنْ أُوثِّق الشجاعة والحماسة الدينية اللتين توافرتا للطرفين كليهما، ممَّن خاطروا بحياتهم خدمة للفقراء في محنتهم، دونما ذكرٍ لأي إخفاق حدث في أثناء أداء الواجب من كلا الطرفين. لكنَّ نزعة التطرف لدينا قد جعلت نقيضَ ذلك أمراً حتمياً، فبعض مَن بقي في المدينة لم يقف عند التفاخر بالنفس والزهو بها، وإنما حقَّر مَنْ فرَّ، ناعتاً إياه بالجبن، والتنكُّب لرعيته، وأنه سلك سلوك المرتزقة المُستَأجرين وغير ذلك من قبيح الأوصاف.

والآن أقول:

أحثُّ الخيِّرين جميعهم، ضَناً بما فيهم من خير؛ الخيّرين من الناس كافَّة، أنْ يُلقوا نظرةً إلى الوراء ويتبصَّروا، كما ينبغي، في صور الرعب التي عمَّت إبانٍ ذلك الوقت. ومَنْ يفعل ذلك سيرى أنَّها ليست قوة عادية تلك التي كانت تمكِّن المرء، من الصمود. فليس الأمر مُشابهاً للبروز في مقدمة جيشٍ أو قيادة الهجوم على صهوة جواد في ساحة المعركة، بل كان مُناجزةً للموت نفسه وهو يمتطي جواده.

فالبقاءُ في المدينة كان، حقاً، صِنوَ الموت، ولا يمكن تقديره بأقلَّ مِنْ ذلك، ولاسيما على النحو الذي بدت عليه الأمور في نهاية آب ومطلع أيلول، كما ظهر من علامات على ما هو آت في ذلك الوقت؛ ذلك أنَّ أحداً لم يتوقَّع، بل أجرؤ على القول، لم يعتقد أنَّ الوباء سيأخذ هذا المنحنى التصاعدي المفاجئ فيسقط على الفور ألفان في الأسبوع، لـمَّا أُصيب عدد استثنائيٌّ بالمرض، وفق ما جرت معرفته آنذاك؛ ما دفع العديد مِمَّن آثر البقاء سابقاً، إلى الفرار.

إلى جانب ذلك، إذا وهب الله بعض الناس قوَّةً أكثر من غيرهم، أَيُسوِّغ ذلك أنْ يتفاخر مَن مُنحوا المقدرة على احتمال الضربة، فيلومون مَنْ حرمهم الله تلك الهِبَة وذلك الدعم؛ ألا ينبغي لهم، بالأحرى، أن يكونوا متواضعين وشاكرين للرَبِّ أنْ جعلهم أنفع من إخوتهم...!!

وأعتقد أنَّ ثمَّة ما ينبغي تسجيله تخليداً وتكريماً لهؤلاء الناس، مِنْ أمثال رجال الدين والأطباء والجرَّاحين كما الصيادلة وقضاة الصلح، وغيرهم من العاملين

على اختلاف مواقعهم، إضافة إلى جميع مَنْ مدَّ يد العون مِن الناس، مِمَّن خاطروا بأرواحهم استجابة لنداء الواجب، وهو ما قام به، يقيناً، جُلُّ مَن بقي إلى آخر رمق. والعديد مِن هؤلاء جميعاً، لم يغامروا بأرواحهم فحسب، وإنما بذلوها في تلك المناسبة الحزينة.

وفي إحدى المرات، أعددت قائمة بكل المهن والوظائف ممَّا مات أصحابها حسب وَصْفي خلال تأدية واجبهم، إلا أنَّ من المتعذر على شخص، لا ينتمي إلى هذه الفئة من المسْتخدمين، أن يَستَيقِن من التفاصيل. ولا أتذكر منهم سوى ستة عشر (16) رجل دين، وعضوين من المجلس البلدي، وخمسة أطباء، وثلاثة عشر (13) جرَّاحاً، ضمن مدينة لندن والمناطق الإداريَّة قبل بداية أيلول. لكنَّ ذلك تزامن مع الفترة التي مثَّلت، مثلما أسلفت، ذُروة الوباء وخطره الأعظم؛ ما جعلها قائمة غير مكتملة. أمَّا بالنسبة إلى منْ هم أدنى مرتبة، فأزعم أنَّ هناك ستَّةً وأربعين (46)، ما بين شرطيٍّ وراعٍ لِقَصَبة، ماتوا في أبرشيَّتي «**ستبني**» و«**وايت تشابل**». وهنا، يتعذَّر عليَّ الاستمرار بقائمتي؛ فما إنْ عصف بنا الوباء بعنفه المحتدم في أيلول، حتى خرجت الأمور عن السيطرة، فما عاد القيِّمون على الأمر يُقدِّرون الوفيات باستخدام الأعداد أو الأرقام [52]؛ فقد تُنشر قوائم بالضحايا الأسبوعية تحوي سبعة آلاف أو ثمانية (7000، 8000)، أو ما يحلو لهم...!! ولكنَّ المؤكد أنَّهم هلكوا أكواماً، ودُفنوا أكواماً، أي بلا تعداد. وإذا أردت تصديق بعضهم، ممَّن هم أكثر إطلاعاً وإلماماً منِّي بهذه الأمور، على الرغم من أنَّي انخرطت في هذه الأخيرة بصورة كافية بالنسبة إلى شخصٍ لا ناقة له بها ولا جمل. أقول: إذا أردت تصديق ما زعموه، فإنَّ عدد مَن دُفنوا، في الأسابيع الثلاثة الأولى من شهر أيلول، لن يقلَّ عن عشرين ألفاً في الأسبوع الواحد. وبينما أكد آخرون مصداقيَّة تلك الأرقام، فإنَّني أفضِّل الاعتماد على الإحصاء الرسمي: أيْ سبعة إلى ثمانية آلاف وفاة أسبوعياً، وهي تكفي للتدليل على ما وصفته من حالة الرعب في تلك الآونة. فممَّا يمنحني الرضا البالغ أنْ أكتب ما قد يدفع القارئ إلى القول: إنَّ كل ما جرى تسجيله يتَّسم بعدم المبالغة، أو بالأحرى، مُنْحصرٌ في نطاق ما هو معقول ولا يتعدَّاه.

وفي ضوء ما جرى سردُه من تقارير، أقولُ: لَشدَّ ما تَمنَّيتُ، حين غادرنا الوباء، أنْ لو كان سلوكُنا أطيب وألطف لدى استذكارنا زمن الكارثة، لا أنْ يكون تفاخُراً بما امتلكناه مِن شكيمة مكَّنتنا من البقاء في المدينة، كما لو كان سوانا ناسٌ جبناء فرُّوا من قدر الله أو أنَّ مَنْ بقي لا يدينُ بشجاعته في بعض الأحيان إلى جهله وازدرائه للإرادة الإلهيَّة؛ فما تلك «الشجاعة» في حقيقة أمرها سوى صورة من صور اليأس التي أخذت شكلاً إجرامياً، وليس البسالةَ عينَها.

ولا بُدَّ مِن الإشارة إلى أنَّ الموظفين المدنيين، مِن أمثال كبار مُوظفي القصر، ورؤساء الأحياء، ورجال كل مِن سيِّدي العمدة ومُفوضي الشرطة، بالإضافة إلى العاملين في الأبرشيَّة مِمّن وقع على عاتقهم تولِّي مسؤولية الفقراء، قد أدَّوا واجباتهم، على نحو عام، بأكبر قدرٍ من البسالة، كما غيرهم، وربما بقدرٍ أكبر، لما ينطوي عليه عملهم من مُجازفة أعلى، واختلاطٍ أكبر بالفقراء، فكانوا أكثر عُرضة للإصابة، وفي حالةٍ يُرثى لها ما إنْ يُصابوا بالعدوى. ولكنْ، ما يستوجب الإضافة أيضاً أنَّ عدداً كبيراً منهم قد هلكوا بالطاعون. وبالفعل، كان من النادر أن يكون الأمر على خلاف ذلك.

ولم أسطر ها هنا أي كلمة عن الأدوية والمستحضرات التي اعتدنا استخدامها في هذه المناسبة الرهيبة، وأعني بنا نحن الذين اعتدنا الخروج من البيوت والتطواف في الشوارع. وقد ذكر الكثير عن هذه الأدوية في كتب أطبائنا الدجَّالين ومنشوراتهم التي سبق لي أن أوردتُ ما يكفي عنها. ولكنْ، يمكن أنْ يُضاف إلى ذلك أنَّ كليَّة الطب كانت تنشر يومياً العديد من الوصفات التي اعتمدوها في سياق مُمارستهم، وإذْ كانت متوافرة على شكل مَطبوعات فقد تجنَّبت إيرادها من جديد.

ولا أستطيع إلا أنْ أذكر ما لحق بأحد الدجَّالين الذي نشر أنَّ لديه أفضل مادَّة وقائيَّة من الطاعون، مَن يُبقيها معه يغدو بمنجاة من الطاعون أو الإصابة به. هذا الرجل، الذي نفترض بصورة منطقيَّة، أنَّه ما كان ليغادر منزله دون أنْ يصطحب بعضاً من هذه المادة الواقية الممتازة في جيبه، أدركه الطاعون، وما هو غير يومين أو ثلاثة حتى جُرف إلى مدفنه.

لستُ ممَّن يكرهون الدواء أو يستهترون به، بل على العكس من ذلك، لقد أشرت في كثير من الأحيان إلى تقديري ما أملاه علي صديقي الخاص الدكتور هيث. ولكنْ، لا بدَّ لي من الاعتراف أنَّني لم أستخدم منه غير القليل أو لم أستخدمه بتاتاً، ما عدا ما أشرتُ إليه سابقاً، أي الحرص على حمل مستحضر ذي رائحة نفَّاذة لاستخدامه في حال مصادَفتي أياً من الروائح الكريهة، أو إذا ما اقتربت مِن مَدْفَنٍ أو جُثَّة.

ولم ألجأ إلى ما لجأ إليه بعضُ الناس، بحسب معرفتي، فقد عمد هؤلاء إلى الإبقاء على أمزجتهم عالية ومنتشية باللجوء إلى المشروبات الروحيَّة والأنبذة التي عاقرها، كما لاحظت، طبيب نِطاسيٌّ، إلى درجة أنه لم يستطع تركها عندما اختفت العدوى تماماً، وهكذا أصبح سِكِّيراً طوال حياته.

أتذكر صديقي الطبيب، الذي اعتاد القول إنَّ هناك مجموعة معينة من الأدوية والمُستَحضرات كانت جميعها جيِّدة ومفيدة على نحو مُؤكّد حال الإصابة بالعدوى، ويمكن للأطباء أن يصنعوا منها أو بها مجموعة لا حصر لها من الأدوية، كما يُنتجُ ناقرو أجراسِ الآلةِ الإيقاعيَّةِ مئاتٍ من الأنغام الموسيقية المختلفة بتغيير أسلوب النقر أو تَراتبيَّة الأصوات، ولكنْ بستَّة أجراس. ولقد كانت هذه المستحضرات جميعها جيِّدة بحقٍّ. ولذلك، قال: لا عجب مِن هذا الكمِّ الهائل المعروض مِن هذه الأدوية في الكارثة الحاليَّة، إذ ترى كل طبيب تقريباً يصف أو يُعدُّ شيئاً مُختلفاً، مثلما تُرشده بصيرته أو تجربته.

ولكنْ، يقول صديقي: دعنا نفحص جميع ما استصدره أطباء لندن مِن وصفات طبيَّة، ولسوف يتبيَّن أنَّها جميعاً تتكوَّن من العناصر التركيبيَّة ذاتها، مع قدرٍ يسير من الاختلافات التي يقودها الخيال الخاصُّ بالطبيب. وبذلك، يتابع صديقي: أنَّ أي شخص يُقيِّم، ولو بقدر يسير، بنيته الخاصة، وطريقة عيشه، وظروف إصابته بالعدوى، قد يختار علاجاته من بين العقاقير والمستحضرات المتوافرة. صديقي يوصي بشيءٍ واحدٍ على أنَّه الأهم والأكثر فاعليَّة، في حين يوصي غيره بخلافه؛ إذْ يعتقد بعضُ الناس أنَّ حبوب «**رف**» (Ruff)، التي يُطلق عليها: «أقراص مضادَّة للطاعون»، أفضلُ مُستَحضر يمكن صنعُه، في حين يرى آخرون أنَّ «**ترياق البندقية**»[53] كافٍ، في حدِّ ذاته، لمقاومة العدوى. وأنا، يقول صديقي: أوافق كلا الرأيين، بمعنى أنَّ الأخير جيِّد لاتخاذه مُسبقاً للوقاية من العدوى؛ والأوَّل، في حال الإصابة بها بُغية طردها. ووفقاً لهذا الرأي، تناولتُ، مرَّات عدّة، «**ترياقَ البندقية**» الذي استتبعه تعرُّق شديد، وشعرت أنَّي مُحصَّن ضدَّ العدوى كما يمكن لأي شخص أنْ يكون مُحصَّناً بقوَّة الدواء.

أما الشعوذة والدجل، ممَّا كان زاخراً في المدينة، فلم أُصْغِ لأي ممَّن مارسهما. ومُذَّاك، وطوال سنتين من غياب الطاعون، لاحظت غالباً، وبما يدعو إلى العجب، أنَّي بالكاد رأيتُ أو سمعتُ عن أي من هؤلاء في المدينة...!! حتى ليُخيَّل إلى البعض أنَّ هؤلاء جميعاً قد مُسحوا على بكرة أبيهم، فغدوا بذلك مثالاً على الانتقام الرَّباني، وذلك بما كسبت أيديهم حين ساقوا المساكين إلى الهاوية لقاء دراهم معدودة. لكنِّي لا أستطيع أنْ أذهب إلى هذا الحدِّ في الوصف. فمن الصحيح أنه قد تأكّد موتُ كثير منهم، والعديد مِن هؤلاء يقع في دائرة معرفتي الخاصة. لكنَّ القول إنَّهم جميعاً قد مُسحوا عن وجه الأرض، فهذا ما أشكِّك فيه بشدَّة. وإني أميل إلى الاعتقاد أنَّ الناجين منهم قد هُرعوا إلى الريف، وأنَّهم جرَّبوا مُمارساتهم على الناس هناك، ممَّن تملَّكهم خوف الإصابة بالعدوى، قبل أن تحلَّ فيما بينهم.

وهكذا، بات أكيداً عدم ظهور أي منهم فترةً طويلة، داخل لندن أو فيما حولها، سواءً بسواء. وفي الواقع، لقد نشر العديد من الأطباء وصفات توصي بالعديد من المستحضرات الدوائيَّة لتطهير الجسم، على حدِّ تعبيرهم، بعد الطاعون؛ وأنَّ ذلك يقع في حكم الضرورة، حسب ما أوردوه، لأولئك الأشخاص الذين أصيبوا بالطاعون ثُمَّ تماثلوا للشفاء، في حين عليَّ التنويه بما أحسبُه رأي الأطباء البارزين في ذلك الوقت، ومُقتضاه أنَّ الإصابة بالطاعون تُعدُّ في حدِّ ذاتها تَطهُّراً كافياً منه، وأنَّ مَن نَجوا، مِمَّن أصيبوا به، لا يحتاجون إلى دواء يُطهِّر أجسادهم مِن أي أشياء أخرى؛ فالقروح المُتقيِّحة والأورام وغيرها، ممَّا تمَّ شقُّها وإبقاؤها مفتوحة، بتوجيهات من الأطباء، جرى تنظيفُها وتطهيرها على نحو كافٍ، وأنَّ الأمراض الأخرى جميعها ومُسبِّباتها الأخرى وأسبابها قد جرى التعامل معها بفعاليَّة وفق تلك الطريقة. وأنَّى بثَّ الأطباءُ آراءَهم، على هذا النحو، إلا وكَسدت تجارة هؤلاء الدجَّالين (رفقة أولئك المشعوذين).

وبالتأكيد، برزت حالات عديدة من التكهُّنات المتهوِّرة بعد تراجُع ضراوة الطاعون. أمَّا القول إنَّها كانت تدبيراً لإثارة الرعب والفوضى في الناس، كما خُيِّل لبعضهم، فَزَعمٌ لا أرتئيه. ولكنْ، كان يُروى، بين الفينة والأخرى، أنَّ الطاعون سيعود في مثل هذا الوقت؛ فها هو ذا «**سليمان إيغل**» الشهير، العضو في طائفة «**الكويكرز**»، الذي ذكرته فيما سلف واعتاد أن يظهر عارياً، يتنبَّأ بوقائع شرِّيرة كل يوم، في حين يعْلمُنا آخرون عديدون أنَّ لندن لم تستوفِ قسطها من «**العذاب الربَّاني**» بما فيه الكفاية، وأنَّ الضربات الأشد إيلاماً وقسوةً لمَّا تحدثْ بَعْد.

فهل اقتصرت تنبُّؤاتهم على ذلك، أم خاضوا في التفاصيل، فأخبرونا أنَّ المدينة لا بُدَّ أن تدمَّر في العام القادم بالنيران...؟! حينها فعلاً، عندما تتحقَّق تلك التنبُّؤات رأيَ العين، لنْ نُلامَ على ترحيبنا الفائق بـأرواحهم التنبؤية. وعلى الأقل، كان علينا أنْ نُدهش منها، وأنْ نكون أكثر جدية في استفسارنا عن مغزاها، وكيف تأتَّت لهم تلك المعرفة المسبقة بالغيب...!!

ولكنْ، عندما أخبرونا على نحو عام، عن الانتكاسة وعودة الطاعون، لم يتوافر لدينا أدنى اهتمام منذ ذلك الحين بشأنهم. ومع ذلك، وتبعاً لذلك الصخب المتكرِّر، ظللنا جميعاً نواجه ضروباً من المخاوف المرتقبة على نحو مُستمر؛ فما إنْ يُتوفَّى أي شخص فجأة، وحالما تزداد حالات الإصابة بالحمى المبقَّعة، حتى ينتابنا الفزع، في حين ترتفع وتيرة الخوف بصورة أكبر، كلما ارتفع عدد المُصابين بالطاعون. فحتى نهاية العام، تراوح عدد المصابين به ما بين مئتين وثلاثمئة (300)؛ وفيما أعتقد، فقد دخلنا حالة من الفزع، مُجدَّداً، في تلك المناسبات جميعها...!!

ولا بُدَّ لمن يتذكّر مدينة لندن قبل الحريق الكبير أنْ يعرف أنَّ سوق «**نيو غيت**» لم تكن قائمة آنذاك. غير أنَّه في منتصف الشارع، الذي يُعرف الآن بشارع «**بلو بلادر**» (Blow-bladder)، والذي استقي اسمه من الجزَّارين، مِمَّن كانوا يذبحون خرافهم ويسلخونها ويعدُّونها للبيع هناك (فكما يبدو، كانت لديهم عادة نفخ اللحم بواسطة الأنابيب بُغية إظهاره على نحو أسمك وأشد سُمنة ممَّا هو عليه؛ فأنزل بهم السيِّد العمدة العقاب جرَّاء فعلهم هذا)؛ أقولُ: من نهاية الشارع باتجاه «**نيو غيت**»، انتصب صفان طويلان عشوائيان لبيع اللحوم.

ولقد سقط ميتاً في ذينك الصفَّين الفوضويَّين شخصان يبتاعان اللحم؛ ما أثار شائعةً أن اللحم بأكمله مُلوَّث بالوباء، فسرى الهلع بين الناس، وتُكبت السوق مدَّة يومين أو ثلاثة. وتبيَّن في نهاية الأمر، أنَّ الادِّعاء كان افتراءً مَحضاً. لكنْ، لا أحَدَ يملك تفسيراً معقولاً للخوف حين يتملَّك العقل.

ومع ذلك، فقد شاء الربُّ أنْ يطول الشتاء فتستعيدَ المدينة عافيتها. وبحلول شهر شباط التالي، حَسِبنا أنَّ انتشار الطاعون قد توقَّف تماماً، وبعدها ما عاد من السهل أنْ ننقاد للهلع مجدداً.

وقد بقي سؤال لدى العلماء، حيَّر الناس قليلاً في بادئ الأمر، يتعلق بالطريقة التي تُطهَّر بها البضائع والمنازل التي لوَّثَها الطاعونُ أو حلَّ فيها، وكيفية جعلها مؤهلة للسُكنى من جديد، بعد أنْ خوت إبان الطاعون، فوصف الأطباء العديد من العطور والمستحضرات، مِنْ غَيرِ نوع. وقد أَوْلاها مَنْ أصغى إليها مِن الناس اعتباراً كبيراً. وأرى، في واقع الأمر، أنَّها كانت كُلفةً غير ضروريَّة. أما الفقراء المعدمون الذين اكتفوا بفتح نوافذهم ليلاً ونهاراً، وأحرقوا الكبريت والقار والبارود وما شابه ذلك، في غرفهم، فإنَّهم تَحصَّلوا على النتائج الجيدة ذاتها.

ليس هذا فحسب، بل إنَّ المندفعين من الناس، ممَّن عادوا إلى منازلهم على عجل رغم المخاطر جميعها كما ذكرت فيما سبق، لم يجدوا فيها أو في متاعهم سوى القليل ممَّا يثير القلق أو عدم الراحة؛ فلم يتخذوا حِيالَها أي إجراء يُذكر.

وفي السياق ذاته، وعلى نحو عام، اتخذ الحرصاء الحذرون من الناس بعض التدابير بُغية تهوية منازلهم وتنقيتها، فأحرقوا العطور والبخور، وشجر **البنجامين، والراتنج** [54]، والكبريت في الغرف الموصدة، ثم أحدثوا انفجاراً بالبارود ليحمل كل شيء إلى الخارج، في حين أشعل الآخرون حرائق كبيرة طوال النهار والليل، لأيامٍ عديدة بلياليهنَّ. وعلى المنوال ذاته، عمد اثنان أو ثلاثة إلى إشعال النار في منازلهم، وهكذا فقد طهَّروها بحرقها على آخرها،

وتحويلها إلى رماد...!! والأوَّل من هذه المنازل، يقبع على وجه التحديد في «**راتكليف**»، وآخر في «**هلبورن**»، وثالث في «**وست منستر**». بالإضافة إلى منزلين أو ثلاثة أضرمت فيها النيران، لكنْ، ولحسن الحظ، أخمدت النار قبل أن تصل إلى حدٍّ يتكفل باحراق المنازل تماماً. واتفق أنَّ خادماً لأحد المواطنين، حمل الكثير من البارود إلى منزل سيده الذي يقبع في شارع «**التايمز**» فيما أعتقد، لتطهيره من الوباء، وتولَّى الأمر بحماقة تأدَّى عنها نسفُ جزء من سقف البيت.

لكنَّ أوان تطهُّر المدينة بالنيران لـمَّا يَحِنْ بَعدُ تماماً، كما لم يَطُل العهد به طويلاً، ففي غضون تسعة أشهر كان معظم ما يمتدُّ إليه بصري قابعاً في الرماد. وحينها زعم بعضُ فلاسفتنا الدجَّالين أنَّ جراثيم الطاعون قد دُمِّرت على أكمل وجه، وليس قبل ذلك. وهي نظرية في غاية السخف إلى حدٍّ لا يسمح بالتحدث عنها هنا. ولو أنَّ «جراثيم الطاعون» تلك بقيت في المنازل ولم تُدمَّرْ إلا بالنيران، فأنَّى لتلك الجراثيم ألا تظهر من جديد منذ ذلك الحين؟ وكيف لتلك المباني في الضواحي والمتصرفيات، إلى جانب الأبرشيَّات الكبرى في «**ستبني**»، و«**وايت تشابل**»، و«**ألد غيت**»، و«**بشوبس غيت**»، و«**شوردتش**»، و«**كربل غيت**»، و«**سانت جايلز**» -التي لم يقربها الحريق قط، وكان الطاعون قد فتك بها بأكبر قدرٍ من الضراوة- أن تبقى سالمةً مُعافاة على حالها التي كانت عليها من قبل...؟!!

ولكنْ، لنترك الأمور على ما وجدتها عليه، فمِن المؤكد أنَّ هؤلاء الأشخاص، الذين كانوا أشدَّ حرصاً وانشغالاً بصحَّتهم، على نحو يتعدَّى ما هو اعتيادي، قد عمدوا إلى إرشادات خاصة فيما أطلقوا عليه «**تنكيه**» منازلهم بالمُطيِّبات، مُستهلكين في سبيل ذلك الكثير من الأشياء المكلفة. ولا أملك إلا أنْ أقول إنَّها لم تقتصر على تنكيه المنازل كما أرادوا فحسب، وإنما ملأت الهواء بروائح عطريَّة وصِحِّية للغاية، فكان للآخرين نصيب منها، إضافة إلى أولئك الذين تكلفوا أموالاً في شرائها.

لكنْ، وبعد كل شيء، وعلى الرغم من أنَّ الفقراء قد هُرعوا إلى المدينة على عَجَلٍ، كما أسلفتُ، فيتوجب عليَّ أن أقول إنَّ الأغنياء لم يتسرَّعوا بالعودة على هذا النحو. ولقد عاد رجالُ الأعمال بالفعل، لكنَّ الكثير منهم لم يُحضروا عائلاتهم إلى المدينة حتى حلول الربيع، حالما رأوا سبباً وجيهاً يُرتكن إليه في عدم عودة الطاعون.

ورجعت العائلة الملكيَّة وحاشيتُها إلى البلاط الملكي بالفعل، بعد فترة وجيزة من عيد الميلاد، بيد أنَّ النبلاء وأعيان الناس لم يسارعوا بالعودة، إلا مَنْ كان

يشغل مَوقعاَ مهماَ ويعمل تحت إمرته عددٌ من الموظّفين.

وممَّا ينبغي عليَّ ملاحظته هنا، أنَّه على الرغم من ضراوة الطاعون في لندن وأماكن أخرى، فإنَّه لم يوجد على متن الأسطول قط. ومع ذلك، لوحظت لبعض الوقت عملياتُ تجنيدٍ إكراهيَّة غريبة في مُحيط النهر، كما في الشوارع، بحثاً عن بحَّارة لرفد الأسطول. وفي بداية العام، حينما كان الطاعون في بواكيره، فإنه لم يوجد على الإطلاق في ذلك الجزء من المدينة حيث يُجنِّدون الرجال عادةً للعمل بحارةً. وعلى الرغم من أنَّ الحرب مع الهولنديين لم تكن عملاً مُستحباً على الإطلاق لدى الشعب في ذلك الوقت، وأنَّ البحارة قد ذهبوا لأداء الخدمة بنوع من الممانعة، واشتكى العديد منهم ممَّن جُرُّوا إليها بالقوة، فلقد بات أكيداً أنَّ تلك الواقعة، على ما فيها من إرغام وإكراه، قد مثَّلت لحظة سعد العديد منهم. فلو تخلَّفوا في المدينة، لكان مِن المرجَّح أنْ يكونوا ممَّن هلك في الكارثة العامة. ولدى انقضاء خدمتهم الصيفيّة، وعلى الرَّغم ممَّا يملكونه مِن سبب في تَدبِ مَن هلك مِن عائلاتهم مِمَّن أَلْفَوهم قابعين في قبورهم عندما عادوا، فإنَّ فُسحةً من الامتنان والشكر قد تَيَسَّرَت لهم؛ ذلك أنَّهم حُملوا بعيداً عن قبضة الطاعون، وإنْ كان ذلك خلافاً لإرادتهم. وقد خُضنا، فعلاً، في ذلك العام، حرباً ضروساً مع الهولنديين، واشتباكاً كبيراً في البحر، مُنوا فيه بالهزيمة، غير أنَّنا فقدنا العديد من الرجال وبَعضَ السفن. لكنْ، وكما لاحظتُ، لم ينزل الطاعون بالأسطول، وحينما عادوا لإرساء السفن في النهر، كان الجزء الضاري من الطاعون قد انحسر.

وسأكونُ سعيداً، لو تمكَّنتُ مِن ختم قصَّة هذا العام الكئيب ببعض الأمثلة التاريخيَّة المحدَّدة التي تشخص شواهد على شكرنا لله الذي حَفِظَ أرواحَنا وحَرَّرها من الكارثة المروِّعة. وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ ظروفَ ذلك الخلاص، وكذلك العدو الرهيب الذي نجونا مِن بَراثنه، هو ما استدعى الأمة جمعاء إلى شكر الربِّ. فقد كانت ظروف الخلاص، يقيناً، استثنائيَّة، كما أسلفتُ على نحو جزئيٍّ، وذلك بعد أنْ كنا في حالة مريعة، وما لبثنا بعدها أنْ دخلنا في حالة من الفرح حين تحقَّق رجاؤنا في توقُّف الوباء، وهو ما أدهش المدينة حيالها.

ولا شيء سوى يد الربِّ وقدرته المطلقة بوسعها فعل ذلك، فالعدوى أزرتْ بالأدوية كلها، واستشرى الموت في كل زاوية، ولو استمرَّت ضراوتُها على النحو الذي كانت عليه آنذاك، لغدتْ بضعةُ أسابيع كافيةً لمسح المدينة على بكرة أبيها، ولأهلكتْ كل ذي روح. ولقد تسرَّب اليأسُ إلى نفوس الرجال في كل مكان، إلى جانب قلوبهم الواهنة أمام الخوف، فترى الناسَ يائسين لِما ألمَّ بأنفسهم من عذاب، فضلاً عن أهوال الموت التي رتعتْ في وجوه الناس وفي سيماهم أجمعين.

وفي تلك اللحظة بالذات، حين كان بمقدورنا أنْ نقول بحقٍّ: «باطل هو خلاص الإنسان»...!! أقول: في تلك اللحظة بالذات، شاء الربُّ، على نحو مُفاجئ كأجمل ما تكون المفاجأة، أنْ يخمد الطاعون من تلقاء نفسه، وتنحسر خباثته. وعلى الرغم من أعداد المصابين المهولة، فإنَّ عدداً قليلاً منهم هلكوا، وانخفضت قوائم الموتى في الأسابيع الأولى للانحسار، بما يعدل ألفاً وثماني مئة وثلاثاً وأربعين (1843) وفاة، وهو رقم مَهولٌ يؤشِّر إلى حجم الانخفاض.

يتعذَّر التعبير عن التغيير الذي بدا على مُحيا الناس صباح الخميس، عندما أُعلنت القوائم الأسبوعية للموتى، وقد استقرَّت في وجوههم جميعاً علاماتُ دَهشة سريَّة وابتسامةُ فرح، فتراهم في الشوارع يتصافحون بالأيدي، بعد أنْ كانوا بالكاد يسيرون على الجانب نفسه من الطريق سابقاً. وأنَّى كانت الشوارع ضيِّقة، تراهم يفتحون النوافذ، يُنادي بعضُهم بعضاً من منزل إلى آخر، متسائلين عن الأحوال، وما إذا كانت البشرى السارَّة حول انخماد ضراوة الطاعون قد تناهَتْ إلى مسامعهم.

يعودُ بعضهم ليتساءل، فور سماعه كلمتي «أخبار سارَّة»: أي أخبار سارَّة...؟!

وحين يتلقَّون الإجابة أنَّ الطاعون ينحسرُ، وقوائم الموتى تقلَّصت قرابة الألفين (2000)، فإنَّهم يصرخون بصوت عالٍ: «ليتمجَّد الربُّ.!!»، وينتحبون فرحاً بصوت مرتفع، ثم يردُّون عليهم أنَّهم لَم يسمعوا أياً من تلك الأخبار.

وهكذا، كانت فرحة الناس كَمَنْ وُهِبَ الحياةَ وبُعث من القبر...!! وبإمكاني أنْ أتطرَّق إلى العديد ممَّا أفرطوا في فعله تعبيراً عن ابتهاجهم الفيَّاض، مثلما فعلوا في حُزنهم من قبل، ولكنَّ مُجرَّد وصفه سيُقلِّل مِنْ قيمته...!!

ينبغي أنْ أعترفَ أنَّني كنت مُحبطاً للغاية قبل حدوث ذلك مباشرة، بالنظر إلى العدد الهائل مِمَّن أصيبوا بالمرض في الأسبوع أو الأسبوعين السابقين، فضلاً عن عديد الهالكين كذلك. فلقد كان النحيب عظيماً في كل مكان، بحيث يبدو المرء مُجانِفاً للمنطق إنْ أمل بالنجاة. ولَمَّا نَدُر أنْ تجد منزلاً، سوى منزلي، في الأحياء المجاورة كافَّة لم يدركه الوباء، فإنه لو استمرَّ بالوتيرة ذاتها، لما احتاج سوى وقتٍ وجيزٍ كي يطال جميع مَنْ يجاورونني...!!

ولقد كان من الصعب تصديق ما خلَّفته الأسابيع الثلاثة الأخيرة من دمار مُريع، لأنَّي لو صدَّقت الشخص الذي ألفَيْتُ تقديراته الرقميَّة على الدَّوام ذات إحاطة تامَّة، لَما حسبتُ أعداد الهالكين بأقلَّ من ثلاثين ألف (30000) شخص، ولَقاربت أعدادُ المصابين مئة ألف (100000)، في الأسابيع الثلاثة التي أتحدَّث

عنها؛ ذلك أنَّ أعداد المصابين كانت مُفاجئة حقاً ومُذهلة، وأولئك الذين أسندتهم شجاعتهم، طوال الوقت، خارَت بهم قُواهم الآن.

وفي أواسط الكارثة، لمَّا كانت حالةُ مدينة لندن مُفجعةً بحقٍّ، شاءَ الربُّ في تلك اللحظة أنْ ينزع بيده، إن جاز القول، سلاح هذا العدوِّ، نازعاً السُمّ من الزُّبانى. لقد كان أمراً عجيباً، حتى إنَّ الأطباءَ أنفُسَهم كانوا دَهِشين من ذلك. وأنَّى عادوا مَرضاهم وجدوهم في حالٍ أفضل؛ فإمَّا أنهم تعرَّقوا جيِّداً، وإما أنَّ الأورامَ انفثأت، أو الدماملَ تضاءَلت، أو أنَّ لون الالتهاباتِ مِنْ حَولها قد تغيَّر، أو الحُمَّى انقشعت، أو الصداعَ العنيف فقد حدَّته، أو طرأت بعضُ أماراتِ التحسُّن في الحالة المرضيَّة. وهكذا، وفي أيام قلائل، كان الجميع يتعافون، فدبَّت الحياة في أوصال عائلاتٍ بأكملها، كانت موبوءةً وطريحة المرض، إلى درجة أن أفرادها استدعوا القساوسة للصلاة معهم، وكانوا يرقبون الموت كل ساعة، لكنهم نقهوا ولم يمت أي منهم على الإطلاق...!!

لم يتحقَّقْ ذلك باكتشاف أي دواء جديد، أو باستحداث طريقةٍ جديدة في العلاج، أو من خلال أي خبرةٍ تَحَصَّلَ عليها الأطباء أو الجرَّاحون في عمليَّاتهم، لكنَّه جاء بأثرٍ مِن قُدرته السريَّة الخفيَّة التي أرسلتْ إلينا هذا المرض، بادئ الأمر، قَدَراً مَقضياً...!! ودعوا تلك الفرقة الملحدة من البشر تنعتُ قولي هذا بما ترغب. وما ذلك بالحَمِيَّة، فلقد كان إقراراً من البشرية جمعاء في ذلك الوقت؛ فالمرض أُنهك، وضراوَتُه زالت. وذروا الدَّعاوى تنطلق من أي مكان شاءت؛ دعوا الفلاسفة يبحثون في الطبيعة عن أي أسبابٍ تُعلِّلُ ما حدث، وليذهبوا كل مذهب للتقليل ممَّا يَدينون به لخالقهم...!! فحتى الأطبَّاء، مِمَّن يتوافر لديهم الحدُّ الأدنى مِن التدين، ما كان لهم إلا أنْ يقرُّوا بأنَّ ذلك كله إنَّما كان أمراً خارقاً للطبيعة، وخارقاً للعادة، وبلا عِلَّةٍ تفسِّره.

إنْ توجب أنْ أقول إنَّ ذلك كانَ دعوةً صريحةً لنا جميعاً للشكر والامتنان، وبخاصَّة نحنُ؛ مَنْ تَملَّكَهُم الرعبُ من ازدياد وتيرة الوباء، فرُبَّما سيعتقدُ بعضهم أنَّ ذلك القول الذي يأتي عقب الإحساس بزوال الخطر، ما هو إلا تَفَيْهُق دينيٌّ، وتبشيرٌ بموعظة بدلاً من كتابة تاريخ، جاعِلاً نفسي مُرشداً بدلاً من إبداء مُلاحظاتي عن الأشياء. وهذا ما يَكبحني، هنا، عن الغوص في الأمور الدينيَّة، بخلاف ما كنتُ أعتزمُ القيام به.

لكنْ، لو تعافى عشرةُ مُصابين بالجذام، وآبَ واحِدٌ منهم لإسداء الشكر لله، لَوددتُ أنْ أسيرَ على غرار هذا الشخص، وأكونَ شاكراً دون الآخرين. وليس بمقدوري أنْ أنفي أنَّ كثرةً من الناس قد شكروا الله شكراً كثيراً فيما يبدو، وأقول «فيما يبدو»، لأنَّ ألسنَتهم انعقدت فلم تنبسْ بكلمة، ولا ألسنة أولئك

الذين لم يَطَل تأثّر قلوبهم بما حصل. غير أنَّ وقع الأمر كان قوياً في ذلك الوقت إلى درجةٍ تَستحيلُ مُقاومَتُها، حتَّى مِن شرار الخلق.

كان من الشائع أنْ تُقابل أناساً غُرباء في الشارع، مِمَّن لا تعرف شيئاً عنهم على الإطلاق، ولطالما عبَّروا عن استغرابهم. فذات يومٍ من الأيام، آنَ عُبوري «**ألد غيت**»، كان كثيرٌ من الناس يعبرون ويؤوبون، فإذا رجلٌ يأتي من نهاية «**مينوريز**»، وهو يلتفتُ قليلاً إلى أعلى الشارع ثم إلى أسفله، فارداً ذراعيه في عجبٍ:

يا إلهي، يا لِانقلابِ الأحوال ها هنا...!!

ما حلَّ بهذا المكان...!! عندما قَدِمت إليه في الأسبوع الماضي، نادراً ما كان يُرى إنسان...؟!

وثمَّة رجلٌ آخر، سمعته يُضيف إلى كلمات الأوَّل:

«إنَّ كل شيءٍ لَرائِعٌ، إنَّ هذا كله لَحُلْم...!!

«فليتقدَّس اسمك»، يقول رجل ثالث، ثمَّ يستأنف: «هلموا لنُسدي له الشكر، فما هذا كله إلا مِن صنيعه».

أمَّا ما يُجْزِلُه البشرُ مِن عَونٍ، وما يَمْهَرون به، مِن طِبابة وغيرها، فيأتي تالياً لعطاء الله الأكرم».

لقد كان كل واحد، من هؤلاء، غريباً عن الآخر...!!

ولكنَّ مثل هذه التحيَّات والاحتفاليَّات كانت سلوكاً مُتكرِّراً في الشارع كل يوم. وعلى الرغم مِن غياب أي تخطيط لذلك السلوك، مضى عامَّة الناس يَذْرَعون الشوارع، وهم في نَشْوَةٍ مِن الشكْر لله على خلاصهم.

والآنَ فقط، كما أسلفتُ من قبل، طَلَّقَ الناس مخاوفَهم جمعاء، وبسرعةٍ بالغة. وفي الواقع، ما عُدنا نخشى من المرور مُتجاوزين رجلاً يرتدي قبَّعةً بيضاءَ على رأسه، أو وشاحاً يَلتفُّ حول رقبته، أو رَجُلاً ذا ساقٍ عَرجاء، تأدَّت عن قُروحٍ في مَغْبَنِه [55]. لقد كانت هذه الحالات كلها مُرعبةً إلى أقصى حَدٍّ، في الأسبوع الفائت. أمَّا الآن، فقد كان الشارعُ يعُجُّ بهؤلاء...!!

ولا بُدَّ أنْ نُنْصف هذِه المخلوقات البائسة المتعافية، فقد بَدت واعِيَةً تَماماَ بِخَلاصِها غيرِ المتوقَّع.

وسأظلمهم ظلماً شديداً، ما لم أُسلِّم باعتقادي أنَّ العديد منهم قد كانوا بحقٍّ من الشاكرين.

لكنْ، ينبغي أنْ أعترف أنَّ الناس، بِعامَّتهم، يَصْدُقُ فيهم، وبِمُنتهى الإنصافِ، ما قيل في بني إسرائيل، بعدَ خَلاصِهم من جُنود فرعون، لمَّا عبروا البحرَ الأحمر، ورأوا المصريِّين خلفهم وهُم في اليَمِّ غرقى؛ أعني الآيات التي تقول: «فآمنوا بكلامه، غَنَّوْا بِتَسْبِيحِهِ (12) أَسْرَعُوا فَنَسُوا أَعْمَالَهُ. لَمْ يَنْتَظِرُوا مَشُورَتَهُ (13) ... نَسوا اللهَ مُخَلِّصَهُمُ، الصَّانِعَ عَظَائِمَ فِي مِصْرَ (21) [56].

وليس بمقدوري، ها هُنا، أنْ أذهب أبعدَ من ذلك، وإلا صُنِّفْتُ عيَّاباً ولَرُبَّما جائِراً إنْ أوغلتُ في هذا العمل الكريه، مهما كان السبب الكامن وراءه، وأعني الكشف عن ذلك الجحود وتلك الردَّة إلى الشرِّ فيما بيننا، بأنواعه كلها التي كنت بنفسي شاهدَ عيان عَليها.

وعليه، يتعين عليَّ أن أختتم الرواية حول هذه السنة الكارثيَّة بمقطع شعريٍّ جافٍ، لكنّه صادقٌ وهو مِن إنشائي كنت قد سطَّرته في نهاية مُذكَّراتي اليوميَّة في السنة ذاتها التي كُتبت بها:

حلَّ الطاعون المُفْزِعُ في لندن،

في العام الخامس والستين،

جارفاً مائة ألفٍ مِن الأرواح

بعيداً؛

لكنِّي، ما زلتُ حياً...!!

هـ. ف.

النهاية

1. كانديا: عاصمة كريت خلال الحكم العثماني. (المترجم)

↑

2. مِن «ما جرى»، وتعني مجمل ما يجري من أحداث مهمة كالاضطرابات السياسية أو الاجتماعية أو الحروب وغيرها في أثناء مدة معينة من الزمن. (المراجعان)

↑

3. نستعمل هنا الصيغة التراثية الدالة على الإصابة بالطاعون، فقد جاء في الحديث الشريف: «الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغريق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله». (المراجعان)

↑

4. يقصد المسيح (عليه السلام)، حسب الكِتاب المقدس، لما كان يَمُرُّ به اليهود وهو مصلوب، قَائِلِينَ: «يَا نَاقِضَ الْهَيْكَلِ وَبَانِيَهُ فِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ، خَلِّصْ نَفْسَكَ! إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللهِ فَانْزِلْ عَنِ الصَّلِيبِ!» (مت 27: 40). (المترجم)

↑

5. خدمة اكتراء الخيول، كانت مُتَّبعةً ومُتاحةً في مكاتب البريد زمن الكاتب. (المترجم)

↑

6. كُتِبَت الهمزة على ألف، في كلمة ملجأ، في الآيتين: الثانية والتاسعة، في المصدر الذي نُقل نَصُّ «سفر المزامير» عنه، هكذا: ملجأي؛ والصحيح، وفق قواعد الإملاء، أن تُكتب على نَبِرَة: ملجئي. (المراجعان)

↑

7. كُتِبَت الهمزة تحت الألف، في كلمة الوباء، في الآيتين: الثالثة والسادسة، في المصدر الذي نُقل نَصُّ «سفر المزامير» عنه، هكذا: الْوَبَإِ، والصحيح، وفق قواعد الإملاء، أن تُكتب مُنفردة بعد الألف: الوباء. (المراجعان)

↑

8. الصواب: لا تخشَ. (المراجعان)

↑

9. سِفْرُ المزامير: 91 .

↑

10. Akeldama.

↑

11. Phlegmatic hypochondriac.

↑

12. يونان هو النبي «يونس» عليه السلام، أرسله الله وفق العهد القديم ليتنبأ بتدمير نينوى، لكنه حاول الهرب من المهمة الإلهية. (المراجعان)

↑

13. الإشارة هنا إلى انتشار الطاعون في مناطق كثيرة من العراق في القرن السابع، وقرار البطريرك والأساقفة وقتئذ رفع الصلوات والصوم على نية وقف الكارثة التي حلت بالناس، وكانت النتيجة أن بطل الموت وزال شبح الطاعون. (المراجعان)

↑

14. نوعٌ من الغناء والرقص الشعبي. (المراجعان) ↑

15. القندلفت: موظف أو عاملٌ، يُعنى بمقتنيات الكنيسة، وتُسند إليه بعض المهام الصغرى، كقرع الجرس وحفر القبور. (المترجم)

↑

16. مصطلح يطلق على رجال الحرس الملكي البريطاني الرسمي، وكانت مسؤوليتهم الحفاظ على سلامة الملك البريطاني محلياً ودولياً.

(المراجعان)

↑

17. التورُّمات القرحيَّة. (المترجم)

↑

18. حبوب الشعير. (المترجم)

↑

19. الذين يسدُّون فجوات السفينة بمادةٍ تمنع التسرُّب. (المترجم)

↑

20. الحوض الجاف هو حوض ضيِّق يمكن غمره بالمياه ليسمح بتعويم الحمولة التي عليه، ثُم يجفَّف لتصل الحمولة إلى المنصَّة الجافَّة، وتستخدم الأحواض الجافة لإنشاء السفن وإصلاحها. (المترجم)

↑

21. نحت خشبيٌّ في مقدمة السفينة يرتبط بطبيعة عمل السفينة. (المترجم)

↑

22. تحمل هذه الرؤية أفكاراً عنصريَّة تُذكِّرُ بأفكار مالتوس حول خطر التكاثر السكاني. (المترجم)

↑

23. سليمان إكُلْزْ (1618-1883) (Solomon Eccles): الشهير بـ «سليمان إيغلْ» (Solomon Eagle)، مُلحِّن موسيقي إنجليزي كَنَسِي. انفصل لاحقاً عن موسيقى الكنيسة، وانضمَّ إلى جماعة الكويكرز. وقد اعتقل، عدةَ أشهر، في مصحَّة عقلية عام 1665م. (المترجم)

↑

24. مركب مُسطّح القعر، يستخدم لنقل البضائع في الأنهار والمراسي. (المترجم) ↑

25. جمع نزل، (المراجعات) ↑

26. يُعرف حالياً بـ «النهر الجديد». (المترجم)

↑

27. يبدو أنَّ جون كان في الخيمة، لكنْ لدى سماعهم ينادون، فقد خرج منها، وتحدث معهم وهو يحمل البندقيَّة على كتفه، كما لو كان الحارس الذي جُعل هناك للحراسة بأمرٍ من مسؤولٍ أعلى منه رتبة. (المترجم)

↑

28. لقد أخاف ذلك الشرطيَّ ومَنْ صَحِبه مِن الناس، فغيَّروا مِن نبرتهم. (المترجم)

↑

29. لم يكن لديهم سوى حصان واحد. (المترجم)

↑

30. البوشل: مكيال للحبوب. (المترجم)

↑

31. القار. (المترجم)

↑

32. كي تستقيم النتيجة الحسابية التي أشار إليها المؤلف (ديفو)، ينبغي استثناء المناطق التالية: «شوردتْشْ»، وأبرشيَّة «ستِبْني»، و«ألْدْ غيت»، البالغ حصيلة الضحايا فيها: 329 ضحية. بحيث تغدو حصيلة الضحايا في كل من: «كلارْكينْ وِل»، «بيشوبْسْ غيت»، «وايْتْ تْشابِل»، وفي الأبرشيَّات السبع والتسعين داخل الأسوار كافة، وفي الأبرشيَّات الثماني على جانب «ساوث وارك»: 756. في حين بلغت حصيلة الضحايا في كل من: «سانْتْ

جايْلز»، و«كريبِلْ غيت»، و«سانْتْ سيبولّتشرْزْ» + 48 ضحية (الزيادة المشار إليها): 756 ضحية. (المترجم)

↑

33. إرميا 18 - تفسير سفر إرميا، الإصحاح الثامن عشر -شرح العهد القديم- القمص أنطونيوس فكري. (المترجم)

↑

34. كتلة جلدية يابسة. (المترجم)

↑

35. البكتيريا المسببة للطاعون. (المترجم)

↑

36. الروبي (Roupy): مرض يصيب الدجاج، يُشبه مرض الإنفلوانزا لدى البشر في أعراضه. (المترجم)

↑

37. التسمية العامية لدى الملاحين لأرخبيل الجزر، الواقع قبالة بورت أليمارل في جزر فوكلاند، سُمِّيَت بذلك لأنَّ أكبر جزيرة فيها تحوي قوساً طبيعياً يكفي للسماح بمرور قارب متوسط. والأرخبيل تجمُّعٌ لجزر عديدة صغيرة المساحة. (المترجم)

↑

38. اختصارٌ لـ«كينجستون أبون هول» (Kingston upon Hull). (المترجم)

↑

39. يدعى ذلك الجزء من النهر الذي تصطف به السفن لدى عودتها إلى البلاد، بـ «البركة»، وتشمل المنطقة ما بين ضاحية لايم هاوس والمنعطف الحاد للنهر المدعو نقطة كوكولد. (المترجم)

↑

40. Bow Church. (المترجم)

↑

41. أي: بلغ عدد الضحايا «4508» قبله بأسبوع. (المترجم)

↑

42. يعجب ديفو من الطبيعة البشرية، فما أَشَدَّ إشكاليةَ الدوافع الباعثة للنزعة السائدة في السلوك الاجتماعي...!! (المترجم)

↑

43. ترمز الريح الشرقية، فرعونياً، إلى العون الإلهي الإعجازي، في حين ترمز لدى ثقافات أخرى إلى الدمار الإلهي، ويونانياً إلى ريحٍ مَنْسِيّةٍ لا ترتبط بأيٍّ من الفصول الإغريقية الثلاثة، وفي الأدب إلى ريح أشد إفساداً من الشرِّ ذاته، وإلى التغيير والحرب العالمية. وفي الإنجيل: هي الريح العاتية التي تدمر السفن وتشرذم البشر وتسحقهم وتمحو آثارهم. (المترجم)

↑

44. يتداخل الموقف من العدوى في الإسلام بمفهوم القضاء والقدر، وتتوافر في الفضاء الخطابي النبوي ثُلَّةٌ من الأحاديث التي تقطع أي شكٍّ قد التبس في أفهام بعض المسلمين، وهي توجِبُ الأخذَ بأعلى درجات الحيطة والحذر مَغَبَّةَ الإصابة بالعدوى. وبما يخص الطاعون، يُعَدُّ الإسلام رائداً في مفهوم العزل الوبائي، ويُعزى التباس الأمر على ديفو إلى مخالفة بعض المسلمين لجوهر ذلك الخطاب اعتقاداً وسُلوكاً، أو لما حَمَلَهُ ديفو مِنْ آراء تَسْتَبْطِنُها نزعةٌ استشراقيَّة، كما بيَّن إدوارد سعيد في تناوله رواية ديفو، الموسومة بـ «روبنسون كروزو». (المترجم)

↑

45. مناطق البربر حالياً في شمال إفريقيا. (المترجم)

↑

46. حديقة لزراعة الأعشاب التي تستخدم في صناعة المستحضرات الطبية. (المترجم)

↑

47. ملحوظة: كاتب هذه اليوميات (ديفو) دفن في تلك الأرض ذاتها، بناء على رغبته، حيث دفنت أخته هناك قبل بضع سنوات خَلَتْ. (المترجم)

↑

48. الكويكرز: طائفة مسيحية بروتستانتية، عُرفت بجمعية الأصدقاء. (المترجم)

↑

49. Deserters: وصفٌ يطلق على الهاربين من الجندية، وعلى المرتدين. (المترجم)

↑

50. بريسبيتيرينزم: جزء من التقاليد الإصلاحيَّة داخل البروتستانتية. (المترجم)

↑

51. الخارجون على حكم الكهنة والكنيسة. (المترجم)

↑

52. هامش تنقيحي خاص بنسخة أكسفورد: أي بالعدد، الذي يميزه عن القياس والوزن. (المترجم)

↑

53. ترياق البندقية: مزيج علاجيٌّ من العصور الوسطى القديمة، يحتوي ما يصل إلى ستين مكوناً مختلفاً؛ مُقويات، وأجزاء نباتية وحيوانية، توصف أنها ترياق عام وعلاج للجميع. (المترجم)

↑

54. الراتنج (Rozin «لدى ديفو»؛ Rosin) واسمه العلمي «التربنتين»: مادَّة صمغيَّة لزجة تخرج من لحاء بعض الأشجار كالصنوبر ونحوه، وتغدو مادة صلبة غير قابلة للانحلال في الماء، وسريعة الاشتعال، تُستخدم لتحضير المراهم والبلاستر ولعمل بعض المستحضرات مثل العلكة والورنيش اللماع. (المترجم)

أنظر: «روزين (Rosin) | الطبي»، وأيضاً: «https://en.wikipedia.org/wiki/Rosin». (المترجم) ↑

55. الـمَغْبَنُ أصلُ الفخذ. (المترجم)

↑

56. سفر المزامير (106 :12،13،21). (المترجم)

↑

Table of Contents